أبو نضال

بندقية للإيجار

المناضلون فى خدمة الموساد !

تأليف
باتريك سيل

مراجعة وتقديم
أحمد رائف

مركز الدراسات والترجمة

الزهراء للإعلام العربى

أبو نضال
بندقية للإيجار

يعد « باتريك سيل » أحد الكتاب البريطانيين المتخصصين في شئون الشرق الأوسط . ولقد أمضى ثلاثين عاما في دراسة سياسات المنطقة ومقابلة قادتها ، وذلك من خلال عمله كمؤلف وكمراسل سابق لجريدة « أوبزرفر » بلندن .

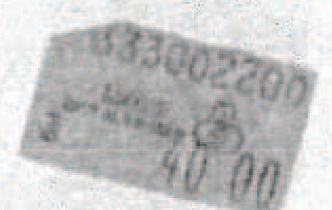
ولقد ألف سيرة ذاتية عن حافظ الأسد بعنوان « أسد سوريا : الصراع من أجل الشرق الأوسط » ، وكذلك كتابا عن تاريخ سوريا « النضال من أجل سوريا » . ولـ « سيل » كتب أخرى منها : « فيلبي : الطريق الطويل لموسكو » ؛ و « مهمة هيلتون » ؛ و « العلم الأحمر ، العلم الأسود » .

وهذا الكتاب يبين فيه المؤلف تغلغل الموساد الإسرائيلي في المنظمات الفلسطينية ، وكيف يقوم على توجيه منظمة أبي نضال الإرهابي الخطير الذي نجح في جميع عملياته ، وكيف يعملون على حمايته من القتل والعقاب .

وهو يبين أن جميع العمليات التي قام بها أبو نضال كانت إسرائيلية الهدف والتوجيه والتخطيط . وفي الكتاب تفصيل خطير عما يجري في ساحة الجهاد الفلسطيني يدعونا إلى إعادة النظر في كل الشعارات ، ولكن علينا أن نقرأ الكتاب بإمعان فهو مثير وخطير . وإن تأملنا فيه فسنجد بعض المناضلين في خدمة الموساد

أحمد رائف

كز الدراسات والـ



الزهراء للإعلام العربي

المناضلون في خدمة الموساد !!

بقلم : أحمد رائف

﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾ .

وقد أخذ الله الأمة العربية من حيث لم تحتسب بجريمة صدام حسين باجتياحه الغادر لأرض الكويت في ليلة الثاني من أغسطس عام 1990 ؛ فهي ليلة أخذ في ظلامها العرب ومزق بسببها صدام شر ممزق ، وتغيرت آفاق العرب مرة أخرى ، شأنهم في ذلك شأنهم عند كل نازلة تنزل بهم أو تحل قريبا من دارهم . وتبحث فنجد أنها مغامرة أفاق قد أسكرته أوهام السلطة والبغي ، أو خدعته وعود الشيطان بالتكبر والتجبر في الأرض ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ولم يلق غير الحساب العسير لنفسه ولأمته .

* * *

وكارثة فلسطين هي المرض العضال الذي أصاب المسلمين في مطلع القرن العشرين ، ولا يزالون يعانون منه ، وهو سبب ونتيجة في آن واحد .

فعندما انهارت الخلافة العثمانية بفعل أعدائها من العرب الهاشميين أو أوليائهم من الغرب المسيحيين ، انتثرت البثور في جسد الأمة الإسلامية ، وكانت فلسطين وما حدث فيها هي الورم السرطاني الخبيث الذي حجب ما عداه من علل ، وشغل الناس في بلادنا ، وانشغلوا هم به أيضا ، وشرقوا وغربوا ، وهم بما يفعلون يزيدون الأمر سوءا ، وهم أيضا يبعدون كثيرا عن أمل العلاج وفرصته ، ويتلاشى الأمل في حال الأيام ومستقبلها . والكلام حول هذا كثير وكثير .

* * *

بدأت أمة الإسلام في الموات والنوم منذ أن سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين

في الأندلس في الثاني من يناير عام 1492 ، ولفظت كل ما أفرزته من علوم وفنون وآداب إلى الأوربيين الذين كانوا ينهضون ، والذين تلقفوا هذه الأشياء تلقف الذي يدرك مبتداها ومنتهاها وغايتها ، وهو يعرف فائدتها ويدرك أهميتها في صنع حضارة جديدة على أسس راسخة يمكن تطويرها ، وقد رأوا تجربة المسلمين من قبل ، وكيف سادوا وأفادوا ، وغيروا شكل الحياة . واخترعوا وابتكروا ما هو أساسي لنهضة العالم اليوم ، الذي تغير مرآه ومعناه عن قرون قليلة قد مضت .

* * *

وجاء عصر الكشوف الجغرافية ، وتم اكتشاف العالم الجديد ، وخرجت الإمبراطوريات الأوروبية من رحم حضارة المسلمين الغاربة ، وصارت السفن تجوب العالم بخرائط قد رسمها المسلمون ، وهم أيضا يقودون السفن تحت إمرة القباطنة الأوروبيين . والعجيب أن من كانوا يعملون بالتجديف في القاع من المسلمين الذين ربطوا بالسلاسل وقيدوا بالحديد ، وهم يعملون ليل نهار حتى يدركهم الموت ، أو يدرك القباطنة غايتهم . وجابت السفن العالم ، وامتلكوا الأرض ، وأحاطوا ببلاد المسلمين من أطرافها ، فقد كان ظنهم أن العالم الإسلامي أسد نائم ، ثم أدركوا بعد قرنين أنه أسد ميت لا خوف منه . وساعتها اجتاحوه ومزقوه واقتسموه فيما بينهم .

* * *

وبدأ عصر يسميه المؤرخون عصر الاستعمار ... .

وانقضت دول أوروبا على ما تبقى من عالم الإسلام القديم تتحكم في أرجائه ، وتنشر ثقافتها ولغتها وحضارتها في بلاد قد استغرقها نوم طويل شبيه بالموت .

وليس من الصحيح أو الصواب أن الاستعمار هو سبب ما صارت إليه بلاد المسلمين من جهل وتخلف وضياع وبعد عن الدنيا والدين . فهذه مقولة ينقضها الواقع وتنفيها حقائق التاريخ .

فعندما بدأ عصر الاستعمار جاءت الدول المستعمرة إلى بلاد ميتة لا كيان لها ولا وجود فهي رمم بالية لا حياة فيها . ولكن كعادة الشرقيين في عصور الضعف

والتخلف لابد لنا من أن نلقي بأسباب ما نحن فيه إلى عامل آخر خارجي لا علاقة له بنا . ثم نستفيض في تكرار هذا الوهم ، ونعمل على تكريسه وتدريسه حتى نصدقه ويصير في نظرنا حقيقة واقعة لا تقبل النقض والمناقشة .

ونحن هنا لا ندافع عن الاستعمار والمستعمرين أو نمدحهم ، ولكننا نشخص بدقة ما حدث للمسلمين .

ولعلنا بهذا نصل إلى شيء .

فالتشخيص الدقيق هو أول خطوة علمية صحيحة لتحقيق العلاج ، ولا يمكن أن يعالج مريض دون أن نعرف سبب مرضه وكيف تكون هذا المرض ونوع الجراثيم التي أصابت جسده . فالمريض الذي يشكو علة في القلب إن تركنا قلبه على حاله وانشغلنا بعلاج كليتيه ، فهو يموت لا محالة .

فالفهم الصحيح الدقيق لما نحن فيه هو الطريق الوحيد للخروج منه مهما تقول المتقولون وتخرص المتخرصون ، وصاحت الغوغاء ، ونعقت البوم والغربان .

* * *

وفي هذا السبيل يجب أن يتفرغ علماء مخلصون يعملون على تشخيص وفهم ما حدث ، وكيفية استخدام المبدأ القرآني ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ .

والعلل الحضارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أصابتنا ، ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار عند معالجتها والتصدي لها ما انتهى إليه شكل العالم اليوم .

وارتفاع الصراخ برفض العالم ومن فيه غوغائية لا معنى لها ولا تفضي إلى شيء .

والاعتراف بالواقع والإحساس به أول خطوة في سبيل تغييره إن كان يتناقض مع غاياتنا وما نريد . وهو تحرك من منطلق صحيح سليم ، وغير ذلك مضغ للهواء وكتابة فوق الماء . وبعض من يفعل ذلك يبعدون عن الهدف إن كانت هناك ثمة أهداف ! وآفة ما أصيب به العرب والمسلمون هو الكلام ، حتى أصبحت كثرته مادة له في حلقة لا نهاية لها .

واختلال التصور يؤدي إلى الخلط في العمل والبعد الكامل عن الهدف المنشود لـ وهذا ما حدث في قضية فلسطين بالضبط !!

* * *

قضية فلسطين هي الجرح الغائر في جسد الأمة الإسلامية . جرح كبير في جسد عليل مريض . وقد التف حوله مجموعة من الدجالين والمشعوذين يقدمون وصفات قاتلة على غير علم أو معرفة ، بعد أن استبعد كل نطاسي صاحب رأي أو علم .

وقد روى لي أحد الزعماء الفلسطينيين المتقدمين في السن أحاديث كثيرة حول هذه القضية الشائكة وكيف سارت بها الظروف والأحوال من سيئ إلى أسوأ ومن نصاب إلى دجال ، حتى استقرت في مغارة لصوص هي في رأيي ما يسمى بمنظمة التحرير الفلسطينية ، مع الاعتذار للعدد القليل من الفضلاء الذين بينها ، والذين وصفوها لي بذلك في ليالٍ كثيرة وفي مدن مختلفة ، عندما كان يجمعنا الحديث عن هموم الأمة الإسلامية . حيث فلسطين هي الهم الرئيسي في زعمهم ، عندما يكون الحديث عن هموم المسلمين .

كان ذلك الزعيم في زيارة للحاج أمين الحسيني في بيروت ، وأخبره أنه قد سمع بأنهم بصدد إنشاء ما يسمى بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وطلب منه أن يأتيه بياسر عرفات رئيس فتح ، وكانت في ذلك الحين إسلامية التكوين والتوجه .

وجاء ذلك الزعيم بياسر عرفات إلى الحاج أمين الحسيني في بيروت ، وقبّل ياسر رأسه ويديه وجلس أمامه خاشعا خاضعا يتظاهر بالولاء والطاعة .

وكان يرتدي يومها « غطرة » قذرة ، وقد لفت ذلك الزعيم نظره إلى ذلك قبل أن يمتثل بين يدي الحاج أمين ، وعرض عليه أن يشتري له واحدة جديدة نظيفة ، ولكنه رفض وأبى ، فقد كان أيامها يريد أن يبدو زاهدا متجردا ، ناسياً أن القذارة لا تعطي هذا المعنى من قريب أو بعيد .

وسأل الحاج أمين الحسيني ياسر عرفات عن تفاصيل ما جرى من مشاورات حول إنشاء ما يسمى بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وقصّ عليه ياسر عرفات البعض وأخفى عنه البعض الآخر .

والحاج أمين الحسيني من الرعيل الأول من المجاهدين الذين بذلوا جهدهم وما لهم من أجل قضية فلسطين ، وعاش ومات من أجلها ، وقاوم خيانة الملك عبد الله ما وسعه ذلك ، وحاولوا قتله مرات ومرات .

وقد فهم ذلك الرجل تلك القضية وعاش مراحلها وعرف أبعادها وأدرك سنن الكون في تسييرها وحلها ، وكان على وعي بأهمية المتاجرة بها من بعض الأفاقين ، وحرص بعض الأنظمة على الطنطنة باسمها عاليا للتغطية على جورهم بين شعوبهم ، وضعفهم وسط جيرانهم ، ولتبرير كل ما يفعلون من جرائم وتجاوزات .

فحقوق المواطن تضيع ويوضع في السجن ويشرد هو وأهله لتعود فلسطين .
ويكدس المال في البنوك الأجنبية في حسابات سرية لتبقى فلسطين عربية .

وتتم الثورات المزعومة وتكون الانقلابات المشئومة باسم فلسطين .

وكل هذا يجعل بيننا وبينها أمدا بعيدا ، وهو يؤكد حقوقا لم تكن مشروعة لليهود في فلسطين . وكأنما اجتمع العرب على خدمة الأهداف السياسية الصهيونية !

* * *

وأطنب الحاج أمين الحسيني وزاد في شرح ما ينبغي أن يفعل لخدمة القضية الفلسطينية ، وبيّن لياسر عرفات أنه ليس من خدمة هذه القضية إنشاء منظمة التحرير ، ولكن هناك وسائل أخرى قد شرحها له في تفصيل طويل ، وأخبره أن الشعب الفلسطيني هو القادر على حل قضية بلاده من داخلها وليس من خارجها .

وقال له الحاج أمين إن إنشاء منظمة التحرير سوف يخلق طبقة جديدة مزودة بالمال والسلاح ، قادرة فاجرة ، أو هكذا سوف تكون مع مستقبل الأيام .

وألقى على مسامع ياسر عرفات حكمة السنين ، وأن هذه القضية يريد البعض أن يضعها في « ثلاجة » من أجل مصلحة عاجلة ، ومن أجل المزايدة على شعوبهم وعلى البلاد العربية ، وأنه ليس هناك عمل جاد سوف يكون من تكوين هذه المنظمة ، وينبغي أن تترك هذه القضية لأهل فلسطين الذين يعيشون تحت الاحتلال فهم أقدر الناس على معالجتها .

ونصحه الحاج أمين الحسيني بأن ينقل هذا لكل من يفكر في إقامة هذه المنظمة ويتوسم فيه شيئا من الإخلاص وحب البلاد .

وخرج الرجل من عنده متمتما بالدعوات وكلمات الطاعة والولاء ، والعهد على تنفيذ ما يريد .

وقامت منظمة التحرير واحتوت أغلب الجيوب والجماعات ، وأعطت الفرصة لمن يريد أن يحقق كسبا وربحا ومالا ، فهو ينشيء « دكانا » صغيرا ويضع عليه لافتة ما ، فيها ما يفيد الجهاد أو يؤكد التحرير ، وأن هذا قادم في الطريق .

وهو يرسل وافده إلى الأغنياء أصحاب الثروات الكبيرة ، والذين يخشون على ضياع هذه الثروة ، يطلب منهم الدعم والمال .

وبعضهم يدفع القليل ، والبعض الآخر يدفع الكثير ، والبعض لا يدفع .

وتنطلق الرصاصات الطائشة والتي تصيب هنا وهناك . ويتغير الموقف ، الذي يدفع قليلا يعطي كثيرا ، والذي يدفع الكثير يقدم أكثر وأكثر ، والذي لم يأخذ المسألة مأخذ الجد ولم يدفع شيئا إذا هو يرسل رسوله ، ويسألهم كم تطلبون .

وتكثر « دكاكين » الجهاد والثورة . فهي أسهل طريق للثروة والمال والنفوذ .

وهي لا تتطلب أكثر من البحث عن مجموعة من المجرمين المطحونين الذين لا يجدون ما ينفقون ، ويوفرون لهم مأوى وقدرا من الطعام والكثير من الخمر إن سمحت الظروف ، وبعضا من التدريبات على القتل والخطف والإرهاب والعمل الفاسد .

* * *

واحتوت الأنظمة العربية الكثير من هذه الجماعات والفئات .

وعندما نقول الأنظمة العربية فنحن نقصد أولئك الذين استولوا على الحكم غدرا ، ثم أنشأوا ما سموه بالنظم الثورية ، حيث الشعارات اللاهبة المحرقة التي ليس لها من الواقع وفهم العالم أدنى نصيب .

وكل نظام من تلك النظم الثورية يؤوي إليه فصيلا من هؤلاء ، فهو يقدم لهم المأوى والمكان وما يدفعون لرجالهم كل شهر من أجور ومرتبات ، وهم يستخدمونهم في النيل من أعدائهم ، أو في ابتزاز أغنيائهم الذين يعملون حسابا للموت أو القتل ، في عالم قد سيطرت عليه العصابات ، وحكمه قانون الإجرام ، ويتحرك فيه أشباح لا يمكن إدراك هويتهم ، فكل واحد فيهم لديه حفنة من جوازات السفر المزورة ، والإمساك به أمر دونه خرط القتاد .

وتنافست الأنظمة الثورية في احتواء أشد هذه المجموعات صلابة وفُجْرا فهم عدتهم كما قلنا وبينا .

وقد دفع هذا التيسير إلى ظهور المزيد من الجماعات والعصابات ، وتميزت الجماعات الجديدة بالمزيد من الغدر والصلابة والقسوة ، والقدرة الفائقة على ارتكاب الجريمة في هدوء وبساطة ودون شعور بالألم والندم ، بل إنهم يحتفلون بعد انقضائها في مرح وصخب وسرور ، وكأنهم قد قاموا بغزوة من الغزوات . أو كأنهم قد قاموا بجهاد في سبيل الله يحبه الله ورسوله ويثيب ويكافىء عليه .

وكلما اشتد حمق النظام الثوري وكثر كلامه الذي لا طائل منه ولا معنى له كلما كثرت لديه المنظمات الإجرامية ، وكلما يسر لها سبل العيش في كنفه ، فهؤلاء هم عدته في مواجهة عالم متحضر يعمل للجريمة كل حساب .

* * *

وعالم الجريمة مثل أي عالم من العوالم الأخرى ففيه الخائبون ، وفيه أيضا الموهوبون ! والخائبون من المجرمين في عالم المنظمات الفلسطينية ، هم أولئك الذين يرتكبون عددا أقل من الجرائم ، ويختارون السهل البسيط منها ، والتي سرعان ما تنكشف في أغلب الأحوال ، ويعرف من خطط لها ، ويمسكون بالفاعل ، وهو يدل على من وراءه .

وهؤلاء من الذين يريدون أن يسايروا التيار الإجرامي العام الذي يحكم الثورة الباقية حتى النصر كما يدعون في خطبهم وكتبهم وما ينشرون وما يعلنون .

وهم يخشون بأس عتاة المجرمين منهم ، فكأنما يريدون أن يشعروا الآخرين أنهم على القتل قادرون ، ولكنهم لا يأتونه إلا بقدر معلوم .

وضحايا هؤلاء في العادة من البسطاء الذين يعيشون حياة سهلة ، وهم في متناول يد أي مجرم يريد أن ينالهم . فليست لديهم الحراسة الكافية أو أجهزة الإنذار ، أو عشرات المساكن التي يتبادلون النوم فيها . فهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ومن يريد أن يقتل واحدا منهم فلن يعوقه أحد ... اللهم إلا حراسة الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الضحايا يقتلون في لحظة ، ويغيبون خلف بوابة الموت في لمحة ، ويسيل دمهم في الطريق وهم ينظرون إلى قاتلهم الذي يختفي بين الزحام ، ولكن لا ينطقون .

أو يكون الموت في مسكن حيث يتم دون جلبة أو صوت ، ويكتشف القتيل بعد فترة من الوقت إن كان يعيش وحده ، أو يعرف بموته صراخ أطفاله الصغار وهم يرون القاتل الملثم بالكوفية الفلسطينية وهو يغادر هادئا مطمئنا في غير ما سرعة أو اضطراب .

وأغلب هؤلاء الضحايا من كاتب أو صحفي أو رجل مسالم لم يمسك في حياته بمدفع أو بندقية من قبل ، ولكن قلمه أقوى من مدافع المجرمين وقنابلهم ، وهم لهذا يقتلونه !

* * *

أما الموهبة في عالم الجريمة فمثلها الكبير هو أبو نضال ... أو صبري البنا .

فهو موهوب وقادر ، واستطاع عبر موهبته وقدرته أن يسيطر على ساحة الإجرام في العالم أجمع ، وأن يرتكب من الجرائم ما هو شديد التعقيد ، ويصعب على غيره أن يأتي به .

وقد أخبرني بعض من كان يعرفه أنه لا يتمتع بدين أو خلق ، وأنه يعكف على الخمر طوال الليل ، فهو يحتسي في الليلة الواحدة زجاجة أو زجاجتين .

وعندما ينتصف الليل وتفعل الخمر مفعولها في رأسه المريض يكون القرار بالقتل .

ومعه من المساعدين المدربين من يستطيعون القيام بما يريد ، ولا يتركون أثرا يدل عليهم . لبراعة التنظيم ودقة التنفيذ والخوف الشديد من عقاب المنظمة إن هم فشلوا في مهمتهم .

وله نظم بارعة في عالم الجريمة قد تعلمها من اليهود ، أو الموساد على وجه التحديد !! ففي كل موطن له مخبأ للسلاح الذي يستعمل في ارتكاب جريمة ما .

وقد دخلت هذه الأسلحة بمعرفة بعض الدبلوماسيين الخائنين المتعاونين معه ، أو بعض رجال الجمارك المرتشين .

ويوضع السلاح في مخبأ يعرفه من يسمى عندهم « بالمقيم » ، وهذا « المقيم » لا يعرف شيئا عن الجريمة وموعدها والرجال الذين يقومون على تنفيذها .

وعندما يحين الحين يأتي من خارج هذه الدولة من يسمى « بالوسيط » وهو يدخل بجواز سفر مزور ، ويغادر بعد انتهاء مهمته بجواز سفر آخر .

وهو يخرج بعد تسليم السلاح للفاعل الذي يدخل مثله بنفس الطريقة ، ويغادر الوسيط البلد قبل حدوث الجريمة .

وعلى « الفاعل » أو المجرم الذي يقوم بالتنفيذ أن يضع السلاح في مكان يحددونه له قبل أن يغادر البلد ، وهو إن أمسك به لا يستطيع أن يدل على أحد . فهو قد أخذ سلاحا من وسيط لا مكان له الآن على مسرح الجريمة . قد التقى به باسم مستعار وهو لا يعرفه من قبل ، وهو لا يعرف « المقيم » ، ولا يدري بمخبإ الأسلحة ، وقد كلف بهذه المهمة في مدينة من المدن من رجل لا يعرفه ، كان عليه أن يلتقي به في مدينة من المدن ، وكل ما يدل عليه أنه يمسك في يده اليمنى بقداحة لإشعال السجائر في ساعة معينة في موطن معين قد حددوه له من قبل .

وهذه هي الجريمة الكاملة ، إن كان هناك جريمة كاملة ولكن الذي ينجو من عقاب الدنيا لا ينجو أبدا من عقاب الآخرة !

* * *

وهؤلاء القتلة المحترفون المدربون من أتباع أبي نضال وغيره ليسوا بعيدين عن أعين « الموساد » الإسرائيلي ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون !!

فمع ظهور تلك المنظمات الإجرامية بعد قيام دولة إسرائيل ، واكبها اختراق المخابرات الإسرائيلية لها ، وقد تم ذلك عن علم وقدرة .

ونحن عندما نصف هذه المنظمات « بالإجرامية » نرجو ألا نصدم القارئ العزيز في مشاعره ، لأنها كذلك . وقد كانت إحدى الوسائل الهامة لخدمة إسرائيل وأهدافها وتحقيق ما تريد .

وقد انتهى إلى ذلك الكثير من الباحثين ، منهم صاحب هذا الكتاب الذي بين يديك . والنظرة الفاحصة إلى مجريات الأمور وتطورها ، تجعل هذه الحقيقة واضحة للعيان لا تحتاج إلى بيان ، وهي قد تلتبس على السذج الذين اعتادوا أن يقتاتوا الكلمات ، ولكنها لا يغيب أمرها على الدارسين والفاهمين وأهل النظر .

وعندما يأتي اليوم الذي يكشف فيه المستور ، سوف نجد أن جميع الأنظمة الثورية دون استثناء ، وعلى رأسها جميعا نظام صدام حسين ، كانوا جميعا في خدمة « الموساد » الإسرائيلي ، وكان لكل نظام دور في تثبيت دولة إسرائيل ، وفي خدمة مخططاتها وأهدافها .

وإن أمعنت النظر أيها القارئ العزيز ، فأخبرني ما الفائدة التي يمكن أن تعود على القضية الفلسطينية من تفجير طائرة في الجو يموت فيها بضع مئات من النساء والأطفال وغيرهم ؟

أية فائدة يمكن أن تعود بقتل هؤلاء الأبرياء المسالمين المسافرين من جنسيات مختلفة ، وهم ليسوا من المحاربين ، ولا علاقة لهم بإسرائيل ؟

ولو وضعت هذا على ميزان الدين فسوف تجد أن الإسلام يحرم تلك القتلة الشنيعة ، وهو يقضي بإنذار من يعلن عليهم الحرب ، وهو يوصي بألا يتتبع مُدْبر يفر من المعركة ، وينهى عن الإجهاز على جريح . وقد وضع قواعد للحرب ليس منها قتل الآمنين المسالمين الوادعين المعلقين في الجو بين السماء وبين الأرض ! ثم يأتون بعد ذلك ويرغموننا على الوقوف مع المجرمين والدفاع عنهم ، ورفع الحناجر

بالصراخ بكلام سقيم لا يسمعه العالم ولا يلتفت إليه . وإن لم نفعل ذلك صرنا في عداد الخونة الذين يخونون قومهم وقضيتهم .

علينا أن ندافع عن المجرمين الذين يفجرون الطائرات في الجو !

وينبغي أن نصفق لصدام حسين وهو يجتاح الكويت وينتهك حرمة أهلها !

ولابد من الهتاف لكل مجرم وأن نتبع كل ناعق ، وإلا فنحن خونة .

وهذا ما يتنافى مع العقل السليم وقواعد الدين .

* * *

ونعود إلى أبي نضال ...

تلك الأسطورة الإجرامية التي دوَّخت العالم لأكثر من عشرين سنة قد مضت .

لم يعرف مكانه أحد ، وليست له صورة يستدل بها عليه ، ولم يمسك به مرة .

وكل عملياته ناجحة مؤثرة .

لم يوجه ضربة واحدة لهدف إسرائيلي !

كل عملياته للتخلص من زملائه وأساتذته السابقين .

استخدمته النظم الثورية جميعا .

سوريا ، وليبيا ، والعراق !!

وقام بعملياته الإجرامية ضد هؤلاء جميعا مرة لحساب بعضهم بعضا ، ومرة لحسابه لزيادة حصة الأموال التي يطلبها منهم .

وهو ينسق مع اليهود ـ هكذا يقول الكتاب ـ ويأتمر بأمرهم ، وفي حصر لعملياته التي قام بها ، لا تجد واحدة فقط لا تخدم الهدف الإسرائيلي .

ويستدل المؤلف على دلائل كثيرة لإقرار هذه الحقيقة التي ليست بالغريبة على الفاهمين والدارسين وأهل العلم .

وأتباعه مئات يعيشون في عالم مسحور قد حكمه القهر والجبروت ، ويتم الحكم بالإعدام في لحظات ، وليس من المسموح به أن يلتقي أحد بآخر ، أو تزور زوجة هذا ، زوجة ذاك . بل هم جميعا يعيشون في سجن كبير ، ولا ينبغي لأحد أن يخاطب آخر بالهاتف لسبب أو لآخر . وهو يخضع للاختبار بين الفينة والأخرى ويموت منهم قتلا واغتيالا عدد كل يوم بتهمة الخيانة وإفشاء أسرار المنظمة .

وهم يأتون بهم من الحضيض ، ويدربونهم على القتل عبر برنامج وحشي من القهر والإرهاب ، وهم لا يعرفون الغاية مما يفعلون ، ولكنهم يلقنونهم كلمات عليهم حفظها واستظهارها . والغايات الكلية يعرفها القادة ، ومن فوقهم يجلس أبو نضال على كومة من الجماجم والدولارات وزجاجات الويسكي الفارغة .

* * *

كل هذا يحتم علينا أن نعيد النظر في كل ما يحيط بأمتنا العربية من مآس . ولا ينبغي أبدا أن تصفق للجريمة والمجرمين .

ويجب أن يقف كل واحد منا في صف الحق والعدل .

وعلينا أن نعرف أعداءنا الذين يرتدون ملابسنا ويتكلمون لغتنا ، وجعلوا من أنفسهم أوصياء علينا ، فهم يفكرون نيابة عنا ، ويضعون لنا ما يعن لهم من أهداف معقولة أو غير معقولة ، ويقولون لنا اتبعونا ولنحمل عنكم خطاياكم وما هم بحاملين من شيء .

الكذابون المنافقون المعتدون الذين يغيرون على الجيران باسم الحرية والوحدة ، وباسم تحرير فلسطين التي لن تحرر أبدا بمعرفتهم .

وأولئك الذين يزأرون كالأسود طوال الليل في إذاعاتهم ويحرضون الأمة العربية من أجل حرب لا وجود لها إلا في أخيلتهم المريضة ، وإن أحيط بهم نجدهم فئرانا مذعورة مستسلمة مطيعة ، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون .

* * *

إن قصة أبو نضال ومنظمته التي تعمل لحساب الموساد ويحميها جيش الدفاع الإسرائيلي ترغمنا على إعادة النظر في كل شيء .

وكان علينا أن نتنبه من قبل إلى أن جميع هذه المنظمات مخترقة من المخابرات الإسرائيلية وهي تعمل لحسابها .

وأن الطريق ليس هذا ولن يكون أبدا !!

إنها عودة إلى أول الطريق ولنأخذه عبر معالم صحيحة ، ورؤيا واضحة ولنطرح الشعارات جانباً ، فهي طريق المجرمين إلى النيل منا وخداعنا وتضليلنا .

إن العالم القادم ليس فيه مكان للمجرمين . وليقذف كل واحد منا هؤلاء القتلة بحجر ، وليملأ قلبه بازدرائهم مهما قالوا ومهما ادعوا .

ولنتذكر غرناطة التي سقطت منذ خمسمائة عام ، وكيف طرد المسلمون منها .

ولا ينبغي أن نساعد في طرد المسلمين من العالم أجمع ، فهؤلاء المجرمون يدفعون الدنيا إلى ذلك . ونحن لهم بالمرصاد .

﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾

أحمد رائف

مركز الدراسات والترجمة

29 أبريل 1992

الفصـل الأول

قصـة جـورد



قصة جورد

انقضى أكثر من عشرين عاما على تولي العقيد معمر القذافي السلطة في ليبيا . ومع ذلك فمازالت عاصمته طرابلس تحتفظ بالإحساس الكسول لقرية راكدة ، في حالة نوم طويل . فلا يوجد زحام ولا كثافة في حركة المرور ولا تشعر فيها بالنبض السريع للمدينة الكبيرة . فهي مكان تستطيع أن تجتازه بسهولة ، فعندما تترك الضواحي القليلة المنتشرة على طول الشاطئ ويكون البحر المتوسط خلفك تجد بعض الضواحي ذات المباني المنخفضة التي تقودك إلى قرى متخلفة ثم إلى الأفق الواسع الداكن اللون . حيث يمكن إخفاء الكثير في هذا الفضاء الفسيح الملىء بالشجيرات الكثيفة والكثبان . وفي الجنوب الغربي تجد « الحمرا » تلك السهول المنعزلة التي تحتضن الحدود التونسية . وفي أعماق الصحراء في الجنوب الشرقي تجد جبال « الصودا » المنيعة . وبين السهول والجبال على بعد مائة وسبعين كيلو مترا إلى الطريق السريع من طرابلس تجد سيد ليبيا متقلب الأطوار وقد زود أبو نضال بمعسكره الرئيسي هناك .

معسكر الصحراء :

كان هناك سلك شائك يمتد على طول ميلين ، مدخله فتحة بين عمودين حيث يحرس هذه الفتحة شاب بمفرده ، يلف رأسه بكوفية فلسطينية « كاروهات » . وساهمت الطبيعة في حماية هذا المكان أيضا بتلين منخفضين ومجموعات مبعثرة من المنازل المنخفضة حيث يوجد هناك صف من الخيام وإيريال هوائي وخزان للمياه يملئونه من أقرب بئر للمياه في هذه الأرض الجرداء . ويبدو المعسكر لأول وهلة وكأنه معسكر لعمال أجانب يقومون بإقامة مشروع آخر من مشروعات العقيد . وكان الأمر كذلك بالفعل حتى استولى عليه أبو نضال وشرع في توسيعه في عام 1987 .

وكان يمتد عبر ستة كيلو مترات مربعة من الرمل والحصى . وهو معسكر واسع ينقسم إلى أقسام مميزة : حوالي أربعة أو خمسة معسكرات صغيرة كل منها محاط بالأسلاك الشائكة . وقرية يتكون المنزل فيها من طابق واحد للمتزوجين وعائلاتهم . ولا يجوز لغير المقيمين فيها الاقتراب منها . وهناك أيضا المكاتب الإدارية وأماكن إيواء الجند ، وقاعات المحاضرات ، والمقصف ، وأرض التدريب للقوات المقاتلة . وكان هناك معسكرٌ منفصلٌ من الخيام يقيم فيه مجموعات صغيرة من الرجال ، تغطي وجوههم الكوفية العربية التقليدية ، وهؤلاء مجهزون للمهام السرية . وهناك مركز للأبحاث عليه حراسة مشددة يسمى « بالمركز الحادي عشر » وتحميه بطاريتان من الصواريخ المضادة للطائرات . وسجن ومركز للاستجواب أيضا بالإضافة إلى عدد من الزنازين تحت الأرض وتسمى « بالمركز السادس عشر » . وهو مكان لا يذكر أمام أحد إلا ارتعد من الخوف رغم أن من يقترب منه ومن نفس المكان يسمع الأغاني العربية الجميلة تنبعث منه لتغطي على صراخ الذين يعذبون فيه .

وكانوا دائما يقظين لأي هجوم مفاجئ من عدو غير معروف . ويشهد أصحاب الحظ القلائل الذين استطاعوا الهروب منه أنه ليس بالمكان السعيد .

وهذا المعسكر مؤسسة لتدريب وحدات جيش أبو نضال الشعبي . وهو إلى حد ما يعتبر ميليشيا علنية مثل بقية الطوائف الفلسطينية .

ولكن الهدف الحقيقي للمعسكر – حيث كان الرجال يجهزون للعمليات الخارجية – كان على قدر من العلنية بالقدر الذي عليه أي جهاز مخابرات في العالم . أما المقاتلون العاديون من الرجال فكانوا غطاء حماية أو تمويه للعمل السري الداخلي .

وقد أطلق أبو نضال على معسكره اسم « ناجي العلي » وهو رسام كاريكاتير عربي أطلق عليه الرصاص في لندن يوم 22 يولية 1987 أمام مكاتب جريدة القبس العربية اليومية حيث كان يعمل . ويقول البعض أن ياسر عرفات أمر بقتله لأن هذا الرسام اعتاد أن يبرز في رسومه أخطاء رئيس المنظمة . وقد خطط للعملية وأدارها الرائد عبد الرحمن مصطفى من رجال الأمن الشخصي لعرفات المعروف بالفرقة

17 . ولكن هذا الرأي لم يثبت لأن الرجل الذي قتله لم يقبض عليه . ورأي آخر يقول إن هذا العمل كان هدفا للموساد ليلصقوا تهمة القتل بعرفات وبالمنظمة .

وأثناء التحقيق في عملية القتل ، وجد البوليس البريطاني مخبأ فيه بنادق وقنابل يدوية ومتفجرات سمتكس « Semtex » وزعموا أنها تخص مصطفى . وجدت هذه الأسلحة في شقة فلسطيني آخر يدعى إسماعيل صوان الذي اعترف عن نفسه أنه عميل للموساد في صفوف المنظمة . وقد كشفت علاقته بالموساد في المحاكم البريطانية بعد حادث القتل بعام ، وحكم عليه بالسجن لمدة أحد عشر عاما ، وطرد أيضا من بريطانيا اثنان من الدبلوماسيون الإسرائيليون لأنهما كانا يشرفان على عمله . وهذه أول مرة يطرد فيها دبلوماسيون إسرائيليون من بريطانيا .

وربما أطلق أبو نضال اسم ناجي العلي على معسكره لأنه كان يكره عرفات كما يكرهه الإسرائيليون تماما . فلم يعتبره مسئولا فقط عن اغتيال الرسام الفلسطيني ولكنه اعتبره مسئولا أيضا عن خيانة القضية الفلسطينية وهي – في نظر أبو نضال – إبادة دولة إسرائيل . لذلك كان يحث كل من في طريقه على كراهية القائد الفلسطيني . وعلى مدى عشرين عاما كان ياسر عرفات بين نارين : مدافع إسرائيل من ناحية ، واغتيالات أبو نضال من ناحية أخرى .

ولم يكن أبو نضال يعيش في المعسكر نفسه ، فبدون سبب كان يسكن مبنى مكونًا من ثلاث فيلات في حدائق ضواحي طرابلس ، حيث كانت مقر سكنه ومقر قيادته في وقت واحد .

وكان يقود سيارته مرة كل شهر تقريبا ويلبس ملابس عادية مكونة من بنطلون وقميص ويقوم بزيارة غير معلنة للمعسكر حيث يسبب له ارتباكا . فيرتبك الجميع من القائد إلى الجندي المستجد الذي يرتعد في وجوده . فيدخل إلى المعسكر بوجهه الشاحب وصلعته وبطنه الكبيرة دون أن تنفخ لقدومه الأبواق بصوتها العالي ، وهو يدخل معتدل القامة على وجهه مسحة من خجل . وعادة ما يصحبه أمجد عطا ، وهو رجل طويل القامة في حوالي الأربعين وموضع ثقة أبي نضال أما مركزه الرسمي

في المنظمة فهو السكرتير الثاني للجنة المركزية . وإذا ما حدث أمر في المعسكر فتجده أسرع في الحضور من أبي نضال .

ويقال إنه يتم إعدام خائن في كل مرة يحضر فيها إلى المعسكر ، أو يرسل بعضهم ليواجه أهوال « الفرقة 16 » . ومن عادة رجال الشرق الأوسط الأقوياء أن يحيطوا أنفسهم بأقربائهم طلبا للأمان ، ولم يكن أبو نضال استثناء في هذا فإن عطا كان زوج إحدى بنات إخوته .

وكان العقيد القذافي – راعي أبو نضال حاليا – كريما . فبالإضافة إلى المعسكر ومقر الإقامة في طرابلس ، خصص له عشرات المنازل في المدينة ليستخدمها مساعدوه الرئيسيون . كانت هذه المنازل تخص معارضي القذافي الذين سجنوا أو نفوا أو تمت تصفيتهم وكان يروق له أن يطلق عليهم دائما « الكلاب الضالة » وكان هناك مبنى مكون من ثلاثة طوابق في شارع عمر المختار في وسط طرابلس قد خصص ليكون ملاذا آمنا لرجال لجنة البعثات الخاصة . وهناك أيضا فيلا بالقرب من المطار ليستريح فيها العملاء . ومزرعة على بعد سبعة عشر كيلو مترا في خارج المدينة حيث تزرع الخضراوات والفواكه من أجل الرجال في المعسكر .

وكان أبو نضال – وهو ابن زارع برتقال في يافا – يحب أن يرى الأشياء تنمو ، ويشعر بفخر كبير بمزرعته المرتبة ترتيبا حسنا وهو يرى أن أجمل ثمارها تأتي إلى مائدته .

الرجـــال :

ومنذ افتتاح المعسكر في عام 1987 كان معظم نزلائه من الشباب الفلسطيني . وبظهور العرب الذين سبق تجنيدهم في لبنان من بين الهائمين في ذلك البلد المنكوب ثم طاروا إلى ليبيا عبر مطار دمشق في مجموعات ، كل واحدة تقترب من المائة ، وقد تم نقلهم بوسائل النقل العسكرية الليبية .

وكان هؤلاء الرجال من المحطمين المنهكين الذين يمثلون الغضب والفرقة والتناحر في الشرق الأوسط الذي تكون عبر الحوادث من معسكرات اللاجئين الفلسطينيين

من ناحية والمدن اللبنانية من ناحية أخرى وذلك منذ اشتعال الحرب الأهلية . وبالنسبة لهؤلاء الرجال كانت الطريقة الوحيدة للبقاء في العقدين الأخيرين من الانقلابات ، وأن يشعروا أن لحياتهم معنى كانت بالانضمام إلى إحدى الميليشيات التي برزت إلى الوجود تملأ الفراغ الذي أعقب انهيار الدولة اللبنانية في عام 1975 .

وصعب أن نصدق أن أبا نضال قد استطاع أن يستهوي إليه أفضل العناصر ولكنه كان يبحث عن الطلاب الممتلئين بالحيوية وبخاصة الصغار منهم .

وكان هؤلاء على درجة من الإقدام تؤهلهم لتوجيه أية ضربة من أجل القضية الفلسطينية .

وقد وعدهم أن يساعدهم في تعليمهم ، ورسم لهم طريق الهرب من معسكرات اللاجئين التي كانت ستنتهي بموتهم حتمًا . وهو يضعهم على أعتاب حياة جديدة وسوف يساعد عائلاتهم . وكان يدفع لهم من المال الكثير .

وأثار أيضا حماسهم للانضمام إلى المنظمات السرية . وهو يحقر من منظمة التحرير الفلسطينية ومشروعاتها ، وقال لهؤلاء الصغار إن فلسطين لن تعود إلا من خلال الكفاح المسلح . ولو انضموا إلى منظمته فهم قد أدوا الواجب ليس نحو فلسطين فحسب ولكن نحو الأمة العربية كلها . إن كل المنظمات الأخرى خونة ، وفاسدون ، ويرضون بالحلول الوسط . أما منظمتهم فقد استلهمت كل الفضائل العربية وهي آخر من يحمل لواء القضية بصدق وإخلاص .

وكان اختيار المجندين يتم على أعلى درجة ، فهكذا ينبغي أن يكون .

وأراد أبو نضال أن يضمن عدم انتماء رجاله إلى منظمات سياسية أو خدمات سرية أخرى . فجعلهم يوقعون على إقرارات تفيد أنهم يستحقون عقوبة الموت إذا ثبت عليهم أي شيء من هذا القبيل .

ولم يكن هذا نوعا من التعنت والقهر ولكنه كان معلوما أن الموساد وبعض أجهزة المخابرات الغربية قد جندت عددا من الفلسطينيين في أوروبا وفي الأرض المحتلة . وبعد قضاء فترة تدريب مناسبة يرسلونهم مرة أخرى إلى معسكرات اللاجئين

والشوارع الخلفية الخطيرة في بيروت ، فيخترقون صفوف الحركة الفدائية الفلسطينية . فمن هو الوطني ومن هو الخائن ؟

لا أحد يعلم . فكان هوس التجسس آفة قاتلة تعاني منها الحركة الفلسطينية .

وكان أكثرهم إحساسًا بهذا أبو نضال الذي بلغت وساوسه وشكوكه حدا كبيرا .

وعند الالتحاق يتسلم المجند الجديد حزمة من الأوراق عليه أن يكتب فيها قصة حياته . ويجب أن يدون كل شيء : العائلة والأقارب والذين يتصل بهم ، وأصدقائه ، والذين يحبهم ، والمدارس ، والوظائف والمركز الاجتماعي . كل التفاصيل الدقيقة منذ الميلاد إلى يوم التجنيد ... والأوراق الأولى في ملف المجند هي المقياس الذي يختبر به أي معلومات جديدة تصلهم عنه . والويل كل الويل لمن يخطئ منهم .

وفي مرحلة الاختبار يطلب من المجند الجديد – وهو في داخل زنزانة تسع اثنين مع الذي جنده – أن يتولى وظيفة حارس للمكاتب وأن يوزع مجلاتها : فلسطين الثورة وأن يشترك في المسيرات والمظاهرات . وربما يكلف ببعض أعمال المخابرات البسيطة ليقوم بها . مثل مراقبة شخص ما أو تقديم تقرير من موقعه عن منظمة معادية ؛ مثل منظمة « فتح » أو عن بعض المنافسين مثل جبهة جورج حبش الشعبية . أو عن الطائفتين الشيعيتين : أمل وأختها الأكثر تطرفا حزب الله .

ولكي يكون جديرا بالعضوية يجب أن تعاد صياغة حياة المجند وتطهر . فيجب أن يقلع عن الخمور والسجائر والمخدرات والنساء . ولا يحتمل منه أسئلة لا معنى لها وغير ضرورية أو حديث بلا مناسبة . ولا ينبغي أن يسأل عن الاسم الحقيقي لأي عضو في المنظمة أو حتى يبوح باسمه هو . وليس أمامه غير استخدام الأسماء الشفرية . وينبغي عليه أن يطلع رئيسه المباشر على كل شيء مهما كان تافها . وفي الدورات التي تعقد للنقد الذاتي يجب عليه أن يعترف علنا بأخطائه وهفواته أمام زملائه ، بل ويقترح العقوبات التي ينبغي أن ينالها .

وأثناء فترة تدريبه فهو يدرب ويدرب مرة أخرى على المبادئ العشرة الرئيسية

للمنظمة حتى تصبح هذه المبادئ طبيعة ثانية له فتعيد صياغة فكره وحركته والتزاماته ونظامه ومركزية القيادة ، وطاعته لسلسلة القيادات . المبادرة والحركة . النقد والنقد الذاتي . الأمن والسرية . التخطيط والتنفيذ . رصيد الخبرة التي حصل عليها . الاقتصاد وعدم التبذير . ويستمع كل منهم إلى محاضرات مطولة يلقيها عليهم العناصر الأكثر تقدما .

وعندما تنتهي هذه الدروس ، ويستبعد المرشحون غير المرغوب فيهم ، ويرسل الرجل الذي يقع عليه الاختيار لاجتياز مرحلة أخرى مدتها ستة شهور في دولة أخرى ، وسوف يؤهله هذا المنهج لأعمال عظيمة .

ومع مجموعة من الشباب ، وفي عربة مرسيدس قديمة ، يرسلون إلى عمق جنوب لبنان ، إلى قرية فوق ميناء صيدا تقع على تل ويحكمها الزعيم الدرزي وليد جمبلاط . ويقيمون في منازل قد بدت عليها آثار قصف النيران وهجرها سكانها تمامًا . وهناك يرتدي زيا خاصا ويحمل سلاحا ويقضي عدة أسابيع في التدريبات العسكرية الأساسية ، وبعض التمرينات الرياضية وكثير من التجوال ليلا في أنحاء البلاد ، ويكون هذا بالليل لتجنب تعرف طائرات الاستخبار الإسرائيلية عليه .

وبعد هذا ينقلون بالعربات إلى مطار دمشق . وقد التقيت بأحد هؤلاء المجندين في صيف عام 1990 . وكان يتذكر ما حدث له بعد ذلك :

> **أعطونا أسماء شفرية جديدة للرحلة ، وطلبوا منا أن نتذكرها . ولكن بعد ساعات من الانتظار في استراحة المطار ، نسي الكثيرون أسماءهم ولم يجيبوا إذا ما نودي عليهم . وكان الأمر يتطلب النداء عدة مرات حتى يجيب مما أثار دهشة رجال الأمن السوريين ، وأصبح قائدنا في حالة غضب شديد .**
>
> **وأخيرا حملونا على طائرات عسكرية ليبية ولم نكن نعلم إلى أين نحن ذاهبون . وسرت بيننا إشاعات أننا ذاهبون إلى كوبا أو إلى**

كوريا الشمالية . وشعر معظمنا بالدوار نتيجة الضوضاء وضغط الهواء . وبعد ثلاث ساعات هبطنا في طرابلس في ليبيا .

وبعد انتظار طويل اجتزنا الصحراء في أسطول من أوتوبيسات التويوتا . كان الظلام يلفنا عندما بلغنا المعسكر . ونودينا بأسمائنا الشفرية القديمة ثم فتشونا قبل أن يسمحوا لنا بالدخول .

لقد بدأت المحنة .

شهادة جورد :

« ما يلي يستند إلى تقرير من أحد الرجال من واقع خبرته في منظمة أبو نضال وقد رويت لي في صيف عام 1990 » .

كان رجلا قصيرا ربع القامة في أواخر العشرينات وكان يمشي مشية الرجل الرياضي أو مشية أحد الراقصين من الرجال . وقال لي إن اسمه الشفري كان حسين جورد عبد الله . وباعتباره فلسطينيا كان ماضيه غير عادي .

فقد كان أبوه من قبائل البربر في الجزائر . واحد من آلاف البربر الذين هاجروا من شمال أفريقيا إلى فلسطين في بداية القرن . ولد أبوه في فلسطين .

وعندما استولى عليها الإسرائيليون في عام 1948 هرب مع عائلته إلى لبنان وانتهى عند البرج الشمالي وهو معسكر من الخيام بالقرب من تاير ، أحد معسكرات الإغاثة العديدة التي أنشأتها الأمم المتحدة في أعقاب حرب فلسطين .

وولد جورد في عام 1961 . ولم تكن الحياة في لبنان سهلة بالنسبة للفلسطينيين .

وعندما استقلت الجزائر في أوائل السبعينات قرر أبوه أن يعود إلى القبيلة التي نشأ منها . وهناك تربى جورد حيث تعلم العربية ، ولهجة أو اثنتين من لهجات البربر ، وقليلا من الفرنسية . كان جورد ولدا قلقا عنيدا يستجدي الطعام . وأصبح لص محلات ماهرا . وبعد أن انتهى من سنوات الدراسة انضم إلى جيش العاطلين في الجزائر . وكان رأسمال الأسرة هو أخو جورد الأصغر الذي ذهب إلى الخليج بحثا عن العمل ، ووجد عملا في شركة الطيران الكويتية .

وفي عام 1986 مات أبوه عائل الأسرة . وكان على جورد أن يوفر احتياجات الأم وأختين صغيرتين . ولم يستطع أن يواجه الموقف وقرر الهرب ببعض المال الذي حصل عليه من أخيه في الكويت . واشترى تذكرة طيران إلى برشلونة وطار على إحدى طائرات أيبريا . ولم يحصل على تأشيرة لدخول أسبانيا وليس معه جواز سفر باستثناء جواز مرور لبناني Laissey - Passer وكان اللبنانيون يعطون مثل هذا الجواز للفلسطينيين . وكان سعيد الحظ . فعند وصوله بالضبط كانت طائرة تنزل إلى أرض المطار عبر رحلة طيران داخلية وكان المسافرون ينهون إجراءاتهم على بعد أقدام من ركاب الطائرة الدولية التي وصل عليها جورد . ولم يكن هناك سوى ممر ضيق يفصل بين الخطين . وبينما كان رفاقه على الطائرة يتقدمون نحو مكتب الهجرة أسرع هو بالانضمام إلى ركاب الطائرة الأخرى . وهكذا دخل أسبانيا دون مشاكل .

وقضى جورد ثلاثة شهور في برشلونة ، يقيم في الفنادق الرخيصة ويتسكع ليلا حول نوادي الديسكو التي يؤمها العرب .

وكان يسرق أولئك الذين هم أدنى منه ذكاء ، ويسرق الأطعمة من محلات السوبر ماركت ، ويصاحب المجرمين حتى أمسكه البوليس الأسباني ذات ليلة بالقرب من بلازاكاتلونيا وبعد الاستجواب تم ترحيله إلى لبنان .

وفي بيروت تعرف على فتاة كان يخرج معها . وأسرت إليه أنها تعمل لحساب جهاز سري يسمى المجلس . ونصحته ألا يتورط . وأثار الأمر اهتمامه وظل يلاطفها ليحصل على الحقائق منها . كان اسمها الكامل هو : فتح – المجلس الثوري . وكان يديره أبو نضال . كان جورد يبحث عن الشهرة بما يحيط بها من هالة السرية والقوة . وكان هذا المجلس مناسبا له . وسمع منها أن هناك مكتبا في معسكر مار الياس للاجئين ، وهناك طرق الباب وطلب التطوع .

ومن خلف المكتب نظر إليه شاب صغير واستمع إلى قصته .

ماذا يستطيع أن يفعل ؟ وما هي المهارات التي يتمتع بها ؟ ولماذا جاء ؟ وأخبره جورد عن معرفته باللغات وقال له أيضا إنه مستعد للعمل في مقابل وجبة كل يوم ومكان يبيت فيه .

وسأله الشاب : ما رأيك في عرفات ؟

ورد جورد : لا أمل فيه .

وكان عنده إلهام أن هذا هو اتجاههم . واستمر يقول :

– إنه يريد تحرير فلسطين بالخطب . إن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة .

وفي خلال أيام تمت الموافقة على جورد وأعطي اسما شفريا وتسلم مرتبه في الدور الأرضي من المبنى وكتب قصة حياته في سبعة وعشرين صفحة . ولكي يبدو أمامهم مهما كتب كثيرا من الأكاذيب . فكتب أنه قتل يهوديا في أسبانيا وأنه كان يلعب الكرة لفريق كبير في الجزائر ، وأنه عمل كمترجم في إحدى وكالات السفر . وكتب قائمة بأسماء عشرات النساء الأسبانيات كان على علاقة بهن . وكان كل هذا محض خيال .

ولم يكن جورد مناسبا تماما للمجلس . كان متباهيا وثرثارا .

ولم يتعود على النظام . وكان يظهر فضولا غريبا في داخل منظمة تحظر أي معلومات على من هو ليس في حاجة إليها . وحاول مصادقة الزملاء رغم أن سياستهم كانت عدم تشجيع الصداقات . وكان يحب إظهار معرفته باللغات ولكن لم يكن هناك أمل فيه فيما يختص بسياسة النقد الذاتي .

وفي هذا المجتمع المجنون ، حيث كان كل فرد يتجسس على الآخر والكل يكتب التقارير ، كان لابد أن يقع جورد في المتاعب . ولكنه أظهر موهبة في الفنون العسكرية وكان في مقدمة أقرانه . وأجاد أيضا أداء التدريبات والتمارين البدنية . وذات مرة نقل إلى صيدا حيث كان مسئولا عن جماعة عسكرية . ولكن حلاقته لذقنه كل يوم أثارت الانتباه . فأين تعلم هذه العادة البالغة الأناقة ؟ ألا يمكن أن يكون مدسوسا عليهم ؟ لذلك طلب منه رئيسه أن يكتب تاريخ حياته مرة أخرى .

وأجهد ذهنه ولكنه لم يستطع أن يتذكر أسماء السيدات اللائي قال عنهن في التقرير الأول أنه على علاقة بهن . ولم يتذكر كذلك عناوينهن .

ومع ذلك فحيث لم يجدوا أمرا ذا بال ضده ، طار إلى ليبيا مع مجموعة من المجندين الجدد ، وركب الأوتوبيس إلى معسكر الصحراء .

كان ذلك في عام 1987 . وكانت الإقامة في ذلك الوقت داخل خيام حيث كانت منازل الإيواء مازالت تحت الإنشاء . وكان روتين الحياة شاقا . فهم يستيقظون عند الفجر ، وبعد ذلك يعدون لمدة ساعة ثم يعودون لتناول طعام إفطار بسيط ثم تبدأ وردية من العمل الشاق في البناء من السابعة والنصف صباحا حتى الواحدة ظهرا . ويعقب هذا غذاء بسيط وفترة من الراحة حتى الساعة الثالثة . ثم يبدأون العمل مرة أخرى حتى السادسة . ثم يسمحون لهم بالاستحمام وتغيير ملابسهم لبرنامج المساء الذي يتضمن المحاضرات والأفلام السياسية .

ولأم جورد العظيم اكتشف أن التأخير عن موعد الطعام ولو لمدة خمس دقائق فإن هذا يحرمه من الوجبة . وإذا لم يستيقظ في الوقت المحدد يقلبون المرتبة من تحته وينضحونه بدلو من الماء البارد . وإذا ترك أدوات العمل من أجل راحة قصيرة ينهال عليه التوبيخ من كل جانب . وإذا أراد الذهاب إلى الحمام فهو في حاجة إلى تصريح . وإذا أراد الحصول على أجازة مرضية من طبيب المعسكر فلابد أن يكون مريضا جدا وخاصة إذا كان يبصق دما . والشكاوى ممنوعة وإلا نقل إلى الفرقة « 16 » ، التي يخرج من عندها غير قادر على المشي . وحاول مرة جورد التهرب من العمل ليحلق ذقنه ويستريح وسرعان ما كشف أمره وهدد بالجلد .

وبعد مضي حوالي شهر على هذا الحال علمت مجموعة جورد أن « رفيقا » سوف يزورهم قريبا ، ويستطيع كل منهم أن يفتح له قلبه ، وأن يتكلم بحرية ، ويجيب على كل سؤال يطرح عليه .

يقول جورد :

« إن الذي نبهني إلى وصول أبو نضال ، هو السائق الذي أسرع من مكانه يؤدي التحية : كان رجلا يرتدي الملابس المدنية ويصحبه ثلاثة من كبار المسئولين عن المعسكر بزيهم الرسمي . وتأملته عن قرب . كان طويلا أصلع له خصلة من الشعر

الرمادي . عيناه زرقاوان خضراوان . ممتلئ الوجه . فقلت لنفسي : لابد أن هذا هو الرجل الكبير » .

« وعندما تجمعنا في مركز الرياضة بدأ بقوله إن حياتنا في المنظمة ستبدأ بمنهج مدته ستة شهور . وفي وقت من الأوقات سيستطيع كل منا أن يعمل في المهنة التي يختارها ، تلك التي تناسب مواهبه .

وبسرعة بدأ يسألنا عن ماضينا واهتماماتنا ، وطموحاتنا . وكل من يأتي عليه الدور يتقدم إلى الأمام ويذكر اسمه الشفري ثم يخبره عن مشاكله .

وعندما جاء دوري وقفت وذكرت اسمي الشفري : حسين جورد عبد الله .

- من أين أتيت ؟
- شمال أفريقيا .
- هل أنت فلسطيني ؟
- نعم .
- هل ولدت في الجزائر ؟
- لا . بل في معسكر لاجئين في تاير .
- ولكن جورد ليس اسما عربيا .
- أنا لست عربيا .

وهنا ، حدق الجميع في مندهشين . وحاول رئيس مجموعتي أن يقول إن هذا مجرد اسم شفري . ولكن أبو نضال لوح له أن يصمت .

- هل أنت أسباني ؟

لا . أنا من القبائل . ثم شرحت له نزوح عائلتي من شمال أفريقيا إلى فلسطين ثم عودتهم مرة أخرى عبر لبنان . عادوا إلى العاصمة البربرية تيزي أوزو في الجزائر . قلت له إن جورد هي صيغة كاتالينية لجورج وهو اسم استعرته من صديق أسباني .

وأخبرته عن اللغات التي أتحدثها . فطلب من قائد المعسكر حسام يوسف أن يكتب مذكرة عما قلته » .

هذا الحوار مع أبو نضال جعل من جورد رجلا ملحوظا . فبينما كان يوجه نظر القائد إلى إمكانياته ، كان أيضا يزيد من شكوكه حوله . وطلب منه أن يتوجه في اليوم التالي إلى قائد المعسكر .

– هل سبق لأي فرد من عائلتك أن عمل لحساب أجهزة مخابرات أو أجهزة أمن ؟

– لا . لي عمة وعم يعيشون في الكويت . واثنان من أعمامي يعيشون في أمريكا . أحدهم في ميتشجان والآخر في أوهايو ولكن معلوماتي قليلة عنهم . وعمة أخرى تعيش في بني غازي . لم أرها منذ عشرين عاما وهو النتاج الطبيعي للتشتت الفلسطيني .

– وأنت ، هل سبق أن عملت في أحد أجهزة المخابرات ؟

– لا .

– هل أنت متأكد ؟

– نعم .

– هذه مسألة حياة أو موت . لقد وقعت إقرارا في بيروت تقبل فيه الموت إذا ثبت أن لك أية علاقة بأحد أجهزة المخابرات . اكتب لنا قصة حياتك مرة أخرى . ولكن في هذه المرة لا تنس كل التفاصيل عنك وعن أقاربك . اكتب لنا أسماءهم وعناوينهم وكل شيء يخصهم .

لثالث مرة كان جورد يقوم بهذا العمل . وحبس في خيمته ومعه أقلامه وأوراقه . وقضى أسبوعين في هذا العمل وهو يزداد قلقا . كان خائفا أن تتكشف هذه المرة أكاذيبه السابقة . وامتنع عن الطعام وكان كثير البكاء . وجاء قائد المعسكر حسام يوسف ليراه .

– ماذا حدث لك ؟

– أريد أن أخرج من هنا . لم أعد أتحمل أكثر من هذا .

وفي اليوم التالي جاء حسام يوسف يصحبه رجل قوي البنية يسمى بهاء ويقال عنه إنه بطل فلسطين في الكاراتيه ، وحملوه من يديه ورجليه إلى الباب الخلفي في المطبخ وحبسوه في غرفة صغيرة مظلمة ، مليئة بفرش التنظيف وبعض الخرق البالية القذرة وتقع هذه الغرفة مباشرة خلف موقد المطبخ الضخم الذي يعمل بالغاز ، والذي تسمع ضوضاؤه من خلال الحائط .

قال حسام :

« نحن لم نحضرك إلى هنا بقصد سجنك ، فقد نريد أن نمنعك من التورط في أي حماقة . سامي يريد مقابلتك بعد عودته من طرابلس بعد يومين » .

وكان سامي هو الرجل المسئول عن الفرقة « 16 » وعن السجن وعن الاستجواب . وبعد يومين وقف جورد أمام سامي قذرا لم يحلق ذقنه .

– أين قصة حياتك ؟

فأخبره جورد أنه أخبأها تحت مرتبته في غرفته .

– هل أخبرتنا بالحقيقة كلها ؟

– نعم .

– قبل أن نستخدم معك إجراءات أخرى أريد أن أوضح لك أمرا . إنك مازلت رفيقنا ! فإذا كنت تعاني من أية متاعب أخبرني . وإذا كنت في خطر فكلنا كذلك . ولن يستطيع أحد أن يخدعنا . فالله يحكم في السماء ونحن نحكم في الأرض . وكثير من رفاقنا تبين أنهم عملاء لأجهزة مخابرات أخرى . وعندما أمسكنا بهم أخبرونا أنهم كانوا يفعلون هذا تحت التهديد .

وكان في مقدورنا أن نساعدهم . ونستطيع أن نفعل نفس الشيء بالنسبة لك .

سأعطيك فرصة أسبوع تكتب فيها قصة حياتك من جديد . وأنس كل شيء عما سبق أن كتبته .

نريد أن نعرف فقط لحساب من تعمل !

– أنا لا أعمل لحساب أحد !

– إنك تعمل لحساب البعض ، ونستطيع أن نثبت ذلك ، ولكننا نريد منك أن تعترف بنفسك . أخبرنا بالحقيقة كاملة ولا تلجئنا لاستخدام أساليب أخرى .

وبدأ جورد يكتب من جديد . واعترف أنه لم يلعب الكرة في الجزائر ولم يعمل مترجما في أسبانيا ولم يعمل في وكالة سفريات . وأنه اخترع قصة نومه مع خمس وعشرين فتاة . وأنه في واقع الأمر دخل أسبانيا بدون تأشيرة عن طريق القفز من الصف في مطار برشلونة .

وحبس عشرة أيام في زنزانة ونمت لحيته ، وكانت به رغبة شديدة لحك جلده . وعندما يشعل الموقد في المطبخ ترتفع درجة الحرارة .

فتجرد من ملابسه الداخلية . وذات يوم ، وكان لا يستر جسده إلا القليل أخذوه إلى الخارج ، وألقوا به في المقعد الخلفي لسيارة تويوتا ، وكان يجلس في السيارة بين سامي ورجل آخر . وخرجوا به من المعسكر إلى الصحراء . وكان أول ما خطر على باله هو أنهم سيقتلونه . وخلف أحد الكثبان وصلوا إلى خيمة منصوبة فوق الرمال مباشرة . كانت خالية . ليس هناك فراش أو ملاءات . ليس هناك إلا بعض الأوتاد الحديدية حيث ربطوه . وتركوه هكذا يومين . وكانوا يزورونه مرة كل يوم ومعهم بعض الخبز وقدح من الماء .

– هل قررت أن تخبرنا بالحقيقة ؟

– لقد أخبرتكم بكل شيء .

فقال سامي :

– أنصت . الضرب غير مسموح به في منظمتنا إلا بموافقة اللجنة المركزية .

فإذا أصررت على الصمت فليس أمام اللجنة خيار ... .

وظل جورد صامتا . كان قذرا تنبعث منه رائحة كريهة وفي أشد حالات الجوع . وكان يأمل ألا يجهز عليه عض العقارب .

وفي اليوم التالي دخل الخيمة سامي وبهاء وثلاثة رجال آخرين . أحدهم يحمل حبلا ، والثاني يحمل خرطوما طويلا من المطاط ، والثالث يحمل أسطوانة أوكسوجين وزجاجة بها مادة مطهرة وبعض الخرق البالية .

وزأر بهاء : قف ! هل تنوي أن تقول الحقيقة ؟

وقبل أن يجيب جورد تلقى لطمة على وجهه فسقط على الأرض . وأوقفوه مرة أخرى على قدميه .

– قف انتباه . أعطني الخرطوم .

وشرعوا جميعا في ضربه ولكمه . وكان أحد الذين يعذبونه شابا يدعى مسعود ، وكان يحضر التمارين الرياضية التي كان يقودها جورد . وكان جورد يدفعه بقوة ليقفز ويجري ، وكان مسعود يكرهه لهذا السبب . وقيدوه أرضا ووضعوا رجليه على حجر كبير ويضغطون عليها بقوة ، وكلما فتح فمه صارخا كانوا يملئون فمه بالرمال . فصاح جورد :

– كفى . كفى . سأخبركم بالحقيقة . أنا أعمل لحساب الجزائر .

لقد بعثوني إلى هنا وطلبوا مني أن أفعل ذلك . كنت خائفا على عائلتي . كفى ...

فقال سامي :

– حسنا .. هذا هو ما نريده . لا تخش شيئا بعد الآن .

سوف نهتم بعائلتك .

وأجلسوه ، وفكوا وثاقه .

ومن خلال دموعه قال جورد :

– هل هذا هو كل شيء ؟ هل انتهى الأمر الآن ؟

– نعم . ولكن لنا حديث معك أثناء العشاء . أنت الآن آمن .

لقد أصبحت مرة أخرى رفيقا لنا . ولكن يجب أن تخبرنا بكل شيء .

لم يستطع جورد أن ينهض ، فحملوه إلى خيمة سامي التي تبعد عن هذا المكان . وقدموا له الشاي ، وعالجوا جروحه .

وهذا هو ما قاله لهم : عندما كان يعيش في الجزائر مع عائلته ، اعتاد أن يشتري الحشيش من جاره ، أحد المهربين . وأخبره هذا الرجل أنهم يجب أن يحتاطوا من الكابتن كال في المخابرات العسكرية وعمله هو مراقبة متعاطي المخدرات . وتعرف جورد على سيارة الكابتن .

وذات يوم زار الكابتن عائلة جورد في المنزل ، وبعد ذلك استدعى جورد إلى مكتبه وأعطاه وظيفة مخبر . فهو يريد أن يعرف كل شيء عن المهربين . ثم طلب من جورد مراقبة طالب مثير للشغب في المدينة ، وعندما افتتح أبو نضال مكتبا له في مدينة الجزائر كان يخشى أن يقوم هذا المكتب بتخطيط هجمات ضد الفلسطينيين الزائرين . فأرسلوا جورد إلى إسبانيا ومن هناك إلى بيروت ليخترق صفوف المنظمة .

كانت تلك هي قصة جورد المختلفة . وكانت هناك بعض العناصر الصحيحة فيها . فكابتن كال شخص حقيقي . أما الباقي فمختلق . وتحت الاستجواب لم تستطع هذه القصة أن تقف على قدميها . فارتبك وناقض نفسه . ولم يبد على سامي التأثر ، ففي وقت متأخر من الليل أخذ جورد إلى نفس الخيمة واستؤنف الضرب . ويائسا من النجاة قدح ذهنه لاختلاق قصة جديدة تكون أكثر قبولا . فقال إنه يعمل في بلباو من أجل حركة الباسك الوطنية ETA . وكان عضوا في جناحها العسكري . وهم الذين أرسلوه إلى بيروت لينضم إلى أبو نضال . كانت ETA هي التي جعلت منه جنديا . وهو لم يذهب إلى بامبولنا ولم يضاجع فتيات إسبانيات . كان كاذبا

عندما قال هذا . إنه آسف . آسف جدا . لقد أراد فقط أن يكون مثيرا . واستمر الضرب على فترات طوال الليل .

وفي الأيام التالية ، توقفوا عن سؤاله عن الحقيقة ، وركزوا على تحطيمه . وكانت درجة الحرارة عالية جدا في داخل الخيمة . وخفض سامي نصيبه من المياه إلى ثلاث رشفات يوميا . وبلغ به الظمأ أنه لم يقو على الكلام . وأعطوه علبة من الصفيح يقضي فيها حاجته وتجمع الذباب على ظهره وعلى القذارة التي حوله . كان كل جسده يؤلمه وكانوا يدخلون ثمرة من ثمار البطاطس بقوة في فمه . لم يعد ير شيئا .

وأطلقوا مسعود عليه ، ولكي يتجنب اللكمات تظاهر بالجنون ، وألقى بنفسه على الأرض في نوبات تشنجية .

وسأل سامي بهاء :

– ماذا ترى ؟ هل نستدعي طبيبا ؟

وحملوه إلى العيادة ، وأوثقوه على سرير وأعطوه حقنة وكان مدركا أن سامي وبهاء جاءوا لزيارته عدة مرات ليلا .

وأجاب على أسئلتهم وهو نصف نائم ، فأدركوا أنه يتصنع .

وسأله سامي :

– هل حدث أن دخل سلك في عضوك التناسلي ؟

هل سبق أن أوثقت مثل الدجاجة ووضعت على حافة زجاجة مكسورة ؟ إننا سوف نقطع لسانك . كل ما كتبته غير حقيقي . كل كلمة فيه كذب . فمن جندك لتفعل هذا ؟ من الذي أرسلك إلينا ؟ أخبرنا عن السوريين أو الأردنيين .

– أناشدكم الرحمة ... أقسم لكم أنني قلت كل الحقيقة في المطبخ وكلما ازددتم ضربا كلما ازددت كذبا .

وجاء محمود وهو رجل طويل رمادي الشعر من اللجنة المركزية وقال :

- خذوه إلى الفرقة 16 .

وهناك ، وفي زنزانة صغيرة من الأسمنت المسلح تحت الأرض جعلوه يقف انتباه مواجها للحائط ، طوال أسبوعين . وتعلم جورد أن ينام واقفا . وفي الصباح يتزاحم الحراس في الزنزانة وكل منهم يصفعه مئات المرات . ويجب عليه أن يعد عدد الصفعات في صمت وعندما يحين الوقت ينطق كلمة واحدة فيقول : مائة . وإذا سقط على الأرض أو أصدر صوتا مثل النحيب بدأوا من جديد . وتورم وجهه وأصبح مثل كرة القدم . ونزل من أذنيه سائل قبيح . وكانوا يسمحون له كل ثلاثة أيام أن يذهب إلى الحمام . وكانت الرائحة في الزنزانة لا تطاق . ومن حين لآخر يأتي سامي ليسمعه أغنية لأم كلثوم على جهاز تسجيل « ملكة الغناء العربي بلا منازع» . وهنا يسرع الحراس إليه فيلقونه على الأرض ويضعون قالبا من الطوب تحت قدميه ويوثقون رجليه ويجلدونه حتى يغمى عليه .

ويمكن بدلو من الماء البارد أن يصبح نصف حي مرة أخرى .

- أين تعلمت اليوجا ؟ من الذي علمك أن تنام واقفا ؟

تكلم أيها الكلب . أنت لست سوى جندي يحلق ذقنه يوميا ؟

إنك عميل . هيا اعترف .

- من فضلكم صدقوني . أنا لست عميلا . أنا ابن فقير لمعسكرات اللاجئين .

وقضى جورد شهرين في السجن يضرب فيها كل يوم . وذات ليلة بينما كان في زنزانته تحت الأرض ، كان المعسكر يحتفل بحفل زفاف ، أحد الرفاق يتزوج إحدى الرفيقات . وذهب كل الحراس لحضور الاحتفال إلا مسعود فقد بقي .

وقال له :

- هذه الليلة سوف انتهي منك .

ونشر لفة من السلك ، وألقى بمفتاح كهربائي في الممر ، وأدلى مصباحا كهربائيا إلى الزنزانة من خلال فتحة فوق الباب وصاح :

– أمسك به . إذا سقط من يدك سوف أكسر عظامك .

وأطاع جورد ، وبعد دقائق تصاعد الدخان من يده المتقيحة بطريقة مخيفة . وصاح من الألم . وأنقذه من هذا عودة الحراس من الحفل .

ولعاشر مرة أعطاه سامي ورقا وقلما ليكتب تاريخ حياته وكان روتينه اليومي أن يكتب نهارا جالسا على حافة الأسمنت المسلح للزنزانة ، ثم يقف انتباه طول الليل .

وذات ليلة ، وبعد أن قرأ سامي ما كتبه ، جاء إلى الزنزانة مكفهر الوجه وقال :

– الليلة ... من الأفضل أن تموت . فصل صلاتك الأخيرة .

وجاءوا له بمياه يتوضأ بها ووقفوا يشاهدونه . ثم ألبسوه زيا عسكريا ولفوا كوفية حول رأسه ، وأخذوه بعيدا عن السجن حيث توجد حفرة عميقة كان واضحا أنها جزء من نظام الصرف . ووضع سلم يصل إلى العمق الكريه . وكانت تحته حفرة أخرى على شكل مقبرة .

وأمره سامي :

– أرقد . هل لديك ما تخبرنا به ؟ هذه فرصتك الأخيرة .

وصاح جورد باكيا :

– أنا بريء . قلت لكم الحقيقة .

وعندما بلغ المياه القذرة ، أغمض عينيه في صلاة أخيرة .

فأمر سامي : أخرجوه .

وحمل جورد إلى سجنه وهو يرتعد . وأعطوه ملابس جديدة ونقل إلى زنزانة نظيفة . كانت دافئة ومظلمة . ونام في زنزانته على بطانية .

وأيقظه سامي في الصباح التالي وقال له :

– أهنئك . لقد اجتزت الاختبار .

وفتش في جيوبه وأعطى جورد حفنة من الحلوى .

– أعتقد أنك بريء . خذ حماما واحلق ذقنك وتناول إفطارك .

سوف نتحدث فيما بعد . يجب أن نتصرف بهذه الطريقة لنحمي أنفسنا فهناك الكثير من الأعداء .

تدريب جورد :

ولمدة أسابيع عاش جورد في حالة من النسيان اللذيذ . فقد أعفي من العمل ، والتدريب ، وواجبات الحراسة . وأعيدت له ممتلكاته الشخصية . وتقاسم خيمة في أرض السجن مع أحد الذين كانوا يعذبونه . وأعطي المجلات ليقرأها وكثيرا من الطعام . وأشبعوا كل رغباته في الحلوى والفواكه والهواء النقي والاستحمام الكثير . ويستطيع أن ينام كما شاء .

وكان حرا في أن يتجول في المعسكر ولكن لا يسمح له بالاتصال بأحد .

والتأمت جراحة ونما شعره على رأسه الحليقة وشفيت قدماه .

واستعاد قوته التي كانت جزءا من اعتداده بنفسه .

وكانت فكرة الهرب تلح على ذهنه . فبعد ما حدث له لم يكن هناك سوى طريق واحد هو الهرب . وذات يوم جاء بلدوزر وحفر حفرة في سفح التل خلف الفرقة 16 . وكان جورد متلهفا على أن يعرف ما يجري ، ولكن أمجد عطا السكرتير الثاني للجنة المركزية أمر بإخلاء الموقع بقية اليوم . وبعد ساعتين عندما سمح لهم بالعودة لاحظ جورد أن الحفرة قد دفنت . واقتنع تماما أنها امتلأت بأجساد البشر . كان الحديث المرسل ممنوعا ، وعلى أي حال كان الجميع يعيشون في خوف من الإبلاغ عنهم . ومع ذلك انتشرت إشاعات الإعدام في المعسكر . وبعد قليل علم جورد أن سائق البلدوزر قد انتحر . وكان يتساءل هل سيستطيع أن يفلت من هذا المكان حيا . ومستمتعا بالفراغ الذي كان يعيش فيه ، والحصانة النسبية التي حصل عليها نتيجة لما حدث له فقد كان قادرا على أن يلاحظ عن قرب عمل الفرقة 16 وأن

يختبر المزاج العام للمعسكر . وقد سمع أن رجلا ضرب آخر لأنه مكث تحت الدش أكثر من الدقيقة المقررة . ولعلاج هذا الرجل من فوضى النظام عنده فقد جاءوا به إلى الزنازين وقيدوه بالسلاسل إلى الحائط وضربوه حتى فقد الوعي . ثم عولج لمدة أسبوعين .

كانت الصرخات الصادرة من الزنازين تفزع جورد ليلا في الوقت الذي كانت فيه الموسيقى العربية تذاع بصوت عال .

وحتى أولئك الذين تجنبوا هذه المتاعب كانوا ملزمين بنظام العمل الصارم والمحاضرات المملة عن مساوئ المنظمة وفضائل أبو نضال . ومبادئ منظمته العشر الرئيسية . وعن الكفاح المسلح الذي لا مفر منه لتحرير فلسطين . كان شرح النظرية مكثفا ومتكررا . ولا يسمح للقادمين بحمل أجهزة الراديو ولا يعرفون شيئا عن العالم الخارجي إلا من خلال النشرة التي تصدر في المعسكر . وكانت الرسائل لعائلاتهم خاضعة للرقابة بينما الرسائل القادمة من الخارج لم تكن تسلم على الإطلاق . فكانت إدارة المعسكر تحتفظ بملفات هائلة عن الأفراد وكان من الأنسب حفظ هذه الخطابات في ملفاتهم بدلا من توصيلها إليهم . وكان الذي يضايق الرجال أكثر أنهم يعلمون أن هذا التدريب سيستغرق ستة أشهر في الوقت الذي مضى عليهم فيه أكثر من ثمانية عشر شهرا دون أن يلوح أي أمل في انتهائه .

كان هذا هو جو الخوف والظلم حتى بدا أن كل واحد كان على وشك الانهيار الجسدي والنفسي . وينطبق هذا أيضا على الحراس الذين كانوا منذ أسابيع قليلة يضربون جورد بهذه البشاعة .

أما الأوراق الشخصية مثل بطاقات الهوية أو مستندات السفر فقد سلمت إلى إدارة المعسكر عند الدخول ، حتى الإحساس بالذات قل إلى أدنى حد له .

وذات صباح قام أبو نضال بزيارة أخرى للمعسكر . وكانت هذه ثاني مرة يراه فيها جورد . كان يسوق سيارة تويوتا ، ويصحبه فيها رجلان آخران ، وتفحص الفرقة 16 حيث أقيمت بعض المباني الجديدة . ولفت سامي نظره إلى جورد .

فحياه أبو نضال باقتضاب . واستمر في رحلته التفتيشية . ولكن جورد لاحظ أنه ظل ينظر ناحيته .

وفي ذلك المساء استدعى سامي جورد إلى مكتبه . وقال له :

– أنت كاذب ولص . وهذا ما يجعلنا نفكر في أن نرسل بك في مهام خارجية . هل تعتقد أنه في مقدورك أن تسرق لنا بعض جوازات السفر وتعود إلينا ببعض المعلومات ؟

فأقسم جورد أن هذا هو ما يناسبه تماما .

– لقد أظهرت أن أحدا لا يستطيع أن يكشفك . والتاكتيك الذي استخدمته معنا تستطيع أن تجربه على الآخرين . سنزودك ببعض المال لتسافر وتعيش في الخارج ولكن إذا حاولت الهرب فسوف نمسك بك ونعيدك إلى هنا ولن تخرج مرة أخرى .

وقدموه إلى الرفيق علي وهو رجل طويل نظرته غربية ولهجته فلسطينية لبنانية . سوف يكون معلمه وقائده . قال له سامي :

– « تعلم منه كل شيء ، وأطعه تماما » .

وفي مكان بعيد من المعسكر ، يحميه سور وغرفة للحرس ، كانت هناك مجموعة من الخيام الصغيرة خصصت لتدريب الذين تختارهم لجنة المهام الخاصة بالمخابرات . وكان يحضر إلى هذا المكان قليل من الرجال كل على حده ليلا ، يغطي وجوههم غطاء الرأس العربي . ويذهب كل منهم إلى إحدى الخيام ولا يسمح لهم بالاختلاط معا ، ولا مع أي شخص آخر في المعسكر ، ولا يسمح لغير الذين لهم الحق في ذلك الاقتراب من هذا المكان .

وتستغرق مدة تدريبهم عادة ما بين أسبوعين وثلاثة . وأثناء فترة إقامتهم يقوم قائد المعسكر بنفسه بتلبية احتياجاتهم ، ويقدم لهم الطعام ، ويغير لهم ملابسهم . وقد جهزت المناهج لتناسب كل عميل على حده ولتناسب أيضا المهمة التي سيقوم بها .

ونقل جورد إلى هذا المكان . وفي الأسابيع التالية شرع علي في تدريبه على أساسيات المخابرات ، وعلمه كيف ينتحل شخصية مزيفة ، وكيف يسير ويتصرف دون أن يثير الانتباه ، وكيف يستطلع مكان المقابلة ، وكيف يضع هدفا تحت المراقبة ، وكيف يتعقب شخصا ما ، وكيف يكتب بالحبر السري ويرسل للقيادة رسائل شفرية . وعلمه رائد صقر - معلم آخر - كيف يفك ويجمع ويستخدم المسدس والرشاشات الخفيفة وكيف ينظفها ويضع الزيت فيها وكيف يعبئها ويدفنها ، وكيف يحفظ خريطة وكيف يحدد مخبأ أسلحة في دولة أجبينة .

وعندما أظهر أنه ألف أداء هذه الأعمال ، أخبره علي أن الوقت قد حان لتطبيق ما تعلمه . وذات ليلة تركوا المعسكر واتجهوا إلى طرابلس ، وذهبوا إلى شقة في الدور العلوي في مبنى مكون من ثلاثة طوابق في شارع عمر المختار . وقبل دق الجرس الموجود في الباب الأصفر الأمامي ، طلب علي من جورد أن يكشف وجهه . ولمح عدة رجال أقوياء قبل أن يدلف إلى غرفة مؤثثة بفراش واحد ، ومائدة ، وكرسي ، وبعض الكتب ، وعلى الحائط خريطة للعالم مكتوب عليها الأسماء باللغة الألمانية .

وفي تلك الليلة أعطاه علي محاضرة في النظام وقال له :

- لقد سمعت أنك تشتكي كثيرا ، وينبغي أن يتوقف هذا تماما .

ونحن نخطط لإرسالك إلى الخارج حيث سوف تكون كل حياتك تحت رقابتنا بالكامل . يجب أن ترسل لنا كل التفاصيل . وإذا قلنا لك : « اشرب الخمر » فافعل ، وإذا قلنا لك : « تزوج » فابحث عن امرأة وتزوجها ، وإذا قلنا لك : « لا تنجب أطفالا » يجب أن تطيع .

وإذا قلنا لك : « اذهب واقتل الملك حسين » ، يجب أن تكون على استعداد للتضحية بنفسك .

فقال جورد إنه مستعد لكل شيء .

واستمر علي يقول :

– دعني أضرب لك مثلا على مهمة محتملة ، فربما نطلب منك أن تذهب إلى سفارة الأرجنتين في بروكسل وتطلب تأشيرة وعلى بعد خمسين كيلو مترا في خارج بيونس آيرس ، هناك منطقة تسمى « لابلاتا » حيث توجد بعض القرى الفقيرة ، اذهب إلى قرية وابحث عن عجوز معدمة وأعطها بضع مئات من الدولارات وأخبرها أنك ابنها الذي غبت طويلا حيث كنت تعمل في أوروبا . سوف تأخذك إلى مجلس المدينة وتحصل لك على مستندات تثبت أنك ابنها . ثم تنخرط في الجيش هناك لأداء الخدمة الوطنية ، وعندما ينتهي هذا اطلب تأشيرة لدخول إسرائيل واشتر تذكرة إلى تل أبيب ، وهناك تنتظر تعليماتنا ! » .

ورتب علي تصوير جورد فوتوغرافيا ، ثم سلمه جواز سفر صالح للاستخدام صادر من اليمن الشمالية ، وعليه كل الأختام والتأشيرات والجواز باسم محمد أحمد الصالحي وإقامته في أبو ظبي ومهنته مهندس بترول . وطلب منه أن يحفظ بيانات الجواز ويتقمص الشخصية الجديدة . وزودوه بحقيبة مليئة بالملابس ، وحقيبة سامسونايت صغيرة ، وأعطوه خمسة آلاف دولار في ورق من فئة المائة دولار .

ولم يسبق لجورد أن يرى مثل هذا المبلغ من المال لذلك ظن أن هذه الأوراق ربما تكون مزيفة . وحذره علي قائلا :

– انفق بحكمه . وتذكر أن أحد مبادئنا العشرة هو الاقتصاد .

إننا منظمة صغيرة ومواردنا ضعيفة . إن النقود التي معنا هي من أجل شهدائنا ويجب أن نحرص عليها .

ولمدة ساعة أخذ يكرر على جورد الوصف التفصيلي للرحلة .

سوف يذهب إلى أثينا ثم روما ثم زيوريخ وباريس ثم إلى نيامي عاصمة النيجر الجمهورية الأفريقية ثم يعود إلى باريس وطرابلس .

وفي كل محطة من هذه المحطات سوف يقابل بعض الناس ، وهناك كلمات سر يجب أن يتبادلها وإشارات تحذير يجب أن يلاحظها .

وإذا تقدم منه رجل أسود طويل أسنانه الأمامية فضية في فندق تيامي ، وإذا كان هذا الرجل يحمل قداحة سجائر في يده اليسرى فلا يجب الاقتراب منه ، أما إذا كانت القداحة في يده اليمنى فالاتصال به يصبح آمنا . ولم يكن جورد يكتب مذكرات بهذه التفاصيل ولكن ما أرضى علي هو أنه حفظها عن ظهر قلب . وأخيرا قال علي :

- حسنا ... سوف نقوم غدا برحلة معا . تفحص حاجياتك واستبعد منها كل ما يربطك بليبيا .

كان جورد يحلم بأفريقيا وفي الصباح التالي التقى بعلي في مطار طرابلس واختبره في خط سير الرحلة . وطلب علي منه جواز السفر ودس في داخله ورقة صغيرة وسلمه لضابط في مكتب السفريات .

ولاحظ جورد أنه لم يختم الجواز ، وفي الواقع لم يكن على الجواز أي ختم يدل على ليبيا . وكان هناك تأشيرة خروج على الجواز من مطار القاهرة مؤرخة في نفس يوم السفر . وغادرا طرابلس على متن الطائرة ولكنهما لم يهبطا في أثينا كما توقع جورد ولكنهما هبطا في مالطة . وقال له علي :

- حان الوقت لكي ننفصل . أطلب تأشيرة ترانزيت لمدة ثلاثة أيام . قل لهم أنك ذاهب إلى أثينا . وقبل أن تأخذ أمتعتك اذهب إلى الحمام وتخلص من التذكرة الليبية . وغير مائة دولار بالعملة المحلية . ولا تتحدث مع سائق التاكسي فكلهم عملاء أجهزة مخابرات . وابحث عن فندق متواضع وقابلني في الثامنة صباحا في كافيتيريا هوليداي إن .

أوقف جورد عند الحاجز . ونظرت موظفة الهجرة إلى جوازه واندهشت لطلبه تأشيرة ترانزيت . ونظر فإذا بعلي يراقبه . ثم رأى عليا يتحدث مع موظف آخر يبدو أنه عربي . ومضى الرجل نحو السيدة الموجودة في مكتب الهجرة وهمس في أذنها بكلمات ثم ختم له الجواز . وقال جورد له بالعربية :

- أشكرك جدا .

ـ اصمت . لا تقل كلمة واحدة .

واستطاع جورد أن يجد فندقا رخيصا بالقرب من البحر ، والتقى مع علي في الموعد المحدد . وتناولا العشاء معا وراحا يستكشفان المدينة .

واستمر علي في تعليم تلميذه فنون المخابرات . فسأله :

ـ هل هناك أحد يتبعنا ؟ وكيف تتأكد من هذا ؟ هل الشارع نظيف ؟ ما هو أنسب مكان للمقابلات ؟ أين توجد مخارج للهرب في حالة الطوارئ ؟ من هو العدو الرئيسي : إسرائيل أم عرفات ؟

واستمرت الدروس عبر إفطار اليوم التالي . ثم اتجها نحو سوبر ماركت واشترى علي بعض صناديق من مسحوق الصابون ودستين من الأفلام . وأعطى جورد نصف الحمولة ليحملها في حقائبه . ثم اشترى تذكرتين إلى ليبيا وطلب من جورد أن يسلم النقد الباقي معه . وهنا فقط أدرك جورد أن هذه الرحلة كانت مجرد اختبار له . وأن أحلامه في السفر إلى أفريقيا قد تلاشت . وعندما هبطا في طرابلس رحب مسئول ليبي بعلي بشدة . وأخذ منهما الجوازات دون أن يختمها ، وحرسهما حتى غادرا باب المطار .

وقال علي لجورد إنه دفع لهذا الرجل ثلاثمائة دولار ليفعل هذا . ولكن جورد شك في أن تكون هذه هي الحقيقة . وعادا مرة أخرى إلى الشقة في شارع عمر المختار ، وطلب علي من جورد الأفلام ومسحوق الغسيل الذي يحمله .

واستمر التدريب فبعد أسبوع أو أسبوعين وجدا نفسيهما في بلجراد . سافر جورد هذه المرة بجواز سفر موريتاني وبنفس الطريقة لم تكن عليه تأشيرة خروج من ليبيا . وهذه المرة سافر بمفرده ومعه خمسة آلاف دولار . سافر أولا إلى فرانكفورت حيث أحرق تذكرته الليبية وألقى بها في المرحاض ثم إلى بلجراد .

وسار علي معه في المدينة وقال له عنها إنها المركز الإداري لعمليات أبو نضال في أوروبا وشاهد معه مكاتب الطيران والسفارات والمقاهي الصديقة التي يمكن أن تتم فيها المقابلات في أمان . وبعض الفنادق التي لا ينبغي أن يدخلها لأي سبب .

وأصبحت طريقة عمل المنظمة أكثر وضوحا في ذهن جورد . وقال له علي إن مصادر معقولة مخصصة لجمع المعلومات . فقبل اختيار هدف أو تنفيذ هجوم يجب جمع البيانات عن كل شخص وعن كل شيء .

وهذا هو الجانب الروتيني في عمل المنظمة ، والنشاط الرئيسي لعملائها .

وكان هناك تأكيد قوي على التصوير الفوتوغرافي ، وعمل الرسومات ، وكتابة التقارير . أما الأولوية الثانية فكانت لنقل الأسلحة إلى الدول الأجنبية ، أو الحصول عليها هناك ، ثم إخفائها للاستخدام في المستقبل . وثالثا الحصول على جوازات سفر حقيقية وكانت أكثر تقديرا من تلك التي تقوم اللجان الفنية للمنظمة بتزويرها . وأخيرا هناك التدريب فإن أبو نضال يؤمن بنقل كادراته من منهج تدريبي إلى منهج تدريبي آخر . فهو دائما يحط من قدراتهم ودائما يختبر شجاعتهم .

وفي بلجراد أنهى علي تدريبات جورد الأخيرة ، وأصبح رجلا صالحا لتنفيذ العمليات . وكان الواجب المكلف به هو الحصول على تأشيرة لدخول بلجيكا ويطير إلى بروكسل ويقيم صداقات هناك ترحب به وتساعده على الحصول على تأشيرة للدخول عدة مرات وباختصار يقيم علاقات عمل هناك تساعده على العودة دائما . وخطرت على بال جورد فكرة أن يدعي أنه تاجر سيارات مستعملة ويبحث عن عربات حالتها جيدة لتصديرها لشمال أفريقيا .

وسافر إلى بروكسل على خطوط الطيران السويسرية . وحجز في فندق صغير واستأجر سائق تاكسي – وهو رجل من أصل يوناني يسمى فيكتور روميس – ليدور به على الجراجات المختلفة في الضواحي والتي تتعامل في السيارات المستعملة . ودفع له 220 دولارا في مقابل عمل يومين ونصف . وكان يشترك معه في عمل قوائم بالسيارات ، وفي فحصها ومراجعة الأسعار والمساومة عليها ، وقاموا باتصالات كثيرة في هذا الصدد وجمعوا بطاقات عمل كثيرة . وكانت قصة جورد أنه يعمل مع شريكين في بلغراد وكان يتفحص السوق . وبعد موافقة شركائه سيعود للشراء النهائي . وطلب من التجار مساعدته على الحصول على تأشيرة للعودة . فقال

كثير منهم إن هذا بمقدورهم . وأخذه روميس السائق إلى منزله لتناول العشاء الذي تعده زوجته اليونانية والتي تبين أنها منتمية لجمعية « شهود يهوه » وبعد العشاء شاهد ثلاثتهم شريط فيديو دينيا .

وعاد جورد إلى بلجراد وكتب تقريرا مفصلا لعلي . وكان تقريرا كاملا بالأسماء والعناوين والوصف وتفاصيل عن طبيعة المنطقة . كان هذا أول واجب يقوم به بمفرده . وكان علي راضيا عن هذا . أما ما أخفاه جورد عن علي هو أنه فكر في بروكسل في الهرب . ولكن لم تكن معه نقود كافية فضلا عن أنه لا يستطيع أن يبتعد كثيرا بجواز سفر موريتاني . وعلى أية حال فبينما هو يتسكع في أوروبا على حساب شخص آخر ، ففكرة الهرب لم تعد ملحة .

العمليات الأولى :

عندما أكمل جورد تدريبه الابتدائي سلمه علي إلى رجل رفيع أسمر في منتصف الثلاثينات يسمى هشام حرب من الكادرات الأول في لجنة العمليات الخاصة . ويقال إن له موهبة خاصة في توجيه العمليات الخارجية والاغتيالات .

كانوا جالسين في مقهى ، يتحدثون معه ويتعرفون على بعضهم بعضا ، وقضوا أسبوعا معا في بلجراد . أخبر جورد حربا عن التعذيب الذي قاسى منه في المعسكر وهو ذكرى كانت تمثل كابوسا بالنسبة له . ومازال يعاني من زنين في أذنيه . لماذا فعلوا هذا ؟ ماذا كان الهدف ؟ ولم يكن جورد مسرورا عندما رد عليه حرب أنه ضرب هكذا ليس بسبب الشك في خيانته ولكن لأنه كان يشكو كثيرا . وهو شكل من أشكال التدريب ولا يجب أن يشعر بالمرارة . لقد قاسى غيره أكثر من هذا . ولقد أصبح الآن كادرا موثوقا به وأمامه الفرصة ليثبت نفسه .

وأفشى حرب لجورد أسرار بعض المنضمين إلى المنظمة . فشرح له تاريخ وبناء المنظمة . ومهمة كل إدارة ولجنة ، وفي وسط هذا كله يوجد الصفوة ، إدارة المخابرات التي هو الآن عضو فيها . وزعم أنها هي الأداة الفعالة الوحيدة في الكفاح الفلسطيني والقوة المنظمة الوحيدة . إنها تجعل العالم يرتعد . أما الفرق الفلسطينية

الأخرى فقد أقامها مهرجون . لا يهمهم سوى حماية امتيازاتهم ومستعدون لبيع القضية في أول فرصة تسنح . وسأله :

– هل تستطيع أن تقتل رجلا إذا طلبنا منك هذا ؟

فأجابه جورد إنه سيطيع أي أوامر يتلقاها .

فأعطاه حرب كاميرا غالية من طراز نيكون ، فيها عدسة زوم وشرح له طريقة تشغليها وقال له :

– أنت رجل موهوب ، سوف نستخدمك لمدة عشر سنوات وبعد هذا فأنت حر تذهب حيث تريد .

وكان أول واجبات جورد سهلا نسبيا ، فقد وجد نفسه يستعير جدول مواعيد طائرات « وهو الأمر الذي لا تشبع شهية المنظمة له » من مكاتب السياحة ، يصور السفارات والقنصليات الإسرائيلية والأميريكية ومكاتب الطيران في عدة مدن أوروبية . ويتجول حول هذه الأهداف المحتملة في سيارة تاكسي ويدرس دفاعاتها . وفوق كل هذا يسرق أو يشتري جوازات سفر . ففي باريس تمكن من الحصول على ما لا يقل عن أربعة : اثنان فرنسيان وواحد أمريكي والآخر جزائري . واكتشف أن نوادي الديسكو مكان مناسب للصيد لأن السياح تعودوا خلع معاطفهم أثناء الرقص . والتقى ببعض المعارف الجزائريين الذين ساعدوه على شراء بندقية إيطالية . وقد صورها بعناية ليثبت أنه قد حصل عليها ثم دفنها في حديقة عامة . وفي عيد الميلاد عام 1987 نفد منه المال فأرسل رسالة شفرية إلى طرابلس ليعلن عودته وطار من زيوريخ على الطيران السويسري .

وقابله نفس المسئول الذي سبق أن قابله هو وعلي وسأله :

هل معك شي تريد إعلانه ... لا تقلق ، تستطيع أن تخبرني فكلانا يعمل لحساب منظمة واحدة .

وبعد قليل من التردد أخرج له جورد الجوازات المسروقة .

فأخذها الرجل بعيدا ثم عاد ولوح لجورد وخرج به من المطار . وأخذته سيارة إلى نفس الشقة في شارع عمر المختار ، حيث كان هشام حرب ينتظره ليستخلص منه المعلومات . وأعطاه جورد الأفلام ، والرسومات ، وجوازات السفر . ولكنه عندما أخبر حرب أنه أطلع زميلهم في المطار على جوازات السفر ، طار حرب غضبا وقال له :

– إنك أحمق . غبي أحمق . إنك تستحق علقة . لقد بددت كل الرحلة .

وكان جورد يشعر بالخزي عندما تركوه في عالم النسيان شهورا طويلة .

وكعادة المنظمة كان أول واجب كلف به هو أن يكتب تقريرا ينقد فيه نفسه ويقترح عقوبته . واقترح لنفسه عقوبة أكثر قسوة مما تعودوا . كانت العمل في بناء الموقع لمدة شهر . وأربع ساعات زيادة في أعمال الحراسة كل ليلة لمدة عشرة أيام . وساعتين من التدريبات البدنية يوميا بدلا من ساعة مما يعني أن يستيقظ في الرابعة يوميا ، وأن يكتب مقالين لمجلة المنظمة الداخلية « الطريق » أحدهما عن الحماقة والثاني عن المزاج السيئ . وربما كانت هذه الروح هي التي جعلت هشام حرب يتنازل عن العقوبة ويرسله للحصول على تدريب على الأسلحة حيث أتقن العمل على « البراونتج » ، و « الاسكوربيون » ، و « كلاشنيكوف م 16 » ، والسلاح الأمريكي « آر . بي . جيه » .

ولم يكن جورد متأكدا هل هذه ترقية أم عقوبة ؟ ولكن بعد فترة قصيرة سلمه حرب جواز سفر تونسيا باسم شعبان عبد الماجد بلقاسم وأرسله ليصور ويكتب تقارير عن المعابد اليهودية في إستانبول . وحذره حرب أن هذه ستكون خطيرة لأن البوليس التركي والمتحمسين من المجتمع اليهودي أصبحوا حذرين بعد الهجوم القاتل الذي وقع منذ عامين على أكبر معبد في إستانبول « نيف شالوم » . فقد تظاهر اثنان من المنظمة بأنهما مصوران ودلفا إلى المعبد وأغلقا الباب من الداخل بقضيب من الحديد وفتحا النار على المصلين ثم نسفا أنفسهما . ومات في هذا الحادث واحد وعشرون من المتعبدين اليهود وجرح أربعة آخرون . وأعلن شيمون بيريز رئيس وزراء

إسرائيل في ذلك الوقت أنه « سيقطع أذرع فاعلي هذه العملية ، فمنذ النازي لم نر قتلة بهذا المستوى » . والمنظمة تريد الآن أن تعرف كيفية الدفاع عن هذا المعبد والمعابد الأخرى . هل هناك فحص خاص للداخلين إليه ؟ هل هناك تفتيش ؟ هل هناك حرس مسلحون ؟ وطلبوا من جورد أن يزور المقابر التي دفن فيها اليهود . ويصورها . ويحدد الموقع بالرسوم . ونصح حرب جورد أن يدعي أنه يهودي تونسي وعلمه بعض الكلمات العبرية وكذلك طريقة الصلاة وسلمه غطاء للرأس .

وبعد ثلاثة أسابيع عاد جورد إلى طرابلس ومعه تقرير كامل واستعاد سمعة شجاعته الكبيرة . فعلى أوتوبيس سياحي صادف مرشدة وعرف أنها يهودية وأنها تساعد المتقين وكانت ذات نفع كبير له . ولكن هشام حرب طلب منه أن يضيف صفحة للتقرير يضمنها نقدا ذاتيا لتصرفاته في الرحلة لأنه أنفق الكثير من أموال المنظمة في وقت قصير .

الهدف السعودي :

في سبتمبر 1988 أخبر هشام حرب جورد أنه يجهزه لمهمة غاية في الأهمية . سوف يقضي في تايلاند عاما يتعلم في خلاله اللغة ويتزوج من امرأة تايلاندية « ويفضل أن تكون من العاملات في مستشفى ، أو أجزخانة ، أو إحدى شركات الطيران ، أو بنك » ، ثم يتخذ إجراءات الحصول على الجنسية إذا كان هذا ممكنا . ويجد مخبأ للأسلحة على مدى قريب من بانكوك . والهدف الرئيسي الذي يوجه إليه انتباهه هو الوجود السعودي في بانكوك : رجال الأعمال السعوديون ، الخطوط الجوية السعودية ، وبالذات هيئة الدبلوماسيين في السفارة السعودية . الذين يجب أن يكتب عنهم تقريرا مفصلا وسجلا بالصور ، وكان واضحا لجورد أن أبو نضال ينوي أن يشن هجوما وربما اغتيالا لهدف سعودي في تايلاند .

وعلى مدى سنوات طويلة ، كان أبو نضال – نبي العنف الفلسطيني – على عداء مستحكم مع الأسرة السعودية الحاكمة ، وهي تعتبر بطل العالم العربي في الأستقرار والمحافظة . وفي الواقع كانت أول عملية لأبو نضال بعد انفصاله عن فتح

هي هجوم على السفارة السعودية في باريس ، في سبتمبر عام 1973 والتي أخذ فيها اثنان من الدبلوماسيين السعوديين رهينتين .

ولاشك أنه سيصعد هجومه على المصالح السعودية عبر السنين إذا وافقت على ذلك الدولتان اللتان تتوليان رعايته وهما العراق وسوريا .

العراق منذ أوائل السبعينات وسوريا منذ أوائل الثمانينات . ومع ذلك فمنذ عام 1985 وبعد ذلك عندما أصبحت ليبيا كفيله الرئيسي فلم يعد في حاجة إلى موافقة العراق أو سوريا وبدأ في إصدار التهديدات للسعوديين الذين صور له مرض جنون الاضطهاد الذي يعاني منه أنهم مصدر جميع المؤامرات التي تحاك ضده .

وكان السعوديون منزعجين إلى حد أنهم كانوا يبحثون عن قنوات للاتصال به .

وبعد كثير من الاتصالات السرية وافقت المخابرات الجزائرية على أن تدبر هذا الأمر . ولم يكن أبو نضال يطمع في علاقات سياسية مع الرياض ، فقد كانت خلافاتهما عميقة إلى حد لا يجعلها قابلة للمناقشة .

ولكنه كان يتوقع أن يشتريه السعوديون . وكانت وجهة نظره أنهم يدفعون لمنظمة التحرير الفلسطينية مبالغ كبيرة فيجب أن يحصل على نصيبه أيضا .

وأخيرا رتبت المخابرات الجزائرية زيارة يقوم بها أبو نضال للملكة السعودية في عام 1987 ، وعاد المبتز من هناك بأول دفعة ثلاثة ملايين دولار نقدا .

ولكن خطأ واحدا تسبب في نسف هذه العلاقة الناشئة . فقد قبل العرض السعوذي بطائرة خاصة تعود به إلى الجزائر ، معتقدا أن مثل هذه المعاملة سوف تعزز رصيده عند الجزائريين ، ولكن حذره الطبيعي من المؤامرات ضده جعله يطلب أن يركب أمير سعودي معه على نفس الطائرة . ولقد أخبرني أحد الهاربين من منظمة أبو نضال أن أميرا شابا قبل هذه المهمة . وسمع الأمريكان بأمر هذه الرحلة وضغطوا على الرياض لإيقاف العلاقات معه . ومعنى هذا عدم دفع مبالغ أخرى لأبي نضال مما جعل غضبه يتجاوز كل الحدود . وكان الأمر في نظره أن السعوديين عقدوا صفقة معه ولكنهم لم يحافظوا على كلمتهم .

وبدأ الانتقام ، فهاجم بعض الأهداف السعودية البسيطة . ففي 25 أكتوبر 1988 قتل عبد الغني بدوي السكرتير الثاني في السفارة السعودية في أنقرة . وبعد شهرين وفي 27 ديسمبر جاء دور حسن العمري نائب القنصل السعودي في كراتشي . أما في أوروبا الغربية حيث اتخذت إجراءات فعالة مضادة للإرهاب فقد أصبحت مكانا خطيرا للإرهابيين ، مما دفع أبو نضال إلى البحث عن دول شرطتها أقل كفاءة . لذلك اختار تايلاند كهدف ثالث وكانت هذه هي مهمة جورد .

وكان جورد يعلم أنه لن يكون بمفرده . فسيكون معه شركاء في الظل في تايلاند ، ويستطيع أن يخمن من تكون شخصياتهم وأين تكون مواقعهم . وطبقا لإجراءات المنظمة فإن الهجوم يتطلب تعاون عدة عناصر .

أولا : أحد السكان في المنطقة وإمدادهم بخبرة المخابرات عن الهدف .

ثانيا : مشرف ، يطير إلى هناك في الوقت المناسب ، ويفحص الهدف بالتفصيل ، ويقدم دراسة جدوى ، وبعد الاستشارات مع القيادة في القاعدة يصل إليهم شريك ثالث .

هذا هو تكوين فريق الضرب . يتكون عادة من ثلاثة أعضاء وقائد ، وعمله هو اتخاذ القرار . أين ينبغي أن يكون الهدف الذي سنهاجمه ، في مكتبه أو في منزله أو في الشارع ؟ كيف يستخدم الفريق ؟ من الذي سيطلق الرصاصة المميتة ؟ ومن الذي سيغطيه بالنيران ؟ ما هو أحسن مدخل للمكان ؟ . وكل عضو من أعضاء الفريق يسافر بمفرده ثم يتصل بالمشرف ، الذي سوف يوفر له مكان الإقامة . ولا أحد من أعضاء الفريق يعرف الشخص المقيم ولا مكان الأسلحة . وعضو الفريق يعرف الآخرين بأسمائهم الشفرية ولا يعرف بأي أسماء سافروا .

ورابعا : وأخيرا هناك « الوسيط » وعادة يكون كادرا عالي الرتبة وعمله الرئيسي جمع الأسلحة من الشخص المقيم ويسلمها للمشرف . وأحيانا لا يقابل « الوسيط » الشخص المقيم بل يأخذ الأسلحة من نقطة سبق الاتفاق عليها . وفي اللحظة التي يتم فيها تسليم الأسلحة يغادر « الوسيط » البلدة ، لكي يحمي مخبأ الأسلحة

وحارسها . والمشرف لا يعرف الشخص المقيم وكل اتصاله يكون « بالوسيط » . فإذا فشلت العملية وقبض على الفريق فلا يعرف البوليس الشخص المقيم ولا مكان الأسلحة . وإذا نجحت العملية فإن المشرف يعيد الأسلحة إلى مكان يتم الاتفاق عليه حيث يأخذها الشخص المقيم ويخبئها لعمليات أخرى في المستقبل .

وبينما كانوا يعطونه التعليمات باختصار ، انتعشت آمال جورد في الهرب . ومن المؤكد أنهم سيعطونه جواز سفر لائقا ومبلغا محترما يكون به نفسه في تايلاند . وكانت خطته أن يهرب بالمال ويختفي تحت الأرض ، ربما في أسبانيا حيث يأمل في أن يعود لحياة الإجرام الحرة السابقة .

وأمضى جورد معظم شهر أكتوبر 1988 يتعلم عن جنوب شرق آسيا ، وبالذات تايلاند . وقرأ الكتب والمذكرات المختصرة والخرائط . وكانت التعليمات معلومات تمهيدية عن أشخاص السفارة السعودية بالشفرة ، مكتوبة بالحبر السري ، وموجهة لشخص معين اسمه سليمان طه . صندوق بريد رقم 83476 طرابلس – ليبيا . وكان عليه أن يوقع رسائله باسم سامي طه . وأعطي تعليمات حذرة أين سيقابل ويتعرف على الشخص الذي سيسلمه النقود والأسلحة والتعليمات .

وعندما استعد للذهاب أعطاه هشام حرب جواز سفر يمنيا شماليا باسم هادي عبد الله الداوودي ، وخمسة آلاف دولار فقط نقدا ، وتذكرة ذهاب فقط على الطائرات الليبية إلى فيينا ، مما سبب له خيبة أمل . وطلب منه هشام ألا ينفق أكثر من خمسة عشر دولارا يوميا في فندق في بانكوك وعشرين دولارا يوميا لتكاليف المعيشة ، ومرة أخرى تبخرت أحلامه في هروب بكمية كافية من المال .

وفي نهاية أكتوبر 1988 سافر إلى فيينا وعندما وصل حرق تذكرته كالتعليمات . وكان خاتم الجواز يشير إلى أنه سافر من عمان . ثم سافر بعد ذلك إلى بلجراد . وطلب تأشيرة من سفارة تايلاند . فطلبوا منه إبراز تذكرة عودة مما كلفه ألفا وسبعمائة دولار ، وحصل على تأشيرة سياحية .

وسافر جورد رحلة طويلة إلى بانكوك . وقضى ليالي قليلة في فندق رخيص ،

وتنبه إلى حاجته للادخار فاستأجر غرفة . وفي خلال أيام التحق للدراسة بمدرسة لغات تسمى الجامعة الأميرية وكان اسمه ماركو الداوودي . وقال إنه يدير محل فيديو في ميلان حيث يعيش مع أمه الإيطالية المطلقة . ثم أرسل إلى طرابلس تقارير وأفلام عن موظفي السفارة السعودية الذين كان يقضي فترة بعد الظهر في مراقبتهم . وبدأ المال يقل في يده وأرسل رسائل شفرية إلى طرابلس أولا بالخطابات ثم بالبرقيات يطلب المساعدة والتعليمات . وكان ينتظر طويلا في الأماكن المحددة للمقابلات . مرة في مكان أمريكي يقدم فيه الآيس كريم ومرة في مطعم الخدمة فيه ذاتية يسمى « طعام المدينة » أو في فندق أمبسادور ولكن لم يظهر له أي رسول . فلجأ إلى الشيء الذي يعرفه جيدا ، النشل . فتجده يصادق الناس في البارات ثم يسرق ما معهم . وعرف طريقه إلى طبقة رجال الأعمال في تايلاند الذين ساعدوه وكانوا يدفعون له ثمن الوجبات ؛ فقد كان جذاب الحديث يحسن رواية النكات . ثم التقى ببعض المجرمين الذي رغبوا في بيع أسلحة له .

ولكن لم تكن معه نقود ليشتري الصفقة . وظلت طرابلس صامتة .

هل قرروا إهماله ؟ هل ظنوا أنه عميل مزدوج ؟ هل أرسلوا به للتمويه بينما العمل الحقيقي في مكان آخر ؟ هل حدث خطأ ما في اتصالاته ؟ هل اعترضهم شيء منعهم من التنفيذ ؟ وظل يفكر في خوف وقلق .

وذات ليلة تورط في عراك وطعن في صدره بزجاجة مكسورة . وأنقذه أصدقاء من تايلاند وأخذوه إلى المستشفى للعلاج ودفعوا التكاليف .

وفي يوم 4 يناير 1989 أطلق مجهول الرصاص على صلاح المالكي السكرتير الثالث للسفارة السعودية في بانكوك . وكان صلاح المالكي أحد الرجال الذين تعقبهم جورد وأخذ صورا لهم . وأعلنت منظمة الجهاد الإسلامي في بيروت مسئوليتها عن الحادث ، ونسب بعض المراقبين الأجانب الحادث إلى إيران . ولكن جورد كان يعرف أكثر منهم .

وفي أعقاب الحادث اعتقل جورد وسط عملية اعتقال واسعة للعرب . واستجوبه

البوليس وفتش غرفته . ولكنهم لم يجدوا شيئا ضده وأطلق سراحه بعد ثمان وأربعين ساعة . وطلبوا منه مغادرة تايلاند حيث إن تأشيرته تنتهي يوم 8 مارس . وكما كان يحدث دائما في حياته ، عندما يجد نفسه في شدة يلجأ إلى شقيقه ، عبد الله للمساعدة . وعن طريق مكتب الخطوط الكويتية أرسل له عن ظروفه . وجاء أخوه المخلص إلى بانكوك وأعطاه هدية تسعمائة دولار تكفي لذهابه إلى روما يوم 8 مارس . ثم يضيع في أي مكان في أوروبا .

لم تكن لديه رغبة في العودة إلى طرابلس ، العودة إلى مصير غامض لعميل يعمل لحساب أبو نضال . إنه في حاجة إلى مكان يؤويه . ويخشى أن تتعقبه المنظمة إذا ذهب إلى أحد الأماكن التي تعود عليها في بلجراد أو بروكسل أو برشلونه . فبعد أن عمل لحساب أبو نضال أصبح منبوذا من المجتمع الفلسطيني . إن عالم الطوائف الفلسطينية السياسية المعقد ليس له حدود . ولن يثق به أحد بعد ذلك ، ولن يستطيع بيع معلومات عن المنظمة إلى أجهزة المخابرات الغربية دون أن يصبح رجلا معروفا وهدفا للانتقام ، لذلك وببساطة اختار جورد الاختفاء .

ولكن لماذا تخلت عنه المنظمة ؟ علم جورد أخيرا أنه أثناء غيابه حدثت انفجارات داخل المنظمة بعد أن كان أبو نضال يحكم قبضتة عليها .

وذلك لأسباب سوف نشرحها . فقد اقتنع أنه محاط بجواسيس وخونة . فأمر بإعدام اثني عشر رجلا ، ومن بين الضحايا كان قائد جورد وقائد المعسكر حسام يوسف . اتهمهم بالتآمر على القيام بثورة واغتيال القائد ، وأثناء هذا الصراع ، نسوا جورد .

الفصل الثاني

وساوس أبو إياد



وساوس أبو إياد

انتهى إنذار الأمم المتحدة النهائيّ إلى صدام حسين في منتصف ليلة 15 يناير 1991 . وفي ظرف ساعات كانت عاصفة الصحراء تحطم العراق بوحشية وكأنها عمل من أعمال الطبيعة . وفي الليلة السابقة للموعد النهائيّ في السابعة من صباح يوم 14 يناير كان أبو إياد – كثير المشاغل ورئيس مخابرات منظمة تحرير فلسطين – قد طلب سيارة مرسيدس ضد الرصاص وطلب من السائق أن يذهب به بعيداً عن مكتبه في مدينة تونس إلى منزل رئيس الأمن في فتح ، هايل عبد الحميد « أبو الهول » والذي عاد قبل يوم واحد من بغداد مع ياسر عرفات .

كانت منظمة التحرير تحاول بجنون أن تغير اتجاه الحرب في الخليج وهي الحرب التي كان أبو إياد يعلم أنها موشكة . وطوال هذا اليوم قام عرفات باستشارات قلقة في تونس مع مبعوثين فرنسيين وإيطاليين وجزائريين . وهو الآن في طريقه إلى بغداد ليرجو صدام حسين أن يعلن استعداده للانسحاب من الكويت . لقد أيد عرفات صدام ، ولكنهم يعرفون أن الحرب سوف تدمرهم جميعا .

ولفزع عرفات كان ديكتاتور العراق عنيدا متشبثا . لقد أعمته القدرية أو أعماه الكبرياء في تلك الساعات الحرجة القليلة . ومتحديا القوات الكبيرة المصطفة في مواجهته فقد بدا أنه يعتقد أن الحلفاء لن يجرؤا على مهاجمته ، وإن هم فعلوا فسوف تصدهم قواته . أما أبو إياد القلق فقد أراد صورة مباشرة من أبو الهول عن حالة صدام النفسية غير الواقعية والمزعجة . وأراد أيضا أن يستعرض خطط المنظمة في حالة الحرب .

وكانت فيلا أبو الهول في ضواحي قرطاج على مسيرة نصف ساعة بالسيارة من مكتب أبو إياد . وصحبه أحد رجال المخابرات فخري العمري . وسمح أحمد سعيد المسئول عن الأمن الشخصي لأبو الهول ، لأبو إياد بالدخول . وكان هناك عشرة

حراس آخرين قائمين بالعمل ، فهناك واحد أمام الباب وآخر عند المدخل الخلفي . والتف الباقون في غرفة صغيرة بجانب مدخل الحديقة حول تليفزيون صغير أحضره سائق أبو إياد من السيارة . وكانت ليلة باردة ممطرة . وفي داخل الفيلا وفي غرفة الحرس كان الجميع يتحدثون عن أزمة الخليج . وكان أبو إياد وأبو الهول يعلمون أن صدام كان يقامر بمصيرهم . ولكن الرجال في غرفة الحرس كانوا فرحين فقد استطاع بطل عربي أن يتحدى إسرائيل والغرب .

مصرع أبو إياد :

كان الحرس حول المنزل متباطئا كما هي عادة منظمة تحرير فلسطين في شئونها الداخلية . وكانت مدافع كلاشنكوف متروكة في السيارة في الخارج أو مكدسة في خزانة جانبية . وكان فؤاد النجار – الحارس الخاص لأبو إياد – لم يصل مع سيدة ، ولكنه وصل متأخرا حوالي ساعة ، حيث كان قد ذهب ليسوي بعض المشاكل الخاصة به مع صاحب المنزل . ثم ساق السيارة وذهب إلى رجل بخصوص سيارة « بي إم دابليو » كان قد وضع عينه عليها . ثم ذهب لإحضار غذاء لأحد الحراس .

وكان حمزة أبو زيد واحدا من هؤلاء الحراس الثائرين . خرج حمزة من غرفة الحراسة وافتعل مشاجرة مع علي قاسم ، الرجل الذي يحرس الباب الأمامي للفيلا وحدثت جلبة جعلت أحمد سعيد يخرج إليهم ويطلب منهم الصمت . وبحجة أخذ منديل ورقي من الصندوق بداخل السيارة فتح حمزة باب سيارة أبو إياد المرسيدس وحاول علي قاسم أن يوقفه . فراهنه حمزة أن رصاص الكلا شنكوف يمكن أن يخترق السيارة المدرعة . فتحداه علي أن يفعل .

وظلا يتشاجران حتى انفصلا . فزعم حمزة أن المصباح فوق الباب الأمامي يتذبذب وطلب من علي قاسم أن يدق الجرس ويطلب من أحدهم تغييره ، ولكن علي قاسم دفعه بعيدا .

وبعد لحظات ، ابتعد علي قاسم فذهب حمزة إلى الباب الأمامي ودق الجرس

بنفسبه . وفتحت خادمة الباب فدخل . كانت الساعة الحادية عشرة إلا الربع مساءً .
وتوقع علي قاسم أن يخرج أبو الهول ويوبخ حمزة لإزعاجه ، وبدلا من هذا سمع طلقات الرصاص تدوي داخل المبنى . وصاح طاليا النجدة .

وبحث الحراس عن أسلحتهم وتفرقوا إلى مواقعهم معتقدين أن الهجوم يأتي من الخارج . واستغرق الأمر بعض الوقت ليدركوا أن إطلاق الرصاص كان يأتي من داخل المنزل .

كانت زوجة أبو الهول نائمة في فراشها وأيقظها فجأة صوت الرصاص قادما من غرفة المعيشة تحتها . لقد ضرب حمزة أبو إياد في رأسه وصرع فخري العمري الذي كان يحاول الاختباء خلف أريكة وسمعت حمزة يصيح عدة مرات « دع عاطف أبو بكر يساعدك الآن ! » ثم سمعت زوجها يصيح :

- ماذا فعلت يا حمزة ؟

وهنا انطلقت عدة رصاصات وحاول أبو الهول أن يصل إلى الباب ولكنه حمزة عاجله برصاصة في رجله ثم في المعدة عن قرب .

أسرعت زوجة أبو الهول إلى الغرفة الملحقة حيث وجدت ابنتها ذات السبعة عشرة ربيعا مكومة في سريرها . فأخذتها بين ذراعيها وسمعت أقدام تصعد السلم . واقتحم حمزة عليهم الغرفة وأغلق الباب وراءه وصاح بهم :

- إن الإسرائيليين هنا لقد قتلوا أبو الهول .

لقد قتل الفدائيون الإسرائيليون أبو جهاد المسئول العسكري بالمنظمة منذ ثلاثة أعوام ، وربما صدقت المرأة حمزة في كلامه .

وصاحت زوجة أبو الهول :

- هل هو حي ؟ دعني أدخل وأراه .

- لقد جرح ، ولا تسأليني أكثر من هذا .

جلست المرأتان معا على الأرض في أحد الأركان ، الابنة تصرخ والأم تحاول

تهدئتها ، بينما حمزة يجول في الحجرة صامتا ، وأخذ يلتقط أشياء صغيرة من مائدة زينة الفتاة ، وكان يفحصها ثم يضعها مرة أخرى ثم يحدق من النافذة . رأى البرق وسمع الرعد وكان المطر يتساقط ، كان الظلام شديدا في الخارج ثم سأل الفتاة :

هل هذا سريرك ؟

فلم تجبه الفتاة فكرر السؤال فطلبت الأم من الفتاة أن تقول له نعم .

أخذ يصيح بغضب :

– لماذا ليس لي سرير مثل هذا ولا مكتب ولا غرفة ؟

لأنني لست ابن أحد القطط الفلسطينية الثمان .

وأخذ يسب في المنظمة وقائدها كلهم عملاء ، خونة ، مأجورون ، كتلة من الفساد . وسمعته زوجة أبو الهول يسب عاطف أبو بكر أحد المنشقين من منظمة أبو نضال ، وأقسم أن يقتله . ثم أخذ مظروفا من جيبه وبحث فيه عن حبة ابتلعها ثم ابتلع أخرى وأخرى على مدى الخمس ساعات التي احتجزهم فيها كرهائن .

وسمعوا سيارات تتوقف أمام المنزل ، ووقع أقدام هنا وهناك . لقد وصل البوليس التونسي . كانا أبو إياد والعمري قد ماتا . أما أبو الهول الذي نزف كثيرا فقد مات في المستشفى على مائدة العمليات .

في الدور العلوي كان التليفون يدق ويدق . وأخيرا أجابه حمزة . كان هادئا وسمعته زوجة أبو الهول يقول :

– لقد قتلت أبو إياد وأنا احتجز الآن عائلة أبو الهول كرهائن . ولن أطلق سراحهم إلا إذا أتيتني بعاطف أبو بكر . لدي رسالة له .

وغمر البوليس التونسي المكان بالضوء واستخدم مكبرات الصوت ينادي حمزة .

– حمزة ، اترك النساء ولا نريد شيئا منك .

وأخذوا يكررون الرسالة نصف ساعة . ثم ساد الصمت وكان حمزة يخرج الأقراص من مظروفه ويبتلعها .

في ساعات الصباح الأولى ناداه البوليس ليقولوا له إنهم يريدون التفاهم معه . ماذا كانت مطالبك . لقد طلب منهم طائرة تقله إلى خارج البلد . فقالوا له إنهم يحتاجون إلى تصريح من سلطات أعلى . وعندما عادوا قالوا له إنهم في حاجة إلى بعض معلومات عن شخصيته . فاقترح أن يلقي إليهم ببطاقته الشخصية من النافذة . فقالوا إن المطر سيتلفها . ثم اتفقوا على أن يسلمهم البطاقة من خلال فتحة صغيرة في الباب الأمامي . ثم سمعته زوجة أبو الهول يغلق الباب ويعود إليهم يجر أقدامه ثم سمعت مدفعه يسقط على الأرض فاندفعت نحوه فوجدته ممددا على السلم فاقدا الوعي . واكتشفت بعد ذلك أن البوليس وجه إليه غازات . وأسرعت بفتح الباب فدخل البوليس .

تاريخ حياة قاتل :

كان حمزة أبو زيد شابا فلسطينيا آخر له ماض مضطرب ، كان جورد آخر ، وكما هو مدون في ملفات المنظمة ، كان عنوانه الدائم هو :

محل مصطفى سليم
خلف مدرسة البنات
معسكر اللاجئين واهدت
الأردن

ولد في معسكر واهدت عام 1963 وقضى التسعة عشر عاما الأولى من حياته هناك . هربت عائلته من فلسطين في عام 1948 .

وتركوا موطنهم « سفريه » بالقرب من يافا في مواجهة الجيوش الإسرائيلية المغتصبة .

ولقد حصلت على مذكرتين داخليتين للمنظمة من رفيق لأبو إياد واستطعت أن أتعقب حياة حمزة المستهترة في عشر السنوات السابقة لقتل أبو إياد ورفيقيه في تونس . وهي تكشف الكثير عن عمل المنظمة كما تكشف من حمزة نفسه .

– في يولية 1982 عبر حدود الأردن إلى سوريا بطريقة غير شرعية لكي ينضم

إلى صفوف فتح . ولكن السوريين قبضوا عليه عند الحدود . ولما لم يجدوا شيئا ضده سلموه لفتح فوضعوه في كشف المرتبات وأرسلوه إلى معسكر صلاح الدين بالقرب من دمشق .

– في أكتوبر 1982 أرسل إلى يوغوسلافيا في تدريب مدته عشرة أسابيع على استخدام الأسلحة وواجبات الأمن وعاد إلى دمشق في ديسمبر .

– في فبراير 1983 ، أرسل إلى باكستان كحارس أمن لمكتب المنظمة هناك .

– في سبتمبر 1984 قضى أجازة لمدة أسبوعين في مقر المنظمة في تونس .

– في أكتوبر 1984 أرسل إلى بلغاريا كحارس أمن في مكتب فتح ولكنه لم يكن ملتزما بالنظام فأعيد إلى تونس في نوفمبر حيث اعتقلته فتح لمدة شهر .

– في 1985 أرسل إلى قبرص كحارس أمن في مكتب المنظمة . ولكن بعض رجال المخابرات الفلسطينية كانوا حساسين لأي اختراق إسرائيلي واعتقدوا أن أحد عملاء الموساد تنكر في زي عضو من أعضاء أبو نضال واقترب منه لينشق عن المنظمة ومع ذلك فقبل نهاية العام أعيد إلى الاعتقال في تونس لسوء السلوك .

وأطلق سراحه عام 1986 وعمل كحارس أمن في مقر المنظمة في حمام الشط . ومرة أخرى سبب المتاعب وأنه لا يعتمد عليه فتقرر إرساله إلى لبنان وحيث إنه لم تكن هناك وسيلة نقل جاهزة اتخذ أبو الهول مسئول الأمن في فتح قرارًا غير عادي بتعيينه حارسا خاصا له في منزله .

وبعد ثلاثة شهور فر حمزة إلى العراق مع حارس أمن آخر وتمكن من العمل في مكتب فتح في بغداد وعندما أغلق هذا المكتب عام 1986 تفرق موظفوه ووجد حمزة نفسه في الحجر .

عند هذه النقطة من حياة حمزة لم تعثر المنظمة على تاريخ حياة له ولكنهم يعلمون أنه قضى ثمانية عشر شهرا يتجول في أوروبا الشرقية في بودابست ووارسوا حيث قضى واحدا وعشرين يوما في السجن بسبب السرقة ، وبراج وبلجراد .

وكانت لأبي نضال في بلجراد قاعدة مميزة أفضل من تلك التي في قبرص عام 1985 فجنده أبو نضال .

– في يولية 1988 وصل حمزة إلى الفلبين باسم مستعار واتصل برئيس اتحاد الطلبة الفلسطينيين في مانلا وقال له إنه سيركب على سفينة يونانية ليهاجر إلى أستراليا . وطلب منه أن يقدمه إلى مكتب فتح . ولكنه لم يصدق قصته وشك أنه يعمل لحساب منظمة معادية . فاستبعده موظفو المنظمة المحليون .

وفي مانلا عاش مع بعض الطلبة الفلسطينيين يقترض منهم مبالغ صغيرة ليعيش وكان أحد الأولاد يمتلك مسدسا والآخر يمتلك بندقية أم – 16 . وذات يوم سرت إشاعة أن الجنرال آريل شارون – وهو بالنسبة لهم الشيطان مجسد – سوف يصل إلى المدينة فصمموا على اغتياله وراقبوا السفارة الإسرائيلية لهذا الغرض . ورأى أحدهم إحدى سيارات السفارة وشخصا يركب في الخلف مثل شارون . فاستأجروا سيارة خاصة بهم وحملوها بأسلحتهم وقضوا يوما وليلة في ذهاب وإياب بين السفارة الإسرائيلية والفندق الرئيسي ووزارة الخارجية يبحثون عن شارون ولكن عبثا .

– وفي فبراير 1989 غادر حمزة الفلبين يائسا كما قال صديقه في الغرفة . ولا يوجد سجل للمكان الذي ذهب إليه بعد ذلك . ثم ظهر في ليبيا في ربيع 1990 . وزار مكتب المنظمة في طرابلس عدة مرات طالبا العمل عند أبو الهول .

– وفي مايو 1990 ذهب أبو الهول إلى ليبيا ليحضر حفل تأبين أبو جهاد المسئول العسكري عن المنظمة والذي قتله الإسرائيليون في تونس في أبريل 1988 . وتمكن حمزة من مقابلة أبو الهول وارتمى عند قدميه يبكي ويستعطف أن يعود مرة أخرى للعمل . فأخذت أبو الهول الشفقة وأعاده معه إلى تونس حيث عينه حارسا خاصا في منزله .

– في أكتوبر 1990 تذرع برؤية أخته التي لم يرها منذ مدة طويلة وحصل حمزة على إجازة لمدة أسبوعين ليذهب فيها إلى ليبيا . وقد أخبر المحقق أنه في ذلك الوقت كلفه أحد رجال أبو نضال ويسمى غالب بقتل أبو إياد . وقال إنه لم يكن يريد

أن يفعل ذلك ولكنهم أخبروه أن أبو إياد هو مصدر كل الفساد في الحركة الفلسطينية ، فهو الخائن الذي استخدم المنشق عاطف أبو بكر . يجب أن يموت أبو إياد لكي تعيش الثورة الفلسطينية .

أما بخصوص أبو بكر فسوف نتكلم عنه كثيرا بعد ذلك .

بعد حوادث القتل في فيلا أبو الهول ليلة 14 يناير 1991 قبض البوليس التونسي على حمزة أبو زيد وحقق معه . ولم يسمح لرجال المنظمة أن يشتركوا في التحقيق ولم يعطوهم نسخة مما قاله حمزة . فقد خشيت السلطات التونسية أن حادث القتل ربما يكون مقدمة لغارة إسرائيلية أو ربما ينتج عنها ثورة شعبية .

حيث كان التونسيون في جانب العراق في أزمة الخليج . ولقد جربوا العدوان الإسرائيلي في أكتوبر 1985 عندما أغادرت الطائرات الإسرائيلية على مقر عرفات في تونس ومرة أخرى في أبريل 1988 عندما قتل فريق محمول بحرًا أبو جهاد في منزله لذلك كانوا قلقين من أن هذا يمكن أن يتكرر مرة أخرى .

ولكن عرفات لم تكن عنده هذه المخاوف . فحمل الأمر إلى الرئيس التونس ابن علي الذي أمر في فبراير 1991 بتسليم حمزة إلى المنظمة لمحاكمته . وكان المطلوب هو نقل حمزة خارج البلاد حتى لا تتم مثل هذه المحاكمة في تونس . وأعلن طبيب المنظمة الذي فحصه أنه يتعاطى المخدرات وأعطاه جرعة مسكن عادية خمس مرات قبل نقله على طائرة خاصة إلى صنعاء عاصمة اليمن حيث حوكم وحكم عليه بالموت .

وكانت زوجتا أبو إياد وأبو الهول ترغبان في مشاهدة إعدامه .

ولكن القذافي وأبو نضال ضغطا على رئيس اليمن كي يجعل الإعدام سرا .

وفي يونية 1991 وجدوا حمزة قتيلا في زنزانته وأعلنت المنظمة أنه انتحر .

اعتراف أبو إياد :

في أوائل صيف 1991 وقبل أن يموت بتسعة شهور أرسل أبو إياد إلى لندن يطلب مني أن أراه في تونس إذا تصادف وذهبت إلى هناك . وكان الأمر بالنسبة لي لغزا .

ماذا يريد مني ؟ ولم أكن قد وضعت خطة لأجازاتي .

وقررت أن آخذ زوجتي وأولادي إلى فندق أعرفه في خارج تونس ومهما كان الذي سوف يقوله لي أبو إياد فقد قررت ألا تضيع مني هذه الرحلة .

أنا أعرف الشرق الأوسط جيدا كمؤلف وكمراسل أجنبي .

ولقد سافرت في المنطقة وكتبت عنها لمدة ثلاثين عاما . ولقد كتبت كتابا عن سوريا في عام 1965 وكتابا عن حافظ الأسد منعته السلطات رغم أنه كان يقرأ سرا في العالم العربي ، والإسرائيليون أنفسهم اعتقدوا أنني كنت قاسيا عليهم . واعترض الأمريكان على نقدي لسياستهم في الشرق الأوسط .

واعتقد المسيحيون اللبنانيون أنني بعتهم إلى سوريا وقال الفلسطينيون إنني لم أكن عادلا بالنسبة لقضيتهم . وخطر على ذهني أن أبو إياد يريدني في هذا الموضوع .

أثناء بحثي في تاريخ حياة حافظ الأسد في دمشق ، تقابلت وتزوجت ابنة دبلوماسي سوري متقاعد كان سفيرا لبلده في واشطنن لمدة سنوات عديدة . ورغم هذه العلاقة التي بيني وبين العرب فأنا أعتقد أن معظم القراء يعتقدون أنني مراقب محايد ليس لي نفع شخصي ، لا أنحاز إلى جانب دون آخر .

ولقد قابلت أبو إياد عدة مرات ، دون أن أستطيع التعرف عليه . ولقد شغل بالمخابرات معظم حياته لذلك كان شخصية خفية وأقل قبولا من القادة الفلسطينيين الآخرين . كان أحد أربعة رجال أسسوا حركة المقاومة الفلسطينية في عام 1959 . والثلاثة الباقون هم عرفات ، محمد يوسف نجار وقد قتله الإسرائيليون في منزله في وسط بيروت عام 1973 ، وخليل الوزير « أبو جهاد » المسئول العسكري للمنظمة والذي قتله الإسرائيليون في منزله في تونس عام 1988 وهما عمليتان اشترك فيهما إيهود باراك رئيس الأركان الحالي .

وكان لي حديث طويل مع أبو إياد في الجزائر عام 1983 ، في دورة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني التي كنت أغطيها بجريدة الأوبزيرفر . وصدمتني واقعيته وحديثه السريع المندفع بصراحة مذهلة دون أي تكلف ويبدو أنه مدرك لأحوال العالم وخبير

بواطن الأمور أكثر من القادة الفلسطينيين الآخرين . وربما كان ذلك نتيجة لتعامله سنوات عديدة مع أجهزة المخابرات العالمية على كلا الجانبين من الستار الحديدي وعلى خلاف الآخرين تجده نظيفا يلبس البدل السافاري المكوية كما يفعل السياسيون الأفارقة ، ودائما تنضح منه رائحة العطر .

وينعقد كل عدة سنوات المجلس الوطني الفلسطيني وهو يمثل البرلمان الفلسطيني في المنفى وهي مناسبة طيبة لتراقب القادة الفلسطينيين يؤدون واجبهم في قاعة المؤتمر وترى موهبة عرفات على المسرح السياسي ثم المقابلات غير الرسمية مع قادة الطوائف المختلفة في الأروقة والممرات .

لن أنسى أبدا منظر جورج حبش على منبر الخطابة . وهو القائد المتطرف للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . تجده يرعد بعيون متوهجة ضد أي تسوية مع إسرائيل . وكان قد أصيب إلى حد أنه لم يستطع أن يطوي صفحات الخطاب الذي أمامه . كان مجرد مجهوده في الكلام وفي الوقوف معتدلا تجعل العرق يتصبب على وجهه . وإلى جواره تلميذه بسام أبو شريف أصيب بندبة وأصبح شبه أعمى نتيجة لانفجار قنبلة إسرائيلية أرسلت له في رسالة . وكان يقف ليمسح حاجب سيده بمنديل أبيض ويقلب له الصحفات ، كما يفعلون مع الموسيقيين . وبعد فترة تخلى بسام أبو شريف عن رفض حبش المتطرف ليصبح الحمامة البريئة في معسكر عرفات المعتدل وكان هو في زعامة العملية التي جعلت المنظمة تنبذ الإرهاب رسميا وتعترف بإسرائيل في دورة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني عام 1988 .

وقابلت أيضا نايف حواتمة في مؤتمر الجزائر ، وهو قائد الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وكانت دائما ملامحه المعذبة توحي بجهوده في ضغط متناقضات السياسة الفلسطينية في حدود اللهجة الماركسية . وأحمد جبريل قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة الذي كان ينصح بالكفاح المسلح ومزيد من الكفاح المسلح . وباعتباره جنديا بسيطا كان يحتقر الجناح النظري في الحركة الفلسطينية . وقابلت أبو داوود أحد قادة فتح وهو رجل تطلبه إسرائيل . ويقال إن له يدا في الهجوم على أبطال إسرائيل الرياضيين في دورة الألعاب الأولمبية عام 1972 .

لقد أثر أبو إياد في أكثر مما فعل الباقون . كان هادئا وثابتا لطيف الكلام . كان نوعا من الرجال تأتي إليه السلطة بطريقة طبيعية . وبينما نحن نتحدث يأتي بعضهم عدوا ليهمس في أذنه أو يسلمه قطعة من الورق ، ينظر إليها بسرعة ويدسها في جيبه . وبالرغم من أن ياسر عرفات رئيس المنظمة ورئيس فتح وهو « السيد فلسطين » يعتبر الرمز العام لآمال الفلسطينيين وأقرب رفيق لأبو إياد رئيس المخابرات وأبو جهاد الرئيس العسكري فهما اللذان يديران منظمتهما المستقلة مع المخلصين من رجالهما كما كان يفعل النبلاء مع ملوك القرون الوسطى . وكان أبو جهاد رئيس الجناح العسكري للمنظمة غير حسن الهندام ، ولا يؤثر فيك إذا نظرت إليه . ولكنه كان أحسن مدير للحركة الفلسطينية ويقبض بقوة على أمور الضفة الغربية ، وهذا بلا شك السبب في أن الإسرائيليين قتلوه . وعلى نقيضه أبو إياد فقد كانت له عقلية سياسية حادة وأسلوب خلاب طلق وكان قادرا على تسوية النزاعات . وهو الرجل الذي يوثق به في المهام الخارجية وحافظ أسرار المنظمة ويعرف بالوطني الملتزم على يسار فتح وكان أول من أوصى بمباحثات تسوية مع إسرائيل تقوم على حل يدعو لإقامة دولتين إحداهما فلسطينية تعيش في سلام مع جارتها القوية إسرائيل .

كانت أم أبو إياد يهودية وكان يثرثر بالعبرية مع الأولاد اليهود الذين هم من عمره عندما كانوا يلعبون على شواطئ تل أبيب .

هذا هو الرجل الذي ذهبت لمقابلته في أول صيف 1991 . كان هناك رجل بوليس تونسي يقف في كشك حراسة واتخذت طريقي عبر الحديقة ودققت جرس الباب وأرشدتني سكرتيرة إلى غرفة مزدحمة بالأرائك والكراسي المذهبة ، وقليل من الموائد عليها أواني الزهر وبعد لحظة جاء أبو إياد واحتضنني كما هي عادة العربي .

وتحدثنا فترة عما كتبته عن حافظ الأسد . ولم يكن فيها شيء لم يعجبه ولكنه اعتقد أنني نظرت إلى الأمور من زاوية سورية فإذا طبعت الكتاب مرة أخرى فهناك تصحيحات تقوم على الحقائق يرغب أن أقوم بها . وكان واضحا أن هناك شيئا آخر في ذهنه . كان يريد أن يتحدث عن الإرهاب وعن أبو نضال بالذات .

قال وهو مقطب الوجه : أن الغربيين لم يقتنعوا بعد بأن منظمة التحرير هي

الشريك الذي لا غنى عنه للسلام في الشرق الأوسط ، وقللوا من أهمية القرارات التاريخية التي أقرها المجلس الوطني الفلسطيني في نوفمبر 1988 حيث لأول مرة لم تذكر كلمة الكفاح المسلح وذكر بوضوح استعداد المنظمة لتسوية سلمية مع إسرائيل . ولكن كيف نقنع الغرب بهذا ؟ إنهم يرون أن أعظم عقبة هي الإرهاب وهو الأمر الذي تذكره إسرائيل كلما ذكرت التسوية السلمية . فإذا كان هناك رجل مسئول عن تلطيخ سمعة كل الطوائف الفلسطينية فهو – في رأي أبو إياد – مهندس الإرهاب أبو نضال .

واستمر أبو إياد يقول : إن الإسرائيليين كانوا أساتذة في الاختراق والخداع . وهو لم يكف عن المشاكل مع الموساد لمدة خمسة وعشرين عاما . ومنذ أوائل الثمانينات بدأ يشك في أن الإسرائيليين قد تسللوا إلى منظمة أبو نضال وهم يستخدمونه .

ثم قال أبو إياد لي : إن أي فلسطيني يعمل بالمخابرات يعلم أن لإسرائيل يدا طولى في شئون أبو نضال . لقد تحولت شكوك أبو إياد إلى اقتناع أن أبو نضال ليس مجرد رافض متطرف يبيع خدماته للأنظمة العربية بل لقد أحكمت إسرائيل السيطرة عليه . وهذا هو سر إصراره على تدمير المصالح الفلسطينية .

لم يكن هناك غموض في ذهن أبو إياد بخصوص هذا . فقد أرادت إسرائيل أن تدمر المنظمة وتمنع المفاوضات التي قد تؤدي إلى حل سلمي يتضمن إقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية . وأي مفاوضات حقيقية تعني بالضرورة أن يستسلم الإرهاب . وهذا هو السبب في أن إسرائيل قطعت هذا الشوط لتقنع العالم أن الفلسطينيين إرهابيون ولا يمكن عقد صفقة معهم . وهو يعتقد أن أبو نضال هو أداة إسرائيل لهذا الغرض وأساسي في استراتيجيتها . وحتى يهزم أبو نضال ستظل مصداقية المنظمة موضع سؤال ولن تتقدم عملية السلام .

وانحنى إلى الأمام وأخذ يتحدث بسرعة كما هي عادته وقال : لا يوجد تفسير أوضح عن الأحداث التي تراكمت عبر السنين . فقد قتل أبو نضال أكفأ الدبلوماسيين في المنظمة : الحمامي في لندن ، قلق في باريس ، ياسين في الكويت ،

لقد ذبح مئات من المقاتلين الفلسطينيين ، وأهدر قيمة الحركة الوطنية الفلسطينية بإرهابه الوحشي الذي ليس له معنى ، ونجح في إبعاد أحسن أصدقاء الفلسطينيين . لقد جعل كلمة فلسطين مرادفة لكلمة إرهاب . إن أبو نضال إما مجنون وإما خائن . وأبو إياد لا يعتقد أنه مجنون وقال لي إن أبو نضال هو أكبر عدو للشعب الفلسطيني . وانفجر غاضبا وهو يقول : إنه إنسان بلا أية مبادئ ومستعد للتحالف مع الشيطان ليبقى حيا ويشرب زجاجة خمر كل يوم .

ثم قال لي ، حاول أن ترى أبو نضال ، اطلب منه أن يشرح نفسه ، ثم اتخذ قرارك .

ثم اعترف اعترافا غير عادي : أشعر أنني مذنب ، فأنا مسئول لأنني لم أواجه هذا التهديد بسرعة . كنت أستطيع أن أقتل أبو نضال منذ خمسة عشر عاما . أنا أعترف بهذا الآن . كنت أعتقد أنه وطني ضل الطريق وسوف يعود إليه . لم أكن أستطيع أن أقبل فكرة أن أبو نضال خائن .

لقد قطع نقد أبو إياد اللاذع أنفاسي . هل أبو نضال عميل إسرائيلي ؟ إن بشاعة التهمة جعلتني أعتقد أنني عثرت على عداء فلسطيني آخر وهذا هو الحال في السياسة الثورية ، كل يرفع يده ضد أخيه . ويكفيك أن تمضي قليلا من الوقت مع الطوائف الفدائية لتندهش من القصص العجيبة التي يحكونها عن بعض . ولقد قضيت أخيرا عشر ساعات أتحدث إلى أحمد جبريل في معسكره في خارج دمشق . وكنت أحاول أن أصل إلى إمكانية وجود علاقة بينه وبين نسف الطائرة الأمريكية فوق لوكيربي فوق إسكتلندا ولكني لم أجد سوى عداء مرير بينه وبين ياسر عرفات . وحاول أن يتعقب نسب عرفات ليقنعني أنه يهودي من أصل مغربي . ثم صاح قائلا : إنه قائد الثورة الفلسطينية ونحن لا نعرف من هو .

هل كان أبو إياد يلعب نفس اللعبة ؟ لقد سمعت إشاعات أنه عندما كان أبو نضال شابا صغيرا في فتح ، كان أبو إياد صديقه وحاميه . من الواضح أن الحب قد تحول إلى كراهية وهذا يفسر نغمة أبو إياد الجريحة . ولكن مزاعمه كانت أمرا مختلفا . ومن الطبيعي أن يحاول الموساد الإسرائيلي أن يخترق المجموعات الإرهابية .

ولكن فكرة أن أبا نضال قد تحول وأن إسرائيل استولت على منظمته قصة طويلة .

وحاولت استجواب أبو إياد أين الدليل ؟ فقال : الأمر ليس سهلا ، فعندما لا تكون لك بلدك الخاص ولا تستطيع أن تتحكم في المطارات ولا الموانئ ولا الحدود ولا الفنادق ولا سائقي التاكسي فإن جمع الأدلة يصبح صعبا . إن الجاسوسية المتبادلة الفعالة تعتمد مائة في المائة على التحكم في البيئة وهو الأمر الذي لم تتمكن منه المنظمة . ففي العراق وسوريا لا تستطيع المنظمة أن ترصد حركات أبو نضال بطريقة سليمة . والأمر أكثر صعوبة في ليبيا . وحتى في لبنان وتونس – اللتين تزعم أنهما تغصان بالعملاء الإسرائيليين – فلم تحصل المنظمة على التسهيلات المطلوبة . ثم أضاف : نحن واثقون أن الموساد جاء إلى تونس عندما جئت في عام 1982 .

ثم قال : ولماذا لا تكتب شيئا عن هذا .

وسألت نفسي : هل سيخبرني بما يعرف ؟ هل سيفتح لي أرشيفه ؟ هل سيساعدني في العثور على المنشقين من منظمة أبي نضال والذين يقال إنهم مختبئون في تونس وفي أماكن أخرى تحت حماية المنظمة ؟

هناك رجلان بالذات كنت أود مقابلتهما لأنهما انفصلا عن أبي نضال في ضجة إعلامية في نوفمبر عام 1989 . أحدهما عاطف أبو بكر ، والذي ظل حمزة يصيح باسمه ليلة قتله أبا إياد ، وكان بكر رئيس الإدارة السياسية لأبي نضال وكان معروفا في الدوائر الفلسطينية كمفكر ودبلوماسي وشاعر . أما الآخر فهو شخصية مختلفة : عبد الرحمن عيسى وكان رئيس المخابرات لمدة عشرين عاما . وإذا كان هناك من يعلم أسرار أبو نضال فهما هذان الرجلان . وطلبت من أبو إياد أن يرتب لي لقاء معهما . فقال لي : في أي وقت تريد .

وعدت إلى لندن أفكر فيما سمعته . أنا لم اشتر قصة أبو إياد ولكنني اعتبرتها خروجا على الأخلاق . كان عندي حافز أني أعرفه أكثر ، وأعرف كيف يعمل عقله ، وأرى عالم الفلسطينيين المعقد من الداخل . من الواضح أنه يريد أن يستخدمني للتشهير بأبو نضال لأنه يكرهه . وسيحدث نفس الشيء مع المنشقين لذلك سوف أنظر

إلى المعلومات التي يقدمانها لي نظرة خاصة . وبعد المشاجرات والانشقاقات فإن الثوريين يلعنون بعضهم بطريقة تدعو للاشمئزاز ويختلقون القصص . ولكنني أشعر أنني عجوز في السياسة العربية بحيث أستطيع أن أشق طريقي وسط هذه المتاهة . هل بمقدوري أن أقابل عددا من الناس يكفي بحيث أستطيع أن أراجع مادتي . هل أستطيع أن أختبر ما علمته مع متخصصين في المخابرات في خارج الحركة الفلسطينية ؟ علي أية حالة فالأمر مهم جدا مهما حدث .

أشعر أنني يجب أن أغوص في أعماق ادعاءات أبي إياد إذا استطعت . وبالتأكيد أنا لا أعلم ما سيحدث . وليست عندي فكرة عما سوف تؤدي إليه المحاولة . ولكنني إذا لم أظفر بشيء فقد تعلمت شيئا عن الغموض العظيم في السياسة العربية . من هو أبو نضال ؟ وأخبرت أبو إياد أنني سوف أعود إلى تونس في ذلك الصيف .

وقبل أن أغادر لندن ، قمت ببعض الأبحاث التمهيدية وراجعت موضوع أبو جهاد مع بنكين للمعلومات . ووصلت لأسباب مريعة لهجومه على المعابد اليهودية في أسطنبول وفي أماكن أخرى ، وهجومه على مكاتب شركة « العال » في مطارات روما وفيينا . صعب أن أصدق أن هذا تصرف عميل إسرائيلي . وتذكرت أن أبا إياد تحدث كثيرا عن قتل أبي نضال لفلسطينيين بارزين . ولقد استخدم عبارة لصقت في رأسي : « لسنا واثقين من هو القاتل هل هو الموساد أم أبو نضال » وأعترف أن هذا مربك فماذا يعني ؟

وراجعت ملفاتي وعملت قائمة بالفلسطينيين الذين هوجموا أو قتلوا إما بواسطة إسرائيل أو بواسطة أبي نضال . وكانت قائمة تعتمد على المصادر العامة المتاحة لأي شخص باستثناء حالتين كانت عندي معلومات خاصة عنهما . ورغم أن أبا نضال قد ظهر لأول مرة في عام 1971 إلا أنني اخترت عامي 1971 ، 1972 كنقطة بداية حيث بدأت حركة أيلول الأسود الإرهابية بعد مذبحة الفلسطينيين مع الملك حسين في عام 1970 حيث دخل الفلسطينيون في معركة مع الموساد في أوروبا – وهو ما يسمى بحرب الأشباح – وكان أبو إياد متورطا فيها . ولقد أصبحت السفارات الإسرائيلية ، والمبعوثون ، وخطوط الطيران ، عبر البحار منيعة على الهجوم . وفي

تصميم على هزيمة الإرهاب أصدرت جولدامائير رئيسة وزراء إسرائيل في ذلك الوقت تعليمات لرئيس المخابرات أن يخرج ويقتل . وعلقت القائمة على الحائط . وبدأت أفكر فيها . وكانت كما يلي :

– 8 مايو 1972 :

أربعة من جماعة أيلول الأسود ، خاطفو طائرات ، استولوا على طائرة سابينا في رحلة من فيينا إلى تل أبيب . وعندما هبطت في مطار « اللد » هددوا بنسف الطائرة إذا لم تفرج إسرائيل عن مائة من السجناء الفلسطينيين . تنكر جنود المظلات في زي ميكانيكيين واقتحموا الطائرة وقتلوا قناصين اثنين وأطلقوا سراح تسعين راكبا .

– 31 مايو 1972 :

انتقاما لما حدث تحالف ثلاثة إرهابيين يابانيين مع جورج حبش وهاجموا بالرصاص والقنابل اليدوية بلا تفرقة مطار اللد في إسرائيل وقتلوا أربعة وعشرين .

– 9 يولية 1972 :

إسرائيل ترد بعربة ملغمة في بيروت فقتلت غسان كنفاني المتحدث الرسمي بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وابنة أخته وعمرها سبعة عشر عاما .

– 11 يولية 1972 :

الانتقام لكنفاني ألقى مسلح قنبلة يدوية في محطة الأتوبيس الرئيسية في تل أبيب وجرح أحد عشر .

– 19 يولية 1972 :

رسالة ملغمة إسرائيلة جرحت دكتور أنيس الصايغ مدير مركز بيروت للشئون الفلسطينية .

– 25 يولية 1972 :

رسالة إسرائيلة ملغومة أخرى سلمت على عنوان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

في بيروت أعجزت بسام أبو شريف عن الحركة وهو مساعد جورج حبش .

– 5 أغسطس 1972 :

مسلحون من أيلون الأسود يقودهم علي حسن سلامة فجروا خزان بترول أمريكي في إيطاليا .

– 5 سبتمبر 1972 :

اقتحم ثمانية مسلحين فلسطينيين جناح الفريق الإسرائيلي للألعاب الأولمبية في ميونخ وقتلوا اثنين وأخذوا تسعة كرهائن وأطلقوا على هذه العملية اسم « كريت وبيرم » على اسم قريتين في الجليل دمرتهما إسرائيل وطلبوا إطلاق سراح مائتين وخمسين فلسطينيا ولبنانيا . وفي معركة مع البوليس الألماني الغربي قتل تسعة رياضيين إسرائيليين وخمسة فلسطينين .

– 11 سبتمبر 1972 :

زادوك أوفير موظف من الموساد في السفارة الإسرائيلية في بروكسل أصيب بجروح شديدة نتيجة هجوم فلسطيني .

– 19 سبتمبر 1972 :

دكتور أمي شاكوري ملحق زراعي في السفارة الإسرائيلية في لندن . قتلته رسالة عربية ملغومة .

– 17 أكتوبر 1972 :

وائل زعيتر ممثل فتح في روما . قتله الإسرائيليون .

– 8 ديسمبر 1972 :

محمود الهشري . ممثل المنظمة في باريس جرحته قنبلة إسرائيلة ثم مات بعد شهر .

– 28 ديسمبر 1972 :

قناص من أيلول الأسود استولى على السفارة الإسرائيلية في بانكوك وأخذ ستة

إسرائيليين رهائن . وطلبوا إطلاق سراح ستة وثلاثين من السجناء الفلسطينيين في إسرائيل . أطلق سراح الرهائن دون أذى .

– 24 يناير 1973 :

حسين أبو الخير ممثل فتح في قبرص . قتلته قنبلة إسرائيلية في فندق نيقوسيا .

– 26 يناير 1973 :

باروش كوهين عميل للموساد يوجه العمليات ضد الفلسطينيين في أوروبا . قتله أحد رجال فتح في مدريد .

– 22 فبراير 1973 :

أسقطت المقاتلات الإسرائيلية الطائرة الليبية بوينج التي ضلت طريقها فوق سيناء وقتل 104 مسافرين وطاقم الطائرة .

– 6 مارس 1973 :

قناص من أيلول الأسود . هاجم السفارة السعودية في الخرطوم أثناء حفل استقبال دبلوماسي وطلب إطلاق سراح القائد الفلسطيني أبو داوود وكان مسجونا في الأردن . وقتلوا السفير الأمريكي ودبلوماسيا أمريكيا وآخر بلجيكيا .

– 12 مارس 1973 :

سيمحا جلزر . عميل الموساد قتله قناص فلسطيني في فندق نيقوسيا .

– 4 أبريل 1973 :

دكتور باسل القبوسي . مسئول في الجبهة الشعبية قتله الإسرائيليون في باريس .

– 10 أبريل 1973 :

مجموعة اغتيال إسرائيلية قتلت ثلاثة قادة بارزين في فتح – محمد يوسف نجار ، وكمال عدوان ، كمال ناصر ، قتلوا في منازلهم في وسط بيروت .

وكانت ضربة قاصمة للفلسطينيين وتسببت في سقوط الحكومة اللبنانية .

– 27 أبريل 1973 :

موظف إسرائيلي في شركة العال . قتله قناص فلسطيني في روما .

– 27 يونية 1973 :

محمد بودية : عضو جزائري في فتح . قتلته قنبلة إسرائيلية في باريس .

– 2 يولية 1973 :

كولونيل يوسف ألون : ملحق دفاعي إسرائيلي قتل أمام منزله في واشنطن .

– 21 يولية 1973 :

بحث العملاء الإسرائيليون عن علي حسن سلامة ، قائد أيلول الأسود ، وقتلوا جرسونا مغربيا خطأ في النرويج وقبض على ستة إسرائيليين وحوكموا وكشفوا عن الشبكة الإسرائيلية المضادة للإرهاب في أوروبا .

– أكتوبر 1974 :

حاول عملاء أبي نضال قتل محمود عباس « أبو مازن » الصديق الحميم لياسر عرفات .

– 3 يناير 1977 :

محمود صالح ممثل المنظمة في باريس ومدير لمكتبة عربية ، قتله الإسرائيليون .

– 4 يناير 1978 :

سعيد حمامي ممثل المنظمة في لندن قتله رجال أبي نضال .

– 15 يونية 1978 :

ممثل المنظمة في الكويت قتله رجال أبي نضال .

– 3 أغسطس 1978 :

عز الدين غلاب ممثل المنظمة في باريس قتله رجال أبي نضال .

– 5 أغسطس 1978 :

يوسف أبو حنتاشي ممثل المنظمة في باكستان نجا من محاولة اغتيال قام بها رجال أبي نضال وقتل أربعة آخرون .

– 22 يناير 1979 :

علي حسن سلامة رئيس القوة 17 وهي وحدة الأمن الخاصة بعرفات ، قتله الإسرائيليون بسيارة ملغومة في بيروت .

– 22 أبريل 1980 :

صلاح خلف « أبو إياد » نجا من محاولة اغتيال قام بها رجال أبي نضال هاجموا سيارة ظنوا أنه فيها .

– 1 يونية 1981 :

نعيم خضر : ممثل المنظمة في بروكسل قتله رجال أبو نضال .

– 27 يولية 1981 :

محمد عودة « أبو داوود » قائد الفدائيين في فتح نجا من حادث اغتيال في وارسو قام به رجال أبي نضال .

– 8 أكتوبر 1981 :

سليمان الشرفا « أبو طارق » ممثل فتح في ليبيا نجا من محاولة اغتيال قام بها رجال أبي نضال وقتلوا رجلا آخر خطأ .

– 9 أكتوبر 1981 :

ماجد أبو شرار من قوات فتح قتلته قنبلة إسرائيلية في روما .

– 10 أبريل 1983 :

دكتور عصام سرطاوي : من رفاق عرفات قتله رجال أبي نضال في البرتغال .

– 16 أبريل 1988 :

خليل الوزير « أبو جهاد » المسئول العسكري في فتح اغتالته في منزله في تونس مجموعة اغتيال إسرائيلية .

* * *

أخذت أتأمل القائمة فترة طويلة . كانت تقع في نصفين . وكان هناك انقطاع واضح بعد عام 1977 . وحتى عام 1973 كانت إسرائيل تقتل المسلحين الفلسطينيين وقادة الفدائيين . وبعد عام 1977 بدأ أبو نضال في قتل المعتدلين الفلسطينيين « الحمائم » الذين يريدون التفاوض مع إسرائيل ولا يريدون محوها من الوجود . هل كانت هناك علاقة بين نصفي القائمة ؟

ولماذا هناك فجوة في منتصف السبعينات ؟ لم يكن علي أن أراجع السجلات التاريخية في الوقت الذي كانت فيه حرب الأشباح مشتعلة في أوائل السبعينات ، وكان الرئيس المصري السادات يرجو الأمريكان أن يدعوا إسرائيل للجلوس معه على مائدة المفاوضات . ولكن هنري كيسنجر وزير الخارجية تجاهله . وقبل عام 1973 كان عرفات يحاول أن يبعد نفسه ويبعد المنظمة عن الإرهاب والإرهاب المضاد . وكان ناجحا إلى حد كبير رغم وجود مجموعات في داخل المنظمة مثل أبو العباس لم يستطع أن يكبح جماحها . ومع ذلك كان عرفات الذي خسر عددا من أحسن رجاله مستعدا لأن يبعد حركته المليئة بالانقسامات عن العنف ويتجه بها نحو مفاوضات سلام . وأرسل عرفات أربعة مبعوثين إلى كيسنجر ، فيما بين يولية وأكتوبر 1973 ، يطلب بدء حوار مع الولايات المتحدة . ولكن كيسنجر أرسل الجنرال فيرنون وولترز نائب مدير الـ CIA ليخبر مساعد عرفات في المغرب أن الولايات المتحدة ليس لديها اقتراحات .

وفي أكتوبر 1973 كسرت مصر وسوريا الجمود وبدأتا الحرب لتستعيدا جزءا من أراضيهما المحتلة . ولتجبرا إسرائيل على المفاوضات . ومثلما فعلت عاصفة الصحراء

عام 1991 ، فقد أنعشت حرب أكتوبر الآمال في تسوية إسرائيلية عربية شاملة ، تتوسط فيها الولايات المتحدة .

ومرة أخرى طلب عرفات من كيسنجر أن يسمح له بالانضمام للعملية ، وحث السادات كيسينجر على أن يقابل رئيس المنظمة ، ولكن كيسنجر التفت بعيدا عنهما . فقد كانت المنظمة في نظره ونظر إسرائيل ليس لها مطالب وطنية شرعية بل مجرد « مجموعة مسلحة » وغير مقبولة كشريك في المفاوضات . وكان كيسنجر يعتقد أن وضع المنظمة الحالي والمرتبط بالمساعدات السوفيتية سوف يجعل منها قلعة يسارية مثل ليبيا واليمن الجنوبية والتي منها سوف تتصاعد العمليات ضد إسرائيل بلا شك .

وبالتالي حذف كيسنجر الضفة الغربية من جدول أعماله واتفق مع إسرائيل على استبعاد المنظمة من أي تسوية بعد الحرب . وعندما بدأ دبلوماسية الخطوة خطوة كان واضحا أن هدفه الرئيسي – وهو هدف إسرائيل أيضا – هو الاستحواذ على مصر أقوى دولة عربية بعيدا عن الخط العربي ويتركون القضية الفلسطينية تحلق في آفاق الأوهام .

واتفق كيسنجر مع إسرائيل على أن الفلسطينيين يمثلون مشكلة أمنية يتم التعامل معها بشدة وليست مشكلة سياسية يتم معالجتها بالمفاوضات والتسوية .

وكل الذي فعله عرفات بعد ذلك لم يكن وثيق الصلة بالموضوع . ففي أكتوبر 1974 أقنع القادة العرب بالاعتراف بالمنظمة باعتبارها الممثل الوحيد لشعب فلسطين .

وفي نوفمبر 1974 قال للأمم المتحدة « جئت إليكم أحمل غصن زيتون وأحمل بندقية مقاتل . فلا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدي » وهو بهذا يشير إلى استعداده للتفاوض مع إسرائيل . وكان قد استطاع أن يستميل أتباعه إلى فكرة دولة صغيرة بجانب إسرائيل بدلا من المطالبة بتدمير إسرائيل بالكامل . ولكن إسرائيل وكيسنجر قالوا : لا . واشتعلت الحرب الأهلية اللبنانية في عام 1975 . وكان يشعلها أكثر تبدد آمال الفلسطينيين في السلام وكذلك المسيحيون ، كانوا يخشون

أنه إذا لم يستطع الفلسطينيون الحصول على دولتهم فلن تستطيع لبنان التخلص منهم وانضم للحرب عناصر خارجية وبالذات سوريا .

وفي مايو 1977 تولى السلطة مناحم بيجين وهو إرهابي أرجون السابق والبطل المتحمس لإسرائيل الكبرى . كان حلم حياته الأكبر أن يبتلع الضفة الغربية في داخل دولة إسرائيل بتوطين اليهود فيها وبسحق الوطنية الفلسطينية . وبالنسبة له كان عرفات مشكلة كبيرة . فقائد المنظمة يريد التفاوض . ومعنى التفاوض بالنسبة لإسرائيل هو ضياع الضفة الغربية . إذا فهدف إسرائيل الرئيسي أن تحطم المنظمة بكل الوسائل الممكنة عن طريق تصعيد حملة دبلوماسية عالمية لعزلها والحط من قدرها وتحويلها إلى شيطان رجيم ووأد أي حوار يمكن أن تقيمه المنظمة مع الغرب وبخاصة الولايات المتحدة .

وفي يناير 1978 وبعد أن تولى بيجين السلطة بشهور أظهرت قائمتي أن أبو نضال بدأ يقتل المعتدلين البارزين في المنظمة وبالذات الرجال الذين يحاولون التأثير في الرأي العام الغربي بعقد مباحثات سلام مع إسرائيل . وأكثر من أي رئيس إسرائيلي آخر كان بيجين قد صمم أن يطلق على عرفات وزملائه لفظ « الإرهابيين » الذين لا يستطيع أن يتحدث معهم . وهي وجهة نظر تطابقت مع مخاوف إدارة ريجان بخصوص الإرهاب الدولي . فمنذ البداية وفي عام 1981 كانت إدارة ريجان مشغولة بهذا الموضوع .

فاحتجاز الأمريكان في السفارة الأمريكية في طهران كان له دور كبير في تحطيم جيمي كارتر وتأكيد انتخاب ريجان . واتفق ريجان مع وزير خارجيته ومدير مخابراته على التصديق على القصة الفكاهية المصورة والتي نشرها صحفي أمريكي في كتابه « شبكة الإرهاب » وبه عشرات الألوف من الإرهابيين ترعاهم موسكو ويدربون في معسكر خاص « كتيبة الصفوة في الجيش العالمي للقتال الشيوعي » وكما كان للكوبيين يد كبيرة في هذا المعسكر كذلك كان للفلسطينيين .

تأملت كل هذا وتساءلت : هل هذا ما يدور في ذهن أبو إياد . لقد أخبرني أن قتل أبو نضال للمعتدلين الفلسطينيين يرتبط بتصميم بيجين على عدم التفاوض

مع الفلسطينيين خشية ضياع الضفة الغربية . وبالنسبة لبيجن كان المعتدلون الذين يريدون التفاوض هم الخطر الحقيقي الذي يريد أن يتخلص منه .

فإذا كانت إسرائيل قد تمكنت من التسلل إلى منظمة أبو جهاد فربما قال بعض أساتذة الجاسوسية في القدس « لقد حصلنا على شخص يفعل لنا ما نريد » لم يكن هناك دليل كبير على هذا ولكن بدأت أفهم منطق أبو إياد .

وكان هناك بديل آخر معقول . فليكن أبو نضال كما قال ، رافضا ، ويعتبر عرفات خائنا لأنه يفكر في تسوية مع إسرائيل ، وليكن مستعدا لقتل أي حمامة مثل الحمامي في لندن الذي جرؤ أن يتكلم صراحة لصالح السلام . وفي عالم خفي من القتلة والعملاء السريين من يعرف ماذا تصدق وماذا تكذب ؟

زارني في لندن جنرال سابق في عمان من المخابرات العسكرية الإسرائيلية وكان يبحث في موضوع مختلف تماما . بعد حديثنا سألته أن يوضح لي هل اخترقت إسرائيل واستخدمت مجموعات فلسطينية . فنظر إلي وقال : « اخترقت نعم ولكن استخدمت لا » ثم أضاف بابتسامة « لا أحد يستطيع أن يعترف بذلك » .

- وراء أبو نضال :

عدت إلى تونس عدة مرات في الصيف والخريف وكان أبو إياد عند كلمته . ففي سرية تامة رتب لي مقابلة مع عاطف أبو بكر ، المنشق البارز من منظمة أبو نضال . كان مختبئا يخشى انتقام أبو نضال . وقد أثبت أنه مصدر رفيع القيمة . فقبل أن ينضم إلى أبو نضال عام 1985 كان أبو بكر ممثلا للمنظمة في بلجراد « من 1974-1976 » ، وبراغ « من 1976-1983 » ، وبودابست « 1983-1984 » . وكان من أمهر الرجال الذين قابلتهم في الحركة الفلسطينية . وقدمني أبو بكر لمجموعة من قيادة الطوارئ التابعة له - مجموعة من المنشقين على أبو نضال - بما فيهم القائد العسكري باسل الذي عمل مع أبو نضال منذ السبعينات . ومن هنا كان كل مصدر يؤدي إلى الآخر . وحاولت إقناع منشق بارز آخر هو عبد الرحمن عيسى ، وهو مسئول المخابرات عند أبو نضال سابقا ، أن يتعاون معنا ، واتصلت به تليفونيا في

الجزائر وعندي أمل أن أزوره هناك ولكنه قال إنه لن يتحدث إلا في مقابل مبلغ كبير من المال . وعندما أبلغت أبو إياد بهذا ضحك وأعطاني أشرطة لم تراجع لمحادثات طويلة مع عبد الرحمن عيسى ولمدة عدة ساعات وبعد أن انشق عن أبو نضال في عام 1989 . لم يكن عبد الرحمن يعلم أن هناك ميكروفونات خفية وأن استجوابه يسجل لذلك فرغم أنني لم أقابل عبد الرحمن عيسى بنفسي فقد علمت قصة حياته التي أعطاها لي أبو إياد .

وجعلني أبو إياد أيضا أتصل بعدد من ضباط مخابراته وكذلك المسئول عن أرشيفه . وفي خارج مدار مخابرات أبو إياد استطعت أن أتحدث طويلا مع كثير من الفلسطينيين الآخرين الذين كانت لهم معاملات مع أبو نضال أو يعرفون شيئا عنه . وأكثرهم فائدة كان قائد الفدائيين أبو داوود الذي وقع في شباك أبو نضال لمدة طويلة .

ولقد قابلت جورد في مدينة على البحر الأبيض المتوسط بعد مغامرته في تايلانـد . وتساءل عن أوروبا الجنوبية وحصل على أفضل ما يريد . لقد اضطر أن يعيش حياة الجريمة ولكن خوفه الرئيسي كان من رجال أبو نضال المختفين في عدة مدن أوروبية ، فربما يمسكون به ويعيدونه بالقوة إلى ليبيا . وكان مفلسا ولا يحميه أحد لذلك كان في حاجة إلى الحماية فانجذب نحو المنظمة وهي الوحيدة في رأيه التي لديها مصلحة قوية في أن تعلم شيئا عن أبو نضال .

وبعد أن قص جورد قصته على مخابرات منظمة التحرير لم يصدقه أبو إياد وشك في أنه مزروع عليهم . فجورد بارع الحديث وقادر على قص الروايات فوجد أبو إياد أن من الحكمة أن يتركه لمدة شهور يفحص خلفيته ويقارن قصته بما يقوله منشقون آخرون .

ولقد قابلته في ذلك الوقت وكان حاد الطبع مثل رجل في لجنة امتحان ، وهو معلق بين منظمة هرب منها ويخشى أن تتعقبه وبين منظمة يأمل في أن ينضم إليها وكانت خائفة منه . وظن أبو إياد أن استجوابا مني ربما يظهر حقيقة جورد أو على الأقل جانبا منها .

ومعظم المنشقين الذين قابلتهم كانوا يعيشون في خوف . ومقابلاتي معهم تمت على مدى عدة شهور ولاشك أن الرجال الذين قابلتهم معهم أسلحة على مدى قريب منهم « على المائدة المجاورة لجهاز التسجيل الخاص بي أو تحت وسادة أحد الكراسي » ومع كل منهم حارس خاص شاب . ورجل مثل جورد كان يحمل رشاشا آليا .

وفي عام 1990-1991 أخذني بحثي إلى فنادق صغيرة في قبرص ومالطة وباريس ومارسليا وإيطاليا والنمسا واليونان . ذهبت إلى مكاتب وشقق عدد من الرجال والنساء في العواصم الغربية يهتمون بمقاومة الإرهاب .

أنا شاكر لكل أولئك ولكنني لا أستطيع أن أذكر أسماءهم .

وهدفي مما سأكتبه أن أقدم صورة حية قدر الإمكان لأبي نضال ومنظمته السرية التي يرأسها منذ سبعة عشر عاما . ولا توجد منظمة تحب أن يبحث عن شئونها أحد . ومنظمة أبو نضال كذلك . ولكن المنشقين من رجالها فتحوا نافذة صغيرة تسمح لي أن أرى ما يدور بداخلها . ومن بين كل رجال العنف في الشرق الأوسط المعاصر يمثل أبو نضال لغزا محيرا . لماذا يقتل ؟ وبناء على أوامر من ؟ وما هي النتيجة ؟ وكيف استطاع أن يعيش هذه المدة الطويلة ونصف الخدمات السرية في العالم تحت أقدامه ؟ ولماذا لم تهاجمه إسرائيل كما هاجمت الطوائف الفلسطينية الأخرى ؟

هذه ليست حكاية جميلة . إنها رحلة في داخل العنف في عالم لا يعرف المبادئ ولا الرحمة وحيث يتربص الموت في كل ركن .

* * *

الفصل الثالث

صدمات الطفولة



صدمات الطفولة

كنت متحمسا لاختبار نظرية أبو إياد ، فبدأت أفتش في ماضي أبو نضال سألت كل واحد قابلته يعرفه ، أحاول أن أفهم شخصيته المعقدة واكتشفت أن أبو نضال شخصية عادية المظهر « رغم أن مصادر عديدة ذكرت رأسه الصلعاء ، عينيه الحادتين ، أسنانه الجيدة » وكان تعليمه بسيطا وكانت صحته عليلة فهو يعاني من قرحة في المعدة وذبحه صدرية . وكانت ملابسه رثة ؛ فدائما كان يلبس جاكت « بسوستة » وبنطلون قديم . وعيوبه قليلة فهو لا يقامر ولا يجري وراء النساء ولا يحب الترف ولا وسائل الراحة . وليست له حياة عائلية نتحدث عنها وكان عزاؤه الوحيد في الخمر التي يشربها كل يوم .

وكانت إقامته الطويلة تحت الأرض ، لمدة حوالي عشرين عاما جعلته يخجل من مقابلة الناس . كان متعصبا لا يهتم بالحقائق كثيرا . وكان يعيش في عالم من العنف والأوهام والخوف وكان مدمنا للمعلومات السرية والسلطة السرية . وكان أستاذا في التنكر ولا يثق في أحد . وحيدا ولكنه يحمي نفسه . ويبدو أنه كان منجما من المتناقضات : سريع ولكنه حذر ، جريء ولكنه جبان ، إداري ماكر ذو عقلية مالية وقد حقق ثروة يقال إنها مئات الملايين من الدولارات . ويقول زملاؤه إنه قادر على العمل الشاق والتفكير الواضح لمدة طويلة ويحكم منظمته بالخوف .

وفي بداية حياته كان أبو نضال مشهورا بالغضب الشديد والوطنية الصارمة . أما الآن فهو مشهور بالقتل . ويقول بعضهم إنه في منتصف الخمسينات . ويريد أن ينقذ سمعته كقاتل وخارج على القانون .

هذه حالة رجل وطني تحول إلى رجل سيكوباتي . فأن تقتل على هذا النطاق الواسع وأن تغتسل بدماء الناس ليست حالة إنسانية عادية . مثل هذه الانحرافات العقلية توجد دائما في المواقف التي تواجه الضغط الشديد وهذا يحدث عندما تعمي

الكراهية والخوف مجتمعا فإنه يهاجم مجتمعا آخر في زمن الحرب أو عندما يضطرب شخص بشدة .

- فقـد الأم :

إذا كان أبو نضال يبدو مثل الشخصية المنفصمة فإن طفولته كانت غير سعيدة ، وغير آمنة ، وهذا ما ذكره بعض معارفه . ولد في يافا في مايو 1937 . ويافا ميناء على البحر الأبيض فيما كان يسمى بفلسطين . وأبوه هو خليل البنا الذي تمثل ثروته بعض أشجار البرتقال التي تمتد في جنوب المدينة . وكانت وافرة النماء حلوة الرائحة وكل عام يراقب محصوله الحمضي وهو يعبأ في صناديق خشبية ويشحن إلى أوروبا .

كان الحاج خليل شيخا وقورا . وكان له من زوجته الأولى أحد عشر طفلا ، سبعة أولاد وأربع بنات ، وكانوا يعيشون في سعة في منزل مكون من ثلاثة طوابق وكان قريبا من الشاطئ حيث يلعب الأطفال . ولكي يهرب من رطوبة الصيف على الشاطئ اشترى خليل البنا منزلا آخر في قرية جبلية في شمال سوريا ومعظم سكان هذه القرى الجبلية الشاطئية كانوا علويين وهي فئة مارقة من المذهب الإسلامي الشيعي . ولكي يحصلوا على نقود أكثر كانوا يؤجرون بناتهم للعمل كخادمات عند عائلات الطبقة المتوسطة في المنطقة . وذات صيف أحضرت عائلة البنا من يافا إلى المنزل فتاة جميلة علوية عمرها ستة عشر عاما وفتن خليل بها وتزوجها رغم سنه الكبير مما أثار غضب العائلة . وكان ابنه الثاني عشر والذي أصبح فيما بعد أبو نضال هو ابن هذه الفتاة وكان اسمه صبري .

ومنذ البداية كان وضع صبري في المنزل غير مريح حيث كان إخوته الكبار يوبخونه . وازدادت الأمور سوءا عندما مات أبوه عام 1945 فطردوا أمه من المنزل ففقدها أيضا . وعندما بلغ الثامنة بقي صبري في منزل أبيه دون أن يهتم به أحد . ومعنى هذا الإهمال ألا يتلقى أي تعليم . فانسلخ من المدرسة بعد الصف الثالث وحتى اليوم .

ومما يسبب حرجه الكبير الآن أنه يكتب بيد غير مدربة مثل يد طفل . وللعرب

بعض الخصائص منها أنهم يزدرون أفراد الطبقات الأخرى ويفعلون هذا إرضاءً لكبرياء العائلة وهذا هو سبب زواج الأقارب في البلاد العربية . وماذا يمكن أن تفخر به إذا كنت ابن خادمة من طبقة بسيطة . وحافظ الأسد نفسه علوي من أصل ريفي تولى السلطة في سوريا في عام 1970 . لذلك حاول أبو نضال أن يتودد إلى القائد السوري في إثارة هذا النسب من جهة الأم كما سنرى في الفصول القادمة .

ولقد سوى أبو نضال خلافاته مع أعضاء أسرة أبيه الذين يعيش بعضهم في ظل الحكم الإسرائيلي في الأرض المحتلة . فأخته تعيش في نابلس في الضفة الغربية وهو يرسل إليها المال بطرق مختلفة من حين لآخر وأخوه محمد البنا وهو تاجر فاكهة كان على علاقات طيبة مع سلطات الاحتلال الإسرائيلي حتى مات منذ خمس سنوات . وعدد من بنات إخوته وهم حوالي عشرين متفرقات في أنحاء العالم العربي قد تزوجن أعضاء من منظمته . ولكن من الذي يستطيع أن يخبرنا أن فقد الأم و الذل المبكر والرفض قد أثر فيه ؟ إن قسوته ورغبته في السيطرة على من حوله تشير إلى إحساس بالظلم من العالم الذي ينتمي إليه نتيجة للألم الذي عاناه وهو طفل . والذين يعرفونه يقولون إنه يحتقر النساء ولا يوجد في منظمته إلا القليل منهن . وزوجات أعضاء المنظمة يعشن في عزلة ويجهلن نشاط أزواجهن . وغير مسموح لهن بالزيارة أومصادقة بعضهن . أما زوجته – كما سوف نرى – فهي صبورة مضى عليها أعوام وهي بعيدة عن المجتمع بدون صديقات .

صدمة النفي :

لقد شكلت شخصية أبو نضال الحاقدة التي تشعر بالمرارة ، الأمور الصغيرة التي عانى منها وهو طفل ، ولكن الصدمة الأشد قسوة كانت الفاجعة التي أطاحت بعائلته وبكل المجتمع الفلسطيني نتيجة للهجرة اليهودية الهائلة إلى فلسطين والتي بلغت ذروتها في عام 1948 بإقامة دولة إسرائيل . إن ما حدث في فلسطين في عامي 1947 ، 1948 أحد الموضوعات الجدلية في التاريخ الحديث .

وهذا الكتاب ليس مكان لنعرض فيه هذا الموضوع ووجهات نظر كل من العرب

واليهود . فعندما اضطهد هتلر اليهود ببشاعة احتاجوا إلى وطن لهم . ووعدتهم بريطانيا بهذا الوطن . وفي نوفمبر 1947 وافقت الأمم المتحدة على التوصية رقم 181 بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود وهو القرار الذي اعتبرته الصهيونية عقوبة دولية ضد بلدهم ولكن العرب رفضوه . ويزعم اليهود أن لهم ارتباطا عاطفيا بهذه الأرض منذ أجدادهم . ولكن الطريقة التي وجدت بها دولة إسرائيل مع الطرد العنيف لسكانها العرب أصبحت مصدرا لجدال غاضب منذ ذلك الوقت . فانتزاع الأرض من الفلسطينيين – هذه الأرض التي انتفعوا بها ثلاثة عشر قرنا متوالية – سببت لهم صدمة عنيفة لم يكن بمقدورهم أن يفيقوا منها ولا هم راغبون في ذلك .

وفي الثلاثينات كان الأطفال الفلسطينيون مثل الصغير صبري البنا قد نشأوا على قصص الأعمال البطولية التي قام بها المقاتلون العرب الذين حاولوا أن يجتثوا المد القاسي من المهاجرين الأجانب الذين كانوا يشترون الأرض الفلسطينية العربية من الملاك ، ويشتتون العمال العرب .

ويافا حيث ولد كانت لها طابع عسكري . ففي عام 1935 حدثت محاولة يهودية لتهريب الأسلحة عن طريق ميناء يافا وكانت هذه الحادثة هي السبب في إثارة العرب وجعلهم يحملون السلاح ضد اليهود وضد حماتهم البريطانيين . وكانت هناك صدمات غير منتظمة بين العرب والقوات البريطانية .

وكان قائدهم الشيخ عز الدين القسام قد قتل ، وهو شيخ مخلص وكان يدير المقاتلين الفدائيين . واعتبره الفلسطينيون أبا كفاحهم المسلح . وكان موته هو الذي أشعل شرارة الثورة العربية عامي 1936 ، 1937 والتي أخمدها البريطانيون دون رحمة فقتلوا الآلاف واعتقلوا عشرات الآلاف ، وكانت مقاومة الفلسطينيين للهجرة اليهودية قد قمعت لمدة جيل فعاشوا جنبا إلى جنب في تل أبيب . وسقطت يافا في هذه الأحداث العنيفة وطرد آلاف من الفلاحين العرب من أرضهم لأنها انتقلت إلى ملاك يهود وأقاموا في مجموعة من الأكواخ بجوار الميناء . وأثناء شباب أبو نضال كانت العداوة بين العرب واليهود أمرا لا مفر منه وحقيقة من حقائق الحياة اليومية .

وعندما رفض العرب قرار التقسيم عام 1947 اشتعلت الحرب الأهلية بين العرب

واليهود ، ووجدت يافا نفسها تحت الحصار وصممت القيادة اليهودية على الاستيلاء عليها وحدثت المعارك وكانت هناك وحشية من الجانبين . في أوائل عام 1948 تنكرت عصابتان من الإرهابيين في زي عرب وقادوا عربة محملة بالديناميت المخبأ تحت كومة من البرتقال . ونسفوها في المدينة وحدثت أكثر من مائة إصابة . مثل هذا التكتيك المرعب تكرر في أجزاء كثيرة من فلسطين لأن الصهيونيين تسابقوا للاستيلاء على أكثر ما يمكنهم من الأرض قبل الانسحاب البريطاني في 15 مايو 1948 . لأنهم كانوا يخشون دخول الجيوش العربية النظامية .

وفي يافا أغلق القتال المدارس والمصانع وخدمات الأتوبيس وصناعة الحمضيات ومزارع البرتقال والموز ومحطات التعبئة .

وكانت الاستراتيجية الصهيونية الناجحة جدا هي القيام بهجمات مفاجئة على المدن العربية وإمطارها بوابل من الصواريخ ومدافع « المورتار » وكانوا يشنون حربا سيكولوجية على العرب من مكبرات الصوت ومحطات الإذاعة السرية والتي يقوم بتشغيلها الهجاناه . وقد أحدثت الميلشيا اليهودية مذابح في القرى المنعزلة مثل دير ياسين وكولونيا ففر سكانها مذعورين . وذبح عدة آلاف من المدنيين العرب في أماكن متفرقة من البلاد مما أدى إلى الهرب المذعور عبر الحدود ومن هنا نشأت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . ولمدة سنوات كان كثير من المعلومات عن حوادث القتل يتكتم عن عمد ، ثم تسلل الكلام بعد ذلك بفضل الباحثين والمؤرخين الإسرائيليين الذين يبحثون في أحداث هذه الفترة .

وفي حيفا ، وعكا ، ويافا كان عشرات من العائلات الفلسطينية يعيشون تحت النيران اليهودية وغرقوا عندما حاولوا الهرب عن طريق البحر إلى غزة أو بيروت . وبمجرد أن استولى الهجاناه على يافا في 1948 قاموا بتنظيفها من سكانها، وسكنها آلاف من اليهود ولم يبقى من خمسة وسبعين ألف عربي سوى ثلاثة آلاف . لقد صادرت الحكومة الإسرائيلية مزارع البنا . ولا نستطيع أن نقارن تدافع الفلسطينيين إلى الخروج إلا بتدافع اليهود على اقتناء الممتلكات . وفي عام 1953 كان ثلث سكان إسرائيل اليهود يعيشون على أراض أخذت من الفلسطينيين .

وقبل سقوط يافا بأسابيع كانت عائلة البنا التي تعيش في كبرياء ونجاح تهرب إلى الجنوب إلى مدينة صغيرة اسمها المجدل ، حيث كانوا يأملون في الأمان. وسرعان ما هربوا مرة أخرى أمام التقدم الإسرائيلي . وكان الهرب جنوبا إلى غزة ، وفي ظل الاحتلال العسكري المصري وجدوا المأوى في معسكر البرج للاجئين ، حيث يكدسون معًا في خيام . لقد قضوا سنة تعيسة بما فيها شتاء 48 ، 1949 البالغ البرودة . ثم انتقلوا مرة أخرى إلى مدينة نابلس في الضفة الغربية تحت الحكم الأردني وبعيدا عن مدافع إسرائيل . واستطاع بعض أبناء خليل البنا وبناته أن يعيشوا حياة متواضعة وكانوا هم المحظوظين .

وبعد كارثة 1948 بسنوات كان معظم اللاجئين الفلسطينيين مازالوا يعيشون في خيام ، ينتظرون المعجزة التي تعيدهم إلى ديارهم .

وتضاعفت أعدادهم نتيجة الزيادة الطبيعية ونتيجة الحروب الجديدة . وكانت عاطفتهم السائدة هي ارتباطهم بأرضهم الضائعة وكراهيتهم لهؤلاء الذين حلوا محلهم وازداد هذا بمرور السنين .

والإسرائيليون فخورون ببناء دولتهم وببطولتهم العسكرية ولكن الكثيرين يعترفون أن حربهم للاستقلال كانت مثل بقية الحروب ، وحشية بل كانت جريمة . وقد كسبوها لأن ميزان القوة كان في صالحهم .

أما الدعاية التي تقول إن المجتمع اليهودي العاجز قد غلب بمعجزة القوة العربية الشاملة فهذه مجرد أسطورة ، كشف عنها مؤرخ يهودي مثل « سمحا فلابام » في كتابه « ميلاد إسرائيل الأسطورة والحقيقة » .

وبني موريس في كتابه « ميلاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين » . وهناك محاضرة ألقاها بني موريس في الجامعة العبرية بالقدس قال فيها إنه في أواخر الأربعينات قتل الإسرائيليون آلافا من الفلسطينيين العزل الذين حاولوا دخول البلد لجمع محاصيلهم أو استعادة ممتلكاتهم وكان الجنود يقتلونهم في الحال . وكان سكان « الكيبوتزيم » ينصبون الشراك في مضخات المياه لمنع الفلسطينيين من نزعها وكانت الشراك تنصب

أيضا في أجساد الفلسطينيين الذين قتلوا بهذه الطريقة لمنع أي أحد من الاقتراب منهم أو دفنهم . مثل هذه الأحداث تذكرنا بالوحشية التي قاسى منها الفلسطينيون ومازالوا يقاسون منها في الضفة الغربية وغزة .

لقد قامت دولة إسرائيل على حطام فلسطين العربية وانتزاع سكانها من أرضهم ، وهم قوم ليس لهم يد فيما عاناه اليهود في أوروبا وكثير من الأوروبيين مازالوا يرون اليهود ضحية الاضطهاد منذ آلاف السنين ولا يمكن فهم غضب أبو نضال وبقية الفلسطينيين إذا لم يعترف بالانتصار الإسرائيلي عام 1948 . هؤلاء الرجال والنساء أصبحوا بلا مأوى وجردوا من ممتلكاتهم ونسيهم العالم . إن هذا الرحيل الجماعي للفلسطينيين من وطنهم هو الذي أعطى الإسرائيليين بداية حياتهم الحقيقية . أما الطرف الخاسر فسيظل أعظم مأساة في التاريخ . والفلسطينيون يرون أن الإسرائيلي قاتل ولص ومقاتل متوحش بلا ضمير ولا إنسانية .

إن ما حدث عام 1948 لم يكن نهاية العملية بل بدايتها . إن كبت الفلسطينيين ونزع الأراضي منهم وبناء المستوطنات والاستيلاء على الموارد النادرة مثل المياه ، كل هذا مستمر حتى اليوم ، يزرع في ضحايا هذه السياسة خليطا متفجرا من الغضب واليأس . إن إرهاب أبو نضال ومن هم مثله هو رد فعل لهذا الانتصار اليهودي الذي نزل بالفلسطينيين إلى نصف حياة من العجز وعدم الإحساس بالأمان وفقدان الهوية .

وربما لم يحدث شيء من هذا لو أن العرب قبلوا قرار التقسيم عام 1947 ولكنهم لم يفعلوا والنتيجة هي عنف ويأس ليس لهما نهاية ، ونتيجة الإحساس العميق بالظلم فإن استحواذ فكرة الانتقام محتومة لأن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، وهذا هو الشعور المؤلم لكثير من الفلسطينيين فلا حل وسط ولا حل سلمي يمكن أن نحفل به . وعندما شرعت في دراسة حياة أبو نضال وجدت أن هذا الشعار قد أعماه عن حقائق السياسة وأدى به إلى حياة بلا هدف عنوانها : الإرهاب والجريمة .

شباب ثائر :

كانت سنوات أبو نضال الأولى في الضفة الغربية وغزة صعبة ؛ فقد اجتاز بصعوبة

حياته معتمدا على الإحسان من إخوته وأبيه ، وكانوا هم أيضا يناضلون من أجل الحياة . واشتغل في أعمال غريبة كعامل بسيط ومساعد كهربائي . واعترف لأصدقائه أن ملابسه كانت ممزقة ومعدته خاوية ولم ينل حظه من التعليم . وحاول أن يلتحق بمدرسة حكومية لمدة عدة شهور ولكن لم يكن معه المال الذي يعول به نفسه وكان قد فاتته سنوات كثيرة من الدراسة فلم يستطع أن يستمر . واجه السخرية التي زادت من استيائه . ومع ذلك كان ماهرا وطموحا فحاول أن يقرأ بنفسه عندما وقعت في يده مجلة سرية هي « اليقظة » كان يصدرها فرع حزب البعث في الأردن .

كان حزب البعث في الأردن سلاله غير مباشرة وربما الأولى من نوعها في العالم العربي ، وكان الحزب الأم قد أسسه سوريان في أواخر الأربعينات في دمشق . وعندما عمت الفوضى والضعف بعد كارثة فلسطين كان الشباب يبحث عن مخرج فانضم إلى البعث ببرنامجه المثير غير المترابط . ثم أصبح أعظم حزب قومي في هذه الفترة . ووجد الحزب أرضا خصبة في الضفة الغربية وفي نابلس بالذات نتيجة للمرارة التي يشعر بها اللاجئون خاصة في السنوات التي أعقبت اغتيال الملك عبد الله ملك الأردن في عام 1951 . قتله فلسطيني لتعاونه مع إسرائيل أثناء حرب 1948 واقتراحاته بقبول وجودها بعد الحرب .

وخلفه ابنه طلال المريض عقليا وسرعان ما خلع من الحكم لعدم كفاءته ، ثم تلاه حفيده حسين الشاب الذي كان في السابعة عشر ولم يختبر .

ولم يكن حزب البعث في الأردن معه ترخيص ليزاول نشاطه بطريقة شرعية كحزب سياسي ، وكان يعمل من تحت الأرض يلعب لعبة القط والفأر مع السلطات . ولكن في مظاهرات عنيفة طالب برأي أكبر للفلسطينيين في المملكة . وطالب أيضا أن تنهي الأردن علاقتها مع بريطانيا وهي التي يشعر الفلسطينيون أنها خانتهم لصالح الصهيونيين . وفي عام 1955 نظم حزب البعث حملة ليبعد الأردن عن حلف بغداد الذي أوحت به بريطانيا . وفي عام 1956 وأثناء حرب السويس طالبوا الملك حسين بالوقوف إلى جانب ناصر في مصر وهو البطل القومي الذي يحارب

مدى حياته من أجل الاستقلال العربي ضد بريطانيا وفرنسا وإسرائيل . وكان حزب البعث هو الحزب الذي انضم إليه أبو نضال وهو في الثامنة عشر . وكان أول تذوق له للسياسة المتطرفة، ولم يكن عمر هذه التجربة السياسية طويلا ، ففي إبريل 1957 حاول مجموعة من الضباط الوطنيين الاستيلاء على الحكم في عمان ولكن حسين واجههم هو والفرق البدوية الموالية له وحبس بعضهم ونفي بعضهم الآخر . وهنا دعا البعث والأحزاب الراديكالية إلى مؤتمر في نابلس مطالبين أن يعود الضباط إلى مواقعهم وأن يفصل مستشارو الملك وأن يبعد الأردن عن بريطانيا والولايات المتحدة ويقترب من مصر .

وحدث هياج ومظاهرات وواجه البوليس الأمر بالنيران . وعاش أبو نضال الشاب كل هذه الأحداث المأساوية . وتلاشى حلم الوطنيين . ودعم الغرب حسين ليستعيد سلطته وواجه حسين البعث بحركة اعتقالات كبيرة . وأغلقت مكاتبهم وأوقفت صحفهم وهرب قادتهم بما فيهم رئيس الحزب عبد الله الريماوي إلى سوريا بينما فضلت الميلشيات الصغيرة مثل أبو نضال أن تختفي .

وبينما الملك حسين يحكم قبضته وآمال البعث تخفت ، أضاف أبو نضال كراهيته للهاشميين إلى كراهيته لإسرائيل وبريطانيا والولايات المتحدة . وذهب يبحث عن حظه في السعودية مثل عشرات الآلاف من الشباب الفلسطيني هربا من معسكرات اللاجئين المزدحمة ذات الرائحة الكريهة . واتجه نحو الرياض وبمساعدة صديقه أبو فادي عمل بالنقاشة والكهرباء والتجارة . وفي سنة 1959 تمكن الشريكان من افتتاح محل في شارع الوزير في العاصمة السعودية . ولكن البعد عن فلسطين لم يجرح شعور أبو نضال على العكس كلما كان بعيدا أكثر عن وطنه الضائع كلما زاد أمله في العودة إليه ، وهي الفكرة التي استولت على عقول عدد كبير من الفلسطينيين . ومازال يعتبر نفسه بعثيا .

فقد كان هذا الحزب مدرسته في سنوات نابلس . أما في السعودية فقد كانت الإغراءات قليلة حيث كان الحزب هزيلا يعمل تحت الأرض . حوالي اثني عشر شابا يعقدون اجتماعاتهم في قبو . وكان ناصر يشك في البعث فأجبر حزب البعث السوري وهو الحزب الأم على أن يحل نفسه وقت الوحدة بين مصر وسوريا في عام 1958 مما جعل حركة الحزب تضطرب .

وكان عبد الله الريماوي رئيس الحزب في الأردن وهو الرجل الذي كان أبو نضال ينظر إليه في شبابه قد ترك الحركة ولجأ إلى القاهرة .

وترك أبو نضال أيضا حزب البعث وأخذ يبحث عن مخرج لطاقته القلقة ؛ ففي أوائل العشرينات رأى نفسه كقائد يؤثر في الآخرين بسرد الروايات عن إنجازاته وكان يؤلف الأساطير ويلعب بالحقائق وهي خصلة سوف تنمو معه . وفي الرياض التف حوله مجموعة من الشباب وكون مجموعة صغيرة وطبقا لطبيعة هذا العصر فقد أعطاها اسما كبيرا هو « منظمة فلسطين السرية » . وكان يحلم بإيفاد المبعوثين إلى كل المنطقة وأن يستمر القتال في فلسطين المغتصبة نفسها . وكانت بيروت أول هدف له . وكانت تعتبر هي كعبة الشرق الأوسط في النشر وفي السياسة وهي العاصمة العربية الوحيدة التي تتكلم فيها بحرية . وفي أوائل الستينات أرسل أبو نضال شابين إلى بيروت ليؤسسا فرعا لمجموعته السرية . ولكن مبعوثيه تخليا عنه وأصبح أحدهما طالبا واشتغل الآخر بالتجارة وفشلت المغامرة .

وفي النضال من أجل بدء المقاومة لم يكن أبو نضال وحيدا ؛ ففي أواخر الخمسينات وأوائل الستينات كان كثير من الفلسطينيين الذين يعملون في البلاد العربية وكذلك الطلبة الفلسطينيين في أوروبا يحاولون تكوين مجموعات سرية . وظهرت كثير من المجموعات رغم أنها لم تعش طويلا . فكان الإلهام الرئيسي هو صدمة النفي ، ومعاناة عائلاتهم والرغبة في التحرر من قيود الدول العربية المضيفة لهم والتحرق شوقا لرد الضربة لإسرائيل .

من بين هذه المنظمات وأهمها على الإطلاق منظمة ياسر عرفات « فتح » التي نشأت في الكويت عامي 1958 ، 1959 والتي أصبحت أبا لكل الحركات المقاتلة الفلسطينية . وقد جندت فتح كل فلسطيني حيثما وجد بما في هذا السعودية حيث يوجد أبو نضال الذي أثبت حركيته فكان منضما لا محالة .

ولم ينضم أبو نضال إلى فتح كجندي متواضع بل كان يدير مجموعته والتزم في إخلاص بقضية المقاومة ، وقفز عدة درجات في سلم المنظمة وكانت له عقلية حسابية وكان عمله ناجحا . كان حيويا وتسعد بصحبته .

وفي زيارة إلى نابلس قابل وتزوج فتاة هي هيام البيطار وهي من عائلة ممتازة في يافا ونفيت مثله وكانت أفضل تعليما منه فقد ذهبت إلى المدرسة وتعلمت الفرنسية . وكان يجدها مناسبة وفي منتصف الطريق بين المرأة العربية التقليدية والمرأة الحديثة . وقد أنجبت له ولدا وبنتين .

وفي السعودية لم يكن أبو نضال أكثر من مناضل يجلس على الكرسي ، يتآمر ، ويتحدث ، ويحلم بأعمال عظيمة . ولكنه لم يكن يفعل شيئا في الواقع . وبعد حرب 1948 جاءت حرب 1967 تاريخ الصدمة الثانية في النتيجة العربية وقد غيرت كل ذلك في أبو نضال . وبعثرت إسرائيل جيوش جيرانها العرب واستولت على القدس الشرقية وكل ما بقي من فلسطين العربية . بالإضافة إلى سيناء المصرية ومرتفعات الجولان السورية وأصبحت قوة عظمى في المنطقة أقوى من العرب مجتمعين . وأصبحت الضفة الغربية وغزة بسكانها الفلسطينيين أراض محتلة وظل الأمر كذلك حتى اليوم . كانت الضربة للعقلية العربية وللاعتداد بالنفس العربية هائلة . وازدادت الكراهية وازداد الظمأ للانتقام وتظاهر في السعودية أبو نضال ورفاقه ضد الحرب ونتائجها المرعبة ولكن السعوديين أحاطوا بهم وطردوهم من البلاد لخطورتهم . ولكن أبو نضال لا يستطيع أن يعود إلى الضفة الغربية فقد اكتسح الإسرائيليون منزله في نابلس . فلم يجد أمامه سوى عمان حيث كان الفدائيون الفلسطينيون يعدون أنفسهم لقتال العدو الذي وصل إلى حدود نهر الأردن .

وتذكر أبو نضال في ذلك الوقت أحد معارفه واسمه أبو علي شاهين « قضى في السجون الإسرائيلية بعد ذلك سنوات طويلة » يقول عنه :

« كان متعصبا . كان يريد أن يذهب ويقاتل . لم يكن يؤمن بالأديان ولا بالبعث ولا بالماركسية ولا بأي شيء آخر . لم يكن أمامه طريق لاستعادة فلسطين سوى إراقة الدماء . كانت البندقية هي أيديولوجيته . البندقية ولا شيء سوى البندقية » .

* * *

الفصل الرابع

أيلول « سبتمبر » الأسود

« المدفع والمدفع فقط »



أيلول « سبتمبر » الأسود
« المدافع والمدفع فقط »

لم يكن نداء أبو نضال لحمل السلاح بعد حرب عام 1967 غير مسألة بلاغية كلامية في ذلك الوقت . فبعد أن صدمة انتصار إسرائيل ، مثله مثل كل عربي آخر ، وبعد طرده من السعودية بسبب الإثارة السياسية نقل أبونضال أسرته الصغيرة إلى عمّان .

في هذا الوقت ، كان هناك مئات الآلاف من الفلسطينيين المنفيين مثله والذين كانوا ينتظرون لمدة عقدين حتى تستطيع الدول العربية والأمم المتحدة أن تلغي الحكم القاسي الذي وقع عليهم عام 1948 ، ولكن الآن وبعد أن أصابتهم ملمة كبيرة أخرى ، فقد اتحد غالبيتهم حول مبدأين أساسيين :

الأول : أن « الوطن المفقود » والذي يمثل مبعث اشتياقهم الأليم ، يمكن فقط استعادته عن طريق النضال المسلح .

وثانيا : أن أي تفاوض مع إسرائيل المنتصرة يمكن أن يعني فقط الاستسلام ومن ثم يجب رفضه في الحال .

وكان هناك رؤية لإشهار السلاح ضد إسرائيل على أنه معادلة جوهرية رافعة للمعنويات للخلاص القومي — الفلسفة التي كانت تتفق مع حركات تحرير أخرى في العالم الثالث في الستينات . ولكن أي نوع من « النضال المسلح » يمكن للفلسطينيين أن يشنوه بصورة جدية ضد القوة الإسرائيلية ؟

في الرياض وقبل حرب يونية عام 1967 ، أخذت « مقاومة » أبو نضال شكل مناقشات متأخرة بالليل مثيرة مع رفاقه من خلية فتح .

لو أن العرب أمكنهم حشد إمكاناتهم الكبيرة ، فمن المؤكد ولابد أن ينتصروا .

لقد كان هذا هو موضوع المناقشات المتكرر . كيف يمكن لحفنة من المستوطنين

الغرباء التغلب على ملايين الحشود العربية ؟ لقد كان العالم العربي فيلا مقيدا بالأغلال يواجه فأرا إسرائيليا : وكانت مهمة فتح هي كسر قيود الفيل وإطلاق قوته .

لقد فعلت هذه الصور المجازية الأعاجيب بالنسبة للمعنويات ، ولكن أبو نضال لم يتلق أي تدريب عسكري ولم يكن لديه خبرة بأي نوع من النزاع المسلح .

وقد كانت حربه الكلامية بعيدة تماما عن واقع موقفه . فقد كان مديرا بالنهار . محركا للأقلام . وقد تطور محل الكهرباء الخاص به في الرياض إلى شركة مقاولات صغيرة . وقد حقق المال وتصرف فيه بحساسية . وعند وصوله إلى الأردن ، من ثم ، لم يتجه ، مثل الكثيرين من الآخرين ، إلى المعسكرات المتداعية للسقوط التي كانت فتح تقيمها على نهر الأردن ، في نطاق مرمى نيران العدو ، ولكنه وضع أسرته في منزل محترم في عمان . وقد كان لديه روح التنظيم ، والتي كانت حركة حرب العصابات المشاكسة والفوضوية تفتقدها بصورة كبيرة ، وكان يمكنه أن يعمل طوال اليوم بصورة متواصلة .

وفي خلال فترة وجيزة ، كان أبو نضال قد وضع أساس شركة تجارية تسمى أمبكس والتي سرعان ما أصبحت مكاتبها في وسط عمان نوعا من « جبهة » فتح السرية ، مكان يمكن للناس أن يلتقوا فيه عندما يجيئون إلى المدينة وحيث يمكن تلقي ودفع الأموال لرجال حرب العصابات وأسرهم .

وقد كان أبو نضال في كل كلامه عن العنف الثوري ، بطبيعته منظما ، منهجيا ، عضوا بيروقراطيا في النضال المسلح وليس مقاتلا ، تلك السمات التي لاحظها وقدرها ياسر عرفات وقادة فتح الآخرون .

وقد التقى في الشهور الأولى في الأردن وكون صداقة مع أبو إياد ، رئيس مخابرات فتح لفترة طويلة . في أحد أحاديثنا ، أخبرني أبو إياد بلباقته وسخريته المعهودة بأنه سمع اسم صبري البنا لأول مرة بعد حرب يونيو مباشرة .

وقد تذكر أبو إياد « لقد تم تزكيته عندي كرجل ذي طاقة وحماس ، ولكنه بدا خجولا عندما التقينا » . « وفقط عندما ازدادت معرفتي به لاحظت سمات أخرى :

لقد كان رفقة طيبة للغاية ، لديه لسان لاذع وميل لنبذ معظم البشرية كجواسيس وخونة . وقد أحببت فيه ذلك ! وقد اكتشفت أنه كان طموحا للغاية ، وربما أكثر مما تحتمل قدراته وكان أيضا سريع الإثارة . وكان أحيانا ما يضع نفسه في حالة يفقد معها كل قوى الرشد .

وقد استمتع أبو إياد باستعداد الرجل الذي يصغره لانتقاد كل شيء وكل فرد ، حتى ياسر عرفات . وبوقاحة الشباب ، فإن صبري البنا والذي اتخذ الآن اسم أبو نضال ، كان يتصرف كند لعرفات لأنه ، قبل أن ينضم لفتح كان زعيما لجماعة فلسطينية صغيرة . وكان أبو نضال يجرؤ على قول أشياء كان أبو إياد وقادة فتح الآخرون يتعاطفون خفية معها ، بأن عرفات كان ديكتاتورا يميل إلى الإندفاع في قرارات انفعالية بدون استشارة رفاقة أولا .

وكان غالبا ما يقود أبو نضال سيارته إلى وادي الأردن لزيارة أبو إياد في كرمة ، القرية التي أقامت فيها فتح قاعدة عسكرية والتي حاولت منها أن تسلل ، بصورة غير فعالة ، الرجال عبر النهر إلى الضفة الغربية المحتلة .

وقد كانت كرمة قرية قذرة ، وقد أفزعت الظروف البائسة التي كان يعيش فيها ياسر عرفات وأبو إياد ، صبري . لماذا يجب أن تكون مثل هذه الخرائب ؟ على النقيض ، عندما قام أبو إياد برد الزيارة لأبو نضال في عمان أقام في منزله النظيف والمريح وتناول وجبة طعام جيدة ، أخذ حماما ونام نوما هادئا ، وكان يلعب مع طفلي مضيفة الصغيرين ، نضال ، وبادية .

ولم يكن لأبو نضال أي ميل للبطولات الرومانسية للفدائيين أو لقدرتهم غير العادية على قتل أنفسهم . ويتذكر أبو داود ، العملاق الذي يبلغ طوله ستة أقدام وست بوصات والذي تولى في النهاية في عام 1970 قيادة جميع قوات حرب العصابات التابعة لفتح في الأردن ، أن أبو نضال كان يحمل مسدسا في هذه الأيام ولكن لم يكن معروفا أنه استخدمه أبدا . وفي مصادمات في عمان بين قوات حسين ورجال حرب العصابات كان أبو داود يحارب بالخارج بينما بقي أبو نضال آمنا

بالداخل ولم يبرح مكتبه أبدا ، دعك من الاشتراك في معارك الشوارع . وبالنسبة لعقل منظم مثل عقله ، فإن مثل هذه المصادمات الضارية غير المخططة ضد قوى أكبر تُعد جنونا مطبقا .

وفي أواخر عام 1968 أو أوائل عام 1969 ، أقنع أبو نضال أبو إياد بأن مواهبه تكمن في الدبلوماسية وليس في مجال حرب العصابات واغتنم منصب ممثل فتح إلى الخرطوم .

وفي السودان ، عمل أبو نضال بجد وذكاء ، وأجرى اتصالات عبر مجال السياسة المحلية ، وسرعان ما أصبح في وفاق مع النظام الجديد لجعفر النميري ، الكولونيل ذو الخمسة والثلاثين ربيعا الذي استولى على السلطة في الخرطوم ، في صيف عام 1969 . وكان هذا أول دور صحيح لأبو نضال من أجل القضية الفلسطينية ودافعا لطموحه .

لماذا غادر أبونضال عمان ؟ لقد كان هذا السؤال موضع تأمل في الدوائر الفلسطينية ، ترك شركته التجارية أميكس ، ورفاقه في فتح ، وفر مسرعا عندما بدأ رجال حرب العصابات في الأردن يقعون تحت ضغط شديد من كل من إسرائيل والملك حسين – الخطوة التي ألصقت به فيما بعد تهمة الجبن . ربما ببساطة كان أبو نضال أكثر حرصا من الآخرين .

استراتيجية الإرهاب :

وقد دفع تاريخ الهزيمة المتكررة القادة الفلسطينيين ، ومن بينهم أبو نضال ، إلى التفكير جديا في استراتيجية النضال المسلح – محاولة إرسال رجال حرب العصابات في مهمات تخريبية بداخل الأراضي الإسرائيلة – والتي تبنوها بصورة غير متقنة مبهجة في منتصف الستينات . وكانت استراتيجية إسرائيل المضادة هي أن تضرب بعنف ليس فقط ضد رجال حرب العصابات أنفسهم وفقا لمبدأ العين بالعين ، ولكن أيضا ضد الدول العربية التي تأويهم . وكان حتميا أن تنقلب الدول المضيفة على رجال حرب العصابات كما حدث في الأردن وبعد ذلك في لبنان : وعندما وضعت في موضع الاختيار بين مساعدة رجال حرب العصابات وانقاذ أنفسهم من العمليات الانتقامية الإسرائيلية كان من الطبيعي أن تضع الدول العربية أمنها في المقام الأول .

ويبدو أن أبو نضال كان لديه شكوك بشأن طريقة تنفيذ النضال الفلسطيني ؛ فبدلا من المواجهة الصريحة فإنه كان يفضل الاتجاه غير المباشر ، التجهيز في الخفاء ، توجيه الضربة عندما وحيثما لا يتوقع العدو .

كيف نشأت هذه الاستراتيجية ؟ تحت ضغط الأحداث يبدو أن أفكاره قد تشكلت تدريجيا بين عامي 1968 ، 1973 ذلك الوقت الذي طور فيه أبو نضال التكتيكات والطرق - باختصار ، الإرهاب - الذي أصبح بسببه سيئ السمعة .

وقد نُقل عن الرجال الذين كانوا يعرفونه بأنه تأثر كثيرا ، وفي الواقع أقام نموذجة ، بناء على حركات جناح اليمين اليهودية الإرهابية . وقد تأثر بشدة بصورة خاصة بالأرجون ، وهو فكرة مثير الفتن روسي المولد فلاديمير جابوتنسكي ، والذي كان يدعو إلى استخدام القوة بدون خجل - « الجدار الحديدي » - ضد العرب لإقامة سيادة يهودية كاملة فوق ضفتي نهر الأردن ، وهو جدول الأعمال الذي تبناه تلامذته المخلصون إسحاق شامير ومناحم بيجين . وقد أولع أبو نضال أيضا بفرع « الأرجون » الأكثر تطرفا وهو « ستيرن جانج » والذي لعب تحت زعامة شامير وآخرين دورا بارزا في إثارة أعصاب العرب والبريطانيين في النضال من أجل الدولة اليهودية . وأثناء التمرد العربي في الفترة من 1936 - 1939 كانت الـ « ستيرن جانج » أول من أدخل الإرهاب إلى الشرق الأوسط عن طريق تفجير القنابل في الاتوبيسات وفي الأسواق العربية .

وفي نوفمبر 1944 عن طريق اغتيال لورد مايون المندوب السامي البريطاني في الشرق الأوسط . وقد استخدمت الـ « أرجون » أيضا الإرهاب ضد أهداف بريطانية وعربية .

وكان أكثر أعمالها شهرة ولفتا للأنظار هو نسف فندق الملك داود في القدس في يوليو 1946 ، حيث كان البريطانيون يقيمون مقر قيادتهم . وقد قُتل أكثر من مائة شخص في الهجوم . وباستخدام معايير اليوم المتدنية ، فإن هذه المذبحة قد تبدو تافهة نسبيا ، ولكن الصدمة في ذلك الوقت كانت كبيرة جدا ، ويقال إن أبو نضال قد تأثر كثيرا بهذه الأفعال عندما علم بها فيما بعد ، كرجل شاب .

وقد أخبرني رفاقه السابقون أنه في أواخر الستينات كان أبو نضال دائم التأمل في الدروس التي يجب تعلمها من ضياع فلسطين . أين أخطأ الفلسطينيون ؟ في منتصف الثلاثينات ، هبوا في ثورة تلقائية ضد الهجرة اليهودية الكبيرة لكن البريطانيين سحقوهم وجعلوا من المجتمع الفلسطيني ككل مجموعة من المتفرجين الذين لا حيلة لهم بقية الحرب العالمية الثانية . على النقيض ، فإن عشرات الآلاف من اليهود عملوا في جيوش الحلفاء وتعلموا كيف يحاربون « بما في ذلك تعاليم التخريب والإرهاب » ، والتي استخدمها بعضهم بصورة مدمرة تماما في عام 1947-1948 ضد الجماهير العربية سيئة الإعداد في فلسطين والقوات الغوغائية للدول العربية .

ومن عام 1948 إلى عام 1965 ، وبينما كانت إسرائيل تزداد قوة فوق قوة لم يفعل الفلسطينيون شيئا . ولم يحدث إلا في عام 1965 ، وبعد سبعة عشر عاما من ضياع فلسطين أن بدأت فتح هجمات عسكرية صغيرة بداخل إسرائيل ليس بهدف محاربة إسرائيل وحدها – كانت فتح تعرف أن هذا مستحيلا – ولكن بهدف جر الدول العربية إلى حرب ، كانت تأمل ، سوف تسترد « الحقوق » الفلسطينية . وهذا بدوره ثبت أنه خطأ كبير في الحسابات ، حتى بالنسبة للقوة العسكرية للعرب . وفي الواقع ، وعلى الرغم من أن رجال حرب العصابات لم يلحقوا بإسرائيل أي ضرر ذي مغزى ، فقد ساعدوا على تعجيل « حرب الستة أيام » .

ففي أوائل عام 1967 ، قاموا بتوريط مؤيديهم السوريين في هجماتهم الحمقاء وأثاروا المخاوف بأن إسرائيل سوف تنتقم من سوريا وتحاول أن تسقط نظامها الراديكالي . ولم يستطع الرئيس المصري ناصر والذي كان يتبوأ منصب قائد العرب أن يقف ساكنا ويدع ذلك يحدث . ولأنه كان يخشى من أن أي هجوم إسرائيلي على سوريا قد يباغته ويخدعه ، فقد فكر أن يضع الأزمة تحت سيطرته المباشرة عن طريق نقل مركزها من سوريا إلى سيناء ، حيث تورط في مبارزة خاصة به . فمع وجود نصف جيشه في اليمن « يحارب الملكيين في الحرب الأهلية هناك » لم يكن لدى ناصر أية نية في مهاجمة إسرائيل .

ولكنه تحدى مصلحة إسرائيلية حيوية عن طريق غلق مضيق عبور السفن من البحر الأحمر لإيلات وهو الطريق الذي فتحته إسرائيل في حرب السويس عام 1956 . وقد اتخذت إسرائيل هذا الأمر ذريعة للحرب وسحقت مصر ، مع حلفائها السوريين والأردنيين في هجومها الكاسح والذي بادرت به في يونيو عام 1967 .

« كما أوضح ويليام ب كواندت في كتابه « عقد القرار 1977 وكما كتبت عنه في كتابي : أسد سوريا : النضال من أجل الشرق الأوسط 1989 » .

ولابد أن خبرة عام 1967 المشئومة قد شككت في استراتيجية حرب العصابات القديمة إلا أن الفلسطينيين كانوا مخدوعين في الاعتقاد بأنه على الرغم من هزيمة الجيوش العربية النظامية ، فإن « النضال المسلح » يمكن شنه ضد إسرائيل وفقا للنموذج الجزائري أو الفيتنامي ، في شكل حرب تحرير شعبية . وقد تم إرسال الجنود الفلسطينيين الصغار ، دون إعداد كاف ، لإقامة « خلايا ثورية » في الضفة الغربية المحتلة ، تقريبا تحت أنظار العدو . وبدون « ماسك » لإخفائهم فقد تم محاصرتهم سريعا أو قتلهم . وفي أوائل عام 1968 .

انتهت في الواقع تلك المضايقات غير الفعالة وأصبحت إسرائيل مستعدة لشن هجمات مضادة ضد قواعد رجال حرب العصابات بالأردن – وبعد ذلك ضد الأردن نفسها ، مما ينبئ بخلق توترات خطيرة بين رجال حرب العصابات والملك .

في عام 1968 كان هناك حدثان في غاية الأهمية ذهبا بالفلسطينيين مرة أخرى في الاتجاه الخاطئ . وقد حدث الأول في مارس ، عندما عبرت قوة إسرائيلية مدرعة قوامها 15,000 رجل مصحوبة بدعم جوي ، النهر وهاجمت قاعدة رجال حرب العصابات التابعين لفتح بقرية كرمة بالأردن ، بقوة ساحقة . وقد تم نسف القاعدة ومعظم القرية ونتج عن ذلك خسائر كبيرة . ومع ذلك فقد رد رجال حرب العصابات على الهجوم بجسارة وبمساعدة من الجيش الأردني . تمكنوا من إلحاق إصابات كبيرة بالإسرائيليين . وفي وقت كان فيه إضعاف المعنويات العربية شاملا

عقب حرب 1967 ، فإن حقيقة أن العرب قد قاموا ببعض القتال قد اعتبر نصرا كبيرا . فقد اندفع نصف سكان عمان إلى كرمة لمعانقة رجال حرب العصابات الناجين ، وتجمع الآلاف للانضمام إلى صفوفهم .

ولما تم حملهم عاليا في موجة من العاطفة الشعبية ، فإن رجال حرب العصابات اعتبروا أنفسهم أنصاف آلهة وأخذوا يختالون بعمان ومدن أخرى مع قليل من الاعتبار للسلطات المحلية . ولم تكن مفاجئة أن الملك حسين رأي في أوضاعهم غير المنظمة تهديدا له نفسه وبدأ يتعاون سرا مع إسرائيل لاحتوائهم .

وكان الحادث الحاسم الثاني هو اختطاف طائرة ركاب تابعة لشركة العال الإسرائيلية في رحلتها من روما إلى تل أبيب في يوليو 1968 وتحويل مسارها إلى الجزائر . وقد تم الإفراج عن النساء والأطفال وغير الإسرائيليين على متن الطائرة في أعقاب ذلك ولكن ما أثار غضب إسرائيل أنه تم احتجاز الاثنى عشر إسرائيليا الباقين من بين ركاب الطائرة لمدة تسعة وثلاثين يوما ولم يتم الإفراج عنهم إلا في مقابل خمسة عشر فلسطينيا معتقلين في سجون إسرائيل .

وقد كانت هذه هي أول عملية إرهاب من نوعها ، النموذج الذي احتذته الكثير من العمليات الأخرى ، وقد كان العقل المدبر لها هو وديع حداد ، وهو ثوري فلسطيني من صفد والذي تخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت كطبيب بشري . وعندما أثار حنقه العنف الإسرائيلي ضد أفراد شعبه أقسم أن يستخدم العنف ردا عليه . وقد أسس وديع حداد بصحبة ثلاثة أصدقاء ومعاصرين من الجامعة الأمريكية - وهم هاني الهندي السوري ، جورج حبش الفلسطيني وأحمد الخطيب الكويتي وقد كان الأخيران طبيبين بشريين مثله ، حزبا سياسيا ، وهو حركة القوميين العرب « MAN » ، والذي كان مقدرا له أن يطور فروعا له في العديد من الأقطار العربية . وكان لواء هذا الحزب شعارا من ثلاث كلمات « النار ، الحديد والثأر » وكانت فلسفته إلى أن يستعيد الفلسطينيون حقوقهم يمكن للعالم بأسره أن يحترق .

ولم يمض وقت طويل بعد أن بدأت فتح « النضال المسلح » حتى جمع حبش

وحداد أعضاء حركة « MAN » من الفلسطينيين في منظمة منفصلة والتي أصبحت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين « PFLP » . ولأنها كانت تغير من فتح المنظمة الأكبر والأكثر رسوخا ، ولأنها كانت غير قادرة على مجاراة عمليات فتح على الأرض ، فقد لجأت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين « PFLP » إلى العمليات الإرهابية المثيرة ، مثل اختطاف طارة العال والتي أكسبتها مكانة كبيرة بين العرب . وكان استهلالا للمقاومة ككل .

ولو لم تكن الطائرة المختطفة إسرائيلية ، لكان قد تم رفض هذه القرصنة من جانب الفلسطينيين أنفسهم منذ البداية . وما يجب تذكره أنه في العشرين سنة من عام 1948 إلى عام 1968 ، لم يفكر الفلسطينيون أبدا في مهاجمة إسرائيلي ما أو حتى يهودي خارج إسرائيل . فلم يكن الإرهاب في جدول الأعمال الخاص بهم . وبدءا من عام 1965 إلى ما بعده ، تم توجيه « النضال المسلح » لفتح نحو أهداف مثل خطوط أنابيب المياه الإسرائيلية وخطوط السكك الحديدية . ولم تقر فتح الاختطاف ولم يكن لديها أية نية في التأسي بمثال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . ولكن لأن هدف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان طائرة للعدو فقد كان العالم العربي غير راغب في إدانة الاختطاف .

وبعد هذا « النجاح » الأول راح وديع حداد يختطف طائرات بلاد أخرى ويقيم علاقات مع الجماعات الإرهابية الأوروبية واليابانية . وكانت الهدية المفاجئة وغير المتوقعة هي أن الخطوط الجوية بدأت تدفع له مبالغ مالية كبيرة للوقاية منه . على سبيل المثال دفعت شركتان دوليتان للخطوط الجوية لحداد مليون دولار في الشهر لكل منهما ، الأموال التي حولها للمنظمة والتي سمحت للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أن تكتسب نوعا من الاستقلال عن الضامنين العرب .

وفي الوقت نفسه ، في الأردن ، فإن رجال حرب العصابات المسرفين في الثقة بدأوا يدعون إلى التحريض ضد الملك حسين والمناداة الصريحة بإسقاطه . ولما آثارهم سابقوهم في عدن حيث أجبرت مجموعة من الجنود المسلحين غير النظاميين مندمجة مع حركة القوميين العرب MAN البريطانيين على الخروج منها ثم ألحقوا الهزيمة

بخصومهم المحليين واستولوا على السلطة ، اعتقد بعض رجال حرب العصابات أن السلطة في الأردن أيضا ، هي ملكا لهم ليأخذوه . وقد حدث الانسحاق في سبتمبر عام 1970 ، عندما لم تجبر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين PFLP ، في حفلة اختطاف عربيدة ، أقل من ثلاث طائرات ركاب على الهبوط على ممر هبوط غير مستعمل بالأردن .

وقد قرر الملك حسين المغتاظ أن يرد عليهم ، وعندما زاد من تصلب الولايات المتحدة وتهديد من إسرائيل بالتدخل ، أطلق الملك حسين دباباته على رجال حرب العصابات وقوته الجوية على درع سوري عبر بفتور إلى الأردن لتدعيمهم . وقد تم قتل العديد من المئات من رجال حرب العصابات وتم أسر ثلاثة آلاف آخرين ، وجُرح حوالي عشرة آلاف فلسطيني معظمهم من المدنيين في حروب الشوارع الدائرة وفي عمليات قذف مخيمات اللاجئين .

وقد كان هذا هو بيان الميزانية الشنيع لسبتمبر « الأسود » هذا .

في ضربة واحدة فقد رجال حرب العصابات مأواهم الحيوي في الأردن ، والذي كانوا يحلمون منه بدفع إسرائيل إلى الوراء من نهر الأردن ، ومن ثم تحرير فلسطين بوصة بوصة . الحلم والاستراتيجية الآن يجب نبذهما ، مما يضع حركة رجال حرب العصابات بأسرها في كرب ويحررهم من الوهم .

ومن الخرطوم البعيدة تابع أبو نضال الدراما الظاهرة للعيان بأفضل ما يستطيع . ولكن في أوائل عام 1970 ، عندما لم يستطع أن يحتوي نفسه أكثر من ذلك ، فقد ظهر في عمان ، قبل شهور عديدة من نهاية سبتمبر المشئومة .

وقد كان هناك في شهر فبراير ، في وقت ليشهدوا واحدة من أوائل المصادمات الجادة بين رجال حرب العصابات والجيش ، وقد أثرت فيه تأثيرا عميقا .

وقد بدا له الأمر من الناحية العسكرية والسياسية أن الفلسطينيين يسيرون في الطريق الخاطئ . فمن الناحية العسكرية ، كان « النضال المسلح » غير فعال على الإطلاق وقد أفقدهم تعاطف وتأييد الأردن ، البلد العربي الذي لديه أطول حدود

مع إسرائيل . ومن الناحية السياسية كانت المقاومة الفلسطينية أبعد من أن تكون حركة منظمة ومتماسكة . فجماعات الفدائيين تكونت ، أندمجت ، تفككت وانقسمت وغيرت أسماءها في حركة محيرة حتى إن الغرباء وجدوها غير مفهومة .

وكانت هذه المجموعات منقسمة عن طريق الأحقاد الشخصية والخصومات ولكن أيضا عن طريق الآراء المتباعدة عن كيفية إنجاز الهدف المشترك باستعادة الأرض الفلسطينية وإقامة الدولة الفلسطينية .

وقد وُلدت منظمة التحرير الفلسطينية ، وهي جهاز المظلة لحركة المقاومة بأكملها عن قرارات مؤتمر القمة العربية الأول في يناير عام 1964 ، عندما كان القادة العرب غير قادرين على عمل أي شيء تجاه خط أنابيب مياه كبير كانت إسرائيل تستكمله لنقل مياه الأردن إلى نجيف ، فقرروا نزع فتيلة الغضب والإحباط الفلسطيني عن طريق منح الفلسطينيين منظمة خاصة بهم .

وقد تم تنصيب أحمد الشقيري وهو محام فلسطيني ثرثار لم يحمل مسدسا أبدا رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية PLO وتم الموافقة على ميثاق قومي فلسطيني يدعو إلى تدمير إسرائيل . وقد ظل هذا الميثاق حروفا ميتة حتى شهر يونيو عام 1967 ، عندما أثار هزيمة الجيوش العربية النظامية نشأة مجموعات الفدائيين الفلسطينية والتي كانت فتح أفضلها تنظيما وأقواها .

وفي عام 1969 أصبح ياسر عرفات رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية PLO واكتسبت فتح السيطرة على كل من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية PLO والمجلس الوطني الفلسطيني وهو عبارة عن برلمان الفلسطينيين في المنفى .

ولأنها كانت أكبر المجموعات الفدائية فقد كان بإمكان فتح ومما لاشك فيه كان يجب أن تفرض إرادتها على الفصائل الأخرى وأن توحد حركة المقاومة في قوة فعالة . ولأنها كانت تمثل التيار البراجماتي العقلاني ، فقد كان بإمكانها أن توفر على الفلسطينيين الكثير من وجع القلب لو فعلت ذلك . ولكن لأسباب تظل غامضة فقد شعر عرفات ورفاقه بأنه من الأفضل التوفيق بين الظلال المختلفة للرأي الفلسطيني

بداخل منظمة التحرير الفلسطينية PLO ، مما نتج عنه إصابة منظمة التحرير الفلسطينية بالشلل بسبب النزاعات الداخلية منذ البداية .

فكان عرفات يجادل ليس فقط الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش والتي تأسست في ديسمبر 1967 ، والتي رفضت أي تفكير في تسوية وسط مع إسرائيل ولكن أيضا الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين بقيادة نايف حواتمة DFLP تلك المنظمة الماركسية التي تكونت في عام 1969 عن طريق المنشقين اليساريين المتطرفين من كل من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين PFLP وحركة القوميين العرب MAN والتي كانت تكرس جهودها لنضال التحرير بالعالم الثالث المعادي للإمبريالية . ومجموعة أخرى سببت لعرفات الكثير من المتاعب هي القيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة أحمد جبريل والتي تشكلت في عام 1968 من انقسام في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وقد كان جبريل وهو رجل عسكري قوي البنية ، فدائيا قديما له تاريخ من نشاط حرب العصابات يرجع إلى عام 1959 . وكانت فلسفته الكليلة هي أنه يجب على الفلسطينيين أن يقضوا وقتا أقل في الكلام ووقتا أكثر في القتال . ولأنه كان مدعوما من سوريا وليبيا فقد تخصص في الغارات الانتحارية بداخل إسرائيل .

وكان على عرفات أن يتصارع أيضا مع مجموعات الضغط التي تسيطر عليها كل من سوريا والعراق على التوالي ، وهي الدول التي كانت لا تميل إلى ترك المواجهة الخطيرة والتي تستحوذ على كل الانتباه مع إسرائيل في أيدي الفلسطينيين بمفردهم .

وكانت جماعة سوريا تعرف باسم الصاعقة وتشكلت في عام 1968 بأعضاء من أعضاء الفرع الفلسطيني من حزب البعث السوري . وكانت نظيرتها العراقية ، وهي خصم للصاعقة هي جبهة التحرير العربية ALF والتي تشكلت في عام 1969 عن طريق فلسطينيين على صلة وثيقة بحزب البعث العراقي .

ولم يكن هذا بأي حال هو نهاية القصة . فقد نشأت مجموعات أخرى لها

ضامنون مختلفون وأهداف مختلفة في السنوات اللاحقة لتلوث المياه الفلسطينية و تجعل في الواقع من المستحيل أن تنشأ استراتيجية واضحة أو لمنظمة التحرير الفلسطينية أن ترسل رسالة مترابطة إلى العالم الخارجي .

وكان أبو العباس من بين مسببي المتاعب البارزين الذين فشل عرفات في السيطرة عليهم ، وهو قائد جبهة تحرير فلسطين وهي فرع صغير من منظمة جبريل والتي كانت تتمتع في البداية بتأييد العراق وبعد ذلك ليبيا .

ومن بين أعمالها الأخيرة والتي كانت جميعها مشئومة بالنسبة للقضية الفلسطينية ، الاستيلاء على السفينة أكيلي لورو في أكتوبر عام 1985 وقتل مقعد يهودي على متنها وبعد ذلك في مايو 1990 غارة فاشلة لرجال حرب العصابات على الساحل الإسرائيلي عند تل أبيب والتي جعلت الولايات المتحدة توقف الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية PLO .

مبعوث إلى بغداد :

لم يكن أي من هذه العمليات على هوى أبو نضال . وفي أوائل عام 1970 وعندما تنبأ بالمكاشفة القادمة مع الملك حسين ، بدأ أبو نضال في مضايقة أبو إياد وفي الواقع أي شخص في القيادة الفلسطينية ينصت له لإرساله مرة أخرى ليمثل فتح في الخارج ، وهذه المرة في بغداد . وفي هذه اللحظة احتاجت فتح بشدة لشخص يكسب تأييد الحكومة العراقية .

فقد كان للعراق أربعة عشر ألف رجل متمركزين في الأردن ، وهي عناصر تابعة « لقيادة شرقية » عربية قصيرة الأجل والتي شملت ذات مرة مصر وسوريا وكان قادة فتح قلقين بشأن معرفة ماإذا كان بمكنهم الاعتماد على الجنود العراقيين ليقفوا بجانبهم في حالة القتال الشامل مع حسين .

ولكي يدرسا النوايا العراقية التقى عرفات وأبو إياد سرا في يوليو 1970 بعضوين بارزين في النظام العراقي ، عبد الخالق السامرائي ، وهو عضو في مجلس قيادة الثورة ووزير الداخلية ، والجنرال صالح مهدي عماش ، في معسكر تابع للجيش العراقي

بالقرب من مدينة الزرقا الأردنية . وقد تم منحهما تأكيدا بأن القوات العراقية سوف تقاتل إلى جانبهم . ولكن فتح احتاجت إلى شخص في بغداد يلزم العراقيين بعهدهم ، شخص قادر ومؤثر بصورة تكفي لإجراء اتصال مع الرئيس أحمد حسن البكر وقائد جيشه الجنرال حردان التكريتي . وقد بدا أبو نضال الشخص المناسب لهذا المنصب .

في أواخر يوليو وقبل شهرين من انطلاق الجحيم في عمان ، تولى منصبه في بغداد تاركا فوضى الأردن وراءه ومرة ثانية أثار شكوك بعض رفاقه بأنه كان يهرب لينفذ بجلده .

ولكن أبو نضال فشل في مهمته . فعندما اجتاحت دبابات الملك حسين مواقع رجال حرب العصابات في شهر سبتمبر ذلك ، لم يتحرك العراقيون . فالمعارك بين الجيش الأردني والفدائيين كانت مشتعلة لمدة عشرة أيام مع تكوم القتلى والجرحى في الشوارع ، ولكن صرخات فتح اليائسة طلبا للمساعدة تم تجاهلها في بغداد .

وقد أفلت عرفات بصعوبة من الأسر ، أما أبو إياد وقائد بارز آخر من قادة فتح وهو أبو اللطف « فاروق قدومي » والذي عرف فيما بعد بوزير خارجية منظمة التحرير الفلسطينية PLO فتم إلقاء القبض عليهما واعتقالهما . ولهدم معنوياتهما ، فقد جعلهما معتقلوهما ينصتان لتسجيل لمكالمة تليفونية بين الملك حسين والجنرال التكريتي أكد فيها القائد العراقي أنه وفقا لاتفاقهم المسبق فإن القوات العراقية لن تتدخل . لقد خان العراق رجال حرب العصابات .

وقد كان مقدرا لقادة فتح أن ينالوا صدمة أخرى . فبعد مذبحة سبتمبر مباشرة بدأ أبو نضال يهاجمهم عبر إذاعة « صوت فلسطين » محطة الإذاعة التابعة لهم في بغداد ، متهما إياهم بالجبن في المعركة وأدانهم بالاتفاق على وقف إطلاق النار مع الملك حسين . والرجل الذي خصه أبو نضال بالإساءة لم يكن سوى أبو إياد صديقه وناصحه القديم والذي قدم له المنصب في بغداد .

وقد أخبرني أبو إياد أنه بتأمل الأحداث الماضية فإنه وصل إلى الاعتقاد أن شيئا هاما قد حدث لأبو نضال في عام 1969 أو عام 1970 جعله يتجه في هذا الاتجاه

الجديد موضع الشكوك . وتساءل أبو إياد إذا ما كان أبو نضال قد تم تجنيده في الخرطوم عن طريق المخابرات العراقية أو عن طريق الموساد . لقد كان لغزا تصارع أبو إياد معه حتى نهاية حياته .

وفي عام 1971 ، ومع استمرار أبو نضال في هجماته الإذاعية على رفاقه في فتح قرر عرفات وزميله العسكري الرئيسي ، أبو جهاد طرده من فتح ولكن أبو إياد نصحهما بالحرص . لقد كان هدف هجوم أبو نضال الجارح ولكنه شعر أنه سيكون من الخطأ فقد مثل هذا الرجل المتمكن وتركه للعراقيين – أي إلى أن يحصلوا على تفسير منه عن تغير اتجاهاته المثيرة علاوة على ذلك كان العراق يميل إلى تفسير طرد أبو نضال من فتح كنقد لها – وقد اصطدمت فتح بشدة مع الأردن وفكر أبو إياد أنها يجب أن تحذر من التنازع مع العراق أيضا .

في عام 1972 ، دعت العراق فتح إلى إرسال وفد لبغداد لمناقشة العلاقات التي تزداد توترا . وتكون الوفد من أبو إياد وأبو اللطف وأبو مازن « محمود عباس » . وكان في قمة جدول الأعمال الخاص بالمحادثات موضوع فشل العراق في مساعدتهم في الأردن في ساعة الحاجة . وكما يذكر أبو إياد ، فإن أبو نضال التقى بهم بالمطار ولكن أبو إياد كان غاضبا منه ورفض أن يصافحه .

وسرعان ما انخرطوا في مناقشات مع قادة العراق وبخاصة عبد الخالق السامرائي ، الرجل الذي وعدهم بأن القوات العراقية سوف تتدخل إلى جانبهم والذي أصيب بحرج مفهوم لأن هذا الوعد لم يوف به .

« لقد أخذنا إلى الرئيس البكر » قال أبو إياد محدثني وفي الطريق إلى هناك حاول أن يعدنا لما هو متوقع . « لن يكون في إمكانهم البقاء طويلا » . قال محذرا : « فالرئيس متعب . لا تزعجوا أنفسكم بمعانقته عندما تحييونه » أول شيء صدمني عندما دخلنا مكتب البكر هو أنه لم ينهض من مكتبه . ومثل هذه الفظاظة من حاكم عربي تجاه القادة الفلسطينيين لم يُسمع عنها ! وكان بإمكاني أن أشعر بأن السامرائي يزداد حرجا » .

في كل الأحوال ، لقد كان لقاء فاترا . وعندما اقترب من نهايته قال أبو إياد « سيدي الرئيس يبدو أنك مشغول . من فضلك اسمح لنا بالانصراف . ولكن قبل أن نذهب اسمح لي أن أقول بأننا انزعجنا بقرار عدم تأييدنا في الأردن ، والذي لاشك قد اتخذ بدون معرفتك » .

ورد البكر بحدة قائلا « لقد كان قراري ! » « وقد أشرفت بنفسي على انسحابه القوات العراقية » . عند هذا الحد شعر أبو إياد بأنه مضطر لأن يسأل الرئيس عن أسبابه ورد عليه البكر قائلا :

« أنتم في المقاومة الفلسطينية لكم تسعة أرواح مثل القطط ، فإذا ما قتلوكم يمكن أن تنهضوا ثانية . ولكننا نظام ! وفي الأردن في عام 1970 كانت هناك مؤامرة لجرنا إلى معركة لتدميرنا . ولو كنا تعرضنا للدمار لكنا انتهينا ! » .

و « كان ذلك هو السبب » قال أبو إياد محدثني « لقد استمر الاجتماع مجرد عشر دقائق . وبمجرد أن خرجنا من الحجرة ، أخذت أبو نضال جانبا ولعنته وصارحته برأيي فيه » . هل هذا هو النظام الذي تدافع عنه ؟ » انفجرت فيه . وقد ذهبت في هذا المساء إلى منزله وحسمت النزاع معه في حضور زوجته . وقلت إنه ربط نفسه بصورة وثيقة مع العراقيين . وقد سمعت أن له علاقة خاصة مع سعدون شاكر الذي كان رئيسا لجهاز المخابرات العراقي في ذلك الوقت .

« وثارت ثائرة أبو نضال باتهامي هذا » . أنا لست عميلا لأحد « قال معترضا . ولكن شكوكي استمرت . وقبل أن أشك في وجود حلقة اتصال محتملة مع الموساد ، اعتقدت أن المخابرات العراقية قد اتصلت به عندما كان في السودان وأن تحمسه للانتقال إلى بغداد لم يكن فكرته الخاصة كلية » .

ومع ذلك وحتى بعد هذه الزيارة ، فقد نصح أبو إياد رفاقه في فتح أنه من الأفضل لو حاولوا احتواء أبو نضال بدلا من طرده فضلا عن المخاطرة بدفعه أكثر فأكثر في أحضان العراقيين . وكما إعترف لي أبو إياد فقد كان لا يزال مولعا به . ولكنه كان قلقا بشأن ما يحدث له . وكان هناك شيء ما بشأن أبو نضال يخيفه . ومع ذلك فلم يشرك رفاقه في القلق الذي يساوره .

وكان على قادة فتح مواجهة الحقيقة المؤلمة بأن رجلهم في بغداد قد حول ولاءه . فبدلا من الدفاع عن مصالحهم جعل من نفسه بوقا لآراء بغداد وأخذ يهاجمهم عبر الأثير . وقد أصبح أبو نضال حسكة مؤلمة في جسدهم ولكن لأنه الآن يتمتع بالحماية العراقية فلن يستطيعوا انتزاعه بسهولة .

مولد سبتمبر « أيلول » الأسود :

تضاءل موضوع خروج أبو نضال على النظام بسبب الاضطراب الذي وقعت فيه الحركة الفلسطينية بأكملها نتيجة لتصادمها المفجع مع الملك حسين والذي كان الستارة الخلفية للمرحلة التالية لتطور أبو نضال . فالمعركة من أجل عمان في سبتمبر عام 1970 قد ألحقت هزيمة نكراء برجال حرب العصابات قسمتهم بشدة . وفي أوج القتال ، أدرك قادة فتح المحاصرون أن الملك خرج لتدميرهم فعقدوا مجلسا للحرب وقرروا الانتشار ، ومن ثم يمكنهم الهروب . وذهب البعض إلى القاهرة أو دمشق وذهب الآخرون تحت الأرض . وكانت الغريزة تدفعهم للنجاة للقتال في يوم آخر .

ولكن ما كان بعض القادة ليستسلموا ويتركوا القتال ، وكان من بينهم بصورة رئيسية الخائف ، التائه أبو علي إياد « ولا نخلط بينه وبين أبو إياد » والذي اكتسب مكانة بارزة كقائد لرجال حرب العصابات أثناء معركة كرمة .

وقبل ذلك كان أبو علي إياد المعلم العسكري الرئيسي لفتح في مخيمها بالحامة بالقرب من دمشق حيث كان مسئولا عن تدريب الجنود الفلسطينيين ، بعضهم لا يزيد عمره عن أربعة عشر أو خمسة عشر عاما . وكانت هذه الأشبال تهابه بشدة بسبب نظامه الصارم ومظهره الشرس . وقد فقد إحدى عينيه وحطم ساقه في تجربة مع المتفجرات .

بعد معركة عمان ، لم يكن أبو علي إياد ليهرب . ولأنه صمم على الاستمرار في القتال فقد اتجه شمالا مع مجموعة من الأشبال إلى الريف حول جرش وعجلون في الأردن حيث الغابات والكهوف للاختفاء فيها . وقد كانت مهمة انتحارية .

وفي قتال من منزل إلى منزل في عمان سنحت لرجال حرب العصابات فرصة ضد قوات حسين المدرعة ولكن في العراء لم يكونوا كفؤًا لها . فقد كان أبو علي إياد أعرج وكفيفا من الناحية العملية . وكانت الأرض وعرة .

وفي أوائل صيف عام 1971 أرسل الملك قواتا لاصطياده . وكانت الأوامر الصادرة إليهم صارمة ولم يكن هناك أية رحمة . ويقول الفلسطينيون بأن الدبابات كانت تدوس فوق الجرحى وكان مشهدا مفزعا للغاية حتى إن حوالي سبعين من أشبال أبو علي إياد فروا عبر النهر ولوحوا بالقمصان البيضاء مفضلين الاستسلام للإسرائيليين على مواجهة الموت على أيدي قوات حسين .

وفي يوم 23 يوليو 1971 نقلت مصادر مقتل أبو علي إياد . ومع ذلك فقد كان المكان موحشا للغاية لدرجة أن الجثة لم يتم العثور عليها . وقبل ذلك بأيام قليلة كان قد أرسل رجلا إلى أسفل الجبل برسالة إلى قادة فتح ينتقدهم بشدة لفرارهم وأنهى خطابه بعبارة أصبحت الصرخة المجمعة للناجين « سوف نموت واقفين على أن نركع » . وأولئك الأشبال التابعون له والذين نجوا من المذبحة انضموا إلى مجموعات سرية وحصلوا على أسلحة ومتفجرات وأقسموا على الثأر له .

وبعد ذلك بأربعة أشهر وفي 28 نوفمبر أطلق النار على رئيس وزراء الأردن وصفي التل والذي كان الذراع الأيمن للملك حسين أثناء الهجوم على رجال حرب العصابات وعدو لدودا للفلسطينيين ، فأردي قتيلا في القاهرة ، على سلالم فندق الشيراتون . « أخيرا نفذتها . أشعر برضا . لقد أرقت دم التل » . سُمع أحد قتلته ، منشير خليفة وهو يقول ذلك في تحد عند اعتقاله . وقد كان خليفة أحد أشبال أبو علي إياد . وبعملية الاغتيال هذه فإن الحملة الإرهابية الفلسطينية والمعروفة باسم سبتمبر « أيلول » الأسود قد وُلدت .

وقد كان جعل التل يدفع ثمن مذبحة الفلسطينيين مصدرا للبهجة في دوائر رجال حرب العصابات . والمعنويات التي نزلت في الحضيض ارتفعت الآن وكان هناك دافع كبير للعنف . فبعض المقاتلين ، الذين لديهم إدراك بسيط للواقع ، تخيلوا أن اختفاء

التل سوف يتيح لهم العودة للأردن واستئناف قتالهم ضد إسرائيل من هناك ولكن كما ظهر فإن لجوء الفلسطينيين إلى الإرهاب لم يكن مقدمة لمزيد من النضال المسلح ولكن مجرد بديل مبهرج له . وكان اغتيال التل تعبيرا عن الضعف والإحباط الفلسطيني وليس الجهاد الفلسطيني الحقيقي .

وفي عام 1971 كانت حركة المقاومة في فوضى تامة . فقد سحقتها إسرائيل على الضفة الغربية وجيش حسين على الضفة الشرقية . وقطاع غزة المتمرد والذي يحتشد باللاجئين قليلو الحظ ، كان يعاني نفس الموت والدمار .

ففي هذا العام بمفرده تم قتل أو أسر حوالي ألف « إرهابي » - وهو اللفظ الذي تستخدمه إسرائيل لكل من يجرؤ على تحدي حكمها - تحت زعامة اليد الثقيلة للجنرال إيريل شارون . وقد تم إطلاق وحدات الكوماندو الإسرائيلية المختارة على المدنيين . وكان هناك حظر تجول ممتد وهدم للمنازل ، تعذيب ، عمليات إعدام عاجلة ، اعتقال جماعي لعائلات رجال مطلوب القبض عليهم ، وتدمير البساتين وهي الوسائل الوحيدة للبقاء .

ولما كانوا في أشد الحاجة إلى مأوى آمن فقد تجمع الناجون من كل هذه المعارك في جنوب شرق لبنان ، ليتم تعقبهم فقط عن طريق الغارات الإسرائيلية العقابية . فقد كانت كل يد إنسان ضدهم . وبدا أنه لا يوجد من هو مستعد لقبول حركة المقاومة الفلسطينية كقوة سياسية خطيرة . ولما جن جنونهم بسبب مقتل رفاقهم ، وتم تعقبهم من كل جانب وإثارتهم عن طريق اهتمام الإعلام الذي تعقب عمليات اختطاف الطائرات الأولى تحول بعض المقاتلين من كل الفصائل الفلسطينية المختلفة إلى « العمليات الأجنبية » في عام 1972 ، وبمعنى آخر إلى الإرهاب . فقد أقنعهم عجزهم عن ضرب العدو على الأرض بأن البديل الوحيد المتاح لهم هو البحث عن أهداف بالخارج .

الإرهاب والإرهاب المضاد :

وقد كانت حرب الإرهاب والإرهاب المضاد القذرة بين إسرائيل والفلسطينيين

ما بين عامي 1972-1973 ظاهرة جديدة ، تختلف في جوانب هامة عن العنف الذي سبقها والعنف الذي تلاها . فقبل عام 1972 ، لم تكن الهجمات الإرهابية على إسرائيل والأهداف الأجنبية عمل فتح بقيادة ياسر عرفات التي لم تقر هذه « المغامرة » ولكن عمل جماعات راديكالية مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش PFLP . على سبيل المثال ، كان هجوم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين PFLP في السادس والعشرين من ديسمبر 1968 ، على طائرة شركة العال اليوينج في مطار أثينا والذي تم خلاله مقتل شخص إسرائيلي . وقد ردت إسرائيل بعد ذلك بيومين بغارة فدائية لمدة ساعة على مطار بيروت تم فيها تدمير ثلاث عشرة طائرة مدنية ، تقريبا أسطول لبنان الكامل على نحو مميز .

ومرة ثانية كان اختطاف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين PFLP لطائرة بوينج تابعة لشركة TWA في رحلتها من روما إلى تل أبيب وتحويل مسارها إلى دمشق في الثلاثين من أغسطس عام 1969 . وقد تم استبدال إسرائيليين على متن الطائرة بطيارين سوريين أسيرين في هدوء ولكن رد إسرائيل أخذ الشكل المعتاد وهو الغارات الجوية ، نيران المدفعية والهجمات الأرضية ضد أهداف عربية وفلسطينية . وقد أصبحت العمليات الانتقامية أكثر عنفا عندما تولت جولدا مائير رئاسة الوزراء الإسرائيلية في مارس 1969 . فأنشأت سياسة « الدفاع الذاتي النشيط » ، والتي كانت تعني البحث عن الفلسطينيين وتدميرهم قبل أو في حالة قيامهم بالهجوم . وكان إرهاب الدولة هذا والذي كان يهدف إلى تصفية أعداء إسرائيل ، أكثر تدميرا بكثير من الاستراتيجية المدمرة للإرهاب العشوائي التي يتبعها رجال حرب العصابات ، على الرغم من أنه لم يصل دائما إلى هدفه . وفي يوليو عام 1970 أطلق عملاء الموساد صواريخ على شقة وديع حداد ببيروت والذي يتبع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين PFLP ولكنها فشلت في إصابة الهدف .

وفي عام 1972-1973 كان هناك تغير هام في النمط عندما انضم متطرفو فتح ، تحت لواء سبتمبر الأسود ، إلى وديع حداد وآخرين في عملية إرهابية واسعة النطاق . وكان يمكن تمييز ثلاثة اتجاهات مختلفة . فقد أراد بعض هؤلاء المجاهدين

قتل الإسرائيليين وأراد آخرون ممارسة ضغط على الملك حسين لإطلاق سراح الثلاثة آلاف أسير فلسطيني المحتجزين في سجونه منذ سبتمبر 1970 ولكي يسمح بعودة رجال حرب العصابات إلى الأردن ، وأراد آخرون مهاجمة أهداف أمريكية وخاصة خطوط الطيران وشركات البترول لمعاقبة الولايات المتحدة على دعمها لإسرائيل . وفي الحرب القذرة التي أعقبت ذلك لجأت إسرائيل وخصومها إلى القتل بصورة متكررة دون أي نوع من الضبط .

وقد أحدثت جماعة سبتمبر « أيلول » الأسود تأثيرا كبيرا في أبو نضال . فقد أعجب بعملياتها . ولكنه لم يكن جزءا منها في الواقع ، فإن شبابها الغاضبين قد تجاهلوه . ولم يرغبوا في مشاركته في عملياتهم على الرغم من أن العديد من هذه العمليات قد تم التخطيط الفعلي لها وبدؤها من بغداد حيث كان مقيما .

وقد كان يشرب بكثرة وكان يبدو مهما في ذاته وقد شعروا بأنه قد يفسد أية عملية يشارك فيها . ولم ينضم أحد من هؤلاء الأشبال المنتقمين إلى منظمته ولكن تأثيرهم غير المباشر على أبو نضال كان كبيراً . وقد كره أن يُستبعد وصمم على أن يشق طريقه بينهم . وكنوع من التحدي ، فقد ألقى بنفسه في الإرهاب ، كما لو كان يقنع هؤلاء الفلسطينيين المنخرطين في الإرهاب بأنه كان أقوى وأكثر فعالية منهم . العمل السري ، تحديد نقاط ضعف العدو وضربه بشدة ، كل هذه الأشياء كانت تتفق مع مزاجه وكانت تلائم الفلسفة التي كان يطورها في ذلك الوقت .

ولكن في عام 1973 ، وبعد الاغتيالات والاغتيالات المضادة لحرب الأشباح كانت فتح وإسرائيل مستعدتين لإقامة هدنة غير رسمية . فقد كانت فتح الآن في موقف أقوى لاستعادة السيطرة على المقاتلين الفلسطينيين غير المنظمين الذين كانوا لا يزالون يتطلعون للانتقام ، من جهة بسبب أن رأي المسلمين في لبنان قد احتشد بصورة كبيرة وراء المقاومة بعد غارة فدائية إسرائيلية في وسط بيروت قُتل فيها ثلاثة من قادة فتح الكبار . وكنتيجة لذلك شعرت الحركة الفلسطينية بأمان أكثر في لبنان . ومن جهة أخرى فإن حرب أكتوبر قد فتحت الطريق لفرص التسوية السلمية ، منتزعة الألم من الإحباطات الفلسطينية وجعلت الإرهاب يبدو عملا غير لائق بصورة كبيرة .

وغالبا ما يقال إن جماعة سبتمبر الأسود كانت ذراعا سرية لمنظمة فتح التابعة لياسر عرفات . والحقيقة أكثر تعقيدا ، فقد أقر بعض قادة فتح مقتل وصفي التل ، وهو الحادث الذي بدأ حركة العنف ، ولكن جماعة سبتمبر الأسود لم يُرخص لها أبدا بصورة رسمية من فتح و لم تكن منظمة منسقة وفقا لأمر من عرفات . لقد كانت نوعا من التمرد بداخل فتح ، اعتراضا من المقاتلين الساخطين على ما اعتبروه تخبط وسلبية قادتهم .

و لم يكن من السهل السيطرة على رجال حرب العصابات الثائرين والمنتقصين ، وهم خريجو نفس المخيم ، وهم غالبا أصدقاء أو أقارب تربطهم معا علاقات ولاء مشتركة وأحقاد مشتركة . ولكي يتم السيطرة على هؤلاء المتمردين ، كان على قيادة فتح أن تزودهم بغطاء سياسي . فبداخل فتح ، دافع أبو إياد عن الإرهابيين الصغار ، وفعل نفس الشيء للاستهلاك الدولي . على سبيل المثال ، برر أبو إياد الهجوم على لاعبي ألعاب القوى الإسرائيليين في ميونيخ – وهي العملية التي ربما أكثر من غيرها لطخت سمعة الفلسطينيين – باستخدام الجدل المقبول ظاهريا بأن إسرائيل أخذت مكانا هو حق للفلسطينيين في دورة الألعاب . وبسبب التصريحات التي أسيء تلقيها ، أعتبر أبو إياد العقل المدبر وراء عملية ميونيخ . وسواء كان متورطا بصورة مباشرة في التخطيط للعملية أو لم يكن فتلك مسألة جدلية ، ولكن وكما علق بصورة ماكرة محدثي في تونس في صيف 1990 « غالبا ما يتم استدعاء محامي الدفاع للدفاع عن قضايا لا يؤمنون بها ! » .

وأحد الأساليب التي تبنتها فتح لترويض أشبال أبو علي إياد ، والتي كانت أعمارهم في ذلك الوقت بين السابعة عشر والرابعة والعشرين ، هو تزويجهم . ويقول مثل عربي أن الزواج يجعل الرجل حصيفا ومقتصدا . وأحد قتلة وصفي التل متزوج الآن وأب لسبعة أطفال .

كونجرس فتح :

في الوقت نفسه ، وفي بغداد أصبح أبو نضال ، على الرغم من مشاجرته العلنية

عبر الأثير مع رفاقه في فتح ، دبلوماسيا . وكممثل رئيسي لفتح في العراق في أوائل السبعينات ، قضى أيامه في إجراء اتصالات في وسائل الإعلام ، والالتقاء بالمراسلين العرب والأجانب وتحسين علاقاته مع السلطات العراقية .

وقد اعتقد العراقيون أنه كفؤ في وظيفته ـ دون شك لأنه دافع عن وجهة نظرهم ـ ولكنه كان مشغولا سرا بشيء مختلف تماما فقد كان يشكل بصحبة رجال من نفس المزاج في العراق ودول عربية أخرى مجموعة سرية بداخل فتح معارضة لياسر عرفات .

وكانت الستارة الخلفية المباشرة لمؤامرته الهزيمة المشئومة للفلسطينيين في الأردن والحرب القذرة التي تلتها مع إسرائيل ، والتي تتضح من القائمة التي رسمتها في البداية ، والتي أزهقت الكثير من الأرواح الفلسطينية .

وبداخل حركة المقاومة فإن المتطرفين والمعتدلين كانوا يتشاجرون بشأن ما وقع من خطأ وكيف سيواصلون مهمتهم . وقد برز أبو نضال كمتطرف بارز في مؤتمر فتح الثالث ، وهو المؤتمر الكبير الأول للفلسطينيين التالي للأحداث عن الأحداث في الأردن والذي عقد في أواخر عام 1971 في عمورية ، في ضواحي دمشق المورقة ، قبل حوالي ستة أشهر من إعلان جماعة سيتمبر الأسود عن نفسها عندما اختطفت رحلة سابينا من فيينا إلى تل أبيب .

وما لم يعرفه قادة فتح في هذا الوقت هو أن أبو نضال قد انتقل من مرحلة الانتقاد الشفهي إلى التآمر ضدهم بصورة فعلية .

وقد حاول عرفات كقائد للتيار الرئيسي الفلسطيني ، أن يهدئ من رفاقه المضطربين في المؤتمر باللجوء إلى الواقعية السياسية والدفاع عن اتفاقه على وقف إطلاق النار مع الملك حسين . لقد كانت غلطة واضحة ، قال مجادلا ، بالنسبة لمجموعات هامشية مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أن تفرض مكاشفة مع الملك . مثل هذا الخطأ في الحساب السياسي لا يجب أن يُسمح بتكراره ، والآن وقد نفس الفلسطينيون عن غضبهم بقتل وصفي التل ، فإن أي عنف آخر سوف يكون مع أعدائهم .

وقد تم تفنيد مجادلات عرفات بعنف بواسطة مجموعة « يسارية » تشتمل على أبو داود ، المفكر ناجي علوش ، الرجل المعجب بثورات العالم الثالث ، وأبو نضال الذي أصبح المتحدث الرسمي لهم . فبعيدا عن تسوية الخلافات مع الملك فقد طالبوا بحملة تخريب وإرهاب لإسقاطه . فقد كان عدوا للشعب الفلسطيني ! ويجب شن حرب « انفجارات مستمرة » ضده . وبدلا من الاستراتيجية القديمة المفلسة الخاصة بالنضال المسلح عن طريق رجال عصابات ذوي تدريب سيئ وتسليح فقير ، يجب على حركة المقاومة أن تنزل تحت الأرض وتشن عمليات عسكرية من قواعد سرية . وقد كان أبو نضال أكثر المؤيدين تصويتا لهذه الأفكار .

وقد كانت فتح معتادة على الإرهاق نتيجة للخلافات الشرسة على السياسة وأيضا على ما كان معروفا في العامية « بالمسائل التنظيمية » بمعنى آخر ، خلافات على كيفية ممارسة السلطة . وكانت حركة المقاومة في حالة من الانشقاق الدائم تقريبا . فقد قام الضباط العسكريون بعدد من التمردات الصغيرة ضد عرفات بينما بعض الكوادر السياسية التي كانت تتمرد على « الأسلوب الشخصي » لقائدهم كانت تنتقد أخطاءه ومثالبه ، ورفضه المشورة واستحواذه الصارم على الأموال ، وهو أحد الطرق التي حافظ بها على سلطته على الحركة الفلسطينية . وكما تم اقتراحه فقد كان رفاق عرفات المقربون غير تعساء بسماع هذه الانتقادات ، لأنهم شعروا بأنهم يمثلون فرامل صحية على تسلط عرفات الطبيعي . وأبو إياد نفسه وهو على يسار فتح كان متعاطفا بصورة كبيرة مع المتمردين وكما أخبرني لم ينزعج كثيرا بانتقادات أبو نضال العنيفة في المؤتمر لأنه كان لايزال يعتبره كتلميذ متمرد هو الذي وضعه في منصبه .

وكان المتطرفون متفقين على مسألتين : أولا طالبوا بمزيد من الديمقراطية بداخل فتح ، المسألة التي نالوا عليها دعم الأغلبية ، ثانيا ضغطوا من أجل القيام بعمل عنيف ضد الملك حسين – وهي السياسة التي بعد الكوارث في الأردن تم رفضها « كمجازفة » – ولو اختاروا أن يواصلوا القتال بشأن المسألة الأولى لكانوا قد كسبوا ؛ ولكن بدلا من ذلك اختاروا الثانية ، فسمحوا لعرفات بإدارة المؤتمر بعيدا عن آرائهم المحرقة وأن تكون له اليد العليا . وقد كان ذلك آخر مؤتمر لفتح بحضره أبو نضال . ولكنه أدى دوره .

وبعد ذلك بفترة وجيزة ، زادت إثارة تطرفه وطموحه الشخصي كممثل لفتح عندما قاد مهمة الرجال الثلاثة ، والتي اشتملت على صديقه أبو داود في رحلة لمدة عشر أيام إلى الصين وكوريا الشمالية من 28 مارس 1972 إلى 8 أبريل 1972 . وقد طاروا من الكويت إلى شنغهاي حيث أخذتهم طائرة خاصة إلى بكين . ولكن مع اقترابهم من العاصمة الصينية اصطدموا بعاصفة وعندما عجزوا عن الهبوط بصورة مؤقتة داروا حول المدينة مما زاد من انزعاج أبو نضال الملحوظ . ولأنه لا يعرف أي شيء في الإنجليزية فلم يستطع متابعة شرح الطيار ، فصاح متذمرا « لماذا نفعل ذلك ؟ » ، « لماذا لا نهبط ؟ » . وعندما أصبح يعاني ما يبدو أنه نوبة هستيرية وجد أنه لا يستطيع تحريك ساقيه . ولكي يهدئه ، حاول أبو داود أن يشركه في لعب دور للشطرنج ولكن كما أخبرني أبو داود بعد ذلك فقد ظل أبو نضال في حالة هستيرية إلى أن هبطت الطائرة أخيرا .

ولأنها متعزلة عن العالم ولاتزال في نضالها الخاص « بالثورة الثقافية » فقد تلقت الصين الوفد العربي كما لو كانوا قادة الحركة الفلسطينية بأسرها . وقد كان أبو نضال سعيدا للغاية وظل في علاقات ممتازة مع الصينيين للعقد التالي .

وقد وجدت طبيعته المتعصبة ارتباطا كبيرا مع المذهب الماوي ، وقد يكون نزاعه مع السوفييت قد أسهم أيضا في الترحاب الحار الذي لقيه في الصين . فقد كره أبو نضال الدبلوماسيين السوفييت الذين قابلهم في بغداد ، وقد وجدوه بدورهم طائشا بدرجة لا تتفق مع ميولهم . وكان نزاعهم الأساسي على حدود الوطن الفلسطيني في المستقبل . فالسوفييت كانوا يؤيدون حدود 1967 ، بينما كان يحلم أبو نضال بحدود 1948 وينادي بتدمير إسرائيل واستعادة كل فلسطين .

وكما أخبرني أبو داود ، فإن أبونضال في مناقشاته مع الصينيين ، جعل من عاداته السارة فتح انتقادات عنيفة على الروس والتي جعلت رئيس الوزراء الصيني تشاو أن - لاي يرد قائلا بعتاب « لا أعتقد أنه يمكنكم البقاء بدون مساعدة السوفييت » ، « إنهم قوة هامة على الساحة الدولية ويجب عليكم التعامل معهم . ولكن حاولوا أن تتجنبوا أن تصبحوا جزءا من استراتيجيتهم الإقليمية » .

ووقف الوفد الفلسطيني لالتقاط الصور مع ماوتسي تونج وتشاو أن ـ لاي قبل الطيران إلى كوريا الشمالية للمحادثات والمزيد من الصور مع كيم إيل سونج . ولم يعد أبو نضال إلى الصين أو كوريا الشمالية أبدا ولم يتلق أي تدريب في أي من الدولتين ، كما يُدّعى أحيانا . ومع ذلك فقد زودته الرحلة ببعض الشعارات الجديدة وشعورا متزايدا بأهميته الخاصة وكرئيس لفتح في العراق ، كان أبو نضال رسميا مثل ممثلي فتح الآخرين في سوريا ، ولبنان ، ومصر وليبيا ، والمراكز العربية الرئيسية لنشاطها . ولكن عقب طرد رجال حرب العصابات من الأردن أصبح منصب العراق أكثر أهمية من المناصب الأخرى . في بغداد تمكن أبو نضال من الحصول على مستندات عراقية لآلاف من المقاتلين وأسرهم في المنفى . فقد كان العراق ممرا غاما إلى الخليج الفارسي والمكان الذي جاء إليه المتطوعون الفلسطينيون من الخليج للتدريب في المعسكرات التي وضعتها السلطات العراقية طوع أمرهم . وكانت الأسلحة تخزن هناك ، وقد تدفقت التبرعات من العراقيين العاديين . وكان النضال والتطرف السياسي منتشرا تحت إشراف نظام البعث التابع للرئيس حسن البكر ونائبه الرهيب صدام حسين . وكان من المحتم أن تنصب بعض المكانة الكبيرة للعراق في الشئون العربية على ممثل فتح الرئيسي في بغداد .

ولكن مع ضياع الأردن بالنسبة لهم الآن ، كيف يمكن لرجال حرب العصابات محاربة إسرائيل ؟ اعتقد الكثير من المقاتلين الفلسطينيين أنهم ألقي بهم خارج الأردن بطريقة ظالمة وأن الملك حسين يجب إجباره على السماح لهم بالعودة . وكان معظمهم لايزال يحلم بشن حرب عصابات ضد الضفة الغربية التي تحتلها إسرائيل . وبين عامي 1971 ، 1973 حاول الفلسطينيون بصورة متكررة استرضاء الملك حسين . وقد لجئوا للوسطاء العرب مثل الملك فيصل ملك السعودية وطلبوا أن يتوسط لهم ويطلب السماح لهم بالعودة لمحاربة إسرائيل في تنسيق كامل مع الملك إن أراد ذلك . ولكن حسين لم يكن لديه ميل للثقة في رجال كادوا يسقطونه وقتلوا رئيس وزرائه . ولأنه كان يرغب في حدود آمنة وسلمية مع إسرائيل فقد رفض حسين اقتراحاتهم بشدة .

تلك كانت الخلفية لخطة أبو داود الطموحة في فبراير 1973 لقيادة فريق ضرب

مكون من ستة عشر رجلا في الأردن . في تقارير تالية قيل إن الهدف هو السفارة الأمريكية ولكن عندما جاء الوقت كان الهدف الحقيقي هو ضرب الملك ، أو على الأقل إخافته لإطلاق سراح مئات الفلسطينيين الذين تم إلقاء القبض عليهم في الشوارع والمخيمات في عام 1970-1971 والذين تم اعتقالهم بدون محاكمة منذ ذلك الوقت . وتستحق عملية أبو داود إعادة سرد ببعض التفصيل بسبب تأثيرها على وظيفة أبو نضال .

في ألمانيا الشرقية تعلم أبو داود خدعة فك أجزاء سيارة وإخفاء الأسلحة في تجاويف « الشاسيه » . وهكذا تم تعبئة العديد من المركبات وقيادتها إلى الأردن بواسطة أعضاء فريقه . وأطلق أبو داود لحيته وتنكر في هيئة سعودي في إجازة وعبر الحدود بدون إثارة أي جلبة بصحبه « زوجته » . وفي الواقع لقد كانت زوجة أحد أعضاء فريقه وقد تطوعت لهذا الدور . في عمان قام على الفور بالاتصال بشخص هام تابع لفتح هو مصطفى جبر ولكن لسوء حظ أبو داود فقد تم « تحويل » جبر عن طريق المخابرات الأردنية .

وقد أخبرني أبو داود فيما بعد في تونس « في اللحظة التي رأيته فيها ، عرفت من نظرة عينيه أنه سوف يخونني . فأمسكته من ياقة قميصه وهمست له : انظر إلي هنا يا مصطفى إذا فكرت للحظة في الخيانة فأنت ميت ! » .

ولأنه أحس بالخطر فقد قرر أبو داود أن يضرب في خلال أربع وعشرين ساعة ولكن من المؤكد أن مصطفى قد نبه الأردنيين أولا لأن أبو داود ألقي القبض عليه في طريق عودته من لقائه .

ولمدة أربعة أيام تم ضرب أبو داود والتحقيق معه ولكنه لم يدل بكلمة عن طريق المصادفة ، وفي اليوم الرابع ألقى الأردنيون القبض على شاب في سيارة فارغة كانوا قد شكوا في أنه يهرب الماريجوانا . وكان عضوا في فريق أبو داود وكانت سيارته محملة بالأسلحة المخبأة . وقرر الأردنيون أن يعرضوا أبو داود على هذا الرجل ليروا ما إذا كان سيتعرف عليه . وكان أبو داود ملقى على الأرض مترهلا حيث فقد وعيه من الألم .

« هل تعرف من هذا ؟ » سأل الأردنيون الشاب فأجاب « لماذا ، نعم ، هذا هو أبو داود وقد أتيت إلى هنا معه ! » .

وجروا أبو داود مرة أخرى إلى حجرة التحقيق ، وصمموا على أن يجعلوه يتكلم .

وتم ضربه ثانية لمدة ست أو سبع ساعات في اليوم لمدة شهر كامل .

في هذه الأثناء تمكن الأردنيون من الحصول على اعتراف الصبي من محاصرة كل أعضاء الفريق والذين كانوا في فنادق عديدة في انتظار إشارة التحرك . وقد أوقفوهم في صف واحد وجذبوا أبو داود أمامهم . وكان وجهه متورما وذراعاه وساقاه بها سجحات وعاجزة . ومن المؤكد أنهم لم يستطيعوا التعرف عليه .

وكان رجل واحد يعرف أين تم إخفاء الأسلحة في السيارات وقد أنهار بعد أسبوعين من التعذيب . عند هذه النقطة انتهت اللعبة . وتم إدانة أبو داود وكل أعضاء فريقه بالإعدام . ومرتين يتم إلباسه بزة الموت الحمراء ويؤخذ لتنفيذ الإعدام ولكن في كل مرة يتم إرجاءه في اللحظة الأخيرة .

ولم يدع أبو داود معتقليه أن يعرفوا بأن مصطفى جبر قد خانه أبدا وادعى أنه لا يعرفه إطلاقا . وفيما بعد ولكي يوقع مصطفى في الفخ أرسل إبو إياد ، إليه بكلمة من مصر بأنه يريد القيام بعملية كبيرة في الأردن لضمان إطلاق سراح أبو داود . ولم يستطع الأردنيون مقاومة إغراء معرفة ما يدور في ذهن أبو إياد ، لذلك فقد أرسلوا مصطفى جبر إلى القاهرة لمقابلة أبو إياد . وهناك تم القبض عليه عن طريق فتح وتم تهريبه إلى ليبيا حيث تم سجنه . وبعد ذلك بثلاث سنوات وفي عام 1976 ، وبناءا على التماس من والده تم إطلاق سراح جبر وعند عودته إلى الأردن تم تعيينه مدير العلاقات الثقافية بوزارة الإعلام ، وهو المنصب الذي قد لا يزال يشغله .

وكما أخبرني أبو داود « لقد تم إطلاق سراحي سريعا نتيجة لعدد من الالتماسات التي قدمت من أجلي . فقد وافق الكويتيون على أن يدفعوا للملك حسين 12 مليون دولار لإنقاذ رأسي ، والترويكا السوفيتية الحاكمة بريجنيف ، كوسيجين وبودجورني

أرسلت برقية خشنة للأردن. وفي عام 1973 عرف الملك أن الحرب في الشرق الأوسط آتية في غضون أسابيع قليلة ولم يرد أن يظل معتقلا لمئات الفلسطينيين أثناء الصراع الذي كان يأمل أن يظل بعيدا عنه. ربما هذا هو ما أطلق سراحي.

وفي يوم 18 سبتمبر 1973 قبل أيام قليلة من اندلاع حرب أكتوبر كان قد تم إطلاق سراحنا جميعا وفقا لعفو عام. وقد جاء الملك بنفسه إلى زنزانتي وأخبرني بأنني حر.

وكانت تلك الخلفية المباشرة لأول عمل إرهابي لأبو نضال.

* * *

الفصل الخامس

صنعت في بغداد



صنعت في بغداد

في يوم 5 سبتمبر 1973 ، قبل أسبوعين من إطلاق سراح أبو داود ، استولى خمسة من الفلسطينيين المسلحين على السفارة السعودية في باريس . وقد أخذوا ثلاث عشرة رهينة وهددوا بنسف المبنى إذا لم يتم إطلاق سراح أبو داود من سجنه في الأردن .

وبعد مفاوضات مطولة ، وافق رجال حرب العصابات على الطيران إلى الكويت على الخطوط الجوية السورية كارافيل آخذين بعض الرهائن معهم . واتبع ذلك المزيد من المحادثات في توقف من أجل ملء الوقود في القاهرة ، وأيضا المزيد في مطار الكويت حيث تم نقل المسلحين إلى طائرة بوينج تابعة للخطوط الجوية الكويتية وطاروا إلى الرياض ، العاصمة السعودية ، وهددوا بإلقاء الرهائن من الطائرة إذا لم يتم الاستجابة لمطلبهم . ولكن عندما أصرت السلطات السعودية على أنها لا يمكن أن تكون مسئولة عن سياسات الملك حسين ، طار المسلحون في النهاية عائدين إلى الكويت .

وبعد مفاوضات مطولة أجراها علي ياسين ممثل منظمة التحرير الفلسطينية استسلموا في يوم 8 سبتمبر وهكذا وضعوا نهاية لدراما استغرقت ثلاثة أيام .

العمل الإرهابي الأول لأبو نضال :

كانت العملية أول عمل إرهابي لأبو نضال ، تم التخطيط لها وتوجيهها عن طريقه من بغداد . وأخبرتني مصادري أن الرجل المسئول عن العملية كان سمير محمد العباسي « الاسم الحركي أمجد عطا » وهو مساعد أبو نضال والذي رآه جورد في المعسكر الليبي . وكان أمجد عطا متزوجا من واحدة من بنات أخت أبو نضال وأصبح فيما بعد أحد القتلة البارزين في منظمته . في وقت كتابة هذه السطور كان يعيش في ليبيا .

وبالطبع كان أبو نضال متحمسا لتأمين حرية صديقه ورفيقه المتطرف أبو داود ، وبمجرد إطلاق سراحه من السجن بعد ذلك بفترة وجيزة ، منحه أبو نضال منصبا في مجموعة سرية كان يشكلها في ذلك الوقت . ولكن الأهداف الأكبر لعملية باريس كانت أكثر تعقيدا .

في الخامس من سبتمبر ، يوم الهجوم على السفارة السعودية ، كان ستة وخمسون من قادة الدول قد اجتمعوا في الجزائر لحضور المؤتمر الرابع لعدم الانحياز والذي تم افتتاحه في هذا اليوم بواسطة القائد الجزائري هواري بومدين في حضور السكرتير العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم . ولكن الرئيس العراقي أحمد حسن البكر ، لأنه كان يغار من الجزائر لاستضافتها المؤتمر لم يقر بمؤتمر الجزائر . وقد كانت عملية باريس والتي أثارت غضب الرئيس بومدين والملك فيصل ، محاولة عن طريق العراق وأبو نضال لنسف أعمال المؤتمر . وقد اعترف أحد رجال حرب العصابات الذين تم أسرهم ، فيما بعد للكويتيين بأن الأوامر الصادرة إليه كانت الطيران بالرهائن جيئة وذهابا طوال فترة انعقاد مؤتمر عدم الانحياز .

وقد كان ياسر عرفات والذي كان موجود بالجزائر أيضا من أجل الاجتماع محرجا للغاية . وقد أصدر بيانا يدين الهجوم « كمؤامرة ضد الثورة الفلسطينية » ووعد بمعاقبة المتهمين . وقد أدرك أعضاء فتح أن أبو نضال هو العميل وأن العراق هو الكفيل .

وبعد ذلك بأيام قليلة ، طار أبو إياد وقائد آخر من قادة فتح وهو محمود عباس « أبو مازن » إلى بغداد لحسم النزاع مع المرتد ولكنهما وجدا أن عليهما أن يتجادلا مع العراق أيضا . وقد أخبرني أبو إياد أنه عندما بدأ أبو مازن توبيخ أبو نضال على عملية باريس ، قاطعه مسئول عراقي كان حاضرا اللقاء بخشونة قائلا : « لماذا تهاجم أبو نضال ؟ » .

« إن العملية كانت لنا ! » وقد طلبنا منه أن يقوم بها من أجلنا .

فقال أبو إياد « لقد كانت كليلة هكذا » ، « وكان أبو مازن غاضبا لدرجة أنه نهض وغادر الحجرة . وتبعناه جميعا » .

« كان من الواضح لعرفات ورفاقه أن رجلهم في بغداد قد وضع نفسه بصورة كلية في خدمة العراق » .

الدبلوماسية في مقابل الرفض :

إلى الآن كان الهدف الظاهري لاستبعاد أبو نضال من فتح هو الخلاف الذي نشأ من كارثة الأردن . لكن حرب أكتوبر 1973 أدخلت موضوعا أكثر أهمية تماما للجدل . في العالم العربي تعتبر حرب أكتوبر نصرا عربيا محا ذل عام 1967 . ويفضل العرب تذكر النجاحات الأولى عندما استغلت مصر وسوريا غفوة إسرائيل واقتحما دفاعاتها على جبهتي السويس والجولان ، على تذكر الفشل التالي عندما استعادت إسرائيل المبادرة . ولما أثبتوا أن بإمكانهم القتال ولما تذوقوا النصر المحدود ، شعر الكثيرون من العرب الآن أن الوقت قد حان لإنهاء الصراع مع إسرائيل والذي امتص طاقاتهم لأكثر من ثلاثين عاما . وكانت الرغبة في السلام واسعة النطاق وقد تضمنت منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات PLO ، واليأس الذي أفرز عنف سبتمبر « أيلول » الأسود تراجعا أمام التفاؤل . وأصبح الإرهاب موضة قديمة مع سعي عرفات ورجاله إلى تكميم الأشخاص حادي الطباع وتجهيز منظمة التحرير الفلسطينية للقيام بدور دبلوماسي .

وكانت هناك ثلاث علامات بارزة مميزة في طريق منظمة التحرير الفلسطينية من النضال المسلح إلى العمل السياسي .

أولا : المجلس الوطني الفلسطيني ، الذي اجتمع في القاهرة في يونيو - يوليو 1974 ، وتبنى بعد جدل ساخن ، برنامجا من عشر نقاط وقبل فيه مبدأ أنه يجب على منظمة التحرير الفلسطينية إقامة « سلطة وطنية » على أية منطقة « محررة » . وهذا التصويت بواسطة البرلمان في المنفى تم اعتباره على نطاق واسع أول إشارة رسمية إلى أن الفلسطينيين مستعدون للتنازل عن طلباتهم القصوى باسترداد إسرائيل والاكتفاء « بدولة صغيرة » في الضفة الغربية وغزة .

ثانيا : في مؤتمر القمة العربية في الرباط بالمغرب في 20 أكتوبر 1974 ، تمكن ياسر

عرفات من انتزاع اعتراف من قادة العرب المجتمعين وبصورة خاصة من الملك حسين الرافض ، بأن منظمة التحرير الفلسطين PLO سوف تكون من الآن فصاعدا هي « الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني » . لم يكن كل القادة العرب سعداء بمنح منظمة التحرير الفلسطينية PLO مثل هذه السلطة الشاملة ولكنهم وافقوا على ما قام به الآخرون عندما علموا بوصول فريق ضرب فلسطيني إلى المغرب سرا واستعداده لاغتيالهم جميعا . في الواقع فإن العملية كانت خدعة دبرها أبو إياد ليضع ضغطا على القادة العرب المجتمعين دون إيذاء أي منهم بدنيا . في اللحظة المناسبة أدلى أبو إياد بمعلومات للبوليس المغربي وتم محاصرة الفريق ، بعد أن أدى الغرض منه .

وكان المقصود من الشعار « الممثل الشرعي الوحيد » الذي أصر عليه عرفات هو دفع ادعاء منظمة التحرير الفلسطينية بالتفاوض من أجل استعادة الضفة الغربية بدلا من الملك حسين .

ثالثا : ولما انتعش من هذا النجاح العربي ، خاطب عرفات الجميعة العمومية للأمم المتحدة في الثالث عشر من نوفمبر 1974 ، ونال ترحيبا دائما . ومرة أخرى كان عرفات يبدي استعداده للتفاوض من أجل تسوية سياسية مع إسرائيل .

ويمكن تمييز العديد من البدائل في تفكير عرفات في ذلك الوقت . فقد كان يعتقد أنه بعد حرب أكتوبر ، أرادت الولايات المتحدة بصورة حقيقية تسوية عادلة في المنطقة وأن هنري كيسنجر يمكن أن يقدم واحدة .

وكما رأينا فحتى قبل الحرب فقد أرسل لكيسنجر ليس أقل من أربعة رسائل سعيا للحوار . واعتقد عرفات الآن أنه مع قوة إسرائيل الساحقة وانهزام العرب وانقسامهم ، فإن الحرب التي يقوم بها رجال حرب العصابات لا يمكن أن تسفر عن إقامة دولة ، فالنضال المسلح قد جلب النصر للفيتناميين والكوبيين ، ولكن انتصاراتهم يجب وضعها في مقابل قائمة طويلة من عمليات الفشل المكلفة لحركات ثورية أخرى : الأكراد في تركيا ، إيران والعراق ، والبوليساريو في الصحراء الغربية ، ومجموعات متمردة أخرى في تايلند ، الملايو ، الفلبين ، بورما ، السلفادور وبيرو .

وفي ذلك الوقت لم يكن هناك من يعتقد أنه بحلول عام 1991 فإن جبهة تحرير الشعب الإرتيري في أثيوبيا سوف تسود بعد واحدة من أطول عمليات النضال .

وجادل عرفات قائلا لرفاقه المقربين في عام 1974 لقد كان صعبا أن تكسب ضد الدفاعات الرهيبة للدولة . من المؤكد أن الوقت قد حان لأن يتحرك الفلسطينيون نحو حل سياسي .

ولا يمكن لغير الفلسطينيين أن يفهموا بسهولة كيف كان هذا المذهب البراجماتي لا يلقي ترحيبا بين القاعدة العريضة من الجنود . فالرفض الرومانسي وغير المسئول ورفض تقديم تنازلات ، الإصرار على القتال حينما لا يكون هناك أي فرص للنصر .

كل هذه الأشياء لها تاريخ طويل في الحركة الفلسطينية ، كما أشار ديفيد جيلمور في كتابه الطرداء ، المحنة الفلسطينية من عام 1917 إلى عام 1980 . ولأنهم كانوا مقتنعين بعدالة قضيتهم كان الفلسطينيون رافضين في عام 1917 ، في عام 1922 ، في عامي 1936-1939 ، في عام 1948 ، ومع اقتناع أكبر عندما بدأوا النضال المسلح في عام 1965 . كيف يمكن أن نتوقع من أي شعب أن يتنازل عن الجزء الأكبر من وطنه ؟ يقتبس جيلمور تعليقا للقائد القومي الإيرلندي ريمون دي فاليرا : « إن الملاك الشرعيين لوطن ما لن يوافقوا أبدا على تقسيمه » . لذلك فأي ما كان ماأوصى به عرفات ، وأي ماكانت القرارات التي أصدرها المجلس الوطني الفلسطيني ، فإن أي تسوية يتم التفاوض عليها مع إسرائيل قد جرحت هؤلاء الفلسطينيين الذين اعتقدوا أن القوة وحدها يمكنها تحرير فلسطين والذين كانوا يخشون من أن التنازلات السياسية سوف تؤدي إلى بيع الوطن بأكمله . فلم يكونوا مستعدين بعد لقبول الحل الوسط غير المرضي بإقامة دولة صغيرة .

وقد أنفصلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين PFLP بقيادة جورج حبش وهي أحد أكثر المتحمسين دفاعا عن استمرار النضال المسلح ، عن منظمة التحرير الفلسطينية PLO في ذلك الوقت وتولت القيادة في إقامة « جبهة رافضة لحلول الاستسلام » والتي أصبحت تعرف ببساطة بجبهة الرفض . وقد تم إقامتها رسميا في

مؤتمر ببغداد في أكتوبر 1974 ، بدعم من العراق والجزائر واليمن الجنوبية ، وقد عارضت كل المفاوضات . وقدمت الجبهة مظلة لتلك الفصائل الفلسطينية التي كانت لها نفس الرؤية وهي : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين PFLP ، مجموعة الانفصال التي تدعمها سوريا بقيادة أحمد جبريل والتي تسمى القيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وابتكار العراق الخاص ، جبهة التحرير العربية . في نفس الوقت ، استمر وديع حداد ، قائد الجناح العسكري للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعناد في القيام بعمليات إرهابية ، على الرغم من أن منظمته الآن قد تم اختراقها عن طريق نصف دستة من وكالات المخابرات حتى إن معظم خططه قد تم إجهاضها . وقد مات في النهاية عقب إصابته بمرض غامض في بغداد . يقول البعض بأنه قد تناول قرص دواء مسموم قدمته حكومة عربية أخرى لتجعل الأمر يبدو وكأن العراق وراء العملية . وكان أبو إياد ساخطا بصورة خاصة بسبب عمليات اختطاف الطائرات المستمرة لوديع حداد ، فكان ينفجر قائلا في يأس « أي رجل معتوه يريد أن يوقع القضية الفلسطينية في الفخ في طائرة ؟ » إذا انفجرت الطائرة قد تنفجر القضية الفلسطينية معها .

ربما كان أبو نضال هو أكثر « الرافضين » عنفا على المسرح الفلسطيني ، ولكنه لم ينضم رسميا أبدا لجبهة الرفض والتي ربما كانت علنية بدرجة لا تسمح لمرتد متحمس بالعمل السري . وعلى أية حال ، فقد كان مشغولا في إقامة منظمته السرية وفي هذا نال الميزة التي لا تقدر بأن أصبح موضع حماية العراق الفلسطيني المنفصل .

ومن البداية ، فقد نصب قادة البعث العراقي أنفسهم على أنهم الأبطال الرئيسيين للرافضين الفلسطينيين . وبعيدا عن مسرح الصراع العربي الإسرائيلي ، فإن العراق التي لم يكن يزعجها الخوف من الانتقام الإسرائيلي وليس لديها مشكلة لاجئين فلسطينيين تتوافق معها كان بإمكانها تقديم هذه الإيماءة الكبيرة .

وكانت هناك أيضا عوامل شخصية متضمنة . فالرئيس العراقي أحمد حسن البكر وهو جندي بسيط ذو اعتقادات قومية والذي كان مولعا بإعلان أن أحب أحلامه إليه هو أن يموت وهو يقاتل في فلسطين ، كان لديه احتقار لا حدود له لياسر

عرفات . وقد كانت الكراهية متبادلة وكان تاريخها يرجع إلى حادثة ما في أوائل عام 1969 ، عندما قام عرفات « كان لايزال مجرد المتحدث الرسمي لفتح ولم يكن قد أصبح بعد رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية » بزيارة بغداد بصحبة أبو داود . وقد اصطدم سائقهم الأرعن بشاحنة . وقد كُسرت يد عرفات وتهشمت ضلوعه ، بينما أصيب وجه وعينا أبو داود إصابة بالغة بواسطة الزجاج المتناثر . وقد تم نقلهما للعلاج في مستشفى عسكري ببغداد حيث جاء البكر يسأل عن صحتهما .

وبعد التبادل المعتاد للمجاملات اندلع خلاف في حجرة المستشفى بشأن العلاقات الودية - الودية للغاية في رأي البكر - والتي أقامتها فتح مع النظام العراقي السابق والتي أفسدها البكر وحزب البعث التابع له قبل عام . وتم تبادل كلمات لاذعة ونشأت برودة مستمرة كان لها نتائجها السياسية الكبيرة .

ووفقا لذلك ، وفي أوائل 1974 ، وعندما كانت فتح تفكر في التحول من حرب العصابات إلى الدبلوماسية عقب حرب أكتوبر مباشرة دعا قادة حزب البعث العراقي عرفات لزيارة بغداد مرة ثانية . وقد اعتبر رجال مثل البكر والرجل الثاني في القيادة القوي صدام حسين ، أن القضية الفلسطينية غير منفصلة عن المهمة التاريخية لحزبهم . فلم يكن بإمكاناهما السماح بوجود منظمة تحرير فلسطينية مستقلة لا تخضع لتوجيههم وهو اتجاه لا يختلف كثيرا عن اتجاه حافظ الأسد في سوريا . وهكذا ضغط البكر وصدام حسين على عرفات لكي ينقل رجاله إلى بغداد وأن يرفض أية تسوية سياسية .

فإذا فعل ذلك سينال كل التأييد العراقي ، وعدوه بذلك ! لكن عرفات رفض عرضهما وبدلا من ذلك ، ذهب إلى القاهرة ليكسب تأييدا لبرنامجه « المعتدل » ذي العشر نقاط في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في شهر يونيو . وكانت العراق غاضبة بشدة وشنت حملة دعائية ضد عرفات .

وكان أبو نضال أول من استفاد من هذه التطورات . وعلى الرغم من أنه كان رجل فتح في هذا الموقع . فقد كان خصما معروفا لعرفات . وكانت غريزة العراق في هذه الظروف هي أن تعطيه قاعدة جغرافية آمنة وتستخدمه ضد الرجل الذي يرونه

الآن خائنا . في الواقع فلولا نزاع العراق مع عرفات لما انشق أبو نضال عن فتح ولكن ربما كان قد قاد حركة معارضة قوية بداخلها على الأكثر ، تاركا توازن القوة بين الفلسطينيين ليحسم القضية في الوقت المناسب .

وأصبح أبو نضال أيضا المستفيد من الخصومة المستوطنة بين العراق وسوريا ، والتي يرجع تاريخها إلى انشقاق حزب البعث الكبير في عام 1966 والذي تحول عبر السنين إلى عداوة بين الدولتين البعثيتين . وعند النظر إليها من العراق فإن فتح التابعة لعرفات ، والتي أقامت نفسها في لبنان في عام 1972 ، عبر الحدود السورية كانت الآن في الفلك السوري . وقد خلقت سوريا أيضا الصاعقة كمنظمة فلسطينية تحت سيطرتها الكاملة . وشعرت العراق بالحاجة إلى ثقل مقابل في شكل مجموعة فلسطينية قاعدتها في بغداد .

ما هو الاختيار الذي أمامها ؟ المرشح الممكن هو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين PFLP والتي يديرها جورج حبش ورفيقاه المقداح السعيد ووديع حداد ولكن هؤلاء كانوا شائكين ، عنيدين لا يمكن السيطرة عليهم بسهولة . وكان الاحتمال الآخر الضابط المخضرم أحمد جبريل والقيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الفعالة من الناحية العسكرية ، ولكن ولما كان قد بدأ حياته في الجيش السوري ، فإن جبريل كان يميل بطبيعته نحو دمشق . وبعد ذلك كان هناك أبو نضال : طموح نشيط يريد سلطة على الآخرين ، محرض من الطراز الأول ، وفي أوجه كثيرة كان رجل العراق بالفعل . علاوة على ذلك فقد سمح للعراقيين بأن يعرفوا بأن كثيرا من الكوادر في فتح يفكرون مثله : كان يقصد على سبيل المثال هؤلاء الرجال المعروفين من أمثال أبو داود وناجي علوش وحتى ناصحه القديم أبو إياد . وفوق كل ذلك فهو كعضو في المجلس الثوري لفتح كان قد ارتقى في سلم فتح بعض الشيء .

وقد كان عرفات واللجنة المركزية لفتح في ثورة تامة الآن نتيجة لخيانة رجلهم في بغداد . ومنذ عام 1971 كانت هناك محاولات لطرده ، وهي المحاولات التي تصدى لها أبو إياد مرارا ، على أساس الاعتقاد بأن أبو نضال قد يمكن إنقاذه بصورة ما . ولكن القرار الآن لم يعد هناك سبيل لتأجيله . في أوائل صيف 1974 ، اتخذ

قرار بإرسال أبو مازن إلى بغداد يرافقه أبو إياد وأبو داود لإبلاغ أبو نضال بأنه قد تم استبداله .

وأخبرني أبو إياد فيما بعد أنه حتى في اللحظة الأخيرة ، أراد أن يقوم بمحاولة أخيرة لإنقاذ أبو نضال . قبل المقابلة تباحث سرا مع أبو نضال هو وأبو داود حثه على أن يناشد أبو مازن بألا يطرده . وقد دربوه على كيفية عرض قضيته . وعندما تم الاجتماع وبخ أبو مازن أبو نضال توبيخا شديدا .

ولكن ردا على ذلك فإن أبو نضال قام بدوره ببراعة . وقد كان متذللا للغاية لدرجة أن أبو إياد ترك الحجرة محرجا . وقد خمن أبو مازن بأن أبو إياد قد خطط ثانية ليمنع طرد أبو نضال .

« كنت أنا وأبو مازن صديقين حميمين » قال لي أبو إياد « ولكنها كانت المرة العاشرة التي أخذت فيها جانب أبو نضال ضد قرار اللجنة المركزية » وكان أبو مازن غاضبا للغاية وغير مستريح البتة ، وفي ذلك المساء أصيب بأعراض مشكلة القلب التي أتعبته فيما بعد .

ولكن أبو إياد لم يعد قادرا على إيقاف المد . وفي 26 يوليو عام 1974 نقلت وكالة الأنباء الفلسطينية WAFA أن صبري البنا « والمعروف بلقب أبو نضال » تم استبعاده من منصبه كممثل لفتح في بغداد .

محاولة قتل أبو مازن :

وحتى قبل الإعلان الرسمي سعى أبو نضال للثأر من إذلاله ، وقد قام بذلك عن طريق التخطيط لاغتيال أبو مازن . وكانت المسألة معقدة ومثيرة للجدل ولكنها عجلت بالإنقسام النهائي .

وفي يونيو 1974 ، حصلت المخابرات التابعة لفتح مصادفة على خطاب مكتوب في بغداد بواسطة مصطفى مراد « الأسم الحركي أبو نزار » – وهو شريك وثيق الصلة بأبو نضال – لرجلين في دمشق يطلب منهما التجسس على تحركات أبو مازن استعدادا لمحاولة اغتياله . ومن ثم فإن فتح التي تنبهت للخطر مسبقا بدأت في محاصرة

المتعاطفين المعروفين لأبو نضال من بين الفلسطينيين في سوريا ولبنان .

وعندما ذهب أبو نضال إلى دمشق في مهمة في يوليو 1974 ، تم القبض عليه بواسطة فتح وإيداعه سجن عمورية بالقرب من دمشق .

وبعد ذلك بثلاثة أشهر ، تم محاكمة أبو نزار أمام محكمة تابعة لفتح ، وقد تم تقديم مسدس مزود بكاتم للصوت ، والذي اعترف بتقديمه كدليل مع خرائط كروكية جهزها المتآمرون تبين موقع منزل أبو مازن . وقد حُكم على أبو نزار بالسجن لمدة 18 شهرا، يقضيها في عمورية . وقد تم الحكم على أبو نضال المفروض أنه العقل المدبر وراء محاولة الاغتيال بالإعدام غيابيا .

وقد تم تأكيد حكم الإعدام باجتماع لمجلس فتح الثوري ، في وجود الاعتراضات المتحمسة لأبو داود وناجي علوش ، الصحفي المتطرف والذي أظهر بهذه الصورة أين يكمن تعاطفه . وقد ترك أبو مازن ، الضحية المقصودة لعملية الاغتيال ، الاجتماع غاضبا . ولكن لأنه لم يستسلم بعد ، فقد التمس أبو داود منح أبو نضال فرصة أخيرة لعرض قضيته . وقد قرر دعوته لبيروت لسؤاله مع تعهد أبو داود الشخصي بسلامته . وتلك كانت العلاقة الآثمة بين هؤلاء الرفاق والرفاق السابقين حتى أن الصدع لم يكن قد أصبح نهائيا .

وقد كان أبو نضال رجلا حريصا للغاية . ولذلك فقد سافر إلى بيروت بتردد كبير حيث قابله أبو داود بالمطار وأخذه إلى منزل آمن . ولأنه كان يخشى من وجود فخ منصوب له ، فقد أصر على ألا يغادر أبو داود جواره أبدا طوال فترة زيارته . ولمنح أبو نضال فرصة لينظف اسمه ويعود إلى جماعة فتح كتب أبو إياد الأسئلة التي سوف تُطرح عليه بطريقة دبلوماسية والإجابات التي تتوقع منه . ولكن هذا التخطيط لم يصل إلى شيء . فلم يعد أبو نضال راغبا في إذلال نفسه . ومع تأييد العراق له ، كان قد بدأ يشعر بأنه قوي ومدمر . وقد عاد إلى بغداد غاضبا . وقد تجاوز الجانبان نقطة اللاعودة .

وكما يقترح بعض المطلعين الفلسطينيين ، فقد يكون الأمر أن أبو نضال لم يكن

يقصد أبدا قتل أبو مازن ولكنه أراد أن يخيفه فقط ، وأن حكم الإعدام الصادر من فتح ، في المقابل كان للاستهلاك العلني و لم يكن محاولة حقيقية لوقوفه أمام العدالة . على أية حال فلم يُبذل أي جهد لتنفيذه . وإذا كانت فتح قد أرادت حقا قتل أبو نضال لكان بإمكانها إرسال شخص لبغداد للقيام بهذه المهمة .

ولكن الوقع النفسي للحكم على أبو نضال كان كبيرا . فقد جعله الحكم يبتعد تماما عن فتح ويزيد تعلقه والتصاقه بالعراق . وكما قالها أحد المعارف « إن الذات لأبو نضال هي كل شيء . فعندما يشعر بالتهديد الشخصي يتحول إلى (محارب) » .

الانشقاق يصبح رسميا :

كان رد فعل أبو نضال على حكم الإعدام هو اتهام عرفات بأنه مهرطق كانت رغبته في قبول حل سلمي للقضية الفلسطينية هي خيانة لمثل فتح الأصلية . ودعما لاتهاماته قام بنشر قرارات المؤتمر الثالث لفتح والتي فرضها عرفات . وقد ثار أبو نضال بسبب هذه القرارات لدرجة أن أول ما خطر على باله هو أن يسمي حركته الجديدة فتح : المؤتمر الرابع ليشير إلى رفضه التام لكل شيء أقره المؤتمر الثالث . ولكن عند تأمله للأمور ، في أكتوبر 1974 استقر على اسم فتح : المجلس الثوري . وقد كان مع ذلك عضوا في المجلس الثوري لفتح والذي كان معظم أعضائه أصدقاءه وكانوا يحملون آراء التيار المتشدد مثله : قد يسيطر عرفات على قمة الهرم ولكن قاعدته ، كما اعتقد كانت معه هو . كان يعتبر نفسه ممثلا ليس فقط لمجموعة منشقة ولكن للغالبية بداخل الحركة الفلسطينية . وفي نمط طائفي حقيقي اعتاد أبو نضال على الإشارة بسخرية إلى فتح التابعة لعرفات على أنها فتح : اللجنة التنفيذية . وقد كان الوجه الشرعي لفتح ، وكان عرفات وجه الخيانة .

وقد انجذب الكثيرون من أعضاء فتح في العالم العربي لموقف أبو نضال واعتبروه سياسيا شجاعا ومنظما وقف في وجه بيع الوطن . وحقيقة أنه لم يكن منشقا ، وأن له خلفية في فتح جعلت التعاون معه أسهل .

وكانت أقوى ورقة بحوزته أنه الآن موضع رعاية كبيرة لأن العراقيين حولوا إليه كل مميزات فتح في العراق . وقد اشتملت هذه المميزات على معسكر تدريب برمادي غرب العراق . وهو عبارة عن مزرعة كبيرة حيث يُزرع الطعام الخاص برجاله ؛ جوازات للسفر ، وهي السلعة الأثمن من الطعام للفلسطينيين الذين لا دولة لهم . منحا للدراسة بالخارج ، محطة إذاعة ، جريدة ومخزونا من الأسلحة الصينية تساوي 15 مليون دولار والذي أمر بها أبو داود للميليشيات الخاصة به في الأردن ولكن التي لم تتجاوز حدود العراق عندما نشبت أزمة سبتمبر 1970 . وقد باع أبو نضال بعضها وكانت هذه بداية ثرائه . وأصبح أيضا متلقي المساعدات المالية المنتظمة التي قدمتها العراق لفتح : 50,000 دينار عراقي في الشهر وهو ما يعادل حوالي 150,000 دولار في ذلك الوقت .

بالإضافة لذلك فقد أعطته العراق مبلغ مابين 3-5 مليون دولار كعلاوة خاصة لبناء نفسه . وكان كل هذا يمثل الثروة والسلطة الحقيقية . في غضون فترة وجيزة أصبح أبو نضال « السيد فلسطين » في العراق الذي يسيطر على المجتمع الفلسطيني بأكمله هناك . وأي فلسطيني احتاج لأي شيء على الإطلاق من الحكومة العراقية كان عليه أن يذهب من خلاله .

وكان مؤازره الرئيسي في العراق هو الرئيس أحمد حسن البكر ، وهو الرجل الذي استمد منه قوته . وكانا لديهما نفس القلق بشأن أخطار « أخطار عملية السلام » وكانا يحتقران عرفات . وقد أوحى أبو نضال ببراعة للبكر أنه بسبب المنصب الذي ناله ، فإنه معرض لخطر القتل بواسطة فتح لذلك فقد تمتع أبو نضال منذ البداية بتعاطف العراق وأيضا الحماية الدائمة لجهاز مخابراتها والذي أصبح رئيسه صديقا حميما له .

قتل أحمد عبد الغفور :

وقع حادث بعد ذلك كان له تأثير عميق على أبو نضال ، دفعه إلى طريق العنف أو على الأقل أعطاه مبررا لاتخاذ هذا الطريق ، فقد قتل أحد أصدقائه المقربين على يد فتح في بيروت .

وقد كان أحمد عبد الغفور « الاسم الحركي أبو محمود » ، وهو قومي متحمس وكادر صاعد في فتح ، من أوائل وبالتأكيد من أهم أعضاء المجموعة السرية التي كونها أبو نضال بداخل فتح في عام 1972-1973 . في الستينات عمل أحمد بشركة بترول في ليبيا حيث كون ثروة واكتسب خبرة في الإدارة . وقد أقام معرفة مع الضباط الليبيين الصغار والذين استولوا على السلطة من الملك العجوز إدريس في سبتمبر 1969 بزعامة العقيد معمر القذافي . وقد استدعته فتح إلى الأردن في العام التالي ليساعد في إدارة موارده الضعيفة وقد أثبت كفاءته وكان ينفق من جيبه الخاص عندما تدعو الحاجة .

ولكن مثله مثل كثيرين آخرين ، قد مزقه ذبح الفلسطينيين في الأردن في عام 1970 . وقد اعتراه تغير درامي . وهذا الرجل الذي كان في يوم ما رجلا جادا انضم لجماعة سبتمبر « أيلول » الأسود وأصبح واحدا من أكثر أعضائها تعطشا للدماء . وقد كان مصمما ، كما أعلن ، على تطهير فتح من المهرطقين ، وإنزال الثأر بكل المؤازرين لإسرائيل . ومما سبب انزعاج أبو إياد ، كما شرح لي فيما بعد ، أن أحمد عبد الغفور اعتاد على تقديم نظرية إرهابية خطيرة مفادها : الطريق لكسب دعم للقضية الفلسطينية هو إرسال مسلحين لقتل الناس بصورة عشوائية في شوارع أوروبا والولايات المتحدة . وفي دار القضاء ، سوف يعلن المسلحون بأنهم قتلوا من أجل أن يلفتوا انتباه العالم لشعب مضطهد ومطحون .

في عام 1972 ، انفصل أحمد عبد الغفور عن جماعة سبتمبر الأسود ، وانتقل إلى لبنان ، وبينما كان لا يزال على اتصال بأبو نضال كون مجموعة مقاتلة خاصة به تتكون من رجال كان قادرا على انتشالهم من فتح . ولأنه كان له شعبية في مخيمات اللاجئين فكان له في وقت قليل كيان كبير من الأتباع وقد أغضب فتح بالقيام بعلميات إرهابية بينما كانت فتح تحاول أن تضع الإرهاب وراءها .

وكانت إحدى أشهر عملياته هي هجوم في 17 ديسمبر 1973 بمطار فيوميشينو بروما على الطائرة البوينج 707 التابعة لشركة « بان أمريكان » والتي كانت على وشك الإقلاع إلى بيروت وطهران . وقد ألقى خمسة فدائيين بالقنابل الحارقة بداخل

الطائرة فقتلوا تسعة وعشرين شخصا بما فيهم موظفو أرامكو وأربعة من كبار مسئولي الحكومة المغربية الذين كانوا في طريقهم إلى إيران .

وبعد ذلك ، في عام 1974 ومما سبب انزعاجا أكبر لفتح ، وصول كلمة مفادها أن أحمد عبد الغفور وأبو نضال كانا يعملان بصورة وثيقة معا وكانا يفكران في دمج منظمتيهما . وكان اتحاد أبو نضال الذي تدعمه العراق وعبد الغفور الذي تدعمه ليبيا – وهما رجلان معتوهان ومدمران كما اعتقد عرفات في ذلك الوقت ، في خدمة نظامين متطرفين – تهديدا لا يمكن التسامح معه للنهج السياسي الذي بدأ عرفات يسير فيه . كان يجب إيقاف عبد الغفور .

وقد أصدر القائد العسكري لعرفات ، خليل الوزير « أبو جهاد » الأوامر بقتله . وقد تكون فتح قد شعرت أيضا بالحاجة إلى قص أجنحة المنظمة المنافسة والتي بدأت تصبح قوة هامة في لبنان ، وتمثل تهديدا حساسا وخاصا لعمليات فتح . لذلك فقد تم إطلاق النار على أحمد عبد الغفور في حي الأشرفية ببيروت في أواخر عام 1974 بواسطة عزمي الصغير ، وهو فلسطيني من أصل غير معلوم عمل مع إسرائيل ، ثم بعد ذلك لرجال حرب العصابات . « وقد تم قتله في النهاية في جنوب لبنان أثناء الغزو الإسرائيلي في عام 1982 » .

ولم تمت أفكار عبد الغفور معه . فقد تولى أحد تلامذته وهو فلسطيني يدعى أبو مصطفى قدورة المجموعة وبدعم من كل من ليبيا وأبو نضال رتب لاختطاف الطائرة 15-72 التابعة للخطوط الجوية البريطانية بدبي عندما هبطت هناك في 22 نوفمبر 1974 في رحلة من لندن إلى بروناي .

وقد أجبر المسلحون الأربعة على متن الطائرة والذين كان يسمون أنفسهم أعضاء كتيبة الشهيد أحمد عبد الغفور الطائرة على الطيران إلى تونس حيث تم إطلاق النار على أحد رهائنهم وهو طبيب ألماني ، وإلقاء جثته على أرض المطار . وكان أكثر مطالبهم الحاحا هو إطلاق سراح خمسة من رفاقهم من السجون المصرية ، والذين نفذوا الهجوم على طائرة « البان أمريكان » في مطار فيوميشينو في ديسمبر 1973 والذين كانوا في انتظار محاكمتهم عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية .

وقد التمس الرئيس السادات رئيس مصر مساعدة أبو إياد في التفاوض مع المسلحين وأرسل طائرة لتأخذه إلى تونس . وقد أخبرني أبو إياد أنه عندما تحدث إلى المسلحين لأول مرة من برج المراقبة ، كانوا يتسمون بالعنف والبذاءة ولكنه استطاع تدريجيا أن يؤثر عليهم الواحد تلو الآخر بما في ذلك قائدهم والذي كان يسمى نفسه توني . وقد استمروا في التهديد بنسف الطائرة ولكنه أقنعهم بإطلاق سراح الركاب على دفعات . « دعوا الركاب يخرجون ثم افعلوا ما يحلوا لكم في الطائرة » قال مجادلا لهم .

في تلك الأثناء ، وافق الرئيس السادات على إطلاق سراح المعتقلين الخمسة المحتجزين في مصر والذين طاروا إلى تونس للانضمام للمسلحين على متن الطائرة . وبمجرد إطلاق سراح الركاب ووجود المسلحين ورفاقهم وطاقم الطائرة بمفردهم على متن الطارة أقنعهم أبو إياد بتسليم أنفسهم في مقابل السماح لهم بالسفر إلى أي بلد يريدونه . وعندما اختاروا ليبيا أقنع أبو إياد الرئيس بورقيبة بالموافقة على الصفقة . ثم اتصل بعد ذلك برئيس المخابرات الليبية في ذلك الوقت عبد المنعم الهوني . وقد وافق أيضا على الخطة .

وقد وافقوا على أنه بمجرد وصولهم إلى ليبيا يتم تسليمهم مكتب منظمة التحرير الفلسطينية المحلي .

ولكن عندما وصلوا إلى طرابلس بعد يوم وجدوا عكس الاتفاقية ، فقد تم السماح للمسلحين بالذهاب إلى بنغازي حيث سُمح لهم بالاستيلاء على القنصلية التونسية احتجاجا على معالجة الحكومة التونسية للمسألة . ومن الواضح أن القذافي كان يحسم قليلا من خلافاته ضد تونس . وقد اعتبر أبو إياد الموضوع برمته فضيحة وأخبرني « لقد أثرت الموضوع مع القذافي » ، لماذا لم يحترم اتفاقنا بتسليم المسلحين لمنظمة التحرير الفلسطينية PLO ؟ ومع ذلك فقد حفظت له سمعته بحل الأزمة سلميا . ولو كانت انتهت بعنف لكانت صلته بالمسلحين قد أعلنت صراحة .

وقد أدعى جهلة بالموضوع برمته ، ولكنه سألني عمن هو المسئول في الجانب الليبي عن هذا التخبط . فأجبت أنهم رجال مخابراته السيد قذاف الدم وعبد الله حجازي . وقد استدعاهما وعنفهما بطريقة تلميذ مع كثير من القهقهة . وقال بأنه

يريد المختطفين أمامه في الغد . فضحكا وأومآ وانصرفا .

في طريقي إلى الخارج ، سألت الهوني ، رئيس المخابرات الليبية عن سلوك العقيد أهكذا يتصرف عادة ؟ أليس له سلطة كافية على هؤلاء الرجال ليجعلهم يأخذوا كلامه مأخذ الجد . فالتفت إلي الهوني فقال : « لا تذهب إلى بعيد » خذ هذا الكلام مني : أنه ذئب في ثوب شاة .

وقال أبو إياد « أنا لم أنس أبدا وصفه للقذافي » .

وقد أوضح الحادث الضغط ، الحرج والمناورات المسعورة المفروضة على فتح والأنظمة العربية في نضالهم لاحتواء مثل هذه العمليات الإرهابية . وبدورها فإن هذه العمليات نفسها ، في هذا الوقت ، لم يكن هناك ما يربطها بالدفاع عن القضية الفلسطينية وهناك الكثير ما يربطها بالخلافات بين الدول العربية وبين الفلسطينيين أنفسهم .

وكما اعترف لي أبو إياد فإن فتح قد ارتكبت خطأ فادحا بقتل أحمد عبد الغفور . فقد أدخل اغتياله العنف فيما بين العلاقات الفلسطينية التي كانت غائبة لفترة طويلة . فقد أطلق موت عبد الغفور سراح مد شرس في طبيعة أبو نضال وقدم له المبرر لعمليات الاغتيال الفلسطينية .

لماذا لم تتخلص فتح من أبو نضال أيضا ؟ لابد أن الإجابة أنه في هذه المرحلة المتأخرة كان لا يزال في حماية أبو إياد ، كما أخبرني هو بنفسه :

« اعتدت على الاعتقاد بأن هناك طريقتين للتعامل معه ؛ إحداهما هي التخلص منه كما كان يريد الكثيرون ، وكانت الأخرى أن تكسبه . وعلى الرغم من كل شيء كنت آمل أن أكسبه » ، وقد شرح بأن فتح كان بإمكانها قتل أبو نضال عندما جاء إلى لبنان في عام 1974 ولكنهم لم يفعلوا ذلك لأنه في هذا الوقت كان يدعو فقط للإصلاحات . « وإذا كنا سنقتل كل من ينادي بإصلاح منظمة التحرير الفلسطينية لكنا قتلنا الآلاف » ، قال أبو إياد ضاحكا : « على أية حال ، فنحن كنا ندعي بأن حركتنا حركة ديمقراطية وكانت هذه طريقة لإثبات ذلك » .

وقد شعر أبو إياد بأن أبو نضال تفوه بانتقادات هامة لمنظمة التحرير الفلسطينية PLO ، انتقادات هو نفسه كان يشاركه فيها بصورة ما « لقد أردت أن أدعه طليقا لكي يمكنه أن يمثل عامل تصحيح للاتجاهات التي كنت لا أوافق عليها » . قال أبو إياد ذلك برغم اقتناع عرفات بخطورة أبو نضال .

وقد كانت وجهة نظر ندم عليها بشدة ودفع حياته ثمنا لها في النهاية .

بدايات اللجنة العسكرية :

قضى أبو نضال سنواته الأولى في العراق كرئيس لمنظمته في تجهيز حريص لدور دولي . وقد أقام لجنة عسكرية سرية للغاية وشرع في إعدادها « للعمل الخارجي » . وكان منذ البداية مهتما بمثل هذه العمليات أكثر من اهتمامه بالغارات داخل إسرائيل عبر الحدود ، وهي التعبير التقليدي عن النضال الفلسطيني . وسواء كان هذا لأنه كان على صلة بالموساد أو لم يكن فإن تلك مسألة تخمين . وهو موضوع سنعود إليه في فصل تال ، بمجرد استشكاف صلاته مع الكفلاء العرب . وكان جدال أبو نضال في ذلك الوقت هو أن العراق تبعد كثيرا عن إسرائيل ولن يدعه عدوه ياسر عرفات مطلق اليد في خط الجبهة أبدا . ويتذكره واحد من أوائل جنوده والمعروف ببازل « والذي أصبح فيما بعد قائدا لقوات أبو نضال في لبنان » والذي أجريت معه مقابلة في تونس وهو يقول في عام 1973 إن « ميدان المعركة على حدود العدو » مغلق أمامه . وكانت المجادلة زائفة لأنه في الحقيقة كان له رجال في الأردن ولبنان والذين مثلهم مثل أعضاء المجموعات الأخرى ، كان بإمكانهم التسلل إلى إسرائيل إذا كان أمرهم بذلك . ولكن من الواضح أن هذا لم يكن أولويته الأولى .

بدلا من ذلك ، فقد ركز على تهريب الأسلحة إلى الدول الأوروبية وإخفائها هناك . في الفترة ما بين 1973-1975 عندما لم يكن الأمن بالمطارات والحدود البرية بمثل صرامته الآن ، كانت الحركة السرية للأسلحة لازالت سهلة نسبيا . وقد استخدم أبو نضال لهذا المرور الحقائب الدبلوماسية العراقية ، وجيوبا سرية في السيارات ، وحاويات على متن سفن مبحرة من الموانى العراقية . في بعض الحالات كانت الأسلحة تشترى محليا من المجموعات المتطرفة وكانت الأماكن المناسبة

لإخفائها بالخارج تحدد مواقعها على أرض لن يتم فلحها أو تطويرها .

وكانت تفضل الغابات . وكانت الأسلحة تخزن في كميات صغيرة ، كافية لتسليح رجل أو اثنين أو فيما يسمى بالمستودعات الاستراتيجية والتي يمكن الاعتماد عليها مرات عديدة ثم يتم إخفاؤها أو إغلاق المكان عليها لاستخدامها مرة أخرى . وكانت تلك المستودعات الكبيرة توضع في حراسة « شخص مقيم » ، وهو عادة شخص متزوج من فتاة محلية أو يتمتع بغطاء جيد .

وكان هناك حرص شديد لحماية المقيمين وإخفاء أية معلومات قد تربطهم بمنظمة أبو نضال .

في تلك الأيام الأولى ، كانت المستودعات الرئيسية للأسلحة في اليونان وتركيا وقبرص وإيطاليا وفرنسا . وبعضها لا يزال هناك إلى اليوم ويمكن أن يسمح نظريا لأبو نضال بالقيام بعمليات في أوروبا .

ووفقا لبازل ومصادر أخرى فقد تعلم أبو نضال أساليب الإرهاب من جماعة سبتمبر الأسود ولكن أيضا من الثوار الإيرانيين الذين كانوا يخططون لخلع الشاه وقد تدرب بعضهم مع الفلسطينيين في العراق .

في هذه المرحلة كانت لجنة أبو نضال العسكرية تبدو تكوينا عراقيا خالصا . فقد كان ينفذ أوامر العراق وكان يُكافأ بحرية الوصول إلى الأموال العراقية ، والخطوط الجوية ، والسفارات والحقائب الدبلوماسية . وكان أعداؤه أعداء العراق وكانت عملياته يمولها العراق ومؤسساته المختلفة ، وكانت اللجنة العسكرية والكيانات الأخرى التي تتناول التمويل ، العلاقات الخارجية والتنظيم الداخلي لاتبدو أكثر من امتدادات للمخابرات العراقية .

ومع ذلك فلم يسمح غرور أبو نضال له بأن يكون عميلا لأحد كلية . في رأيه ، فإن العراقيين لم يجندوه لكنه دخل في شركة معهم قامت على صداقته الشخصية لقادتهم . وقد قدموا التسليح ودفع هو « خدمات مدفوعة » وكما أسر لأحد شركائه « عندما آخذ ، أعطي » لقد كان مبدأ يحكم علاقاته مع الكفلاء الآخرين عبر السنين .

وقد كان الهجوم على السفارة السعودية بباريس في سبتمبر 1973 أول عملية مسجلة لأبو نضال والعملية التي تم تنفيذها لصالح العراق . وفي ديسمبر من العام نفسه أرسل عضوين تونسيين تابعين لمنظمته الزيجوتية « التي لاتزال في طور النشوء » لتخريب مؤتمر جنيف الذي يديره هنري كيسنجر بعد حرب أكتوبر . وكانت الخطة أنه عليهما أن يقوما بغزو قاعة المؤتمر أو قتل أعضاء الوفود إشارة إلى رفضهم لأي نوع من التسوية السلمية والتي كان هو والعراق يعارضاها بخبث . ولكن رجليه لم يكن لديهما أية فرصة للقيام بعمل أبدا .

وافتتح المؤتمر بقصر الأمم في 21 ديسمبر 1973 وبعد الخطابات الرسمية تم تأجيله في المساء نفسه . فقد تصورها هنري كيسنجر كستار ليجيز هدفه السري بالاتفاق الثنائي بين مصر وإسرائيل . ولم يصبح أبدا منبرا عاما ، كما كان البعض يأمل لمفاوضات متعددة الأطراف واسعة النطاق لتنفيذ قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم 242 ، والذي يطلب من إسرائيل الانسحاب من الأراضي المحتلة في مقابل الحدود الآمنة والمعترف بها . وهكذا كان على أبو نضال أن يلغي العملية ويستدعي رجاله .

الحرب على سوريا :

في عام 1976 ، كانت منظمة أبو نضال مستعدة لعمليات أكثر طموحا . فقد اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية وأثارت مسلمي هذا البلد وحلفاءهم الفلسطينيين ضد المسيحيين المارونيين الذين كانوا مسيطرين في يوم ما . ووجد قائد رجال حرب العصابات الفلسطينية أبو داود ، نفسه في خضم الأشياء . وعلى الرغم من أنه كان لايزال في فتح فقد كان يتعاون سرا مع أبو نضال . في أوائل عام 1976 أحضر حوالي خمسين من رجال أبو نضال إلى ميناء سيدون ، على الساحل الجنوبي للبنان ليقاتلوا تحت زعامته ، بجوار قوات فلسطينية أخرى في الحي التجاري ببيروت .

وفي ربيع 1976 ، تحول مد الحرب ضد المسيحيين المارونيين والذين وجدوا أنفسهم محاصرين في الجبال من قوة متحدة من الفلسطينيين والمسلمين المتطرفين .

وخوفا من تدخل إسرائيلي لإنقاذ المارونيين أرسل الرئيس الأسد الرئيس السوري جيشه إلى لبنان في يونيو عام 1976 لإجبار الفلسطينيين على إلغاء هجومهم . ولكن الرأي العربي لم يستطع تقبل أن يحول نظام قومي عربي مثل سوريا بنادقه تجاه الفلسطينيين . وكانت الصرخات ضد الأسد تسمع من أحد أطراف العالم العربي إلى الطرف الآخر . وقطع السادات العلاقات بينما أرسل صدام حسين العراقي قواتنا إلى الحدود السورية وأطلق على الأسد الرجل المجنون الذي غمسه طموحه في حمام من الدم . « وقبل أن تدخل القوات السورية إلى لبنان كان أبو داود قد أخرج رجال أبو نضال لتوه ؛ فقد كان يعرف أن السوريين لن يرحموهم » .

وبتحريض من العراق قام أبو نضال بحملة إرهابية ضد سوريا كان اسمها الشفري يونيو الأسود وهو الشهر الذي دخلت فيه القوات السورية لبنان .

وفي يوليو 1876 فجرت قنابل في مكاتب شركة الخطوط الجوية السورية في الكويت وروما وبعد ذلك بشهرين وفي 26 سبتمبر ، اقتحم أربعة مسلحون تابعون لأبو نضال فندق سميراميس بوسط دمشق وأخذوا تسعين رهينة . وحيث إن الفريق كان مسافرا بجوازات سفر عراقية فقد هرب أسلحته من أوروبا إلى سوريا عبر تركيا . وقد اقتحمت القوات السورية الفندق وقتلت أحد المسلحين وأربعة من الرهائن وجرحت أربعة وثلاثين آخرين . وفي اليوم التالي تم شنق المسلحين الثلاثة الباقين علانية .

في أكتوبر شن أبو نضال هجمات على السفارات السورية بإسلام أباد وروما ، وفي ديسمبر على السفارة السورية في أنقرة وعلى الوفد السوري في إسطنبول . وكان السلاح المستخدم في العديد من هذه الحوادث هو البندقية نصف الآلية WZ-63 بولندية الصنع والتي جعلها عقبها الذي يمكن ثنيه ومخزن الذخيرة الكبير الخاص بها المفضلة بالنسبة للإرهابيين . وقد أحدثت القنابل التي تم وضعها في صناديق القمامة العامة في دمشق ازعاجا ونتج عنها إصابات قبيحة . وقد اعتقل البوليس الإيطالي أحد رجال أبو نضال والذي اشترك في عمليتي روما في يوليو وأكتوبر وسوف يقضي خمس سنوات في السجون الإيطالية . وهو الآن عضو في المجلس الثوري لأبو نضال وأحد قتلته الرئيسيين .

وبعد أقل من سنة وفي 25 أكتوبر 1977 ، نجا وزير خارجية سوريا في ذلك الوقت عبد الحليم خدام من الموت بأعجوبة في مطار أبو ظبي عندما فتح مسلح النيران عليه . وقد طاشت الرصاصة بعيدة عنه ولكنها قتلت صيف الغياش وزير دولة الإمارات العربية المتحدة للشئون الخارجية والذي كان يقف بجانبه . وكان المخطط لهذه العملية وللهجوم على فندق سميراميس في وسط دمشق هو فؤاد الصوفاريني « الاسم الشفري عمر حمدي » ، وهو مدير مكتب أبو نضال لفترة طويلة في بغداد وعضو في لجنته العسكرية . « كانت المحاولة السابقة لقتل خدام في سوريا في ديسمبر 1976 والتي كانت تُنسب لأبو نضال على نطاق واسع في الواقع من فعل الإخوان المسلمين ، والذين كانوا يبدأون حملة في ذلك الوقت لقلب نظام الأسد » .

وبهذه العمليات المضادة لسوريا كان أبو نضال يسن أسنانه ويجعل من نفسه شيئا ذي فائدة للعراقيين . ولكن كان عليه أن يطور أسلوبه الخاص المميز . إلى الآن كان مشغولا في بناء منظمته والحصول على أسلحة ورءوس أموال . وقد ادعى بأنه أراد أن يشن حربا ضد « الصهيونية » و « الإمبريالية » ولكن أهدافه حتى الآن كانت العرب وبعد فترة وجيزة وبصورة خاصة الفلسطينيين .

ومع ذلك فمع توغله في العالم السفلي للعنف ، أخبر صديقا بالضرر الذي لحق به وبعائلته من جراء الطريق الذي اختاره .

« في السبعينات ، عندما كنا نعيش في العراق » ، قال أبو نضال : « ألحقت ابني نضال بمدرسة ببغداد تحت اسم مزيف . ويوما ما أساء التصرف في الفصل وطلب منه الناظر أن يرى والده . وقال الناظر إن الولد لن يسمح له بالعودة إلى المدرسة إلى أن يأتي والده ليراني » .

ولم يجرؤ نضال على أن يخبرني بهذا الموقف . فقد كان يعرف أنه ليس بإمكاني الظهور على الملأ . ولذلك فقد طلب من والد صديق له أن يحل محلي . ولكن الحيلة لم تنجح . وأصر الناظر على رؤيتي .

« وجاءني نضال يوما وقال إنه يريد أن يترك المدرسة كلية . وفي الحال عرفت

السب واتصلت هاتفيا بالناظر لأطلب منه زيارتي . وكان علي أن أخبره بمن أكون واعترف بأن ابني مسجل تحت اسم مزيف . « وقد سببت الخزي وعدم الارتياح لأبني ! » .

* * *

الفصـــل الســـادس

الكـــــفلاء



الكفـلاء

لمدة سبع سنوات طوال من عام 1974 إلى عام 1991 قدمت العراق ثم سوريا وأخيرا ليبيا مأوى لأبو نضال ودعما عسكريا وأثمن هدية على الإطلاق ؛ الأمان . وقد استمرت كفالة العراق لما يزيد على ثماني سنوات من عام 1974 إلى عام 1983 ؛ وسوريا لمدة ست سنوات من عام 1981 إلى عام 1987 وتستمر كفالة ليبيا « بالرغم من إنكار العقيد القذافي » إلى هذا اليوم .

وقد كان هناك تداخل غريب في أوائل الثمانينات عندما نقلت منظمة أبو نضال ، وهي واحدة من أخطر المنظمات في المنطقة، مسرح عملياتها من بغداد إلى دمشق ، وبالتالي تهربت من سيطرة أي من الكفيلين . وما جعل الموقف أكثر غرابة أنه فيما عدا بعض الشهور في عامي 1978-1979 ، كانت العراق وسورية ألد الأعداء وكانتا منشغلتين في التطاول وتخريب بعضهما بعضا وتدعي كل منهما أنها منبع الشرعية البعثية والقومية العربية .

ولكن أبو نضال كان موهبة بارزة لأنه حشر نفسه في الفجوة الضيقة بين الحزبين المتنازعين . وقد ازدهر على الصراعات الشرق أوسطية ليس فقط بين إسرائيل والفلسطينيين ولكن بين الدول العربية وفتح ، وبين العراق ، وبين ليبيا ومصر ، وبين العرب والغرب . وقد هدد الدول المحافظة بالخليج وأيضا الحكومات الأوروبية على جانبي « الستارة الحديدية » والتي غالبا ما استسلمت لابتزازه لحماية أنفسهم من إرهابه . وقد كان هذا هو العالم المبهم المشاكس الذي يعيش فيه ، وهو البطن السفلي للسياسة .

ولأنه كان كلي الوجود وعنيفا كانت هناك محاولات كثيرة لاختراق منظمته أو ببساطة إجراء اتصال معه والسماح له في مقابل ذلك أن ينتزع أي أموال وأي تسهيلات أو تنازلات يمكنه الحصول عليها . وقد قدم لكفلائه خدمات قيمة ولكنه لم يكن أبدا صنيعتهم .

والشرق الأوسط هو موضع صراع دائم . وقد شن العرب والإسرائيليونه حروبا كبرى تقريبا كل عشر سنوات . وانخرط العراق وإيران في صراع طاحن مدته ثماني سنوات . واستمرت الحرب الأهلية في لبنان فترة جيل تقريبا والحرب في السودان فترة أطول . ونحن لا نزال نعيش في الظل المظلم لغزو العراق للكويت وحرب الخليج التي جلبت الخراب على كل من الكويت والعراق . ولكن هناك شكلا آخر للحرب ، خفيا وسريا ، وهو سمة للمنطقة . ولا يشن هذه الحرب الجيوش التقليدية ولكن أجهزة سرية ، عن طريق الإرهابيين وغير النظاميين . ويمس هذا الصراع كل دولة دون استثناء إلى حد أن سياسة الشرق الأوسط تنصب على هذا الشكل من الحروب بمثل ما تنصب على النوع العلني ، وهي الحقيقة التي حولها أبو نضال لصالحه ، فأصبح نوعا من الروح الشنيعة تسكن تناقضات المنطقة .

أوج الظهيرة في العراق :

لقد ازدهر أبو نضال في البداية في ظل حكم حزب البعث القاسي في العراق . وقد استولى البعث على السلطة في بغداد في فبراير عام 1963 عندما أظهر نفسه ، بمساعدة أمريكية متحفظة، وذلك عن طريق الذبح الجماعي لأعضاء الحزب الشيوعي العراقي ، بأنه الأقوى في المنطقة . وكما يوحي ماريون وبيتر سلجيت في كتابهما « العراق منذ عام 1958 – 1987 » بأن المخابرات المركزية قد زودت البعثيين بقوائم لأعدائهم الشيوعيين . وقد كتبا « من المؤكد أن بعض قادة البعث كانوا على اتصال بشبكات المخابرات الأمريكية » . وعندما انتهى البعثيون المتهورون من تصفية أعدائهم بدأوا يتنازعون فيما بينهم الأمر الذي سمح لمجموعة من ضباط الجيش القوميين بالتخلص منهم بدورهم في نوفمبر 1963 .

ثم عاد الحزب بعد ذلك إلى تحت الأرض ، حيث ظل لخمس سنوات من عام 1963 إلى عام 1968 . وأثناء هذه الفترة تم تطهيره وإعادة بنائه بواسطة شاب له مواهب لا ترحم كان في ذلك الوقت في أواخر العشرينات ويدعى صدام حسين . وفي يوليو عام 1968 ، تسلق الحزب عائدا إلى السلطة في انقلاب دبره أحد أعضائه العسكريين ، وهو الجنرال أحمد حسن البكر ، وهو ضابط معروف شارك في إسقاط

الملكية في عام 1968 . وكان للبكر دعم في سلك الضباط ولكن دعامته الحقيقية جاءت من الجناح المدني لحزب البعث بقيادة صدام .

ولأكثر من عشر سنوات ، من عام 1968 إلى عام 1979 حكم البكر وصدام حسين ؛ الجندي وجهاز الحزب ، العراق معا ، وأخمدا المعارضة وحشدا الجيش بأتباعهما المخلصين ، وسيطرا عليه بالمفوضين السياسيين وفرضا حكم البعث في كل ركن من أركان البلاد بواسطة جهاز أمن قاس ومطلع على كل شيء شكله صدام بنفسه . ومنذ البداية كان صدام رجل النظام « القوي » ويحمل لقب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة وله سلطات على كل شيء وكل فرد .

ولما كان يعيش في العراق من عام 1970 فما بعده فقد كان لأبو نضال وجهة نظر فاحصة نمو سلطة البعث في الدولة العراقية ، التي تحصل على المال عن طريق دخول البترول المتزايدة بعد تأميم شركة بترول العراق في عام 1972 وانفجار سعر البترول في العام التالي . وكان دعم أبو نضال يستمد أساسا من الرئيس البكر لا من صدام حسين . وقد كان أيضا وثيق الصلة بوزير خارجية العراق ، طارق عزيز وبسعدون شاكر ابن عم صدام والذي كان المدير العام لجهاز المخابرات في ذلك الوقت . ولما كان قد تربى في ظل تقاليد عراقية جديدة تتسم بالوحشية فمما لاشك فيه أن شاكرا كان له تأثير شرير على أبو نضال . ومع ذلك فقد كان صدام يميل إلى التقليل من شأن أبو نضال ، ربما لأنه رأى فيه عاملا ناعما مثل نفسه . وقد كان أبو نضال حساسا للغاية وكانت هفوات صدام لاتنسى ولم يكن الرجلان على علاقات سلسة .

لقد كان منتصف وإلى أواخر السبعينات أوج ظهيرة الفترة العراقية لأبو نضال . في هذا الوقت كانت العراق هي صانع الشقاق والمستأسد في العالم العربي ؛ فقد قام العراق بزرع خلايا البعث عبر المنطقة لتحريك الثورة ، نعم بدفء موسكو ؛ ونادى بأكثر الآراء تطرفا بشأن الاشتراكية العربية ، الوحدة العربية والخلاف العربي الإسرائيلي في محاولة واضحة لسلب قيادة التطرف العربي من خصمه الرئيسي سوريا . وبعد حرب أكتوبر عام 1973 أدانت بغداد محاولات عرفات في الاعتدال

بأنها خيانة وشجبت اتفاقية فض الاشتباك التي أبرمتها سوريا عام 1974 مع إسرائيل على مرتفعات الجولان وتدخل الأسد في لبنان بعد ذلك بعامين . وقد تم تشجيع أبو نضال لإطلاق إرهابه ضد سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية PLO .

ولكن في عامي 1978-1979 ، وعقب تغير في المناخ السياسي للعراق سقط أبو نضال فجأة من حظوة بغداد . وكانت المناسبة المباشرة هي توقيع اتفاقية كامب ديفيد في سبتمبر 1978 والتي توسط فيها جيمي كارتر بين بيجين والسادات ، وقد أمسك صدام حسين والذي لم يكن قد نال فرصة إلى الآن لكي ينقش شخصيته وراء حدود العراق « بخيانة » السادات لتأكيد نفسه في السياسة العربية . وعقد قمة في بغداد في شهر نوفمبر ذلك للاتفاق على اتخاذ موقف عربي ضد مصر . وقد شكلها مع السعودية ودول الخليج وأيضا مع سوريا وسعى إلى عرض صورة جديدة له كرجل دولة دوليا وعربيا .

وكانت كفالته للإرهاب عائقا كبيرا أمام هذا البرنامج . وقد حثته واشنطن لمدة طويلة على أن يطهر عمله . وهكذا فإن جماعة أبو نضال القاتلة أصبحت تشكل حرجا لصدام وحتى على الجبهة الفلسطينية ، وقد كان من مصلحة صدام الآن أكثر من أي وقت مضى أن يتعامل مع عرفات والذي كان يمثل التيار الرئيسي .

وبينما كانت قمة بغداد لاتزال جارية استدعى صدام عرفات وأبو إياد لمكتبه لكي يضع الخطوط العريضة لسياسته الجديدة معهما . وقد قدم لي أبو إياد فيما بعد تفصيلا لما حدث :

« ما هي الاختلافات الموجودة بيننا ؟ » قال صدام متسائلا : « هل لازلتم منزعجين لأننا لم نتدخل لمساعدتكم في الأردن في عام 1970 » إشارة إلى تراخي القوات العراقية عندما كان جيش الملك حسين يقوم بقتل رجال حرب العصابات ؟ لقد انتقدنا أنفسنا بالفعل بسبب هذه الحادثة المشئومة ، » قال صدام بجلال ، « ونحن نعتبرها تاريخا قديما » .

« هل هو دعمنا لأبو نضال الذي يغضبكم ؟ يمكن أن أخبركم في الحال بأننا

سوف نمنع أي مزيد من العمليات ضدكم يتم شنها من بغداد . لن نكون مسئولين بعد الآن عن أفعاله ، وقد أخبرناه بذلك . « لكن » أضاف صدام بابتسامة بغيضة « لاتتوقعوا مني أن أسلمه إليكم ! » .

وبمجرد أن أزاح صدام البكر المعتل وتولى الرياسة في عام 1979 أدرك أبو نضال أن أيام منظمته في العراق معدودة . ولأنه كان لا يرغب في أن يكون رهينة لأي نظام واحد فقد بدأ في إجراء مقترحات سرية مع سوريا وليبيا . ولكن فقط عندما توقع أن يُطرد من بغداد منحه اندلاع الحرب الإيرانية العراقية في سبتمبر 1980 إنقاذا مؤقتا . فالحرب كانت تعني أن العراق يحتاج إلى دعم دولي أكثر من أي وقت مضى ، وبصورة خاصة من الغرب ومن دول الخليج الغنية ، ومن ثم كان عليه أن يتخلص من أبو نضال .

ولكن أبو نضال كان رجلا له قيمته لدى نظام في حالة حرب يحتاج إلى خدمته .

وقد احتاج العراقيون أسلحة ومخابرات . وكانوا بحاجة لذراع خارجي وكان أبو نضال مستعدا أن يجعل من نفسه ذا فائدة . وقد عرض اغتيال أعضاء المعارضة العراقية بالخارج ، وقد رشح نفسه كقناة سرية للاتصال مع سوريا ، وفي الداخل قام بمراقبة الإعدام للذين كانوا مدمرين بصورة كبيرة وقد ورط نفسه كوسيط في تجارة الأسلحة والتي كان يأمل أن يحقق منها ربحا شخصيا .

وكان أحد نواب أبو نضال الأساسيين في هذا الوقت هو عبد الرحمن عيسى المنشق الذي كنت آمل أن أجري معه مقابلة في الجزائر ، ولكن أبو إياد أتاح لي الحصول على تسجيلات لاستجواب له . من هذه التسجيلات عرفت أن أبو نضال قد وعد العراقيين في عام 1980 أو 1981 أنه يمكن الحصول على دبابات T 72 من بولندا حيث إن لديه اتصالات جيدة هناك : « وقد اعتبر صدام حسين هذه خدمة هائلة » ، أخبر عيسى أبو إياد « الخدمة التي أجلت في الواقع طردنا من بغداد سنتين أو ثلاث ! » وقد قدم العراقيون 11 مليون دولار نقدا وضعها أبو نضال في حساب سويسري خاص . ولكن عند ذلك غير العراقيون رأيهم . فلم يعودوا بحاجة

إلى الدبابات ولكنهم بحاجة إلى مدفعية ، وهنا لم يكن في إمكان أبو نضال أن يقدم المساعدة ولكن وفقا لعيسى فإنه لم يرد النقود أبدا والتي كانت سببا آخر لرحيله النهائي من بغداد .

الوضع المعقد في لبنان :

أثناء نفس الفترة ، في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات ، عندما كان أبو نضال يناضل للبقاء في العراق نشأت أزمة بداخل منظمته وقد خرج منها أكثر قسوة ، أكثر تكتما وأكثر عنفا . وقد بدأ الاضطراب في لبنان مباشرة عقب عملية الليطاني ، الغزو الإسرائيلي في مارس 1978 .

وأعلنت إسرائيل أن غزوها للبنان جاء ردا على هجوم فلسطيني في هذا الشهر على الساحل الإسرائيلي على البحر الأبيض المتوسط عندما هبطت قوة صغيرة لرجال حرب العصابات من قاربين مطاطين واختطفت أتوبيسين مدنيين . وقد تم مقتل تسعة من رجال حرب العصابات وسبعة وثلاثين إسرائيليا في المعركة . ولكن من ناحية المجال ومقدار التدمير فإن الغزو الإسرائيلي قد جعل الحادث الذي أثاره يتضاءل جدا . وقد احتلت إسرائيل جنوب لبنان بأكمله حتى نهر الليطاني ، مما دفع السكان المصابين بالهلع إلى الفرار ناحية الشمال نحو بيروت . وقد تم قتل حوالي ألفين من اللبنانيين والفلسطينيين وتم تشريد ما يقدر بمائتي ألف من منازلهم .

ولما غضب من عنف إسرائيل غير المتكافئ طلب الرئيس جيمي كارتر من مناحم بيجين سحب قواته خارج لبنان ومنح تأييدا أمريكيا لقرار مجلس الأمن رقم 425 والذي كان يدعو لوقف إطلاق النار ووضع قوة محايدة تابعة للأمم المتحدة وهي UNIFIL المعمرة ، بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية PLO ، وقد رحل الإسرائيليون بعد ذلك بثلاثة أشهر ولكن بعد أن خلقوا منطقة محايدة خاصة بهم داخل لبنان بتفويض مسيحي محلي ، الرائد سعد حداد .

وقد أحدث قرار قبول وقف إطلاق النار مع إسرائيل صدعا في القيادة العليا لفتح . وقد وافق عرفات عليه بعد مناقشات مع السكرتير العام للأمم المتحدة كورت

فالدهايم . ولكن أعضاء الحركة الأكثر نضالا ، بما في ذلك أبو إياد كانوا مصممين على مضايقة الجيش الإسرائيلي الغازي بصورة مستمرة . وقد صدر أمر إلى أبو داود ، مثير الفتن المستعد دائما أن يجمع بعض الرجال ويرسل فرقا تُغير على المواقع الإسرائيلية في الضفة الجنوبية لليطاني . وفي بحثه عن رجال تزيد من قوته ، اتصل أبو داود بأبو نضال في العراق ، والذي قدم مستندات السفر ، والتذاكر ، والنقود لفرقة تابعة لبغداد قوامها حوالي 150 شخصا . وقد سحب أبو داود من مخازنه في بيروت الزي العسكري والأسلحة اللازمة للقادمين الجدد وأرسلهم جنوبا . وقد أظهر الحادث التناقض الوجداني الأيديولوجي لأبو داود . فقد كان قائدا بارزا لميليشيا فتح ، ومع ذلك كان أيضا على حافة أبو نضال تحت الأرض .

وعندما سمع عرفات بما حدث فسر الأمر على أنه مؤامرة كبيرة ضده هو فلم تتعرض سلطته فقط للاستهزاء بسبب وقف إطلاق النار ولكنه واجه ، أو هكذا اعتقد ، اختراقا جماعيا لصفوف فتح عن طريق أبو نضال . وصدرت تعليمات لقائده العسكري أبو جهاد بالقبض على « المتسللين » . وفي تلك اللحظة الحاسمة ، سقط أبو داود مريضا بسبب طعام مسموم وكان لابد من نقله للمستشفى لعلاجه ، وفي غيابه ، نزعت فتح سلاح رجال أبو نضال واعتقلتهم . ولم تكن تلك مهمة مباشرة تماما . وقد اندلعت المناوشات في عديد من المخيمات وكانت هناك إصابات في كلا الجانبين . فمن ناحية بدأ الموالون لعرفات يشكون ، لسبب وجيه ، أن أبو إياد كان يقف إلى جانب أبو داود وكاد يحول بنادقهم على رجاله في بيروت . وقد تم تجنب حمام دم بين الفلسطينيين بأعجوبة .

وبعد مواجهة طويلة وعاصفة ، حسم عرفات وأبو إياد النزاع ، وذهب أبو إياد ليحقق مع المعتقلين شخص تلو الآخر . وقد كسب بعضهم إلى فتح ولكن تم إيداع عدد كبير السجن . وعندما سمع الأخبار زاد هياج وثورة أبو نضال في بغداد . فقد أعار أبو داود 150 من خيرة مقاتليه والآن يعتبره مسئولا عما حدث لهم . وقد أعلن أن « شهداءه » تم معاقبتهم لرفضهم اتباع طريق عرفات في الاستسلام لإسرائيل وأقسم بأن يثأر لهم .

ولأنه كان مرتابا كما العهد به ، فقد اشتم رائحة مؤامرة ؛ لماذا طلب أبو داود منه إرسال رجال إلى لبنان ؟ هل كان فخا ؟ ولكي يختبره فقد اقترح خطة بيزنطية الخصائص : وهي أنه سوف يعير أبو داود أحد رجاله كحارس لمدة أسابيع قليلة ، وهي فترة كافية لكي يعتاد أبو إياد، وهو زائر يتردد كثيرا على منزل أبو داود ، عليه . ثم بعد ذلك وفي يوم ما ، ووفقا لإشارة متفق عليها مسبقا ، سوف يقتل هذا الرجل أبو إياد .

ثم يطلق أبو داود النار في الحال على القاتل وهكذا يدمر كل دليل على المؤامرة « وقد لقي ، كما رأينا ، أبو إياد حتفه في النهاية في يناير 1991 عن طريق خطة ملتوية مشابهة » .

وقد رفض أبو داود الخطة ثائرا ؛ فقد كانت تتسم بالجبن وانعدام الأخلاق . ولكن أبونضال أخذ رفضه التعاون على أنه تأكيد بأنه قاد رجاله عن قصد إلى فخ . وبدوره ، عندما سمع أبو إياد بالمؤامرة المقترحة ضده ، كان ذلك كافيا لإثارة شكوكه بشأن إخلاص أبو داود الأخير . وقد تكونت علاقات المقاومة الفلسطينية من تلك الأساليب الملتوية .

وكما علمت ، فإن أبو نضال وأبو إياد في ذلك الوقت انخرطا في محاولات اغتيال واحدة بعضهم ضد بعض . وفي إبريل 1980 تم إلقاء قنبلة على سيارة كان يُعتقد أن أبو إياد يستقلها في طريقه لبلجراد . وعندما فشلت هذه المحاولة ، أرسل أبو نضال ثلاثة قتلة لقتل أبو إياد في بيروت .

وقد انتظر اثنان منهم ، وكانا مسلحين بالبنادق ، على سطح مبنى مواجه لمكتبه لتلقي إشارة من الثالث الموجود في الشارع لفتح النيران . وتم رصد الرجل الثالث وهو شاب يدعى نبيل ، في نقطة المراقبة التي كان يقف عندها ، في محل حلاق بالقرب من مكتب أبو إياد ؛ فقد كان الحلاق في خدمة أبو إياد . وعندما ألقى رجال الأمن التابعون لأبو إياد القبض عليه وجدوا أنه يحمل مسدسا . وقد أحضروه أمام أبو إياد الذي أمر حراسه بالانصراف وجلس مع الرجل على انفراد .

وسأله « هل تريدون قتلي حقا ؟ » .

فأجابه الشاب : « نعم » .

« لماذا ؟ » .

« لأنك خائن ! فأنت جزء من القيادة التي خانتنا » قال نبيل متفوها بالفكر المعتاد الذي قام أبو نضال بتشريبه لأعضاء جماعته .

فوضع أبو إياد مسدسه المحشو على المنضدة أمام نبيل قائلا .

« إذا كنت مقتنعا بضرورة موتي فاقتلني » .

فأبعد نبيل المسدس وانهار . لقد كان شابا مشوشا انهارت يقينياته عندما وجد نفسه وجها لوجه مع ضحيته المقصودة . بعد برهة اعترف على شركائه ، والذين كشفوا بدورهم عن عناوين منازل أبو نضال الآمنة في بيروت وعن أسماء الرجال الذين يريدون هذه المنازل . واستولت منظمة التحرير الفلسطينية على هذه المنازل واعتقلت أفرادها .

وقد أثار حنق أبو نضال وضع منظمة التحرير الفلسطينية PLO يدها على ممتلكات تساوي مليون دولار .

ولما كان مصمما على التخلص من تهديد أبو نضال فقد أرسل أبو إياد عندئذ فريقا مكونا من خمسة وعشرين رجلا لقتله في بغداد . فتم تهريب مدافع رشاشة وقنابل يدوية وأجهزة اتصال لاسلكية إلى داخل العراق .

وبعد مراقبة تحركات أبو نضال لأسابيع عديدة قرر الفريق أن يتربص بسيارته على كوبري فوق نهر دجلة كان يعبره يوميا تقريبا .

ومع ذلك ، فقبل أيام قليلة من تنفيذ الهجوم المخطط رصدت المخابرات العراقية خمسة من أعضاء الفريق وهم يتصرفون بصورة مريبة على الكوبري . وقد تم تتبعهم إلى مساكنهم واعتقالهم . وقد تفرق الآخرون وتم إلغاء العملية .

وقد تم إدانة المعتقلين الخمسة بالموت ، ولكن الحكم لم ينفذ مطلقا . وبعد ذلك

بسنوات تمكن أبو إياد من إطلاق سراحهم . وقد قال أبو إياد وهو يخبرني بالقصة « أن اثنين منهم حارساي الخاصان الآن » .

« وقد تكون قد رأيتهما عندما دخلت علي » .

وفي هذا الوقت ، تحولت العلاقات التي كانت ودية في يوم من الأيام بين أبو إياد وأبو نضال إلى كراهية خالصة . ولسنوات بعد ذلك ، كان أبو نضال يكتب عمودا في مجلته كان يشير فيه دائما إلى أبو إياد بأنه « ابن اليهودية » .

الانقلاب العسكري لناجي علوش :

في منتصف عام 1979 ، وفي أوج النزاع المهلك مع أبو إياد ، أصيب أبو نضال بأزمة قلبية وكان لابد من الإسراع به إلى السويد لإجراء جراحة . وقد دفع العراقيون الفواتير بسخاء . وإلى هذا اليوم عندما يسعى إلى كسب التعاطف فإن أبو نضال يفك أزرار قميصه ويعرض آثار الجروح .

وبينما كان في فترة النقاهة ، سلم قيادة منظمته لناجي علوش ، وهو مفكر خجول رصاصي البشرة ، مولع بالحلوى، ابن لأبوين مسيحيين ، ويقيم عادة في بيروت ، انضم إلى المنظمة قبل حوالي ثمانية عشر شهرا بلقب له جلبة عالية ولكنه أجوف وهو السكرتير العام . وقد كان علوش عضوا متطرفا لفتح ورئيس الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين . وفي الدوائر العربية كان معروفا بأنه مفكر تابع لجناح اليسار وخبير في الشئون العامة كان يدعو أن الفلسطينيين يجب عليهم أن يقيموا نموذج نضالهم وفقا للخبرات الثورية لكوبا وفيتنام . ولما كان يشارك صديقه أبو داود في كراهيته الشجاعة للتسوية وفي حماسه من أجل النضال المسلح فقد جذبه انتقاد أبو نضال لعرفات .

ومع ذلك ، فقد كانت الطموحات الحقيقية لعلوش تكمن في لبنان حيث كان يحلم بتأسيس جريدة صحفية وحتى حركة سياسية عندما يحين وقتها .

ولما كان يؤمن أنه يستطيع القيام بذلك بتأييد أبو نضال فقد انضم إليه . وقد أراد أبو نضال أيضا إقامة وجود سري في لبنان واعتقد أن علوش يمكن أن يزوده

بالغطاء الذي يحتاجه . وقد يكون قد أعجب بفكرة وجود مفكر داخلي في خدمته . ومثل الكثيرين من الناس الذين علموا أنفسهم فقد كان لديه احترام مبالغ فيه للمفكرين . لذلك فقد أصبح علوش الرئيس الصوري للمنظمة .

وفي الواقع فلم يكن له أية سلطة من أي نوع ولا منفذ على أموال المنظمة أو لأسلحتها ، ولا حتى لجنتها العسكرية السرية للغاية والتي كانت مسئولة عن العمليات الأجنبية . كل هذه الأشياء ظلت في أيدي أبو نضال بإحكام .

وعندما سقط أبو نضال مريضا ، انتقل علوش من بيروت إلى بغداد وكان يتوقع أن يتولى القيادة . ولكن هذا زاد فقط من حدة التناقضات بينه وبين بقية الجماعة السرية . ومن على سرير المرض ، استمر أبو نضال في إصدار تيار من التعليمات والمذكرات الحاسمة ، بما ذلك واحدة تتضمن الطرد الفوري لاثنين من أكثر أتباعه إخلاصا ، واللذين كانا الأساس الوحيد لحركته ، وكان أحدهما كيميائيا يدعى عماد ملحس « اسمه الشفري عمر فهمي » وكان الآخر محاسبا ، وهو صلاح عيسى « اسمه الشفري فرج » . ولما كان أبو نضال يشك في ولائهما فقد أصر ليس فقط على طردهما من المنظمة بل طردهما من العراق .

ويبدو أن هذه القرارات قد أنهكت علوش كثيرا .

فقد كان يكره وسائل أبو نضال الديكتاتورية ، والتي لم تترك له أي دور له مغزى يقوم به . وبالرغم من لقبه ، فلم يشعر أبدا بأنه مسئول . وقد كان يرتجف من ممارسات المنظمة ؛ اعتقالاتها ، وتحقيقاتها وتعذيبها والتي سمع الآن المزيد عنها . وعلاوة على ذلك ، فقد اعتقد أنه من الخطأ قتل الفلسطينيين ببساطة لأن أحدهم اختلف معه سياسيا . وقد كانت شكاواه تتزايد لبعض الوقت ولكنها الآن وصلت لأوجها عندما قرر القيام بانقلاب عسكري .

ولكن لما كان ليس ماكرا ولا حازما ، فقد فاتت علوش الفرصة وبدلا من طرد أبو نضال والقيام بأمور المنظمة بجسارة ، وهي الحركة التي كان لديها في غياب الرئيس ، فرصة طيبة للنجاح ، قرر علوش بدلا من ذلك ، الانفصال عن المنظمة

كلية . وقد أخذ مجموعة من علية القوم معه وأسس منظمة جديدة تسمى الحركة العربية الشعبية .

وفي غضون عام أو اثنين كانت هذه المنظمة قد انتهت إلى لاشيء . وبالتالي فقد سلم لأبو نضال ما تبقى من المنظمة . وقد كان معظم الأعضاء بأسفل التسلسل الهرمي يكادون يعرفون شيئا بالشجارات التي تحدث في قمة التسلسل : فقد كان علوش شخصية منعزلة ، وكان أبو نضال هو القائد الذي كانوا يتلقون منه تعليماتهم اليومية . وقد ظلوا في مواضعهم . وقد انحاز قليل من الكوادر الأكثر حنكة ، بما في ذلك بعض الطلاب الأعضاء في أوروبا إلى جانب علوش ولكن حيثما وحينما استطاع كان أبو نضال ينزل بهم الثأر . وقد تم قتل ممثله في إسبانيا ، نبيل عرنكي في أول مارس عام 1982 لأنه انحاز إلى جانب علوش .

وقد حاولت لجنة للمفاوضات الداخلية في البداية أن تسوي الأمور بين علوش وأبو نضال ، ولكن الأخير كان لا يغفر .

وقد شن هجوم على علوش ، واتهم بسرقة الأسلحة واختلاص 400,000 دولار وبأنه جاسوس للفاتيكان ، لأن إحدى الأفكار المستبدة والمستمرة التي تسيطر على أبو نضال هي أن هناك مؤامرة بابوية خطيرة تدبر في المنطقة وفي الحركة الفلسطينية على وجه الخصوص .

وقبل الأزمة ، لم يكن أبو نضال شخصية سرية تماما . فبالإضافة إلى كونه رئيس جماعة سرية فقد كان أيضا دبلوماسيا وسياسيا بصورة ما وكان يستقبل الزوار بمنزله ويتعامل مع الناس وجها لوجه . ولكن بعد الأزمة القلبية التي أصابته وانفصال علوش أصبح منعزلا . وعندما أوصى الأطباء المعالجون له بأن يتناول زجاجة من الويسكي في كل مساء بدأ يضاعف الجرعة ويضاعفها مرة أخرى حتى أصبح مدمنا للويسكي ومما لاشك فيه أن هذا أسهم في زيادة ميوله إلى الشك والانتقام . وقد أقفل بابه وشدد من الأمن . وقد أصبحت منظمته يصعب اختراقها وعملياته يصعب مراقبتها ، كما اكتشفت فتح وأعداؤه الآخرون بما في ذلك وكالات المخابرات الغربية والتي كثيرا

ما سبب لهما الغم ، وكنتيجة لهذه المضايقات كان عام 1979 ليس به نشاط تسبيا بالنسبة له .

وقد اهتز أبو نضال لانفصال ناجي علوش ، ولكنه استعاد توازنه سريعا . ومع ذلك فقد كان لايزال يسيطر على النقود والأسلحة . وكانت لجنته العسكرية محكمة وأسرارها آمنة . ولما فقد بعض متطرفي الجناح المحافظ ، انتهز الفرصة وقام باستبدالهم برجال يمكن أن يسيطر عليهم بصورة كلية ، وهم مجموعة صغيرة لديها خبرة سياسية محدودة حولهم إلى قتلة ومتعصبين . وبصورة أو بأخرى كان قادرا على احتواء ثوران علوش وإعادة الاستقرار لمنظمته .

الانتقال إلى دمشق :

بعد العملية التي أجريت له في القلب في عام 1979 ، لم يعد أبو نضال قادرا على تحمل حرارة الصيف القاسية في بغداد واعتاد على قضاء شهور عديدة من العام في بولندا حيث نقل أسرته إلى فيلا كبيرة على بعد ستين كيلو مترا خارج وارسو . ولم يتحدث بكلمة واحدة بولندية ، في الواقع ، ولم يتحدث بأي كلمة من أي لغة أجنبية ولكن أولاده ذهبوا إلى مدارس بولندية واكتسبت ابنته «بادية» طلاقة في اللغة. وقد استقر في بولندا بصورة ما بصفة دائمة بين عامي 1981 ، 1984 ، وكان نادرا ما يزور العالم العربي ويتصل برفاقه عن طريق الرسل . لقد كانت فترة نقاهة وخندقة .

وقد سمى نفسه د . سعيد ، واتخذ شخصية رجل أعمال دولي . وطوال العام الأول لإقامته في بولندا لم تعرف السلطات البولندية من هو . وكان غطاؤه شركة مقرها وارسو تسمى SAS لها فروع في برلين الشرقية ولندن ومن خلالها كان يتاجر مع الشركات البولندية المحلية . وإحدى الصفقات التي أتمتها الشركة كانت شراء أربعة آلاف بندقية نصف آلية من طراز SCORPION « العقرب » . ولما كانوا في أمس الحاجة إلى استبدال نقود أجنبية فإن البولنديين اختاروا ألا يسألوا بدقة شديدة عن الجهة التي ستذهب إليها الأسلحة .

ويرجع تاريخ علاقة أبو نضال ببولندا إلى الاتصالات التي أجراها مع السفارة البولندية في بغداد في عام 1974 . ومع تعمق نزاعه مع فتح ، استخدم الرشا

وتجارة الأسلحة لتقوية صلاته مع أوروبا الشرقية . ولفترة وجيزة كان فرج « المحاسب الذي طرده في عام 1979 » مسئولا عن العلاقات مع بولندا ، وكان يوزع الهدايا والعمولات على المسئولين ، بعضها نقدا بصورة شهرية . وفي أواخر السبعينات ، أودع أبو نضال 10 مليون دولار في بنك بولندي ، مما حسن مكانته في هذا البلد بصورة كبيرة .

وقد استقر في بولندا في عام 1981 لأنه كان لم يعد يشعر بالأمان في العراق . فقد ألحت السلطات العراقية عن تغير موقفها تجاهه بعدد من التحركات غير الودية . فقد أخبروه أنه بدءا من أول يناير 1981 لن يصدروا جوازات سفر عراقية لأعضاء جماعته ، مما نتج عنه أن حوالي 120 رجلا انتهت جوازات سفرهم قد وجدوا أنفسهم في مأزق . في نفس الوقت بدأت المخابرات العراقية في مراقبة المحادثات التي تتم بمكاتب أبو نضال في بغداد مما دفعه هو ورجاله إلى الذهاب إلى مخيم رمادى التدريبي خارج بغداد عندما كانوا يرغبون في الهروب من المراقبة المضايقة . وقد كانت هذه متاعب كبيرة .

ومن المرجح أن هذه التطورات هي التي جعلت أبو نضال في أوائل 1981 ، يأمر مساعده الحميم عبد الرحمن عيسى أن يحدث السوريين بشأن إمكانية الانتقال إلى دمشق . وبين شهري يناير ومايو 1981 ذهب عيسى خمس مرات إلى دمشق على رأس وفد صغير لإجراء محادثات متميزة مع الجنرال علي دوبة رئيس المخابرات العسكرية والجنرال محمد الخولي رئيس مخابرات القوات الجوية ، ووزير الخارجية عبد الحليم خدام . وقد أراد السوريون تفسيرا مفصلا لعمليات أبو نضال ضد سوريا بما في ذلك محاولة اغتيال خدام . وقد كانت سوريا تحتجز نصف دستة من رجاله في السجن ، بناء على ارتيابها في تورطهم في عملية تخريب في دمشق في السبعينات . وبالنسبة لدوره قام عبد الرحمن عيسى بتعنيف السوريين لتدخلهم ضد الفلسطينيين في لبنان وعلى وقوفهم موقف المتفرج بينما تحاصر الميليشيا المارونية مخيم الفلسطينيين في تل الزعتر ثم ذبحها لكثير من سكانه . ولكن في النهاية كان هناك اتفاق بأن يكون المستقبل اختبارا لنواياهم الطيبة نحو بعضهم بعضا . وقد تضمن الأمر المزيد من المصالح المباشرة .

فأبو نضال كان يحتاج لكفيل جديد وكان يأمل في أن يكون له مع سوريا نفس العلاقة الوطيدة التي كان يتمتع بها ذات مرة مع العراق . وقد أصدر تعليمات لعيسى بأن يطلب إذنا بفتح مكاتب في دمشق . وبالنسبة لدور سوريا ، كان لها هدفان أساسيان في التعامل مع أبو نضال : الأول أنها رأت فيه حليفا قويا في الحرب المريرة التي كانت تشنها في ذلك الوقت ضد الإخوان المسلمين ، وهي حرب الإرهاب الإسلامي النضالي والإرهاب المضاد للبعث والذي تطور إلى أخطر تحد يواجهه نظام الرئيس الأسد . وقد بدأ إرهابيو الإخوان المسلمين حملة تفجير القنابل والاغتيالات ومحاولة العصيان المسلح في سوريا في عام 1977 ، وكانوا يسعون وراءه بلا هوادة حتى عام 1982 في معركة نهائية دموية واقتلعهم النظام وسحقهم مع آلاف من المدنيين الأبرياء ، في وسط مدينة حماة السورية والتي حولها المتمردون إلى معقل لهم .

وفي أوائل عام 1981 ، عندما حاول عبد الرحمن عيسى التقرب إلى سوريا كانت حرب النظام مع أعدائه المسلمين في الداخل في أوج اشتعالها . وكانت علاقات سوريا مع جيرانها ، الأردن والعراق واللتين كانتا معروفتين بأنهما يمدان الإخوان المسلمين بالأسلحة والأموال والتدريب والمأوى ، طوال الوقت في أدنى مستوى لها . وكان أبو نضال يبدو في موضع جيد لإمداد المخابرات عن كل من النشطين المسلمين ومؤازريهم في عمان وبغداد وأيضا ضرب قادتهم والذين كان بعضهم يدير العمليات من أوروبا . وقد عرف أبو نضال الكثير عن الإخوان المسلمين في بغداد وقد درب بعض رجالهم بقاعدته في حط على بعد 300 كيلو متر شمال بغداد . كل هذه المعلومات كان يعرضها للتعامل مع سويا .

ثانيا : رأت سوريا في أبو نضال أداة مفيدة يمنع بها الملك حسين ملك الأردن وياسر عرفات من التعامل مع إسرائيل . فقد كان الأسد لسنوات يتنازع مع الرجلين بصدد هذا الأمر . فقد كان يخشى أنه إذا ما تفاوضت الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية على سلام منفصل مع إسرائيل سوف يتم عزل سوريا ، وتكون تحت رحمة إسرائيل من الناحية العسكرية . وقد اعتقد الأسد بشدة أن السلام الوحيد مع إسرائيل الذي يستحق الحصول عليه هو السلام الشامل ، فيه تنسحب إسرائيل من كل

الأراضي العربية التي استولت عليها في عام 1967 ، وأن الطريقة الوحيدة لجعل إسرائيل تجلس إلى مائدة المفاوضات هو أن يقف الفلسطينيون والأردن ، ولبنان خلف سوريا ويواجهون إسرائيل ككتلة متحدة . وقد شعر الأسد أن تجنيد رجل مشهور ناجح مثل أبو نضال هي طريقة لوضع ضغط على كل من قائد منظمة التحرير الفلسطينية PLO وملك الأردن لقبول قيادة سوريا بشأن هذه القضايا .

ولكن السوريين كانوا أكثر حذرا من العراقيين في تعاملاتهم مع أبو نضال . فقد احتضنه أحمد حسن البكر ، وسانده في التجارة ومنحه منفذا للتسهيلات العراقية، بينما رفض الأسد مقابلته وأصر أن تكون العلاقة في داخل حدود المخابرات ويتم استعراضها على فترات . في نفس الوقت كانت منظمة أبو نضال غير مسموح لها بممارسة نشاط سياسي علني أو الحصول على معسكرات تدريب .

وكانت حلقة الاتصال مع أبو نضال يتم المحافظة عليها عن طريق مخابرات القوات الجوية بقيادة محمد الخولي وليس المخابرات العسكرية بقيادة علي دوبة ، والتي كانت تتولى العلاقات مع كل المجموعات الفلسطينية الأخرى . ولم يتأثر الأسد بخطابات الثناء التي أرسلها له أبو نضال ، والتي ذكر فيها القائد السوري بأن والدته كانت علوية ، وعضوة في طائفة الأسد الخاصة ، وأنه لذلك يجب أن يعتبره ليس فقط حليفا ولكن قريبا .

وفي رابع زيارة له لدمشق ، قدم عبد الرحمن عيسى للسوريين ورقة عمل من صفحة ونصف موقع عليها من أبو نضال والتي تحدد الخطوط الأساسية لتفاهمهم المستقبلي . وقد وعد السوريون بالرد . وبعد ذلك بشهر وفي خامس زيارة لعيسى في ربيع عام 1981 ، تم استدعاؤه هو ووفده إلى مكتب الجنرال الخولي حيث – كما أخبر عيسى أبا نضال فيما بعد – تم استقبالهم بترحاب « قررت قيادتنا أن تكون سوريا وطنكم فمرحبا بكم في وطنكم ! » قال الخولي : « انتقلوا هنا كما وحينما يحلو لكم . ولكني أقترح أن يظل وجودكم سريا في البداية » . ودعونا نأمل أن تسير العلاقة بيننا من قوة إلى قوة » .

وفي ظل هذا المناخ الودي ، قام أبو نضال بأول زيارة له لسورية في 11 يونيو عام 1981 . ومما سبب له رضا كبيرا أنه قوبل على الحدود العراقية السورية وتم اصطحابه إلى دمشق في زيارة لمدة خمسة أيام بواسطة الجنرال الخولي .

وقد كان أبو نضال حينذاك تحت الرعاية السورية بصفة رسمية . وقد تُرك عيسى ليبحث عن أبنية مناسبة . وقد لجأ إلى أبو نضال من أجل المال لشراء مبنى مكون من خمسة طوابق في حي شعلان بدمشق . وقد انتقل عيسى إلى حجرة صغيرة في الطابق العلوي مع زوجته وأولاده ، ولشهور عديدة شاركهم أعضاء المنظمة في بقية المبنى حتى وجد لهم الجنرال الخولي شقة .

وسرعان ما أعطي عيسى الإذن بإقامة حلقة اتصال إذاعية مع مقر القيادة في بغداد . وساعده السوريون أيضا في مراقبة اتصال إذاعة فتح . وكان يُسمح لأعضاء المنظمة بحمل أسلحة خفيفة لأغراض الدفاع عن النفس . وقد تم الحصول على المزيد من الأبنية والمركبات وتم تحويل المزيد من الكوادر .

وكان هناك الكثير يجب عمله : الإدارة الداخلية ؛ الاتصالات مع السفارات العربية والأجنبية ؛ ونشر الرسالة في المخيمات الفلسطينية ، وإقامة صلات مع أعضاء المنظمة في لبنان والأردن ، وبالطبع البدء في إقامة جهاز للمخابرات . وقد تم فتح مكتب فرعي في درعا على الحدود السورية الأردنية يتم منه إدارة العملاء وتهريب الأسلحة إلى الأردن . وقد تم إرسال مجموعة من المجندين الصغار جدا ، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسابعة عشر إلى العراق للتدريب . وفي نوفمبر 1981 ، فتحت المنظمة وكالة حقيقية للعقارات كغطاء للحصول على شقق ومكاتب مناسبة ، وفي ديسمبر اشترت شاحنتين كبيرين للعمل على طريق دمشق - بغداد ومركبة بها ثلاجة تعمل على طريق عمان - دمشق ، وهي الاستثمارات التجارية التي يمكن ، عند الحاجة إليها ، أن تستخدم في أغراض أخرى . وفي نهاية عام 1981 ، كان لدى أبو نضال 120 رجلا يعملون طوال الوقت في سوريا ولبنان .

الطرد من العراق :

على الرغم من أن العراقيين لم يعجبهم تورط أبو نضال المتزايد مع سوريا فإن

علاقتهم به ثم استمرت حتى عام 1983 . وكانت عمليات القتال التي قام بها لأغراض الاغتصاب والابتزاز ضد كل من الإمارات العربية المتحدة والأردن هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير . فقد كانت الإمارات أحد الممولين للعراق في الحرب العراقية الإيرانية بينما كان ميناء العقبة الأردني قد أصبح خط الحياة لها مع العالم . ووقعت العراق تحت ضغط شديد للتخلص من أبو نضال مرة واحدة وللأبد .

وفي 4 نوفمبر عام 1983 تم استدعاء أبو نضال ، والذي كان في ذلك الوقت في زيارة قصيرة للعراق من بولندا واثنين من مسئولية الكبار للاجتماع بطارق عزيز وزير خارجية العراق . وقد رأى عبد الرحمن عيسى ، رئيس مخابرات أبو نضال المشهد واسترجعه فيما بعد لأبو إياد في استجواباته المسجلة . وقد كان عزيز جافا معهم على غير العادة ، وقال معلنا « إن قيادتنا كانت تناقش وجودكم هنا . وقد توصل الرئيس صدام إلى نتيجة مفادها أنكم أصبحتم عبئا خطيرا علينا . فأنتم لم توفوا باتفاقياتنا . ففي وقت كنا فيه منخرطين في معركة قومية هاجمتم حلفاءنا . أمام منظمتكم أسبوع واحد للإخلاء . » ثم التفت إلى أبو نضال ووخزه بأصبعه بوقاحة قائلا : « أما بالنسبة لك ، فعليك مغادرة العراق في اللحظة التي تطأ فيها بقدمك خارج هذا المكتب ! » .

وقد أثارت إهانة هذا الطرد غضب أبو نضال . ولما كان معتادا على التحامل المتعصب فقد كون بداخله كراهية مسعورة ضد طارق عزيز المسيحي المولد والذي اتهم في منشوزاته فيما بعد بأنه متحالف مع البابا لتدمير العرب .

وفي الواقع فإن أبو نضال كان متوقعا للطرد لشهور . وقد بقي بالخارج عمدا لمدد طويلة حتى لا يكون موجودا في بغداد عندما يصدر أمر بذلك . ولكن العراقيين انتظروا بمكر حتى عودته لتوجيه البيان له بصورة شخصية .

وفيما عدا التلذذ بإذلاله ، ربما يكونون أيضا قد خافوا أن يكون غائبا عن بغداد في ذلك الوقت ، وربما يكون قد أمر رجاله أن يقيموا معركة قبل الرحيل . وقد

عرف العراقيون أنه كان قادرا تماما على التضحية برجاله طالما كان هو آمنا .

وفي الحي المحيط بمعسكر تدريب رمادى كونت منظمة أبونضال أصدقاء عراقيين كثيرين ، عن طريق تقديم خدمات محلية مثل تحسين إمدادات المياه والكهرباء . وفي أيام العيد ، قد يحضر عدد كثير قد يبلغ اثني عشر ألف شخص الاحتفالات بالمعسكر . هذا هو سبب خوف العراقيين أنه إذا وصل الأمر إلى مواجهة ، فإنه بعض هؤلاء يمكن تجنيدهم وتسليحهم . وبينما كانت الحرب مع إيران مستعرة فإن حتى مجرد انتفاضة صغيرة كان يحتمل أن يحدث أضرارا بالغة بالنظام .

وسرعان ما اكتمل رحيل المنظمة . وتم بيع الأثاث من المنازل والمكاتب المختلفة . وقد تم نقل نصف الأسلحة من معسكر التدريب في شاحنات إلى سورية لتخزينها وتم إعطاء الباقي للعراق كإسهام في المجهود الحربي . وقد سمح العراقيون لأبو نضال بأن يحتفظ بمكتب صغير ، يديره كادران صغيران ، لتولي الأمور الخاصة بالأعضاء المحتجزين في سجون العراق وأسر الرجال الذين ماتوا هناك في أثناء خدمتهم للمنظمة .

وبعد طرده خارج العراق ، كان لدى أبو نضال شجاعة كافية ليشكو بأن العراق مدين له بـ 50 مليون دولار تعويضا عن الممتلكات التي تنازل عنها ، بالرغم من أنها كلها في الواقع قد تم شراؤها من أموال العراق . في العديد من البلاغات الرسمية ، من عام 1983 إلى عام 1987 واصل أبو نضال وأبلا مستمرا من الطعن ضد بغداد على أساس الأموال التي ادعى أنها « تدين » له بها . وكان صحيحا أنه أصلح قطعة كبيرة من الأرض في خط ، في الشمال والتي أعطاها له العراقيون . وقد علق أحد أعضاء مجموعته قائلا لقد كانت على وشك أن تصبح أفضل قطعة أرض مستصلحة في البلد بأكمله ! » ومع ذلك ، فلسوء الحظ أنه عندما استعادها العراقيون وجدوا إضافة إلى التحسينات ستة وعشرين جثة مدفونة تحت أشجارها ، البقايا المروعة لهؤلاء الأعضاء الذين قتلهم .

الاندماج في سوريا :

جعل الطرد من العراق منظمة أبو نضال تركز اهتمامها وآمالها على سوريا . وتدفق

الأعضاء على سوريا ، بعضهم بإذن من مخابرات القوات الجوية ومعظمهم تحت اسم مستعار في شخصيات عرب عاديين يريدون الإقامة هناك . والأعضاء الذين كانوا في سنوات التوتر مع العراق قد تفرقوا في أوروبا الشرقية، أقاموا الآن منازل مع عائلاتهم في دمشق .

في البداية ، قرر السوريون أن المنظمة يمكنها استئجار عدد محدود فقط من الأبنية ولكن تلك القيود سرعان مازالت . وكان تكتيك أبو نضال هو الحصول على شقق كمساكن خاصة ثم يحولها بعد ذلك إلى مكاتب .

وقد تم كل شيء في سرية تامة . فلم توضع إشارة أو حارس على الباب .

وأخيرا ، بدأ شراء المنازل والشقق ، وكان غالبا ما يسجلها بأسماء زوجات أعضاء مجموعته . وبهذه الطريق كان حوالي أربعين مكتبا وحوالي مائة شقة آمنة ، وأيضا عدد من المزارع المترامية الأطراف وربما لأنه نشأ كابن مزارع برتقال في يافا فقد فضل أبو نضال الممتلكات الريفية . وبرغم أن الأمن السوري راقب بعض هذه الأنشطة فإنه لم يستوعب مقياسها .

ومقر القيادة الأساسي للمنظمة في حي شعلان بدمشق تم توسيعه ليضم سجنا ، وهو عبارة عن وحدة فنية مسئولة عن تزوير جوازات السفر ومستندات أخرى ، ومكاتب إدارة المخابرات حيث يتم إخفاء الأسلحة في تجاويف في الجدران أو تحت الأرض . وأتاحت دائرة تليفزيونية مغلقة مراقبة دائمة للشوارع المحيطة . بالإضافة لذلك ، تم شراء مطبعة يتم عليها طباعة مذكرات ومجلات ؛ ومكتب سفريات ، تم امتلاكه سرا ، كان يحجز رحلات للأعضاء ويصدر تذاكر طيران ؛ ومكتب عقارات يعتني بمصالح أبو نضال العقارية الممتدة ؛ ووكالة أنباء تسمى بدار صبرا ، والتي كانت تمثل جبهة لاجتماعات المخابرات . ولكن في هذه المرحلة ، لم يسمح السوريون للمنظمة بفتح معسكر تدريب ولا أن يقدموا بأسلحة ومخازن عسكرية . « وكان هذا عكس معاملتهم مع فصائل فلسطينية أخرى ، وخاصة القيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بزعامة أحمد جبريل والتي سُمح لها ببناء مؤسسة عسكرية

كبيرة ، ولم يزود السوريون أبو نضال بأي أموال أيضا . وإن كان هناك شيء فعله السوريون ففي الاتجاه المعاكس . ولتسهيل دخوله إلى سوريا رتب أبو نضال لإعطاء هدايا لضباط ومسئولين سوريين في مناصب مرموقة عبارة عن سيارات ومسدسات مزخرفة وأن يتم الترويح عنهم بسخاء في أفضل الفنادق .

وفي أثناء الوقت الذي كان يعيش فيه أبو نضال في بولندا ، هذا الامتداد إلى الحياة السورية كان يشرف عليه عبد الرحمن عيسى رئيس المخابرات .

وكما رأينا ، فإن سوريا كانت مهتمة باستخدام أبو نضال في الداخل ضد الإخوان المسلمين وفي الخارج ضد الملك حسين وياسر عرفات واللذين أثارت مبادراتهما على ما يسمى بجبهة السلام أعصاب الأسد . ولكن بحلول ربيع 1982 لقي الإخوان المسلمون الهزيمة ولم يعد هناك حاجة لخدمات أبو نضال ضدهم . وأصبح الهدف الرئيسي الملك حسين ملك الأردن .

وبتشجيع من سوريا شن أبو نضال حربا إرهابية ضد الأردن لمدة حوالي عامين من أكتوبر 1983 إلى صيف 1985 . وهي الخدمة الجوهرية الوحيدة التي قدمها إلى السوريين .

الحرب السورية ـ الأردنية :

كانت هناك جدائل كثيرة للنزاع بين الرئيس الأسد والملك حسين ولكن اثنين منها يستحقان الذكر . فقد غضب الأسد من الدعم الذي قدمته الأردن لإرهابيي الإخوان المسلمين في حربهم ضد دمشق من عام 1977 إلى عام 1982 والذي كان في شكل أموال ، تسهيلات للتدريب ومأوى آمن . ومع ذلك فبحلول الفترة من عامي 1983-1985 كان الموضوع الأساسي لخلافه مع حسين بشأن استراتيجية المواجهة مع إسرائيل وبخاصة الخلاف على كيفية استعادة الأراضي العربية التي استولت عليها إسرائيل في عام 1967 . وقد اعتقد الملك حسين أنه في مقدوره أن يسترد على الأقل بعضها من خلال المفاوضات مع إسرائيل ، والتي فيها سوف يمثل الفلسطينيين ونفسه . وكانت وجهة نظر الأسد هي أن جبهة عربية صلبة فقط ، تضم

سوريا ، هي التي يمكن أن يكون لديها فرصة لإخضاع إسرائيل . وإذا غامر حسين في المفاوضات بمفرده ، فإن الأردن سوف يتم التهامها وسيضعف ذلك المعسكر العربي بأكمله بصورة كبيرة .

ولهذا الجدل الخاص تاريخ طويل . فقد حارب الأسد حرب أكتوبر 1973 مع السادات على أمل تخفيف قبضة إسرائيل عن الأراضي المحتلة وإجبارها على الجلوس إلى مائدة المفاوضات . ولكن إسرائيل كان لها اليد العليا ، فهزمت مصر بصورة حاسمة حتى إن السادات كان هو الذي اضطر إلى توقيع اتفاق سلام منفصل تاركا سوريا وجيرانها لبنان والأردن والفلسطينيين معرضين لبطش إسرائيل . ومن ذلك الحين فصاعدا كان اهتمام سوريا ينصب على منع إسرائيل من تفريق عدد اللاعبين القليل وتسييرهم في فلكها . لو أن سوريا استطاعت أن تمد نفوذها على اللاعبين لكان ذلك أفضل بكثير . شعر بذلك الأسد .

ولسنوات وقع حسين تحت ضغط إسرائيلي مستمر لحل مشكلة فلسطين في مفاوضات مباشرة . وكانت إسرائيل تسعى لتقدم لحسين وظيفة الشرطي على الفلسطينيين في الأراضي المحتلة بينما تحتفظ بالسيادة لنفسها مع سيطرتها على الأرض ، والمياه ، والأمن . وكانت استراتيجية حسين المضادة هي الضغط من أجل اتحاد فيدرالي أردني - فلسطيني والذي شعر أنه سيقدم لإسرائيل الأمن الذي تحتاجه بينما يتيح مخرجا ضروريا للطموحات الفلسطينية القلقة .

في عام 1983 بدأ حسين محاولة إقناع عرفات بأن يدعه يتحدث إلى إسرائيل نيابة عن كليهما ، ليمهد الأرضية ، وقد أطلق الملك سراح الفلسطينيين من سجونه وعقد اجتماعات متكررة مع عرفات ، ورفع خطته إلى لندن وواشنطن واستعاد العلاقات الدبلوماسية مع مصر والتي تم قطعها في وقت كامب ديفيد .

وهكذا ثارت أسوأ مخاوف الأسد ، أطلق أبو نضال رجاله ضد الأردن . وكان السوريون حريصين على البقاء في الخلفية ، حيث كانوا لا يرغبون في التورط بوضوح في الإرهاب . ولم يوافقوا على التخطيط المشترك مع أبو نضال ، ولا هم أعطوه

تعليمات صريحة لضرب أهداف محددة وإنما هم فقط قدموا مقترحات ، تاركين الباقي له هو . ومع ذلك ، فقد كانت وظيفته أن يشتم من يكرههم السوريون أكثر في أي لحظة . ولهذا السبب ، فإن أبو نضال قام بعملياته تحت أسماء مستعارة مختلفة . ثم انتظر ليرى : فإذا كان رد فعل السوريين في صالحه يعترف بأن العملية من تنفيذه ، أما إذا كان رد الفعل سلبيا فيمكنه أن ينكر صلته بها بسهولة .

وسرعان ما ظهرت نتائج جهوده في عرض مخيف للناريات والذي حرك شبكته العريضة لمخابئ الأسلحة ، الأفراد الكامنين ، والمقيمين ، والقتلة .

وفي أكتوبر 1983 ، تم اغتيال السفير الأردني في نيودلهي وتم جرح نظيره في روما في هجومين نارين منفصلين ؛ وفي نوفمبر تم قتل مسئول أردني وأصيب آخر إصابة خطيرة في أثينا ، ووجدت ثلاثة أجهزة متفجرة وتم نزع فتائلها في عمان ؛ في ديسمبر تم قتل مسئول قنصلي أردني وجرح آخر في مدريد . وفي مارس 1984 انفجرت قنبلة خارج فندق إنتركونتيننتال في عمان ، وفي نوفمبر من نفس العام نجا القائم بالأعمال الأردني في أثينا بأعجوبة من إطلاق نار عليه عندما تعطل مسدس مهاجمه . وفي ديسمبر ، تم إطلاق النار على القنصل الأردني في بوخارست . وفي أبريل عام 1985 كان هناك هجوم على السفارة الأردنية في روما وعلى طائرة أردنية في مطار أثينا . وفي يوليو تم إطلاق نيران المدافع الرشاشة على مكتب عالية بمدريد وفي أنقرة تم إطلاق النيران على السكرتير الأول للسفارة الأردنية .

وكانت هذه العملية الأخيرة مكلفة بصورة خاصة لأبو نضال . فقد اتحد الأتراك والأردنيون وجمعا مخابراتهما وسحقوا شبكاته في كلا البلدين . وقد تم طرد ستة عشر فلسطينيا معظمهم أعضاء في منظمته من تركيا .

ولم تنج سوريا بدورها من الانتقام ، بالتأكيد من المخابرات الأردنية . في ديسمبر 1984 ، تم مهاجمة ملحق سوري في أثينا ولكنه قاد سيارته ونجا من مهاجمه . وفي أبريل 1985 تم تفجير مكتب الخطوط الجوية العربية السورية في روما وأصيب ثلاثة

موظفين ؛ وكانت هناك أيضا محاولة لقتل دبلوماسي سوري في جنيف . وفي مايو تم إطلاق النار على نظيره في الرباط بينما تم نزع قنبلة خارج السفارة السورية في لندن في شهر يونيو . وفي شهر يوليو انفجرت قنابل في سيارة كبيرة في دمشق خارج مكاتب وكالة أنباء سوريا العربية ووزارة الداخلية مسببة عشرات الضحايا . وبالطبع لم يعترف الأسد وحسين بأنهما يشنان حربا إرهابية ضدّ بعضهما بعضا ولكن عندما ذاعت خلافاتهما كان الأمر واضحا .

وفي منتصف 1985 قرر حسين أن الوقت حان لعقد الهدنة . ولإرضاء الأسد ، اعترف حسين علنا بالمساعدة التي قدمتها للإخوان المسلمين وتخلى عن أي خطط للوصول إلى تسوية جزئية أو منفصلة مع إسرائيل. بل لقد زار حسين الأسد في ديسمبر 1980 في أول زيارة له لسوريا من عام 1979 وفي إطار هذا التصالح الأخوي أوضح السوريون لأبو نضال أن الأهداف الأردنية خارج الحدود. وبذلك وضع خط أحمر مانع . ومثل العراق من قبل فقد حذرت سوريا أبو نضال من شن عمليات على السعودية تحت أي ظرف من الظروف لأن دمشق لم تكن تستطيع أن تسيء إلى أحد أهم مساعديها ولذا فلم تحدث أي هجمات ضد أهداف سعودية خلال وجود المنظمة في سوريا .

ولكن كما أظهر عبد الرحمن عيسى لأبو إياد في استجوابه المسجل فقد تمكن السوريون من أن يجعلوا أبو نضال يقوم بخدعة على السعوديين . وكما أوضح عيسى : « وفي إحدى المناسبات طلب السوريون من المنظمة تهريب كمية من الأسلحة والمتفجرات إلى السعودية ودفنها في بقعة مناسبة وتسليم خرائطها إلى السوريين . وبمجرد أن تستقر الأسلحة في مكانها ولإظهار الاهتمام بأمن السعودية فإن السوريين أخبروا الرياض أن مخابراتهم قد اكتشفت مخططا تنظمه جماعة من الأصوليين لتنفيذ عملية تخريبية في المملكة وها هي ذي الخرائط التي تظهر الموقع الدقيق لهذه الأسلحة وياللمفاجأة لقد وجد السعوديون الأسلحة وكافئوا جيدا السوريين من أجل هذه الإخبارية .

استنزاف الأغنياء :

أثناء عمله مع سوريا عمل أبو نضال أيضا لحسابه الخاص وذلك لإعادة ملء خزائنه ولكن لم تكن سوريا الممول الغني الذي يمكن أن يضع ملايين الدولارات في طريقه لأن وجهة النظر السورية كانت أن مجرد أعطائه مأوى أو منزلا هو مكافأة مناسبة ولذلك فبواسطة العنف أو مجرد التهديدات بالعنف أبتز أبو نضال المال من إمارات البترول في الخليج .

ولم يكن هناك أي مصلحة فلسطينية في هذا الابتزاز وتحول الوطني الأعظم إلى لص قاطع طريق .

وكان من المعروف عن الشيخ زايد بن سلطان حاكم أبو ظبي منذ عام 1966 وأول رئيس للدولة الإمارات المتحدة مساهماته السخية لجميع القضايا ومن بينها القضية الفلسطينية ولكن ذلك كان لأبو نضال مصدر إحباط مستمر لأنه لم يستفد من سخاء الشيخ ولم يكن ذلك غائبا عن الشيخ زايد لأن أحد رجال أبو نضال كان قد اغتال وزير داخلية الإمارات سيف الغباشي ، في مطار أبو ظبي في أكتوبر 1977 ، وكان الهدف الحقيقي هو وزير خارجية سوريا عبد الحليم خدام الذي كان واقفا بجوار غباشي ولكن هذا لم يوقف غضب الشيخ زايد الشديد . وقد بذل أبو نضال محاولات متكررة لإخافة الشيخ واضطراره للدفع ولكن لافائدة فقد رفض الشيخ زايد أن ينقاد . وكان أسلوب أبو نضال جافا مباشرا حيث كان من عادته أن يرسل رسائل تهديد مسجلة بصوته إلى حكام الخليج ، ويمكن في البداية أن تكون الرسائل متمدنة فمثلا : « نحن حركة ثورية هدفنا القتال ضد الصهيونية والإمبريالية ونحن نعلم أنكم تعطون أموالا للخونة من منظمة التحرير الفلسطينية ونطلب منكم أن تعطونا أموالنا أو على الأقل نصيبا من أموالهم وإذا لم تطيعوا في خلال ستة أشهر فسوف نعتبركم أعداءنا ونتخذ إجراءات تبعا لذلك .

وإذا لم تكن هناك استجابة فإن اللهجة تصبح أكثر تهديدا والرسالة أكثر وضوحا : « سوف أقتلك . سوف أخطف أطفالك وأمراءك سوف أنسفك » .

وعندما لم يخضع الشيخ زايد لجأ أبو نضال للإرهاب وفي يوم 23 سبتمبر 1983 تحطمت طائرة بوينج 737 تابعة لطيران الخليج في رحلة من كراتشي لدبي ، في منطقة صخرية تبعد 50 كم عن مطار أبو ظبي وراح ضحيتها المسافرون البالغ عددهم 111 والطاقم . وبعد بضعة أيام تلقت وكالة صحفية في باريس مكالمة تليفونية ممن قال إنه نائب عن « الفصائل العربية الثورية » متحملا مسئولية التفجير. وقد أكد لي أحد الخارجين عن منظمة أبو نضال أن المنظمة قد وضعت قنبلة على متن الطائرة وأن « الفصائل العربية » هي مجرد خيال اخترعه أبو نضال لتلك المناسبة .

وفي الثامن من فبراير 1984 أطلق قاتل منفرد النار على سفير الإمارات العربية المتحدة في باريس ، خليفة أحمد عبد العزيز الذي كان بجميع المقاييس رجلا ممتازا ووطنيا خارج شقته بقرب برج إيفل . ومرة أخرى أعلنت « الفصائل العربية الثورية » مسئوليتها عن الحادث وقد قامت « المنظمة » بعملية أخرى في 25 أكتوبر سنة 1984 عندما أطلق النار على القائم بأعمال الإمارات العربية المتحدة في روما محمد السويدي في سيارته وقد أصيب بجروح خطيرة بينما قتلت صديقته الإيرانية التي كانت تجلس بجانبه .

وبالنسبة للإمارات كانت هذه هي نقطة النهاية . وقد أخبرني أبو إياد الذي كان عمله يقتضي أن يكون مطلعا على مثل هذه المسائل أن الشيخ زايد تحت الضغط الشديد الناتج من هذه الهجمات الإجرامية قد وافق أخيرا على أن يدفع لأبو نضال سبعة عشر مليونا من الدولارات على ثلاث دفعات : عشرة ملايين دولار ؛ خمسة ملايين دولار ؛ مليونا دولار .

وقد اعتبر أبو نضال الكويت إحدى محطاته الهامة ليس فقط لأن بها عددا كبيرا من الفلسطينيين ولكن أيضا لأنه بدأ في تحويل مبالغ كبيرة من النقود إلى البنوك الكويتية عندما كان يخشى أن تحاول الحكومات الغربية تجميد أرصدته في أوروبا . ولحماية مصالحه في الكويت لجأ أبو نضال إلى طريقته المعتادة ، بوضع الضغط الجسدي على السلطات الكويتية . وفي مايو 1982 قبض على اثنين من زملائه بتهمة جلب كميات كبيرة من المتفجرات من العراق وحكم عليهم بمدد سجن طويلة .

وفي الرابع من يونيو قتل السكرتير الأول في سفارة الكويت في نيودلهي وأعقب ذلك في 16 سبتمبر اغتيال السكرتير الأول في السفارة الكويتية في مدريد وفي نفس اليوم حدثت محاولة غير ناجحة لقتل القنصل العام الكويتيون في كراتشي .

وليجنبوا أنفسهم مثل هذه الآلام بدأ الكويتيون محادثات سرية مع أبو نضال ووافقوا على دفع معاش شهري له بل وقد سمح له بإبقاء ممثل خاص سري ليراقب ودائعه ويقوم بأعمال المخابرات . وتبعا لمصادري فإن آخر من تولى هذا المنصب في أواخر الثمانينات شخص يدعى نبيل عثمان « الاسم الشفري حمزة إبراهيم » .

ووقتما حاول الكويتيون أن يصلبوا موقفهم ويقبضوا على أو يطردوا أحد زملائه فإن أبو نضال كان يذكرهم بما يستطيع أن يفعل . ففي الثالث والعشرين من أبريل 1985 أفلت أحمد الجار الله رئيس تحرير صحيفتي السياسة وأراب تايمز الكويتيتين اليوميتين ، بأعجوبة عندما فتح عليه النار مسلح خارج مكتبه . ومرة أخرى أعلنت الفصائل العربية الثورية المراوغة مسئوليتها عن الحادث . وبعد أقل من ثلاثة أشهر في الحادي عشر من يوليو نسفت نفس « الفصائل » مقهيين في مدينة الكويت وكان يشرف على المقهيين ويرعاهما تماما عائلات كويتية لا فلسطينية وقد قتل في هذا الحادث تسعة أشخاص وجرح تسعة وثمانون شخصا . وكان ذلك مثالا آخر على استخدام الإرهاب بغرض الابتزاز وكان من المؤكد أن ذلك لن يحسن العلاقات الكويتية الفلسطينية .

التمرد في فتح :

في أوائل عام 1980 انضم كادر قديم ميز نفسه على الجانب العسكري من المنظمة إلى رئيس مخابرات أبو نضال عبد الرحمن عيسى في دمشق . وكان اسمه مصطفى مراد « الاسم الشفري أبو نزار » . كان رجلا طويلا أصلع ذا وجه مستدير وبشرة بيضاء وأسلوب مؤدب مبهج ، وقد ترقى بسرعة ليصبح نائب أبو نضال . وكانت الأوامر الصادرة له من أبو نضال هي أن يبدأ في إدخال عناصر من سوريا إلى لبنان لإقامة قاعدة مستقلة هناك وفي البداية كان ذلك يتم بأعداد صغيرة وبعناية كبيرة لأن لبنان كانت معقل منظمة فتح .

ولو أن أيا من رجال أبو نضال قد اكتشف هناك لكانت النتيجة هي إعدامه ولهذا السبب فإن الاختراقات الأولى تمت تحت جناح حزب لبناني صغير كان أبو نضال قد صادقة وكان يسمى حزب الحركة الاشتراكية وكان جناحا مسلحا ماركسيا وأحد الجماعات المحاربة المتعددة التي ظهرت في حرب « لبنان للجميع » . « كان زعيمه هاشم علي محسن يُفترض أن يموت في مستشفى بلغاري سنة 1988 » . ووافق الحزب على إعارة اسمه لرجال أبو نضال وأعطاهم إدارة معسكره في وادي البقاع .

وكان الغزو الإسرائيلي الثاني في يونيو 1982 بمثابة حجر ضخم ألقي في مستنقع المياه الفلسطيني حيث كسرت سيطرة منظمة فتح على لبنان وتم طرد وتشريد قواتها . وبحلول 1983 وجد آلاف الرجال أنفسهم مشردين في وادي البقاع أو حوله وفي مخيمات اللاجئين الجنوبيين . وفي جميع أنحاء البلاد دفنت العائلات الفلسطينية موتاها وكافحت من أجل بناء البيوت التي دمرها القصف الإسرائيلي . كذلك أصبح الغزو الإسرائيلي مصدر تهديد كبير لسوريا التي كانت في أشد الحاجة لحلفاء لصد الغزو الإسرائيلي وتقدمه . وكانت هذه فرصة أبو نضال حيث تدافع رجاله إلى لبنان من سوريا وبأعداد ضخمة ليقيموا معسكراتهم بأسمائهم وهكذا بدأت المنظمة تعلن عن نفسها بعد خروجها من الشرنقة السرية التي غلفت بها نفسها في العراق .

وحينئذ وقع حدث آخر كان ذا أهمية وفائدة لأبو نضال ، حيث قامت بمجموعة من ضباط فتح المتمركزين في لبنان وسوريا بالتمرد على عرفات في ربيع سنة 1983 ، وتكونت المجموعة من ثلاثة عقداء هم أبو موسى ، أبو صالح ، أبو خالد العملي ، الذين أثارهم قرار عرفات بإخلاء بيروت بدلا من الاستمرار في محاربة إسرائيل « سبتمبر 1982 » ، كذلك لم يقبلوا الحماية التي منحها عرفات لعدة ضباط « جبناء » فشلوا في المعركة . وكان أحد هؤلاء هو العقيد إسماعيل ، قائد قوات فتح في جنوب لبنان الذي عندما دخلت إسرائيل ركب سيارته وابتعد بها إلى وادي البقاع بدون حتى أن يخبر قواته . وبدلا من محاكمته عسكريا ، فإن عرفات قد منحه ترقية .

ولكن خلف هذه المواضيع المحددة كان هناك النزاع القديم الذي قسم فتح منذ 1974 : « الكفاح المسلح » أمام « الدبلوماسية » . وقد كان المتمردون يشكون في تلاعب عرفات بخطط السلام وكان المطلوب هو : طرد الضباط « الجبناء » ، مشاركتهم في الحكم ، إعادة المقاتلين الفلسطينيين إلى لبنان ، والتسليم بالكفاح المسلح بدلا من التسوية الدبلوماسية .

وعندما هاجم المتمردون مخازن أسلحة منظمة فتح « مايو – يونيو 1983 » في شرقي وادي البقاع واستولوا على خطوط التموين القادمة من سوريا أسرع عرفات بجمع مؤيديه ولكن رئيس سوريا « الأسد » الذي لم يكن يحبه أو يثق في خططه التي يرتبها مع الملك حسين ، ألقى بثقله وراء المتمردين . وهنا اتهم عرفات سوريا بالتحيز ، وعليه فقد طرد من سوريا في 24 يونيو 1983 في حركة عمقت الشرخ بين الأسد وعرفات وموضحة طموح الأسد في وضع مفتاح حل القضية الفلسطينية في يد منظمة تحرير مستقلة .

وفي ذلك الوقت كان أبو نضال قد بنى قوة لايستهان بها في وادي البقاع لتحارب مع القوات المتمردة على فتح ضد القوات الموالية لعرفات . وباستدعائه لمرتزقه من سوريا ، ساهم في وضع نهاية درامية في ميناء طرابلس لعرفات في ديسمبر 1983 والتي خرج فيها عرفات من لبنان كلها بسبب القصف المدفعي الشديد من المتمردين والقوات المتحالفة معهم . ولمكافأة أبو نضال على هزيمة عرفات سمح السوريون له بإقامة وجود رسمي في جنوب لبنان والعمل في وادي البقاع .

وكان مركز منظمة أبو نضال في دمشق مرتفعا جدا حيث منحت كل التسهيلات مع بقاء مخابرات القوات الجوية كوسيلة اتصال أساسية للمعاملات السورية ، وكانت الوصلة بين هذه المخابرات تسمى « العلاقة الأساسية » ومنح لها اهتمام خاص جدا . وتولى مسئوليتها أحد أبناء أخي أبو نضال ، عبد الكريم البنا « الاسم الشفري حسام مصطفى » وهو خريج من جامعة بغداد ، كلية القانون والسياسة .

وبسرعة أصبح أعضاء منظمة أبو نضال قادرين على الطيران إلى ومن دمشق بمجرد

إرسال تلكس من مخابرات القوات الجوية ، بينما كان على باقي المجموعات الفلسطينية أن تحصل على إذن من « الضبطية الفدائية » وهو قسم في المخابرات العسكرية معروف بصرامة تعامله مع شئون المرتزقة .

وبالنسبة للانتقالات البرية بين سوريا ولبنان فقد أعطت مخابرات الخطوط الجوية للمنظمة اثنتي عشرة سيارة تحمل لوحات رسمية والتي سهلت للأعضاء التنقل عبر الحدود بدون أي رسميات سوى إعطاء أسمائهم الشفرية بينما كان على أعضاء المجموعات الأخرى أن يبرزوا بطاقات الهوية الأصلية الموجود عليها صورهم .

وكان هذا النظام الهين سهل الاستغلال وقد استغله أبو نضال تماما حيث أثبتت السيارات المهداة من مخابرات القوات الجوية أنها سلاح فعال حيث استخدمت لنقل عشرات الأفراد المختطفين أو المقبوض عليهم إلى لبنان ، رغما عن إرادتهم وبدون علم السوريين ، إلى وادي البقاع حيث يقتلون ولو سألت عنهم عائلاتهم أو أجرى السوريون استفسارات عنهم قالت لهم المنظمة إنهم أرسلوا في مهمة إلى الخارج . وإذا رفض أحدهم الذهاب بهدوء فإنه يخدر ويرسل إلى لبنان في مؤخرة أية سيارة . وفي إحدى المناسبات قتلت المنظمة ضحاياها في سوريا ودفنتهم في إحدى المزارع هناك . أما السيارات العائدة من لبنان فكانت تستخدم لتهريب الأسلحة إلى داخل سوريا في فراغات خاصة . ولم تثبت التفتيشات الروتينية السورية على الحدود أي شيء .

وكان الأعضاء المختارون للسفر للخارج للقيام بعمليات ينقلون إلى لبنان في سيارات مخابرات القوات الجوية ، ثم يعادون ويرسلون في مهمتهم من مطار دمشق . ولو قبض عليهم بالخارج لوجد خاتم سوري في جوازات سفرهم يوضح أن دمشق كانت ميناء المغادرة . وعند استجوابهم فإنهم يعترفون بأنهم دربوا في وادي البقاع مما يوحي بأنهم كانوا تحت قيادة سورية ، وعلى أية حال فإن سوريا هي التي تلام . وكانت سياسة أبو نضال تقوم على التشبث بالدولة المضيفة ، وعرض خدماته بحيث يبدو أنه لا غنى عنه ، ثم يوحي بأنها مشتركة معه في أعمال العنف وبهذا يصبح في الإمكان ابتزازها بعد ذلك . وكان يقول بالفعل « لو خنتموني فسوف أعترف بكل شيء » .

وقد استفاد أبو نضال من تمرد فتح واستفاد كذلك من أنصار التمرد حيث بدأ قادة الانقلاب في الانقسام فيما بينهم بعد فوزهم وكان أبو نضال قد التقى بالعقيد أبو خالد العملي في براغ ، قبل شهور من حدوث التمرد وأعطاه نصف مليون دولار وناقش معه خططا لقلب عرفات . واتفقا على تكوين قيادة مشتركة يظهر فيها أبونضال للصدارة ، ولكن العقيد أبو موسى لم يعلم أي شيء عن هذه الترتيبات ولم يكن على أية حال يريد أن يرتبط بما يمكن أن يعتبر حركات إرهابية . ولضيقه من هذه الصراعات ، ذهب أبو صالح أحد المرشحين للقيادة ، إلى بيروت وابتعد عن السياسة وانسحب من النزاع .

وفي هذه الأثناء ، وبينما تصارع العقداء ، كان عدوهم المشترك عرفات أبعد ما يكون عن النهاية . فقد طرد من بيروت بواسطة الإسرائيليين ، ومن دمشق بواسطة السوريين ومن جنوب لبنان بواسطة متمردي منظمة فتح ولكنه تمكن من الحفاظ على حريته والقيام بمناورات لتوثيق صلته بمصر والأردن . أما في المناطق المحتلة فقد ظل هو المثل الأعلى للوطنيين الفلسطينيين . وكلما حاول التمرد أن يحط من قدره ، فإنه يبدو كخطة سورية ، وبالتالي يقل الدعم الشعبي للتمرد . وفي الوقت المناسب انهار التمرد المضاد لعرفات . فلقلة النقود والتنظيم والقيادة الواعية فشل التمرد في أن يصبح نقطة فلسطينية فعالة .

وهنا كانت فرص أبو نضال لملء الفراغ ؛ فقد كان لديه السلاح وكان لديه النقود حيث كان يستطيع أن يدفع حتى بالدولار ، وكان لديه تسهيلات المخابرات الجوية السورية التي منحته حرية كبيرة في الحركة . كما أن الرجال الذين ارتدوا من صفوف عرفات إلى صفوف المتمردين على فتح قد ارتدوا مرة أخرى وانضموا إلى صفوف بمجموعة أبو نضال ومن ضمنهم عدة مئات من خيرة مقاتلي أبو صالح .

وكثير من هذه التغيرات حدثت في تلقائية تحت ضغط الأحداث بينما كان أبو نضال في بولندا . ولم ينظر أبو نضال إلى هذه التغيرات بحماس كبير . فهو لم يكن ليخرج إلى العراء المفتوح . بل وأكثر من ذلك فإن بعض الرجال الجدد الذين التحقوا به في هذه الفترة لم يكن لديهم أي اعتبار لوسائله الإرهابية أو روابطه مع

مخابرات الدول العربية ولأنهم كانوا في مرمى إطلاق النار الإسرائيلي فلم يمكنهم أن يروا أي فائدة في عملياته الإرهابية في أوروبا أو في مجالات أبعد من ذلك .

ولكي يتابع ما يحدث ، زار أبو نضال سوريا عدة مرات خلال 1984 بدون معرفة السوريين حيث دخل البلاد ببساطة باسم مزور وبواسطة جواز سفر ليبي . وبسبب حسن العلاقات بين سوريا وليبيا في ذلك الوقت كان من الممكن لحاملي جوازات السفر الليبيين دخول سوريا بدون أية أسئلة ، أو ربما أن السوريين كانوا يفضلون ألا يعرفوا .



الفصـــل الســـابع

الصديق الحميم للعقيد



الصديق الحميم للعقيد

في يوم بارد وضاء من أيام شهر فبراير 1984 م كان اثنان من العرب يتجاذبان أطراف حوار خاص أثناء تناول الغذاء في فندق بـ « بصوفيا » عاصمة بلغاريا . كان أحدهما فلسطينيا ، رجلا نحيلا ، ذا بشرة داكنة ، يسير بعرجة خفيفة ، ناتجة عما قاساه من ضرب في السجون الأردنية عام 1970 م . كان هذا هو « عبد الرحمن عيسى » الذي خدم طويلا كرئيس لاستخبارات أبو نضال . وكان الثاني رجلا طويلا أنيقا ، ليبيا شديد الذكاء ، « إبراهيم البشاري » ، رئيس جهاز الاستخبارات الخارجية للقذافي » « وفي وقت كتابة هذا الكتاب أصبح وزير خارجيته » . كانا قد حضرا من أجل التمهيد للقاء بين رئيسيهما .

لم يكن « أبو نضال » و « القذافي » قد تعارفا شخصيا بعد ، بيد أنه كان بينهما تعاملات لسنوات ، وكانت العلاقة بينهما قد عرفت عددا من البدايات غير الطيبة . ومع ذلك ، كانت المسألة مسألة وقت قبل أن ينجذب هذان الرجلان ، المتمردان على السياسة العربية ، واللذان عاشا في ظل قوانينهما الخاصة ، كل منهما إلى الآخر . كان بينهما الكثير من الأمور المشتركة ـ كالشك في العالم الخارجي المصاحب للخلل العصبي ، وكمركب الشعور بالدونية ـ فضلا عن أن كلا منهما كان يشعر بأنه رجل ينتظره مصير عظيم . فالقذافي ، وهو حاكم لحفنة من القبائل الصحراوية على شاطئ البحر المتوسط ، قد اقتنع بأنه ولد ليترك بصمته على التاريخ العربي . « ولقد سمعته في مقابلة تمت في نهاية السبعينيات وهو يقول إن نموذج المجتمع الذي رسمه في « كتابه الأخضر » ، وهو مجلد صغير للماركسية المحرفة ، يتعين أن يكون في خدمة البشرية » . أما « أبو نضال » فمخرب محترف ، جعل من التخريب شغله الشاغل من أجل تحدي النظام ، فهو يرى نفسه الزعيم الطبيعي لثورة العالم . وقد كان الرجلان يخفيان خلف الهدوء المعتاد لهما ، والمظهَر الخارجي المتحفظ ، عدوانية بالغة مستعدة على الدوام كي تثب .

ألقاء العقول :

سافر « أبو نضال » من « وارسو » إلى « طرابلس » يصحبه « عيسى » الذي كان « أبو نضال » يثق فيه كثيرا ، وكان هذا في مايو 1984 من أجل الالتقاء لأول مرة مع « القذافي » . حدث اللقاء في خيمة عربية ، ذات ألوان متعددة أقيمت بشكل غير متوائم مع ما حولها من عنابر جنود وغرف حراسة بمعسكر « باب العزيزية » التي يقع فيها مكتب وغرفة الاستقبال الخاصة بالزعيم الليبي . استغرقت مباحثاتهما عدة ساعات . لقد كان اجتماع عقول متشابهة .

لقد كان جنون « القذافي » ، وإحساسه بأنه محاصر بأكثر من المعتاد حادا في هذا الوقت ، فقبل بضعة أسابيع قام أحد رجال الأمن المتواجدين في المكتب الشعبي الليبي في « لندن » بإطلاق النار بطريقة جنونية من شباك في الدور الأول على مظاهرات معادية « للقذافي » فقتل شرطية بريطانية شابة تدعى « إيفون فلتشر » ، « Ivonne Fletcher » . قامت بريطانيا بقطع علاقاتها الدبلوماسية ، وبعد حصار للمكتب الشعبي دام تسعة أيام تم طرد كل أعضائه . طالب العديد من قادة الغرب باستراتيجية مشتركة لمحاربة « الإرهاب » الذي تمارسه « ليبيا » ، مما دفع « القذافي » إلى الرد بتحدٍ أنه سوف يوجع الدول التي تتآمر ضده ، فحذر قائلا : « إن لكل دولة مناطقها الحساسة التي نستطيع الضغط عليها » .

كان أفق القذافي ضيقا في مسائل الأمن : فلقد كان اهتمامه مركزا على الجيوب الصغيرة للمنفيين الليبيين ـ المنشقين على حركة الضباط الأحرار ومن رجال السلك الدبلوماسي ، والطلبة الذين فشلوا في العودة إلى وطنهم ، وأمثالهم ـ ومعظمهم اتخذوا ملاجئ لهم في « الولايات المتحدة الأمريكية » ، أو « بريطانيا » ، أو « مصر » ، أو « المغرب » ، أو « السودان » . وفي هذه البلدان وغيرها كونوا حركات معارضة تتراوح من « الديمقراطية » إلى « الإسلام » ، وكلها غير فعالة ، ولها أسماء مثل « الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا » ، و « الاتحاد الدستوري الليبي » ، و« التجمع الوطني الديمقراطي الليبي » ، و « الرابطة الإسلامية لليبيا » . ويقوم « القذافي » من وقت لآخر بإرسال رجاله لإلقاء الرعب في نفوس هؤلاء . وقد

نجح في الفترة بين 1980 ، و 1984 في قتل أكثر قليلا من خمسة عشر منفيا . لقد كان جل خوفه أن تنجح هذه المجموعة أو تلك يوما ما في الحصول على تأييد حكومة أجنبية والقيام بانقلاب ضده .

ولقد حدث أن شجعت الضجة العالمية التي أثيرت بسبب مقتل « إيفون فليتشر » أحد جماعات المعارضة « الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا » كي تحاول الإطاحة « بالقذافي » ، كانت المحاولة ، بالصدفة ، قد بلغت ذروتها عندما كان « أبو نضال » في مقابلته مع الزعيم الليبي في طرابلس . نجح رئيس الجناح العسكري للجبهة الوطنية ، وكان ضابطا ليبيا سابقا يدعى « أحمد الحواس » ، نجح في تسريب جماعة من الرجال المسلحين إلى ليبيا ، وأخفاهم في مبنى مواجه مباشرة لمدخل معسكرات باب العزيزية . بيد أن حواس نفسه لم يكن محظوظا ، إذ دخل تونس بجواز سفر سوداني ، وقام بالاستعداد للحاق برجاله في طرابلس ، لكن الاستخبارات الليبية أبلغت ، فتم اعتراضه وقتله على الحدود التونسية / الليبية . وتم اكتشاف خليته المسلحة في طرابلس وهاجمها الجيش الليبي وتغلب عليها .

كان أبو نضال قد أمضى ساعات طوال مع القذافي في يوم سابق ، وكان يمكث في فيلا مجاورة مخصصة للضيافة في انتظار الحصول على تأشيرة الخروج من رئيس الاستخبارات الليبية قبل أن يتوجه إلى المطار في الوقت الذي بدأ إطلاق النار على الخلية المسلحة . وعلى حسب ما قاله عبد الرحمن عيسى ، الذي كان شاهدا على الأحداث ، فإن المعركة قد أحالت أبو نضال إلى جنون كامل ، فطفق يصيح : « خذوني بعيدا عن هنا » ، ولم يهدأ إلا بعد أن نجح في مغادرة ليبيا جوا في يوم لاحق . كان الإرهابي الكبير الذي يرسل الرجال إلى مقاتلهم بسهولة ، والذي كان لتوه قد باع خدماته للقذافي قد انتابه الرعب عندما أصبح معرضا لعمل من أعمال العنف .

ولقد ثبت أن إجهاض هجوم الجبهة قد ساعد على إقناع القذافي أنه يحتاج شخصا ما للتعامل مع الأعداء الخارجين على ثورته ، « الكلاب الضالة » ، كما كان يصفهم ، والإمبرياليين الذين يوفرون لهم الحماية والدعم . لقد كان أبو نضال ، بوضوح ،

هو ذلك الرجل . تأثر العقيد بسمعة أبي نضال كمنفّذ قاسي القلب ، له تنظيم تحت قيادته في كل العالم ولم يكن أبو نضال متواضعا على الإطلاق حينما كان يعلن عن إمكاناته .

حاول الكثيرون من قادة العرب أن يجندوا فلسطينيين في أجهزة استخباراتهم . فقد كان الفلسطينيون منتشرين في كل العالم ، مهرة ، متعلمين ، لكن لم يكن من اليسير عليهم دائما أن يقيموا معيشة مستقرة ، وغالبا ما كانوا عرضة للتجنيد . وبالنسبة للقذافي فإن قيام فلسطيني بتتبع ليبي مناهض في أوروبا ، أو الولايات المتحدة سوف يجعله أقل عرضة لأن يشك فيه من أي ليبي آخر . لقد أثبت عملاؤه الليبيون ، في تتبعهم للمنفيين أنهم ليسوا أهلا لهذا الأمر ، فلوثوا اسمه في العواصم الأجنبية . لقد صار الآن في حاجة إلى محترفين .

حاول القذافي في السنوات الأولى لعلاقته الطيبة مع عرفات أن يستخدم فتح للقيام بأعمال قذرة لصالحه ، لكن فتح خذلته . كان آخر شيء تحتاجه منظمة التحرير الفلسطينية أن تلطخ نفسها أكثر بإمداد القذافي بفرق قتل . اقترب القذافي أيضا من كل من جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، و أحمد جبريل رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، القيادة العامة ، لكن كان عندهما أيضا الحس السليم لرفض ما عرضه القذافي . وفي المقابل ، لم يكن لدى أبو نضال مثل هذه الممانعة . لقد كان يريد أن يبادل الحماية والإمكانات بأي خدمات تطلب منه ، فقد عمل للحكومة العراقية ضد الشيوعيين ، والفلسطينيين المعتدلين ، وضد سوريا كما عمل لسوريا ضد الملك حسين . والآن أصبح جاهزا للعمل لصالح القذافي ضد المعارضة الليبية ، وأن يقوم ببعض العمليات المظهرية ضد أهداف أمريكية ، وبريطانية ، ومصرية .

شعر القذافي أنه في حاجة لأبي نضال ، الذي كان بدوره يحتاج القذافي . لم تكن علاقته مع سوريا قد حققت آماله ، وكان اتساع نشاطه في لبنان قد بدأ يكلفه الكثير من المال . ظن أن تحركه صوب ليبيا ربما يحل مشكلته في ضربة واحدة ، لذا فقد تلاق أبو نضال مع القذافي عام 1984-1985 بشوق كبير ، معاملا إياه باحترام

وتملق ، معطيا إياه هدايا من سيوف مرصعة منقوش على أنصالها ، ثناء وقحا إلى « بطل العرب » .

حرب المخيمات :

فرضت التغيرات التي جرت على تنظيم أبو نضال في لبنان مشكلات ، فقد أنشأ تنظيمه « إدارة لجيش شعبي » لها أفرع في كل لبنان لإيواء المجندين الجدد الذين تدفقوا عليها بعد انهيار تمرد فتح ، فكان عليه أن يوفر لهم الغذاء ، والكساء ، والمسكن ، والسلاح . وعندما انسحب الجيش الإسرائيلي من لبنان تجاه الحدود وتحت مهاجمة المقاومة اللبنانية ، اندفع رجال أبو نضال صوب صيدا ، يضمون إليهم أعدادا جديدة كلما تقدموا جنوبا . وظهر فجأة على السطح التنظيم السري الأصلي المحكم لينضم إلى التيار الفلسطيني الرئيسي . وبينما كان أبو نضال بالخارج في بولندا فإن تنظيمه كان يعيش حياة ذات طبيعة أخرى ، مقدما له عددا من الخيارات الحيوية : ما هو نوع التنظيم الذي يرغب في قيادته ، وأي نوع من القادة يرغب أن يكون ؟

كان أهم دافع لتغير التنظيم ما سمي بحرب المعسكرات ، حيث كان هناك صراع لاهوادة فيه بين الفلسطينيين والشيعة ، استمر من عام 1985 حتى 1987 ، مخلفا آلافا مؤلفة من القتلى ، والجرحى ، والمشردين . وكان المضطهدون التقليديون في المجتمع اللبناني ، والشيعة في جنوب لبنان ، وسهل البقاع ضحايا للاستغلال والإهمال ، وقد ظلوا يقاسون وبشكل أسوأ حينما تحرك الفدائيون في لبنان فجلبوا الانتقامات الإسرائيلية الشرسة على رءوسهم وعلى الشيعة التعساء الذين كانوا يعيشون معهم . وكنتيجة للقصف الجوي الإسرائيلي فقد دمرت قرى كان يسكنها عشرات الآلاف من الشيعة ففروا شمالا صوب تجمعات الأكواخ المحيطة ببيروت .

أدى هذا الموقف السيئ إلى تعبئة الشيعة تحت قيادة الإمام موسى الصدر ، رجل الدين ذي الشخصية الفذة الكاريزمية المنحدر من أصل لبناني / إيراني ، والذي أنشأ حركته عام 1974 ، وأتبعها بإنشاء قوة للدفاع عن النفس عام 1975 سميت أمل . وقد كان الفلسطينيون والشيعة حلفاء طبيعيين بسبب ما كانوا يقاسونه بشكل

مشترك ، بيد أنه كانت هناك توترات بينهم : فقد كان الشيعة يتهمون الفلسطينيين بخيانتهم ، لذا فعندما غزا الإسرائيليون لبنان عام 1982 فإن الكثيرين من الشيعة رحبوا بهم كمخلصين لهم من الفلسطينيين لدرجة أن نساءهم قمن بإلقاء الأرز على الغزاة من الجنود الإسرائيليين تعبيرا عن الترحيب .

بيد أن الإسرائيليين سرعان ما فقدوا ترحابهم ، فعندما ارتأوا فرض الحكم الماروني على البلاد تحرك الشيعة إلى الاتجاه المضاد ، إذ تحولوا إلى سوريا وإلى إيران طلبا للعون ، وقاموا بإزعاج الإسرائيليين ونصب الكمائن لهم ، وفي النهاية أجبروهم على العودة جنوبا صوب الحدود .

ساعدت روح الجهاد والاستشهاد عند الشيعة على إتقانهم لعمليات الهجوم الانتحاري التي تسببت في خسائر جسيمة في أرواح الإسرائيليين .

وبمجرد أن عاد الإسرائيليون إلى ما أقاموه في جنوب لبنان وأطلقوا عليه النطاق الأمني تحرك الشيعة لملء الفراغ . كانوا قد صمموا على استعادة قراهم وقتال أي قادم جديد عليها ، بما في ذلك الفلسطينيون ، ولم يعودوا قادرين على قبول عودة تواجد فلسطيني مسلح ، حتى لا تعود مرة أخرى سلسلة الانتقامات الإسرائيلية ، ويقاسي الشيعة من جديد .

لذا فعندما بدأ عرفات في تسريب رجاله ثانية إلى لبنان في منتصف الثمانينيات ، وإعادة تسليح معسكرات اللاجئين – كإجراء مشروع في رأيه من أجل الدفاع عن النفس – فإن أمل قامت بحصار المخيمات ، وحاولوا إخضاعها بيد أن الفلسطينيين أبدوا مقاومة شديدة بل إنهم نقلوا القتال إلى معسكر العدو بقصف مدفعي ضد الشيعة في ضواحي بيروت ، ووقعت معارك طاحنة في مايو/يونيو 1985 . لقد بدأت حرب المخيمات ، وظن كل من الطرفين أن بقاءه ذاته قد صار في خطر . لم تكن هناك أية رحمة وكانت كل جولة قتال مصحوبة بالذبح بلا هوادة . وهلك المدنيون الذين لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم بأعداد كبيرة خلال المواجهة الرهيبة .

وخلال العامين التاليين توقف القتال ليشتعل بعد ذلك من جديد ، لأن المشكلة

الأساسية في وطنهم . لم يكونوا ليسمحوا لقوة فلسطينية قادرة على العمل مستقلة . وما كانت سوريا من جانبها لتسمح هي الأخرى باستعادة الفلسطينيين لقوتهم ، التي قد تتحدى وضعها في لبنان أو تعرضه للخطر من جانب إسرائيل .

ولما كان لبنان حيويا بالنسبة لأمن سوريا فإن الأسد قام بإمداد أمل بالسلاح ، بما في ذلك الدبابات ، حتى يمكنها أن تسيطر على المخيمات الفلسطينية . وكان عرفات من جهة أخرى ، يريد أن يحمي مواطنيه المدنيين . لقد كان مهتما بأن يبرز أن منظمة التحرير الفلسطينية لا تزال قوة يحسب حسابها ، وأن محاولة إسرائيل تدميرها قد باءت بالفشل .

كانت هذه هي المعضلة التي تواجه تنظيم أبو نضال في لبنان : هل كان يتعين عليه أن يقف بجانب سادته السوريين ضد الفلسطينيين ؟ أم يدافع عن مخيمات اللاجئين الفلسطينيين حيث تحاصرها الشيعة التي تساندها سوريا ؟

في الواقع لم يكن لدى التنظيم خيار ، فقد أملت الأحداث وضعه . كان نجاحه الأكبر ، منذ تمرد فتح عام 1983 ، متركزا في أنه جذب إلى صفوفه مئات من المقاتلين الفلسطينيين ، وعشرات من الكوادر السياسية ، وكان هذا يعني أنه لم يعد بإمكانه أن ينتظر ويراقب أمل وهي تصب جام غضبها على مخيمات اللاجئين وتدمرها ، فذهب مدافعا عنها . لقد كانت حرب المخيمات في الحقيقة ، العامل المساعد الذي أخرج المنظمة من قوقعتها وجعلها تقاتل بجانب رجال عرفات . لقد نُسيت سنوات الكراهية والدم التي فصلت بين الجانبين ، وتم هذا التحالف الفجائيّ بشكل تلقائيّ ، ودفع بهم إلى قلب المعركة بقرار من قادة المنظمة وصفوفها دون انتظار كلمة من أبو نضال .

وترجع هذه التطورات المأساوية ، إلى حد كبير ، إلى رجل واحد ، هو عاطف أبو بكر ، الذي انفصل عن فتح ليلتحق بمنظمة أبو نضال عام 1985 . وكما ذكر من قبل فقد عمل أبو بكر كسفير لمنظمة التحرير الفلسطينية في أوروبا الشرقية من عام 1974 حتى 1984 واشتهر بأنه سياسي وأيديولوجي وشاعر بارع . ولكونه

أصوليا فقد راقب انزلاق عرفات تجاه إعطاء تنازلات ، ومحاولة الوصول لحلول توفيقية بحذر شديد . وكانت نقطة الانكسار بالنسبة له في شهر نوفمبر 1984 حينما دعا عرفات المجلس الوطني الفلسطيني للانعقاد في عمان متظاهرا بقبول أفكار الملك حسين لإجراء تسوية مع إسرائيل ، وبعد بضعة شهور وفي فبراير 1985 وقع عرفات وحسين اتفاقا بدا أنه يعطي الملك الحق في التفاوض مع إسرائيل باسم الفلسطينيين .

وغضب الأصوليون بسبب ما رأوا أنه بيع للقضية ، فتوجه أبو بكر إلى سوريا واستقال من منظمة التحرير الفلسطينية والتحق بمنظمة أبو نضال وكان واحدا من عديدين فعلوا الشيء نفسه .

كان عاطف أبو بكر بالنسبة لمنظمة أبو نضال بمثابة مكسب له اعتباره ، فهي لم تحظ بمثل هذه الشخصية النابهة منذ أيام ناجي علوش . وخلال مدة وجيزة عين أبو بكر في قمة المنظمة ، في مكتبها السياسي ، وعين رئيسا للدائرة السياسية ، ومتحدثا رسميا أيضا .

لكن ما صار إليه عاطف أبو بكر حقيقة هو أنه أصبح المتحدث الرسمي عن الروح الجديدة التي اجتاحت المنظمة في سوريا ولبنان في منتصف الثمانينيات ، في الوقت الذي كان فيه أبو نضال يطير مترددا بين وارسو وطرابلس مستغرقا في أمور أخرى . وفي غيابه كان هناك توفيق بدأ يحل بين الرفاق بشكل لم يسبق له مثيل منذ الانفصال الكبير لفتح عام 1974 الذي ترك بينهم المرارة . وضعت الضغائن القديمة جانبا ، وأصبح ممكنا أن يعانق حديثو الانشقاق مثل عاطف أبو بكر المنشقين القدامى مثل أبي نزار ، أليسوا قبل كل شيء أبناء فتح ؟ أليست لهم نفس الجذور ؟ قام عاطف أبو بكر وأبو نزار بجذب العديد من الرجال إلى المنظمة بطرازها الجديد ، وكان الرجال من الكوادر السياسية ، ومن المقاتلين الذين فقدوا مراكزهم في الانفصالات الفلسطينية والتمردات . وقد أوجد دفع هؤلاء الرجال إلى صفوف الدفاع في المخيمات ضد هجمات أمل جوا من الصحوة ، في مجال النضال الوطني الحقيقي .

وأنشئت قيادة مشتركة جديدة ، كانت ترغب في وضع حد للاقتتال بين

الفلسطينيين ، وأن توقف العمليات الخارجية ، وتبني الجسور مع فتح ، المنظمة الأم التي شردوا منها . لم يكن هؤلاء الرجال يحبون عرفات ، لكن المهم أنهم كانوا يريدون إعادة بناء حركة مقاومة موحدة ، لذا تم التخلي عن الحملة الإعلامية التي كانت تدار ضد فتح ، وأسقطت لغة الاتهام القديمة . فقد أصبحت مجلة أبو نضال التي اعتادت حتى الآن أن تعتبر منظمة التحرير الفلسطينية خائنة بصورة لا رجعة فيها ، أصبحت تصفها الآن بأنها بيت الفلسطينيين ، الذي يمكن لكل من يريد مواجهة العدو المشترك دخوله . كانت هذه هي وجهات النظر التي روج لها عاطف أبو بكر بحماس .

وحدث تغيير مماثل على الجانب العسكري ، فقد شكل الجيش الشعبي الذي أصبح متخما بالمجندين ، خمس قيادات إقليمية تغطي لبنان من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب . وصار الجيش الذي ظل أبو نضال يموله « رغم تردده الآن في ذلك » ، كيانا ذا جدوى ، إذ أنشأ هياكل أساسية تستطيع إمداد مقاتليه بالغذاء ، والزي ، والأسلحة ، فضلا عن الخدمة الطبية ، والتربية السياسية . وبدلا من الفرد المسلح بقنبلة أو بندقية قناص ، فقد أصبح لدى المنظمة الآن رجال يستطيعون قيادة المركبات المدرعة ، وإطلاق القذائف الصاروخية ، وضباط سابقون في فتح ممن لهم سنوات خبرة ومهارات عسكرية لها اعتبارها . وأصبح الجيش الشعبي ثاني أكبر قوة فلسطينية مقاتلة في لبنان ، بعد منظمة فتح نفسها .

وكانت تكاليف إدارته عام 1986 تقدر بمليون ونصف المليون دولار شهريا . وتطورت المنظمة فصارت حركة جماهيرية لها قادة أقوياء وكوادر ، بعد أن كانت من قبل جهازا صغيرا ، مغلقا ، يقوم بأعمال سرية ، ويديره أبو نضال من بعد ، فقد تشكلت قاعدة قوية جديدة بداخل جهاز أبو نضال .

واعتقد المصلحون ، مدفوعين بحماسهم ، أن أبو نضال سوف يرحب بالفرصة التي أتيحت له الآن لقيادة جماعة شعبية قوية استطاعت أن تكسب قبولا جديدا بين الفلسطينيين بسبب الدور الوطني الذي كانت تلعبه . لكن يبدو أنهم نسوا طبيعة الرجل ، ولم يستوعبوا سبب وجوده في ليبيا . ولكن عما قريب سوف تتضح لهم

الحقيقة . فكما سنرى في مجريات الأمور ، فإن أبو نضال كان عليه أن يستغل سفره إلى ليبيا ليدمرهم .

شعر أبو نضال أن التحولات التي حدثت في لبنان كانت بمثابة تهديد خطير لشخصه ، لذا تآمر كي يقلبها ويعيد المنظمة إلى حال تطرفها القديم . والآن نجده وقد ترك بولندا ليعود ثانية وللأبد متنقلا بين طرابلس ودمشق ، بيد أنه كان يشعر في طرابلس أكثر من دمشق أنه مطلوب ، ممتدح ، وعلى راحته .

وكان تحركه من وإلى سوريا يتم بتصديق ليبيا ومن خلال إمدادها له بوسيلة النقل والمال وجواز السفر . ومما يدعو للعجب أن يتم ذلك عادة دون علم السلطات السورية . كان الرجل الذي يسبقه دائما للاستشكاف وتأمين وصوله سوريا وخروجه منها ليبيا يدعى مفتاح الفرزاني ، ضابط استخبارات ، ورئيس المكتب الشعبي الليبي في دمشق . وكان على اتصال مباشر برؤساء جهاز الاستخبارات الليبي : إبراهيم البشاري ، وعبد الله السنوسي « وكان الأخير رجلا قويا بسبب زواجه من أخت زوجة القذافي » .

أما ما كان يتطلع إليه أبو نضال دائما فهو قاعدة آمنة في بلد عربي ، فضلا عن حماية جهاز استخبارات عربي يمكنه القيام بترتيباته . ولما كان هذا غير متاح ، فقد فضل الانسحاب من الشرق الأوسط كلية وأن يعيش منعزلا في الخارج ، وذلك ما فعله حينما ذهب إلى بولندا عام 1981 في الفترة بين تخاصمه مع العراق ، ووصل منظمته إلى سوريا .

الخلاف مع سوريا :

ويكمن سر استمرارية أبو نضال كإرهابي في اهتمامه غير العادي بتأمين نفسه . فقد كانت اليقظة هي السمة الثابتة ، وكانت ممتزجة بالشك المرضي في كل شخص ، وفي كل شيء . كان بإمكانه أن يهنيء نفسه لأنه لم يقبض عليه ولا مرة ، حيث كان دائم الحركة . كان ماهرا في التخفي وتغيير مظهره بشكل لا يمكن اكتشافه ، وكان يستخدم في سفره مجموعة كبيرة من جوازات السفر العربية ، بعضها مزور

وبعضها حقيقي ، وكان يفضل استخدام الجوازات العادية عن استخدام الجوازات الدبلوماسية ، لأنها أقل جذبا للانتباه . وكان حراسه الشخصيون على ولاء كامل له ، وكان يعرف كلا منهم لسنوات طويلة مضت . وعندما حدث انفتاح في بعض أجنحة منظمته ، وصارت معروفة بشكل ما أو بآخر فقد كان يعين متحدثا رسميا عنه في بيروت ، حتى يبقى دائما في الخلف ، ولم يكن ممكنا أن يعرف أحد مكان تواجده في أي وقت سوى حفنة من المقربين إليه . لقد بلغ شغفه بالسرية أنه على طول فترة عمله لم يعقد سوى خمس مقابلات عام 1974 ، وعام 1978 ، وثلاث مرات عام 1985 ، ويعد هذا المسلك ، من رجل له مثل غروره ، بمثابة إنكار للذات ، ومع ذلك فنجد بعض مظاهر الغرور البسيطة من خلال : أنه رغم كونه لم يتلق سوى قدر ضئيل من التعليم الرسمي ، فهو يحب أن ينادى بدكتور ؛ دكتور سعيد في الأيام الأولى ، ثم بعد ذلك دكتور محمد » .

قامت سوريا بإيوائه وحمايته في مطلع الثمانينيات ، لكن السوريين خذلوه حتى بعد أن أقام منظمته هناك ، فلم تستطع سوريا أن تجعله يشعر بالأمان مثلما كان يشعر به في العراق ، فلم يكن يسمح له في دمشق بمقابلة القادة السوريين وحده ولا بمصادقتهم ، كما لم يستطع أن يقيم علاقات حميمة كتلك التي كان يتمتع بها في بغداد مع الرئيس البكر ووزير الخارجية طارق عزيز . وقد حاول مرارا أن يدعى رسميا إلى دمشق ، بيد أن السوريين استمروا في مراوغته . وعلى الرغم من الخدمات التي أدلى بها إليهم أثناء الحملة الإرهابية ضد الأردن ، فإن القادة السوريين رفضوا استقباله شخصيا . لم تكن هناك علاقة حميمة ، ولا اعتراف بعلاقات رسمية ، ولم تكن هناك فرصة لعمليات مشتركة ، ولم يكن له انفتاح على السفارات السورية أو المصادر الدبلوماسية . كان هناك سقف مضروب فوق نشاطاته . وبقيت اتصالات منظمته منحصرة مع دائرة الاستخبارات الجوية التابعة للواء محمد الخولي ، الدائرة سيئة السمعة والأقوى ذراعا في جهاز الاستخبارات السوري ، وعندما اقترح التنسيق مع إدارة الاستخبارات الخارجية السورية ، التي كان يرأسها في ذلك الوقت اللواء عدنان الحمداني ، في عمل ضد العراق ، رفض السوريون .

وما وجده أبو نضال مخيبا للآمال ، وعدوانيا ، رفض السوريون الاعتراف بأية شرعية سياسية له . لاشك أنهم كانوا يريدون إبعاد أنفسهم ، على الأقل ظاهريا عن الإرهاب ، وكانوا يريدون أن تظل علاقتهم به غير معترف بها . وفي مرة ذهب وزير الدفاع السوري المناضل الفريق مصطفى طلاس بعيدا إذ طرد أبو نضال معتبرا إياه عميلا لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA ، في الوقت الذي كان الرئيس الأسد نفسه يخبر الزوار الأجانب بكل صراحة أنه لم ير أبو نضال على الإطلاق . مثل هذه الظروف لم تكن لتطمئنه بل على العكس شعر أبو نضال أنه مهدد وكانت الظنون تساوره أن سوريا سوف تغدر به عند أي طلب من الغرب لتحسين علاقته معها فتسلمه للأمريكيين .

وتصادف عند زيارة خاطفة له إلى دمشق أن أصبح واضحا له أن السوريين يفضلون ألا يعلموا بوجوده هناك .

ولما كان يمكث معظم وقته بعيدا في الريف البولندي فإنه لم يكن يستطيع استيعاب ما يجري بداخل منظمته ، ولا في عقل رجل الشرطة السرية المصاحب له ، إذ كانت تساوره إمكانية أن يحيكوا مؤامرات ضده ، فكان يصر على أن يحاط علما بأدق وأتفه التفاصيل .

كان يصل بولندا حامل رسائل خاصة كل أسبوع قادما من دمشق ، ومعه بريد المنظمة كي يدرسه ويرد عليه ، وكان زملاؤه أبو نزار ، وعبد الرحمن عيسى ، والدكتور غسان العلي يحملون عبء الإدارة اليومية الذي يزداد تعقيدا كل يوم . وكان هناك رجال يدربون ، ويلقنون ويرسلون في مهام ، وكان من الضروري مراقبة العمل في المحطات الخارجية ، وإجراء الحسابات المالية ، وتحديث الأرشيف باستمرار . كما كان من الضروري استمرار الإمدادات للمليشيا في لبنان . وقد كانت الخطابات التي يرسلها أبو نضال إلى القيادة في دمشق تسبب قدرا كبيرا من القلق وعدم الرضا . وكان يوجه الضربات لزملائه من خلال ما يكتبه في الخطابات من مذكرات ، فلماذا كتب في إحدى المناسبات ، هل انفق كذا وكذا كثيرا على التفاح ؟ وقد كانت لحظة العودة الأسبوعية للرسائل إلى دمشق تعد لحظة مثيرة

لأعضاء القيادة عندما يصابون بالدهشة بسبب المطالب التي قد يطلبها منهم رئيسهم بوصفها هامة .

ومن حين لآخر كان أبو نضال يستدعي إليه كبار معاونيه على هيئة مؤتمر في منزله خارج وارسو لمعالجة الأحداث الجارية . وكانت خطبه الرنانة تسجل على شريط ، ويعاد إذاعتها بناء على تعليماته ، على أعضاء القيادة الموجودين في دمشق .

وكانت تكتيكات أبو نضال لا تتغير في إحداث مواجهة بين هذا وذاك للإحراج ، أو اللعب على المتناقضات بينهما ، أو الكشف عما قاله « س » من الناس في حق « ص » منهم ، من أجل إثارة المتاعب . وكانت عودة رفاقه إلى عملهم بدمشق عادة ما تكون مصحوبة بالتوتر .

وفي مطلع عام 1985 قرر أبو نضال العودة بشكل دائم إلى الشرق الأوسط بالنظر إلى تضخم تنظيمه ، فقام بإرسال زوجه وأبنائه إلى دمشق ، وشغل شقة في الدور الأرضي بنفس المبنى الموجود فيه رئيس الجناح العسكري ، رفيقه أبو نزار ، لكنه لم يكن ليجرؤ بأن يبقى طويلا في مكان واحد ، حتى لا يجذب الانتباه إليه ، فاتجه مرة ثانية ، خلال بضعة أشهر إلى مدينة الزبداني الصغيرة ، والتي تقع على مسافة أربعين دقيقة على الطريق إلى دمشق ، وحتى يبعد عن الأعين فقد اشترى بيتين متجاورين يقعان وسط حقل كبير ، ولتأمين المزيد من الحماية ، فقد استأجر ستة فلاحين من العلويين ، يقال إنهم أقارب أمه ، وذلك من أجل العمل في الأرض والحراسة .

ولم تكن هيام زوج أبو نضال تحب العزلة ، خاصة وأن بعده عنها كان يطول ، فقد كان دائم السفر بين بولندا وليبيا .

وقد وقع حادث عنيف بنهاية عام 1985 ، كان من شأنه أن يؤثر بشكل مأساوي على علاقتهما . فقد كانت هيام وأخوها حسين البيطار ، الذي كان يسكن في الأردن يمتلكان سويا بيتا قيما وحديقة في عمان ، كانت قيمتاهما تبلغ مليون دولار . وعلى الرغم من أن الملكية كانت مسجلة باسميهما ، فإن أبو نضال ادعى

أن الملكية له ، وأنه هو الذي دفع ثمن شرائهما . نشب شجار عائلي . وعندما مل أبو نضال من المناقشات قرر حل المشكلة فورا وللأبد بقتل شقيق زوجته .

وبسبب التئام العلاقات بين الأردن وسوريا في ذلك الوقت ، فقد فكر أبو نضال أن من الأعقل أن ينفذ عمليته من الكويت بدلا من دمشق ، لذا فقد سافر ثلاثة من القتلة « Assasins » ، مستخدمين جوازات سفر أردنية ، فوصلوا الأردن قادمين من الكويت . وفي يوم 24 نوفمبر 1985 قتلوا حسين البيطار وابنه محمد ، البالغ من العمر خمس سنوات ، ثم أعلن في بيان خاص ، مدعيا في وقاحة ، أن البيطار قد قتل لأنه كان يعمل لحساب الاستخبارات الأردنية ، وكان يدعم ياسر عرفات .

أدى هذا القتل إلى حدوث انفصال عاطفي كامل بين أبو نضال وزوجه ، التي طلبت منه الطلاق لكنه لم يستجب لها ، واستمرا يعيشان في نفس المنزل ، وكل منهما منفصل في حياته عن الآخر . وقد قال البعض في المنظمة إنها اضطرت إلى البقاء بسبب حملها ، بينما قال آخرون إنها بقيت لأن مبلغا كبيرا من أموال المنظمة قد أودع في البنوك باسمها . وعلى أية حال فقد بدأت تسافر مصطحبة معها أطفالهما الثلاثة في رحلاتها للخارج . وكانت في الغالب تسافر إلى النمسا وسويسرا لتبعد عنه .

الانتقال إلى ليبيا :

في هذه المرة كان أبو نضال ينتقل إلى ليبيا منتصرا . كانت علاقته مع القذافي قد بدأت في الصعود عام 1985 ، لكنها لم تكن دائما خالية من السحب قبل ذلك .

ومنذ عقد سابق ، وفي عام 1975 أرسل أبو نضال بعض صغار الكوادر ، خاصة من الطلبة والمدرسين للإقامة السرية في طرابلس وبني غازي ، حيث كان عليهم أن يقوموا بنشر كلامه وأفكاره . وعندما أصبحت مصر وليبيا على حافة الحرب عام 1977 ، سافر هؤلاء الأشخاص إلى ليبيا ، بل وأرسل بعضهم كمتطوعين إلى الجبهة إظهارا للولاء الذي دفع الليبيين لأن يسمحوا لمنظمة أبو نضال بفتح مكتب لهم بشارع عمر المختار في طرابلس .

وربما الأقرب إلى الدقة أن القذافي كان على علاقة سيئة مع فتح ، وبصفة خاصة مع أبو إياد ، الذي كان يتبع الخط الذي كان قد رسمه لهما الرئيس بومدين في الجزائر . واستحث القذافي فتح لأن تتبنى كتابه الأخضر كأيديولوجية وعقيدة . لكن أبو إياد لم يستطع - كما قال لي لاحقا - أن يمسك نفسه عن الضحك من الاقتراح ، بل قال للقذافي : « إن هذا ليس كتابا على الإطلاق ، أيا من كان قد كتبه لك فقد سبب لك ضررا بالغا » ، فغضب القذافي جدا إلى درجة أنه قطع معونته لمنظمة التحرير الفلسطينية عام 1977-1978 ، والتي كانت تبلغ آنذاك 12 مليون دولار سنويا نقدا ، فضلا عن 50 مليون أخرى في صورة بضائع ومعدات . وربما كان هناك مصدر آخر أكثر أهمية كان سببا في هذا البرود ذلك أن فتح رفضت أن توافق على طلب القذافي بخطف أو قتل شخصية ليبية معارضة هو عبد المنعم الهوني ، أحد الضباط الأحرار الأصليين ، ورئيس جهاز الاستخبارات الليبي سابقا ، الذي اختلف مع القذافي فاتخذ من مصر ملجأ ، فطالب العقيد برأسه .

من أجل هذا فقد كان رجال أبو نضال مرغوبا فيهم في طرابلس لمدة قصيرة عام 1977-1978 ، بيد أن هذا لم يدم طويلا . وعندما بدأ أبو نضال في قتل المعتدلين في منظمة التحرير الفلسطينية عام 1978 - فقتل سعيد الحمامي في لندن في شهر يناير ، وعلي ياسين في الكويت في شهر يونيو - انتقمت فتح بالهجوم على مكتب المنظمة في يوليو ، وقتلوا اثنين من رجال أبو نضال ، « قيل إن هذا قد تم بالاتفاق مع وزير الداخلية الليبي ، العقيد الخويلدي الحميدي ، الذي كان متعاطفا مع فتح » . وقررت ليبيا إغلاق مكتب المنظمة وطرد أعضائها ، فتم حل الخلايا التي كانت قد تشكلت هناك . ولاستعادة العلاقات طار أبو نضال في زيارة إلى طرابلس في 30 ديسمبر عام 1979 ، لمقابلة رئيس الوزراء ، عبد السلام جلود ، لكنه لم يُدع لزيارة القذافي ، فعلى الرغم من خلافه مع أبو إياد فإن القذافي لم يكن له مصلحة في مجافاة عرفات كلية ، ولا أن يقيم جسورا مع رجل العراق أبو نضال في ذلك الوقت .

كان على أبو نضال أن ينتظر حتى عام 1982 ليجد فرصة ثانية لبلوغ هدفه في

ليبيا ، وللمرة الثانية حدث هذا كنتيجة لسوء العلاقات بين ليبيا وفتح . فخلال الحصار الإسرائيلي لبيروت ، عندما خرج الفلسطينيون تحت القصف الجوي المكثف ، أرسل القذافي برقية لعرفات يحثه على أن ينتحر ولا يسمح للإسرائيليين بطرده . رد عرفات أن مقاتليه كانوا على استعداد لبذل أقصى تضحية من أجل أن يلحق القذافي بهم . وأضاف بألم أن ظروفه الحالية ربما لم تكن لتصبح ميئوسا منها لو أن القذافي أرسل إليه الأسلحة التي كان قد وعده بها . وفي المقابل أصبح شعور القذافي باردا تجاه عرفات .

وعندما حدث تمرد فتح عام 1983 ، وبرزت جبهة الإنقاذ الوطني متخذة سوريا قاعدة لها ، مجمعة معظم معارضي عرفات من الفلسطينيين ، أسرع القذافي لمنحها تأييده . وأصبحت الظروف الآن ملائمة لدخول أبو نضال إلى ليبيا .

كانت هذه هي خلفية وصوله ليبيا عام 1985 . والآن بدأ أبو نضال بطريقة صحيحة ، فعين حمدان أبو إصبع « عزمي حسين » ، وهو أحد رجال دائرة الاستخبارات لديه ضابط اتصال وممثلا شخصيا له لدى الأمن الليبي . وقد حل على الفرا « الدكتور كمال » محل أبو إصبع . وعلى الفرا هو أحد أكثر رفاق أبو نضال ثقة . وكان استقراره في ليبيا بمثابة مؤشر على أن أبو نضال قد اتخذ من ليبيا قاعدته الرئيسة . وقد لحق به على الفور عدد من عناصر الدوائر الأخرى . تم وضع عدد من الطائرات والسفارات الليبية ، وجوازات السفر ، والإمكانات الدبلوماسية ، ووسائل الاتصال رهن طلب أبو نضال . وعندما نمت العلاقات وصارت أكثر حرارة ، أعطى القذافي أبا نضال فيلات ، وشققا في طرابلس ، ومساكن خارج العاصمة ومزرعتين – كل هذا بلا مقابل . وقد كانت معظم هذه الأشياء قد نزعت ملكيتها من العناصر المعارضة الليبية الذين فروا للخارج .

كان الليبيون كرماء بمنحهم تذاكر الطائرات ، ونفقات السفر والاستضافة بكل صنوفها ، من الإقامة في فنادق إلى الفيلات الخاصة لكل الأعضاء الذين كانوا يمرون بليبيا . وقد أمدت الاستخبارات الليبية ، بعد ذلك في عام 1986 ، المنظمة بخطوط

هاتفية دولية ، والتي كانت تعتبر باهظة التكاليف بسبب انقطاع الاتصال الهاتفي المباشر على إثر الغارة الأمريكية على ليبيا في أبريل عام 1986 ، فصارت كل المكالمات تتم بشكل غير مباشر . وكان الليبيون ، فضلا عن ذلك ، يدفعون فواتير المكالمات .

ومن الأمور الأكثر دلالة أن الليبيين ساعدوا المنظمة منذ عام 1985 في نقل الأسلحة إلى ليبيا لتخزينها هناك ، ولنقلها من ليبيا لإخفائها في مخابئ بأوروبا ، وأفريقيا ، وآسيا . وفي بعض الحالات كانت الأسلحة تسلم إلى أعضاء المنظمة عندما يصبحون على متن الطائرة في مطار طرابلس . وفي حالات أخرى كانت الأسلحة ترسل إلى الخارج عن طريق الحقائب الدبلوماسية الليبية ، وتسلم إلى أعضاء المنظمة في السفارات الليبية . توقف أبو نضال عن العمل مستقلا ، لأسباب عملية ، فصارت الأماكن الرئيسية للمنظمة ، ومكان إقامته ، وعمله ، وعمل منظمته ، والإمكانات التي تسهل أعماله تقدم كمنح من الاستخبارات الليبية ، وأصبح أبو نضال متورطا ومرتبطا عن قرب مع الاستخبارات الليبية بشكل يجعل الانفصال صعبا .

كانت الفكرة التي تروق للقذافي دائما هي تولية القيادة القومية للقوات العربية الثورية ، هذه التي أقامها في ذلك الوقت كمحاولة لتأكيد قيادته للحركات التقدمية الراديكالية في كل المنطقة . وكانت هذه هي الهيئة التي اضطرت كل الفصائل الفلسطينية مثل أحمد جبريل ، وأبي موسى إلى التعامل مع الحكومة الليبية من خلالها . وعلى النقيض من ذلك ، كانت منظمة أبو نضال تتعامل مباشرة مع الاستخبارات الليبية . وكانت هذه هي المنظمة الوحيدة التي تفعل ذلك .

استوعب أبو نضال بسرعة أن ليبيا لديها إمكانات ضعيفة لجمع المعلومات ، بها عناصر من الهواة سيئي التدريب ، وأن شبكاتها كانت في الحقيقة غير ذات قيمة . كان ضباطها كسالى ، كثيرا ما يعتمدون على الآخرين للقيام بالأعمال نيابة عنهم . وكما ذكر أحد المصادر : « إذا ما قلت لليبيين : سوف أمدكم بمعلومات عن تشاد ، فإنهم سوف يوقفون كل استفساراتهم وينتظرونك لتقدم لهم ملفا على طبق » . كلف أبو نضال منظمته بجمع المعلومات لحساب ليبيا ، فضلا عن قيامها بأعمال

الاستطلاع ، والإزعاج وقتل المعارضين الليبيين في الخارج . وبالاستغراق في هذه المهمة أصبح على وشك أن يسيطر سيطرة فعالة على جهاز الاستخبارات الليبي .

كانت السنوات 1985 حتى 1987 تعد بمثابة وقت مثمر وجد أبو نضال نفسه فيها في وضع بين سوريا وليبيا ، بيد أنه لم يكن هناك من شك حول أي البلدين يفضل . لقد دعاه القذافي إلى ذات قلب النظام الليبي ، حيث أحب أبو نضال أن يكون . لقد سمح له الليبيون بأن ينظم وأن يوجه مجتمعا فلسطينيا في مقره الذي يعيش فيه ، وأن يدير حملة إعلامية نشطة لصالح منظمته . باختصار أتاحوا له أن يكون نشطا سياسيا .

لقد صار القذافي وأبو نضال الآن شريكين . ويقرر القريبون منهما ممن حضروا مقابلاتهما العديدة أن كلا منهما كان يستمتع بصحبة الآخر ، وكانا يمضيان وقتهما معا في الإساءة إلى أعدائهما ، قبل أن يتآمرا على أفضل الطرق لتدميرهم .



الفصل الثامن

قتل المعتدلين



قتل المعتدلين

قال بن جوريون : « إنه أيا كانت المداخل إلى مسألة الصهيونية فإن مدخل الاعتبارات الأخلاقية لا يعد صهيونيا» .

موشي ديان

« منظمة التحرير الفلسطينية ؟ مجموعة من العملاء المخترقين بواسطة بعض الوطنيين » .

أبو نضال

كما سبق أن رسمت خريطة مهنة أبو نضال في العراق ، وتحركاته التالية إلى سوريا ، وليبيا ، فإنه يبدو لي أنه كان في البداية حالة تقليدية لقائد إحدى الفصائل الفلسطينية ، تحول أثناء بحثه عن مأوى آمن إلى مرتزق ، ثم تحول أثناء بحثه عن الاستقلال المالي إلى سفاح Gangster . لقد استعرضت المعلومات التي جمعتها . لقد أوجده العراق عندما أراد تكوين قيادة للراديكالية العربية لكنه أسقطه من حساباته خلال الحرب مع إيران ، فتبنته سوريا أثناء حربها الإرهابية ضد الأردن ، لكنها تخلت عنه لليبيا ، التي استخدمته ضد كلابها الضالة وضد أعداء خارجيين آخرين . لقد كان الكفلاء العرب الثلاثة معادين لمنظمة التحرير الفلسطينية المستقلة فاستخدموا أبو نضال لتحجيم عرفات .

لقد تم وضع أبو نضال بوصفه قمة الرافضين ، والمعارض الصلب لمحادثات التسوية مع إسرائيل التي تمكنت من صيد عرفات المستسلم منذ عام 1974 ، لكنه بدا واضحا أنه كان يدير عربدة للابتزاز ، مع قدر ضئيل من الاعتبار للقضية الفلسطينية . وفي الحقيقة كانت معظم عملياته تبدو ضارة بالفلسطينيين . لقد كان الرجل لغزا . لم أستطع فهم ما يحركه .

وبتوسيع نطاق استقصائي ، فقد غادرت تونس وما بها من سياسة حارة للمنشقين ومقاتلي حرب العصابات ، كي أستشير مصادر في أوروبا والشرق الأوسط ؛ قابلت ضباط استخبارات ، وشرطة ، وصحفيين ، وساسة ، وأناسا كانوا لسبب ما أو لآخر ، لديهم اهتمام وظيفي بالحرب الإسرائيلية / الفلسطينية ، لأن بعض معاركها وقعت ، واستمرت تحارب على أراضيهم . فماذا كانت وجهة نظرهم عن أبو نضال ومنظمته ؟

لقد استمعت إلى وجهتي نظر مختلفتين : النظرة التقليدية كانت تلك التي قدمها أبو نضال – أنه يمثل القطب المتطرف من النضال الفلسطيني الداخلي ، الذي استعر منذ عشرين عاما حول ما إذا كان من الممكن أو حتى من المرغوب فيه التوصل إلى حل وسط مع إسرائيل . بيد أن رأيا ثانيا عرض له بعض مصادري وكان أكثر ميلا لتحريك العواطف – وكان متسقا بشكل أكثر مع ادعاءات أبو إياد : كان أبو نضال أداة للإسرائيليين ، سواء لأن منظمته كانت الموساد قد اخترقتها « أكثر مما اخترقت الموساد أيا من الفصائل الفلسطينية الأخرى ، في أي وقت خلال الخمس والعشرين سنة الماضية » ، أو لأنه نفسه قد تم تجنيده . كانت الحجة تعرض كما يلي : نظريا ، فإن إسرائيل ، وأبو نضال أعداء ألداء ، لكن في العمل فإن أهدافهما المضادة لمنظمة التحرير الفلسطينية ولعملياتها كانت متشابهة إلى درجة تمكن من قيام علاقة عملياتية بينهما .

وفي وجهة النظر هذه فإن أبو نضال لم يكن نتاج النزاع الفلسطيني الداخلي بقدر ما كان نتاج إدارة إسرائيل لحرب طويلة ضد الفلسطينيين . وأيا كانت الأعمال التي كان عليه أن يقوم بها لصالح الكفلاء العرب ، وكانت كثيرة وقذرة ، فقد قام بأعمال أخرى كثيرة لايبدو أن المستفيد منها أحد سوى إسرائيل .

ومع بقاء الدليل القاطع غير كاف ، فإن الموضوع كما اكتشفت قد تم بحثه باستفاضه . لقد قال لي ضابط استخبارات أردني كبير ، تقاعد الآن ويعيش في عمان : « انبش بداخل منظمة أبو نضال ، ولسوف تجد الموساد » . لقد أمضى هذا الرجل الأردني معظم أيام وظيفته في الاتصال بالاستخبارات الإسرائيلية ، وكان يدير

أعمالا ويحرك عملاء ضد المنظمات الفلسطينية . ولم يكن معروفا على نطاق واسع أن إسرائيل والأردن قد عملا سويا منذ أواخر الستينيات لاحتواء ما ارتأياه تهديدا مشتركا قادما من الفدائيين الفلسطينيين . لم يقدم ضابط الاستخبارات الأردني أي دليل لدعم ملاحظاته ، لكن وجهة نظره كانت مطابقة لما يتداولونه على نطاق واسع فيما يتعلق بهذا الافتراض في دوائر استخبارات الشرق الأوسط .

لقد أدت الأزمة الخطيرة التي أخمد فيها الملك حسين التمرد الفلسطيني عام 1970-1971 ، إلى تقوية علاقة الاستخبارات بين الأردن وإسرائيل . وكما شرح لي مصدري الأردني فإن الفلسطينيين قد زعزعوا عرش الملك حسين ، إذ استدعوا الدبابات السورية لدعمهم واغتالوا رئيس وزرائه وصفي التل . فلم يكن أمرا مثيرا للدهشة قيام الملك حسين بالاتجاه إلى إسرائيل كقوة موازنة لسوريا خلال الأزمة ، ثم التنسيق معها في مجال حرب الاستخبارات ضد الفدائيين .

لذا فقد وجد معظم الفلسطينيين أنفسهم مكبوحين بقوتين : إسرائيل والأردن ، اللتين أرادت أجهزة استخباراتهما الممتازة احتواء المقاتلين الفلسطينيين ، واختراق مختلف المجموعات الفلسطينية فيما وراء حدودهما . وعندما بزغت حركة أيلول الأسود الإرهابية في بداية السبعينيات فإن إسرائيل والأردن ، وباقي الدول التي تأثرت أصبح لديها دافع قوي لزرع عملاء بداخل الشبكات الفلسطينية ، ومعسكرات التدريب ، من أجل مراقبة ، وإجهاض العمليات المعادية إن أمكن .

ولقد قررت بعض مصادري الأخرى ما يقوي الإشارة التي وشا بها ضابط الاستخبارات الأردني عن الاتصال بين أبو نضال والموساد ، فقد قال لي ضابط أمن ألماني ، شارك في أعمال مضادة للإرهاب كنت قد قابلته في لندن في أبريل عام 1990 : « إن إسرائيل تحتاج إلى السيطرة على رجال مثل أبو نضال . إنها يجب أن تحيده ، ومن الأفضل أن تستخدمه إن أمكن . وكل جهاز استخبارات يعمل نفس الشيء إذا أمكنه » . بيد أن هذا لا يعدو رأيا مبنيا على ملاحظة عامة . وقد قال لي خبير حكومي فرنسي في مجال الإرهاب الدولي ، وله خبرة بالشرق الأوسط خاصة ، في معرض مقابلة طويلة عام 1991 : « إذا لم يكن أبو نضال نفسه عميلا

إسرائيليا فإن اثنين أو ثلاثة من كبار معاونيه هم كذلك بالتأكيد . ولا يمكن لشيء آخر أن يفسر بعض عملياته . لكنه أضاف أن طرق الاتصال مغطاة بدقة ، ويصعب الوقوف على الدليل » .

ومن بين هؤلاء الناس من كان يفترض على نطاق واسع أنه كان هناك تداخل ، أو أرضية مشتركة بين أبو نضال والموساد . وقد ظن البعض أن الاختراق كان على مستوى منخفض ، في حين اعتقد البعض أن بعض كبار رجاله قد جندوا ، وربما حدث ذلك له نفسه ولعدد من أفراد عائلته الكبيرة .

ولقد كان أحد الضباط السابقين في وكالة الاستخبارات الأمريكية أكثر وضوحا ، وكان قد خدم من قبل كرئيس محطة في عدد من البلدان العربية ، وكان موقفه من النزاع العربي الإسرائيلي منفصلا ومهنيا : « إن من اليسير أن يتم تجنيد رجل على القمة كما هو الحال بالنسبة لرجل في أول السلم . يبدو لي أن الموساد قد تمكنت من التقاط أبو نضال فى أواخر الستينيات ، عندما كانت تركز الكثير من الجهود من أجل اختراق مجموعات الفدائيين الفلسطينيين التي تشكلت حديثا آنذاك . وتخميني أنهم التقطوه من السودان عندما كان هناك مع فتح عام 1969 ، وبمجرد أن جندوه قاموا بإمداده بالمال ، وتوجيهه ، ولم يعد له طريق للعودة لأنه إذا ما كان قد حاول تركهم لكان قد مات .

لم يكن أي من الإنجليز ، أو الفرنسيين ، أو الأمريكيين ليفعلوا ذلك ، فليس هناك سوى إسرائيل هي التي لديها الاحتراف والدافع وأسلوب التعامل والسيطرة عليه لمدة أكثر من عشرين عاما .

مثل هذه الحجة الصادرة من ضابط استخبارات محترف ، تبدو مقبولة بيد أن الدليل مازال غائبا . وعلى الجملة فقد اتجهت إلى عدم احتساب شهادة فلسطينية على هذا الموضوع لأنها بالتأكيد منحازة . كان أبو علي شاهين فلسطينيا لديه الوقت الكافي لدراسة الأساليب الإسرائيلية ، كان فدائيا مقاتلا محنكا ، قبض عليه الإسرائيليون في الضفة الغربية عام 1967 لإقامته خلية سرية ، فأمضى السنوات

السبع عشرة التالية في السجون الإسرائيلية ـ الثلاث عشرة سنة والشهور العشرة الأولى منها عاشها ، كما يقول ، محبوسا حبسا انفراديا .

وعندما قابلته في تونس في أغسطس 1990 ، وجدته نحيلا ، رجلا قويا في الستين تقريبا ، بشارب كثيف ، ونظارات مستديرة وعيناه مريضتان غائرتان . كان كرهه لإسرائيل عميقا ، ومع ذلك كان يبدو قادرا على الحكم الموضوعي . في مرة كان خارج الحبس الانفرادي فكان يستطيع أن يستفسر من باقي المسجونين عن خبراتهم . قال لي : « إن إسرائيل تبذل جهودا كبيرة من أجل تحويل المساجين في السجن باستخدام كل صنوف الضغط والإقناع . وهي أيضا تجند الطلبة الفلسطينيين الذين يغادرون إسرائيل للدراسة في الجامعات العربية ، ومعظمهم يتلقون تعليمات باختراق المنظمات الفلسطينية ، ويبعثون بتقاريرهم إلى إسرائيل . وكانت منظمة أبو نضال من هذه المنظمات » .

الحاجة للاختراق :

مبدأ الاختراق هو مبدأ راسخ تماما ، فهو عمل عادي من أعمال الاستخبارات لأن كل إجراء فعال ضد الإرهاب أو ضد التمرد يعتمد أساسا على معلومات من داخل معسكر العدو . ومنذ أن تحول الفدائيون الفلسطينيون في منتصف الستينيات إلى الصراع المسلح فقد أصبح من الخطر تركهم وحدهم ، فوجد كل اللاعبين الرئيسيين في المنطقة ، وكثيرين من خارجها أن من الضروري مراقبتهم والسيطرة على نشاطاتهم ، وبتعبير آخر أن يحاولوا اختراقهم .

اخترقت بعض جماعات الفلسطينيين بشكل واضح غالبا . ففي منظمة فتح ، على سبيل المثال كانت هناك فصائل موالية للعراق ، ولمصر ولسوريا ، وإن لم يكن هناك ما هو موال لإسرائيل فإن هناك عددا كبيرا من عملاء إسرائيل . ولما كانت منظمة أبو نضال محافظة على أسرارها ، فإنها كانت أصلب من أن تخترق ، بيد أن كلا من العراق وسوريا والأردن ومصر وفتح وإسرائيل كانوا يسعون إلى اختراقها ، لأسباب واضحة، وربما نجحوا في ذلك . لقد تكاثر العملاء الفلسطينيون التابعون

للبلاد العربية ، وانتشروا في كل المنظمات الفلسطينية .

لقد كانت البلاد العربية في حاجة للسيطرة على الفلسطينيين لأسباب ثلاثة :

الأول : الأمن ، لأن إسرائيل عادة ما ترد على هجمات الفلسطينيين بعنف مضاد في الدول العربية التي تأوي الفلسطينيين ، لذا فالدول العربية ترغب في تجنب النشاط الفلسطيني لحماية نفسها من الانتقام .

والثاني : الهيبة Prestige ، فمحنة الفلسطينيين تشغل قدرا كبيرا في الضمير العربي إلى درجة أن كل حاكم عربي يريد أن يُرى كبطل فلسطيني .

أما ثالث الأسباب : فهو يتعلق بالثأر فيما بين العرب أنفسهم ، فالفلسطينيون غالبا ما يستخدمون لخدمة الأنظمة العربية بعضها ضد البعض الآخر ، من وقت لآخر ، لذا تحاول معظم الدول العربية السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية ، وعندما يفشلون في ذلك فإن بلدانا كسوريا أو العراق ينشئون الفصائل الفلسطينية الخاصة بهم لاستخدامها ضد منافسيهم أو ضد منظمة التحرير الفلسطينية نفسها .

ولكنه لا توجد دولة في المنطقة أكثر انشغالا بالفلسطينيين من إسرائيل ، فكما أوضح لي ضابط استخبارات إسرائيلي سابق فإن إسرائيل استهدفت مجموعات فلسطينية من كل الألوان السياسية طول ربع القرن الماضي . وكان عليها أن تفعل ذلك وإلا فإنها تدمر نفسها بنسيان مسئوليتها القومية .

من أجل هذا ركزت إسرائيل في تخطيطها أساسا على التجمع السكاني الفلسطيني الكبير الذي صار تحت حكمها بعد حرب الأيام الستة عام 1967 ، والتي تمارس عليهم سلطاتها في الحياة والموت ، فكانت تحصل على العملاء الفلسطينيين بأعداد كبيرة من خلال قيام شين بيت « إدارة الأمن العام ، أي الخدمة السرية » بشرائهم أو إكراههم ، كما كان هذا يتم بمعرفة الموساد « إدارة الاستخبارات » ، فاعتادت على سحق المقاومة في المناطق المحتلة ، والتسلل في داخل جماعات الفدائيين بالخارج . وقد جاء في تقرير كتبه المراسل الحربي الإسرائيلي ذو السمعة الطيبة زعيف شيف ، في الجريدة الإسرائيلية اليومية « ها أرتس » في 21 أغسطس 1989 أن المخبرين أو

المتعاونين في الأراضي – وهم النوعية من البشر الذين كانوا ضحايا قتل وحشي يقوم به رفاقهم من الفلسطينيين أثناء الانتفاضة – قد بلغوا قرابة خمسة آلاف .

قامت إسرائيل منذ عام 1967 بحملة تجنيد لعملاء فلسطينيين سميت – بحق – العملية فيضان نظرا لكثرة من تم الإيقاع بهم . قال لي ضابط الاستخبارات الأردني : « إن الإسرائيليين يعملون من أجل الكمية » . « إنهم غالبا يحاولون تجنيد كل طالب فلسطيني يسافر إلى دولة عربية » . وهم بهذه الطريقة لا يمكن أن يخسروا ، فإذا وافق الطالب للعمل لحسابهم فإنهم يكسبون مخبرا ، وإذا رفض فإنهم لا يدعونه يعود إلى الأرض المحتلة فيتخلصون بذلك من فلسطيني آخر ! إن هؤلاء الشباب الفلسطينيين يقعون تحت ضغط كبير ، فإذا لم يتعاونوا فإنهم يخاطرون بعدم رؤية عائلاتهم مرة ثانية . وعادة ما يكون هؤلاء هم وحدهم الذين يتولون إعالة العائلة ، فليس بالتالي أمامهم أي خيار سوى العودة . ومن ثم فقد بدأو يكتبون للموساد من خلال صندوق البريد الذي يُعَلِّمونه .

وبفضل المعلومات التي تصل من مثل هؤلاء العملاء أصبحت إسرائيل ، بنهاية الستينيات ، قادرة على إجهاض عملية ميلاد أي حرب عصابات يأمل الفلسطينيون في شنها ضدها ، وأن تظل إسرائيل مسيطرة على المشكلة الفلسطينية .

موت مُشغّل للعمــلاء :

في ربيع عام 1991 ، وفي قبرص ، استطعت إجراء مقابلة مع ضابط استخبارات متقاعد من فتح ، في أعقاب مباحثات كان قد سبق الإعداد لها . كان الرجل طويلا ، نحيلا ذا أنف طويل ، وعينين حزينتين . ادعى أنه غرر بأحد مشغلي عملاء الموساد ، المدعو باروخ كوهين إلى مقتله في مدريد عام 1973 . كان كوهين قد أقام شبكة واسعة في أوروبا قوامها مخبرين من الطلبة الفلسطينيين استخدمها لاختراق حركات الفدائيين .

شرح لي ضابط فتح في البداية كيف نصب الفخ . ففي عام 1972 عندما كان يدرس في أسبانيا ويعيش على ما يبعثه له أخوه من الكويت ، أعطته فتح تعليمات

كي يكتب لأبويه في الأراضي المحتلة بأنه في حاجة شديدة للمال لدرجة أنه كان يفكر في التخلي عن دراسته . وكانت فتح تعلم أن الموساد تراقب البريد ، وبعلمهم بموقفه المالي الصعب سوف يعتبرونه قابلا للتجنيد . وبالفعل حدث بعد مدة قصيرة ، في أكتوبر عام 1972 أن تلقى الفلسطيني مكالمة هاتفية من رجل دعا نفسه سامي حداد ، كان يتحدث العربية بلكنة أهل القدس قائلا إنه كان صديقا لأخيه في الكويت . رتب الاثنان مقابلة في فندق بلازا في مدريد .

كان رجلا صغير الجسم لطيفا ، كما قال لي الضابط السابق بفتح . بدأ على الفور يتكلم بمرح ويلقي بالنكات ، موضحا كم من العبء المالي يتحمل الأخ في الكويت ، ذاكرا الشكوى التي أرسلت إلى الأبوين بخصوص القصور في النقود . تحدث ضابط فتح إليه كما لو كان يصدق أنه صديق العائلة ... وفجأة استدار الرجل ليخبره أنه يعمل مع الموساد ، وطلب منه أن يعمل معه .

لم يكن للفلسطيني أية اتصالات سابقة أو تعامل مع الإسرائيليين منذ غادر الضفة الغربية قبل حرب 1967 ، لذا فقد هب واقفا وقال إنه لا يستطيع أن يستمر في الحوار . فقال له سامي حداد بازدراء : اجلس ، إن لدي خطابا لك من أبيك . قال له : « أنت كاذب لأن أبي لا يستطيع الكتابة » .

لقد كان الخطاب مكتوبا بخط يد أخيه الأصغر ، وهو صبي في الصف السادس اعتاد على كتابة خطابات والده التي يرسلها إليه .

قال له حداد : « إن عائلتك في قبضتنا » ، وأنت مسئول عن أرواحهم ، فإذا أردت أن يبقوا أحياء فعليك أن تنصاع تماما لما أقوله لك » .

وافق الفلسطيني على إمداد حداد بالمعلومات التي يطلبها ، متظاهرا بأنه قد فزع بالقدر الكافي -- وكان المطلوب بصفة أساسية ، معلومات عن نشاطات الطلبة الفلسطينيين ، وتجمعات الطلبة في أسبانيا ، وعن مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في مدريد لذا فقد كان يقدم له تقريرا منتظما عن هذه الأمور كل ثلاثة شهور .

قال له سامي حداد ، في إحدى المقابلات السرية ، إنه قد استدعي إلى تل أبيب

للتحري عن الجبهة الحمراء ، وكانت شبكة تجسس من يهود وعرب يساريين قيل إن سوريا تمولها . لكن ، كما قال ضابط فتح المتقاعد ، فإن عملاء فتح في مدريد ، الذين كانوا يضعون حداد تحت المراقبة ، قد علموا أن وجهته الحقيقية ، ليست تل أبيب ، ولكن بروكسل حيث قاعدته في السفارة الإسرائيلية ، كما اكتشفوا أن اسمه الحقيقي هو الكولونيل باروخ كوهين ، وأنه متورط في قتل مندوبين من منظمة التحرير الفلسطينية في أوروبا هما : « وائل زعيتر » ، في روما في أكتوبر 1972 ، ومحمود الهمشري ، في باريس ، في شهر ديسمبر . قال لي مصدري الفلسطيني إن فتح قررت قتل باروخ كوهين عند عودته إلى مدريد .

قابل الفلسطيني كوهين مرة ثانية في منتصف يناير ، عندما كان الأخير يعطيه تعليماته للتوجه إلى لبنان لاختراق أحد خلايا أيلول الأسود ، التي كانت تعمل في بيروت . واتفقا على أن يتقابلا مرة ثانية يوم 26 يناير للاتفاق على التفاصيل في قهوة لابالما في شارع جوسي أنطونيو ، لكن الفلسطيني أتى معه هذه المرة بشريك مسلح بمسدس ، انتظر عند كشك للجرائد بالقرب من مدخل القهوة . وعندما خطا كوهين خارجا من القهوة أطلق عليه النار من مسافة قريبة ، وهرب الفلسطينيان لكن نجاحا كهذا لمنظمة التحرير الفلسطينية يعد أمرا نادرا . قال لي أبو إياد إنهم نجحوا في قتل ستة عملاء للموساد على مدى سنوات ، لكنهم فقدوا العديد من رجالهم ، لقد كان صراعا غير متكافئ .

من الاختراق إلى الاستغلال :

وكما أظهرت لنا قضية باروخ كوهين فإن اختراق إسرائيل للمنظمات الفلسطينية كان شائعا ، لكن هذا لم يكن القصة كاملة ، فكل مصادر الاستخبارات الذين سألتهم وافقوا على أن استخدام العملاء في الاختراق كان معيار الممارسة ، ليس لتحييد أو تدمير العدو ، ولكن لمحاولة تشغيله بحيث ينفذ ما يطلب منه دون أن يهتم بما يفعل . فإذا ما نجحت الممارسة ، فإن منظمة العدو تصبح امتدادا عفويا لهذا الشخص . وبالنسبة لمن يمارسون الأعمال المضادة للتجسس فإن هذا يعد مادة أحلامهم .

وتحتج هذه المصادر الاستخبارية بقوله : إن إسرائيل كانت مهتمة بأن ترى متطرفا فلسطينيا مثل أبو نضال وقد تم استثارته أو استغلاله بسبب ما يستطيع أن يحدثه من تدمير داخل الحركة الفلسطينية . لقد أصبح أبو نضال بوضوح ، أداة تستخدم ضد عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ومن الأفضل كثيرا تشجيعه على قتل الموالين لعرفات إذا استطاع .

ويشرح جيرار شليان Géeard Chaliand ، وهو خبير فرنسي في الحرب غير النظامية ، في كتابه : « الإرهاب : من النضال الشعبي إلى المظاهرة الإعلامية 1989 » كيف تلعب دولة ما أحيانا على المتناقضات الداخلية للفدائيين أو حركة التحرر ، ربما من خلال استغلال إحدى الفصائل الصغيرة التابعة لها . وقد استشهد بمثال الشرطة السرية البرتغالية PIOE التي خططت لاغتيال أميلكار كابرال Amilcar Cabral ، زعيم الحركة المناهضة للبرتغال في غينيا بيساو ، والرأس الأخضر ، وذلك من خلال استغلال أعضاء في حزب كابرال PAIGC . كان الغينيون السود قد وعدوا بالاستقلال بشرط التخلص من الطائفة ذات الأصول القادمة من الرأس الأخضر ، التي كان كابرال واحدا منها . وهناك العديد من الأمثلة لمثل هذه التكتيكات المنحرفة للصراعات التي تتبعها أجهزة الاستخبارات ضد الثوار في أجزاء كثيرة من العالم .

لكن الحقيقة أن استغلال حركات التحرر التي حدثت في أي مكان ليس مشابها لما حدث في حالة أبو نضال . ومع ذلك ، فقد أضاء لي الطريق . لقد قررت أن أرقب عن كثب شلال القتل الذي أصاب معتدلي الفلسطينيين ، مركزا بصفة خاصة على خمسة فلسطينيين مشهورين ، من الحمائم هم : الحمامي ، ياسين ، قلق ، خضر ، والسرطاوي ، الذين قتلوا في لندن ، والكويت ، وباريس ، وبروكسل ، والبرتغال في المدة بين عامي 1978 ، 1983 ، كما ادعى أبو نضال . سألت متعجبا ، هل كان هناك يد لإسرائيلي في هذه القتلات ؟

لقد كان هناك العديد من الدلائل على اختراق إسرائيلي للمجموعات الفلسطينية ، لكن بحسب ما قاله لي الجنرال الإسرائيلي المتقاعد من خدمة الاستخبارات العسكرية إن الاستغلال يعتبر شيئا آخر .

القنبلة والرصاصة :

على مدى التاريخ الحديث للفلسطينيين ، قتل منهم الكثيرون على أيدي إسرائيل ورفاقهم العرب على حد السواء . وخلال أكثر من أربعين عاما من نزيف الدم فإن الفلسطينيين قد قتلوا : في حرب 1947-1948 التي أدت إلى قيام إسرائيل ، وحرب 1967 التي هزم فيها اليهود باقي الفلسطينيين ، وأثناء القتال مع الملك حسين في الأردن ، وعمليات الإخماد التي قام بها الجنرال آريل شارون سواء في غزة عامي 1957-1971 ، وكذا المعارك في لبنان ضد المارونيين ، وضد سوريا من عام 1975-1977 ، وخلال مرتي الغزو الإسرائيلي للبنان عامي 1978 ، و 1982 ، والقتال بين الفلسطينيين أنفسهم أثناء تمرد فتح عامي 1983 ، وحرب المخيمات بين الفلسطينيين والشيعة عامي 1986-1987 ، فضلا عن عمليات إسرائيل لإخماد الانتفاضة منذ عام 1987 وصاعدا ، وقصفهم المتكرر للمخيمات والمواقع الفلسطينية حتى الآن ، وبطبيعة الحال ، العقاب الذي وقع على الفلسطينيين في الكويت ، وأماكن أخرى لموقفهم المنحاز لصدام حسين خلال حرب الخليج عام 1991 .

وفضلا عن القتل في ميادين المعارك هذه ، فإن المقاومة قاست من العديد من الاغتيالات . وكما هو واضح من القائمة التي ذكرتها في البداية ، فإن العديد من الشخصيات اللامعة قد أطلق عليهم الرصاص فقتلوا ، أو تم نسفهم ، سواء بواسطة إسرائيل أو أبو نضال . ولقد أفلت ياسر عرفات من الاغتيال حتى الآن – ومع ذلك فقد كان هروبه صعبا عدة مرات ، خاصة أثناء حصار الإسرائيليين لبيروت عام 1982 ، ومرة ثانية عام 1985 عندما قصفت إسرائيل مقر قيادته في تونس بالطائرات . وفي نفس الوقت أعجز قتل العديد من القريبين منه منظمة التحرير الفلسطينية .

لقد بدأت بالعرض للخلفية السياسية لقتل المعتدلين . وقد كان انفصال أبو نضال من فتح ، النزاع الأكثر إحداثا للخسائر في تاريخها ، إذ وقع في أكتوبر 1974 ، في وقت حرج في مسار حركة المقاومة ، إذ كان ياسر عرفات قد تمكن من إقناع قادة العرب بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، وكان قد طوع نشاطات أيلول الأسود ، ووضع حدا للنشاط الإرهابي

لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وذهب يلقي خطابا في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فكسب مقعد مراقب لمنظمته . لقد أدت جهوده من أجل إقناع أتباعه بإحلال العمل السياسي بدلا من الصراع المسلح إلى أن أظهرت بوضوح أنه أراد تسوية سلمية مع إسرائيل .

وكما رأينا ، فإن هذا المنهج كان بمثابة تهديد قاتل لكل من المتشددين الإسرائيليين والفلسطينيين ، وعلى مدى السنوات التالية فإن عرفات قد وجد نفسه بين نارين ، لا يعد أي منهما حميما .

ويعتبر اليمين الإسرائيلي أن أي تنازل للقومية الفلسطينية بمثابة اجتثاث لمشروعية المشروع الإسرائيلي ، وتهديد لتكامل أرض إسرائيل . وما وجده هؤلاء المتشددون خطرا على وجه الخصوص هو أن عرفات قد نجح في تغيير إدراك العالم للمشكلة الفلسطينية من مجرد نزاع حدودي بين العرب وإسرائيل ، يتضمن تشريد بعض اللاجئين ، إلى صراع من أجل تحديد المصير تقوم به حركة تحرر وطنية .

وقد كان للتعاطف الكبير الذي كسبه عرفات لمنظمة التحرير الفلسطينية أثر دفع إسرائيل إلى الإسراع في وقف الصورة الدولية المتنامية لعرفات .

وعندما كان إسحاق رابين - من حزب العمل الإسرائيلي - رئيسا للوزراء ، فإن الموقف الإسرائيلي تجاه الفلسطينيين كان سلبيا بقدر كبير : فلم يكن رابين يهتم بتشجيع المعتدلين من منظمة التحرير الفلسطينية ، وكان يعارض قيام دولة فلسطينية ، بيد أن السياسة تحولت إلى عنف ورفض لا يفتر بمجرد أن تولي ميناحيم بيجين السلطة في مايو عام 1977 . ومع ذلك فقد قام عرفات بإدارة سياسته بنشاط تجاه الاعتدال ، وكان بيجن قد قرر عدم إعطائه أي قدر صغير من الاعتراف ، ولا بوصة واحدة من الأرض . وقد كان بيجين ، وخلفه إسحاق شامير يعتبران المعتدلين الفلسطينيين هم أعداؤهم الحقيقيون ، لكونهم يعبئون الرأي العام في العالم وفي إسرائيل لصالح التسوية السلمية ، ويحاولون دفع إسرائيل إلى محادثات قد تؤدي إلى تنازلات إقليمية .

ولم تخف إسرائيل رفضها الكامل للتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، عندما اكتشفت جهود الإدارات الأمريكية المتابعة لإنجاح محادثات سلام . وقد صرح يوسي بن أهارون ، المدير العام لمكتب رئيس الوزراء ، والمستشار السياسي لإسحاق شامير ، والرجل ذو النفوذ ، عام 1986 حول سياسة إسرائيل تجاه المنظمة فقال :

« لا توجد أية فرصة للانقسام بداخل المعسكر الإسرائيلي بين الليكود والعمل إن هناك في الحقيقة تعاونا وفهما مشتركا ، خاصة فيما يتعلق بحقيقة أن منظمة التحرير الفلسطينية لا يمكن أن تشارك في مناقشات أو أي شيء ... ولا يمكن لأي شخص له اتصال بالمنظمة أن يعرض لمشكلة الفلسطينيين . وإذا كان هناك أي أمل في وضع ترتيبات تؤدي إلى حل هذه المشكلة ، فإن الشرط الأول سوف يكون اجتثاث منظمة التحرير الفلسطينية من جذورها في هذه المنطقة سياسيا ، ونفسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، وأيديولوجيا . فلا يجب الإبقاء على أي بقايا تأثير .... » .

كانت استراتيجية إسرائيل لتدمير منظمة التحرير الفلسطينية بكل الوسائل الممكنة تتضمن إرسال وحدات كوماندو مدربة لاغتيال القادة الفلسطينيين ، ولشن حرب واسعة النطاق في لبنان عام 1982 من أجل التصفية الجسدية لمنظمة عرفات . لم يكن من غير المستبعد ، من أجل ذلك استخدام أبو نضال لقتل الشخصيات الهامة من معسكر عرفات ، وكان تحالف الرافضين أمرا معقولا .

وبمجرد أن اعتبرت إسرائيل أن منظمة التحرير الفلسطينية تهديد يتعين إزالته ، لذا فقد صنف أبو نضال عرفات بوصفه خائنا لاعتباره تسليم 80 بالمائة من أرض فلسطين لإسرائيل ، فكأنه قد قضى على معظم الفلسطينيين بعدم العودة على الإطلاق إلى وطنهم الأصلي . قبل عام 1974 كان أبو نضال بمثابة نقطة تجمع لليساريين من فتح الذين يوجهون النقد لعرفات . وبعد هذا التاريخ أصبح شيئا مؤديا إلى الموت ؛ لقد أحدث شرخا في الحركة الفلسطينية ، مضيفا إليها هوية إرهابية ، وفارضا الصمت على المعتدلين بقتلهم .

كان أبو نضال يبرر موقفه لتابعيه من خلال وصفه لعرفات ورفاقه في فتح بأنهم

العدو الداخلي ـ العدو الأكثر خطورة على الثورة الفلسطينية من العدو الصهيوني الخارجي لقد كانت فتح ـ في تقديره تدار بواسطة خونة يهددون بإغراق الثورة من خلال العمل على إيجاد حل سلمي مع إسرائيل . وكان منع هذا الاستسلام يعد أمرا حيويا ، من خلال ضرب العدو الداخلي الخائن .

فإلى أي مدى مارس أبو نضال وإسرائيل مستقلين نشاطيهما المضاد لمنظمة التحرير الفلسطينية على التوازي ، وإلى أي مدى تم تنسيق جهودهما ؟ قال لي مصدر الاستخبارات الذي حدثني : هذا هو اللغز الذي يهم كل جهاز استخبارات بحله .

لقد تصورت أنه يمكن الوقوف على بدائل مختلفة تفسر قتل المعتدلين الفلسطينيين ، فمثلا لو كانت ظنون أبو إياد صحيحه ، فقد يقتل أبو نضال الحمائم الفلسطينيين لأن إسرائيل رغبت في استئصال المعتدلين الفلسطينيين الذين أحدثوا تأثيرا لدى قادة الغرب ، لكنه أيضا قد يقتلهم لأنه يعتقد أنهم خونة اتفقوا مع العدو الإسرائيلي .

مع ذلك ، فيمكن المجادلة بأن الاستغلال الناجح لمنظمة معادية ظاهريا عادة ما يكون ممكنا فقط تحت ستار تفسير بديل . ولو أن بعض هؤلاء المعتدلين لم يتم الإساءة إليهم والتشهير بهم كخونة للثورة الفلسطينية ، في الجريدة التي يصدرها أبو نضال ، لكان قتلهم ، إذا كان القتل قد تم إدارته حقيقة من الخارج ، أمرا يصعب تبريره بوصفه الرد المناسب على الخيانة .

زد على ذلك أن العنف الذي مارسه أبو نضال جعل من اليسير على إسرائيل أن تصور كل الفلسطينيين كإرهابيين وقتلة ، وأن تعرف منظمة التحرير الفلسطينية كجماعة خارجة على القانون لا يمكن التفكير في التعامل معها سلميا . تواءم هذا تماما مع وجهة النظر الإسرائيلية بأنه لا يجب السماح للمنظمة بالإفلات من وصمة الإرهاب ، أو أن تقبل كشريك في عملية السلام ؛ إذ كيف تتفاوض مع رجل يريد قتلك ؟ كان هذا هو السؤال الإسرائيلي المألوف .

حملة القتـــل :

خرجت طلقة واحدة يوم 4 يناير 1978 لتستقر في رأس سعيد الحمامي ، سفير

عرفات إلى لندن ، وتقتله وكان يعد من الحمائم : بصق في وجهه المسلح ، طويل القامة ، عليه وناداه بالخائن أثناء إطلاق النار عليه ، ثم هرب . وكان الرئيس السادات قد زار إسرائيل قبل هذا ببضعة أسابيع ، في مبادرة جسوره أكبرها الغرب معتبرا إياها بمثابة انطلاقة ، بيد أن الكثيرين من العرب اتهموه بالخيانة . وكذلك عرفات اتهم السادات ، لكن بتردد كبير أدى بالرافضين العرب إلى الشك في أنه نفسه كان يريد الذهاب إلى إسرائيل . وقد علم الجميع أنه شجع الحمامي ، رجله في لندن كي ينقل مشاعر السلام إلى اليسار الإسرائيلي . كانت مثل هذه الاتصالات تعد خيانة في نظر أبو نضال ومن يؤيدهم العراق ، وبالتالي فهي تستحق الموت .

كان الحمامي واحدا من أكثر الفلسطينيين بلاغة في الدفاع عن التعايش السلمي بين الفلسطينيين والإسرائيليين . ومنذ عام 1975 وصاعدا أجرى سلسلة من المقابلات مع إسرائيليين يشنون حملة للسلام ، خاصة مع الكاتب ورئيس التحرير يوري أفنيري Vri Avnery الذي منح كتابه صديق العدو 1986 دفعة للخصوم السريين ، لكن غير المنتجين .

كان الحمامي هو الأول في سلسلة قتل الإرهابيين ، الذين قتلوا على مدى الخمس السنوات التالية ، وكان أكثر المتحدثين الرسميين الفلسطينيين فكرا وإقناعا في الغرب . أصبح واضحا الآن أن عرفات قد أصبح مستعدا للحديث عن السلام ، لذا اتجه بعضهم لتحطيم دبلوماسيته وتركه خائر القوى . نتج عن هذا جنوح المعتدلين في الحركة الفلسطينية إلى الصمت ، ولم يعد سوى قلة لديهم الجرأة لمتابعة الاتصالات مع اليسار الإسرائيلي .

ولقد أظهرت هجمات « اضرب واهرب » كيف أن هؤلاء الحمائم التابعين للمنظمة معرضون ، وأن حمايتهم في أسبقية متأخرة بالنسبة لقوات الشرطة الأوروبية .

ومع ذلك فقد قررت الشرطة البريطانية أن قاتل الحمامي كان كايد حسين « الذي يسمى أحيانا أسعد كايد » وهو تونسي عضو في منظمة أبو نضال ، ومسجل في لندن كطالب .

وفي يوم 13 فبراير 1978 ، بعد أقل من شهر من قتل سعيد الحمامي عقدت مقابلة في لندن لتكريمه ، وكان أحد المتحدثين هو كلود بوردية Claude Bourdet ، أحد الشخصيات القيادية في المقاومة الفرنسية أيام الحرب ، ومؤسس الجريدة السرية كومبا Combat ، فهو ليس غريبا عن أعمال الاستخبارات . وقد لخص خطابه في الكلمات التالية :

« هل يمكن ألا يكون المدبرون لمقتل سعيد – بخلاف هؤلاء الناس الذين ضغطوا على التتك ، أو الذين حموا القاتل ، وحتى بخلاف هؤلاء الذين أمروا بالقتل ، ولكن من الممكن أن يكون هؤلاء الذين فتنوا بالمكر والخداع وبالحيلة من لهم عقول أقل قدرة على التدبير – قد اختلقوا موقفا يؤدي بمدبري القتل إلى الاعتقاد بأنهم يؤدون خدمة للعرب ، وللقضية الفلسطينية ... .

إن هناك العديد من الطرق لاستثارة القتل ، بخلاف القيام به وبخلاف الأمر به .

وليست هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يستغل فيها عملاء أجانب الراديكاليون ، بطرق لا يمكنهم أنفسهم أن يفهموها » .

لقد كان تقدير بورديه أن قاتل حمامي ربما استغله عملاء أجانب ، هذا مجرد تخمين ، بيد أن العملاء الأجانب الذين كانوا في عقله هم الإسرائيليون ، كما صرح بذلك .

لذا فقد قلت في نفسي إن هناك خبيرا فرنسيا يشارك أبو إياد ظنونه .

كان لدى كل من إسرائيل ، والرافضين المبرر لقتل حمامي . أبغضه أبو نضال وقادة العراق للهجته التوفيقية . ولقد علمت من أبو بكر أنه في الشهور السابقة على موت حمامي طلبت منظمة أبو نضال منه أن يدعو لمؤتمر صحفي يشهر فيه بعرفات ، لكن حمامي رفض . وقد كان المتشددون الإسرائيليون أيضا يمقتونه بسبب دفاعه عن فكرة حل الدولتين ، وبسبب تأثيره على الرأي العام في بريطانيا . كان واضحا أن رجل أبو نضال قد قام بفعلته بتصديق من العراق . ولكن هل قامت إسرائيل بعملية استغلال إذ أوحت بعملية القتل ؟ حتى الآن كما أستطيع أن أرى

فإنه لا يوجد أي دليل على هذا ويبقى السر لم يكشف بعد .

وفي الثامن عشر من فبراير 1978 بعد بضعة أيام من عملية قتل حمامي ضرب أبو نضال مرة ثانية ، فقد اندفع اثنان من رجاله إلى ردهة فندق هيلتون بنيقوسيا وقتلا يوسف السباعي ، الكاتب المصري ورئيس تحرير الأهرام ، رميا بالرصاص ، وكان السباعي من المقربين للرئيس السادات الذين رافقوه إلى القدس . كان الهدف هو معاقبة السادات ، وإذاقته طعم ما يمكنه نفسه أيضا أن يتوقعه .

وفي تونس قال لي بعض من انشقوا على منظمة أبو نضال أن العملية نفذت بإشراف سميح محمد خضر « واسمه الكودي زهير الرباح » ، وهو أحد أخطر رجال العمليات الخارجية لدى أبو نضال ، بالتنسيق مع الاستخبارات العراقية . بدا هذا مقبولا حيث كان العراق آنذاك يتزعم حركة طرد مصر من المنظمات الإقليمية بسبب اتصالاتها مع إسرائيل .

وبمجرد أن قتل السباعي ، احتجز المسلحان بعض نزلاء الفندق ، وطلبا طائرة قبرصية فأعطياها ، وطارت حول المنطقة بحثا عن مكان للهبوط ، لكنها عادت أدراجها إلى لارناكا Larnaca ، في الوقت الذي كان السادات قد أرسل قوات كوماندو مصرية للتغلب على الرجلين وإطلاق سراح الرهائن . استاء القبارصة من هذا التدخل الأجنبي ، وعندما هبط المصريون اشتبك معهم الحرس الوطني القبرصي مدة ساعة قتلوا خلالها خمسة عشر رجلا ، وتبادلت قبرص ومصر الاتهامات اللاذعة ، وأطلق الرجلان الرهائن وسلما نفسيهما .

قتل ياسين وقلق :

وبعد بضعة شهور هوجم ثلاثة سفراء مرموقين لمنظمة التحرير الفلسطينية . ففي 15 يونيو 1978 ، أطلق الرصاص على علي ياسين ، ممثل فتح في الكويت وأحد المعتدلين ، في منزله فقتل ، وفي يوم 3 أغسطس 1978 قتل في باريس عز الدين قلق ، مندوب المنظمة في فرنسا ، وكان رجلا مثقفا ، جذاب الحديث ، مخلصا ، أثر بشكل ملحوظ على الرأي العام في فرنسا ، وبعد ذلك بيومين في 5 أغسطس

هاجم مسلحان في مكتب المنظمة في إسلام أباد ، فقتلوا أربعة رجال لكنهم أخطأوا يوسف أبو حنتاش مندوب المنظمة هناك .

وعلى الفور وجهت منظمة التحرير الفلسطينية الاتهام إلى أبو نضال وإلى العراق . ولقد أثار مقتل ياسين غضبا خاصا ، إذ قال لي أبو إياد : « لم أرغب على الإطلاق في قتل أبو نضال حتى جاء اليوم الذي قتل فيه علي ياسين » . وأضاف قائلا : « إنه حاول قتله عدة مرات ، وفي إحدى المناسبات أخذ الأسلحة بالفعل إلى بغداد بنفسه أثناء إحدى زياراته الرسمية ، بيد أن الاستخبارات العراقية وفرت حراسة آمنة لأبو نضال كتلك التي توفرها للرئيس البكر أو لصدام حسين » .

كان ياسين صديقا للجميع ، كان أيضا صديقا لأبو نضال ، بل كان يمده وهو في بغداد ، بالسيارات وبالهدايا من الأدوات الكهربية التي يرسلها له من الكويت ، كان مقتله شيئا منكرا وغير مفهوم لدى الحركة الفلسطينية .

وللانتقام لياسين قامت فتح بإطلاق الصواريخ على السفارة العراقية في بيروت يوم 17 يوليو 1978 ، وبعدها بيومين اقتحموا مكتب أبو نضال في طرابلس بليبيا ، وقتلوا رجلين من أعضائه . وفي يوم 24 يوليو زرعت فتح قنبلة خارج السفارة العراقية في بروكسل ، وفي يوم 28 يوليو نجا السفير العراقي في لندن من محاولة لقتله . وفي 31 يوليو حاول أحمد شقيق سعيد حمامي احتلال السفارة العراقية في باريس ، وفتح النيران على أعضائها فقتل مفتشا فرنسيا .

ثم قتل قلق يوم 3 أغسطس عام 1978 في باريس ، « في وقت واحد مع عدنان حماد شقيق نمر حماد مندوب المنظمة في روما الذي تصادف أنه كان يزور قلق » . كان مكتب قلق فوق قهوة . وفي طريقه لمكتبه لوح لطالب تعرف عليه كان يجلس إلى منضدة ، وكان هو نفسه قاتله ، وعندما شعر قلق أن الطالب قادم خلفه حاول حماية نفسه بأن دفع بدولاب ليغلق به الباب ، لكن القاتل كسر الباب ونحى الدولاب جانبا . وكما في حالة حمامي فقد سمع القاتل وهو ينعته بالخائن قبل أن يطلق الرصاص ويلوذ بالهرب .

كان قاتل قلق هو نفسه التونسي كايد حسين الذي قتل حمامي في لندن ، ثم انتقل إلى باريس وسجل نفسه في مدرسة للغات . ما يحيرني هو من المسئول هذه المرة ؟ هل العراق ، أم أن جهة أخرى تورطت ؟

جاءت الإجابة بعد بضعة أشهر ، في نوفمبر 1978 فعندما انعقد مؤتمر قمة عربي في بغداد من أجل إدانة مصر لتوقيعها اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل . وفي تلك المناسبة تصالحت سوريا والعراق مؤقتا . وعندما كان يعد الرئيس السوري نفسه للسفر إلى بغداد قرر أن يأخذ معه ياسر عرفات وأبو إياد حتى يمكنهما أيضا التصالح مع الرئيس العراقي البكر ونائبه صدام حسين ، ويضعا نهاية للحرب القائمة الدائرة بين العراق والمنظمة ، والتي سببها دعم العراق لعمليات القتل التي يقوم بها أبو نضال ضد معتدلي المنظمة .

أقام البكر حفل استقبال في منزله للوفود العربية الزائرة ، واضطر لدعوة عرفات على الرغم من أنه لم يكن بينهما حديث . وفي وقت ما في المساء ، لم يعد البكر قادرا على أن يمسك نفسه ، فاتجه البكر إلى عرفات وصرخ في وجهه » حسب رواية شاهد عيان هو خالد الفاهوم ، المناضل السياسي الفلسطيني الذي حكى لي القصة « : تماما ! نحن قتلنا حمامي ! نعم فعلناها . لكننا لم نتورط في الأعمال الأخرى لأنه لم يكن يهمنا قتلهم !

كان من الصعب تفهم ما سوف يكسبه البكر من الكذب ، فقتل المعارضين كان أمرا يقوم به هو ونائبه صدام حسين كل يوم . لم يكونا يخجلان من ذلك . وبإنكار المسئولية عن قتل ياسين وقلق فإن البكر كان بالتأكيد يقول الحقيقة . قال لي أبو إياد بعد ذلك أن رئيس الاستخبارات العراقية سعدون شاكر ، ووزير الخارجية طارق عزيز ، أيضا أنكرا بشدة أي تورط للعراق في هذه القتلات ، وكان أبو إياد يميل إلى تصديقهما .

وفي عام 1987 واجه أبو إياد طوال ليلة كاملة أبو نضال في الجزائر في مقابلة دبرتها الاستخبارات الجزائرية ، فأقر أبو نضال بقتل حمامي ، لكنه كرر إنكار أن

يكون له أي يد في قتل ياسين وقلق . وقد قال لي بعض المنشقين عن أبو نضال أنه حتى في منظمته التي تمارس العزل المكاني بدقة في داخلها ، فقد كانت هناك حيرة حول هذه القتلات ، وكانت كل دائرة تتهم الأخرى .

فإذا لم يكن أبو نضال ، ولا العراق قد أمرا بالقتل ، فمن ذا الذي فعل ذلك ؟ ربما كان هناك إيحاء من متدخل خارجي . قلق في باريس ، وياسين في الخليج كانا رجلين يسعيان من أجل السلام وتسوية مع إسرائيل ، تتضمن تنازلها عن أراضٍ . كان الاثنان من مؤيدي التعايش الإسرائيلي / الفلسطيني ، تبنى حل الدولتين ، الأفكار التي تحرمها كتلة ليكود ، وائتلافها الحاكم في إسرائيل . وبالتأكيد لم تكن تناسب نظرة بيجين إلى منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها : « أسوأ منظمة — بخلاف منظمات القتل النازية — ظهرت في تاريخ الإنسانية » .

قتل علي حسن سلامة :

وسواء أكان للإسرائيليين يد في مقتل قلق وياسين ، فإنهم قاموا بقتل فلسطينيين آخرين بدون مساعدة أحد . وخلال بضعة أسابيع من مؤتمر قمة بغداد في 22 يناير 1979 ، قتلت سيارة إسرائيلية ملغومة في شارع ببيروت رئيس إدارة الأمن بفتح ، علي حسن سلامة « وكان يدعى أبو حسن » ، ومعه أربعة من حراسه الشخصيين وخمسة من المارة . وكانت هذه ضربة قوية في إطار حرب إسرائيل ضد المنظمة .

جرت الشائعات بأن إسرائيل كانت تثأر من عمليات سلامة في أيلول الأسود منذ خمس سنوات مضت . كان سلامة نائب أبو إياد في رصد المركزي ، جهاز مكافحة التجسس الذي أقامته فتح عام 1967 ، لكن تم حله أثناء الأزمة الأردنية عام 1970 . حينئذ تولى أحد مجموعات « أيلول الأسود » ، وكانت تسمى شبل التمر ، ونجحت في إلقاء قنبلة صغيرة على خزانات بترول في نزيستا في 5 أغسطس 1972 حيث حققت اتصالا سريا بعدد من شركات البترول . وفي الحقيقة فإنه لم يخطط لعمليات أخرى من نفس النوع ، بيد أن سلامة كان يتصف بالأمانة ، وكان هذا من الأسباب التي دعت عرفات لإحضاره وتعيينه قائدا لحرسه الخاص ، الوحدة التي صارت تسمى « القوة 17 » .

أدت الوظيفة المحترمة في فتح ، بالإضافة إلى الأمل في تسوية سلمية بعد حرب 1973 إلى حدوث تغيير في شخصية سلامة . وبناء على تعليمات مكتوبة لفتح بدأ سلامة علاقة استخبارية مع رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية « CIA » في بيروت ، أدت إلى أن تحول الإرهابي التابع « لأيلول الأسود » سابقا ، والذي كان يرغب في مهاجمة أهداف أمريكية ، فأصبح الآن حارسا للسفارة الأمريكية ببيروت أثناء الحرب الأهلية ورئيسا لعملية تأمين إخلاء المدنيين الأمريكيين عام 1976 . ولاستكمال دخوله في العالم المحافظ الجميل Conservative Beau Monde ، تزوج سلامة من زوجة ثانية ملكة جمال لبنانية ساحرة ، وملكة جمال العالم سابقا ، فتاة نصرانية هي جورجينا رزق .

استمرت العلاقات الأمريكية الوثيقة مع المنظمة في النمو في الوقت الذي قرر فيه جيمي كارتر دعم فكرة الوطن القومي الفلسطيني التي كان عرفات نفسه يدعو إليها . ذهب سلامة مرتين ليمكث في رئاسة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في لانجلي Langley ، وفرجينيا Virginia ، حيث أعطى لمضيفيه تقديرا دقيقا في عمق عن شخصية عرفات ، فكانت هذه هي المرة الأولى التي يستمع فيها ضباط الوكالة لشهادة أحد المقربين من الزعيم الفلسطيني . شرح سلامة لهم أن المملكة العربية السعودية هي التي تمول المنظمة ، وكذلك تفعل دول الخليج ، والرأسماليون الفلسطينيون ، وليست موسكو هي التي تقوم بذلك ، وأنه قد تم الإعداد لضمان أن الدولة الفلسطينية المستقبلة لن تكون شيوعية ، ولا إرهابية ، ولا دكتاتورية من أي نوع . وقال إن الفلسطينيين على استعداد لصداقة الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنهم ليسوا حريصين على تدمير إسرائيل .

وحسب مصادر الاستخبارات الغربية التي وصلتني فإن إسرائيل تعارض مثل هذه العلاقة ، كما قيل لي إنه بمجرد أن علمت إسرائيل باتصالات سلامة في لانجلي قرروا قتله ، ليس بسبب نشاطاته في « أيلول الأسود » لكن لأنه أصبح ضابط الاتصالات بين المنظمة ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية .

مقتل نعيم خضر :

استؤنفت عملية قتل مندوبي منظمة التحرير الفلسطينية بعد فترة . وقد كان نعيم خضر ، مندوب المنظمة في بروكسل ، مثل حمامي ، وقلق ، وياسين معتدلا بارزا ، فأطلق عليه النار وأردي قتيلا في الأول من يونيو 1981 . وتصادف أنه الوحيد النصراني بين سفراء المنظمة ، وكان قسا سابقا ، وقد اتهم أبو نضال عموما بقتله .

ومع ذلك فإن عميل الموساد السابق « فيكتور أوستروفسكي » Victor OstRovsky قال بصراحة إن الموساد هي التي قتلت خضرا ، فقد كتب في كتابه « By Way of Deception 1990 » : « أنه وهو في الطريق إلى العمل شاهد رجلا ، أسود البشرة ، يلبس جاكيت جلد ، وله شارب رفيع ، كان يسير متجها إلى خضر ، أطلق عليه خمس رصاصات في القلب ، وواحدة في الرأس ، ثم غادر المكان ليركب سيارة أجرة ، كانت تمر أمامه ، واختفى . وعلى الرغم من أن عرفات لم يعرف وقتها ، فإن الموساد ضربت ضربتها » .

قتل خضر في الوقت الذي كان فيه ميناحيم بيجين ، رئيس وزراء إسرائيل يولي اهتمامه الأكبر بلبنان . فبمجرد أن أخرج مصر من خط المواجهة العربية بتوقيع اتفاقية السلام عام 1979 ، توجه بيجن لوضع لبنان في فلك إسرائيل ، وبالتالي يتم تحييد سوريا .

ولقد عملت الموساد منذ سنوات على ترويض الزعيم النصراني بشير الجميل ليصبح وكيل إسرائيل في بيروت Israel's Proconsul in Beirut . ففي ربيع 1981 بدأ بيجين سلسلة من المناورات المعادية في لبنان – فقصف طائرتي هيليكوبتر سوريتين في شهر أبريل ، وأدار قصفا بحريا وجويا مكثفا على المواقع الفلسطينية خلال شهر مايو ويونيو – كان يأمل من خلال ذلك أن يستدرج سوريا والفلسطينيين إلى القتال . وكان عليه أن ينتظر حتى شهر يونيو 1982 ، حتى تتم محاولة لقتل سفير إسرائيل في لندن ، ليتخذ منها ذريعة كان في حاجة إليها لشن الحرب في لبنان ، التي كان يأمل أن يحقق من خلالها خطته الاستراتيجية .

وكان خضر ، رجل المنظمة في بروكسل ، واحدا من كثيرين من القادة الفلسطينيين الذين كانوا يتفهمون في ذلك الوقت أن من الحيوي عدم إعطاء بيجين الذرائع لغزو لبنان .

قام خضر بمكالمة هاتفية مع أحد أعضاء السفارة الإسرائيلية في بروكسل ، وطلب منه أن يقابله للبحث عن سبل لإنقاذ الموقف المتدهور في لبنان . بيد أن هذا كان آخر شيء يرغب الإسرائيليون في فعله ، وكما رأينا ، فإن المتشددين في إسرائيل مثل بيجين كانوا يخشون المعتدلين الفلسطينيين لا المتشددين – وهو خوف شارك فيه خلفاء بيجين – فالمعتدلون كان بإمكانهم الضغط على الرأي العام العالمي لإجبار إسرائيل على التفاوض ، ومن ثم تقديم تنازلات إقليمية .

وقد قال أوستروفسكي في كتابه أن خضرا قد قتل على يد رجل من الموساد ، لأنه كان يحاول أن يمنع حربا في لبنان . حرب كان يخشاها الفلسطينيون ، لكن الموساد وسادتهم السياسيون كانوا يرغبون في وقوعها ، لتدمير الفلسطينيين ، وليمكنوا لِرَجلهم الجميل من أن يرأس البلاد .

لم يكن أوستروفسكي كاتبا حذرا ، بل إنه لم يكن كما يبدو كاتبا على الإطلاق : فقد أشار إلى أنه استعان بالكاتب الكندي كلير هوي Claire Hoy لمعاونته بالكتابة ، لكن أحدا لم ينكر حتى الآن – حسب معرفتي – أنه عمل مع الموساد ، وأن ما كتبه فأطال فيه في الجزء الأول من الكتاب عن تجنيده ، وتدريبه ليس إلا أمرا موثوقا به . حاولت الحكومة الإسرائيلية بجد أن تمنع صدور كتابه ، ورفعت عليه قضية في نيويورك لوقف النشر . وفي كتاب « حروب إسرائيل السرية » Israel's Secret Wars 1991 ، الذي ألفه اثنان من الكتاب المحترمين : « إيان بلاك » Ian Black ، و« بني موريس » Benny Morris ورد أن كتاب أوستروفسكي أحدث إرباكا لدى الإسرائيليين ، وجاء في كتابهما : « إذا لم تنجح وكالة الاستخبارات في الحفاظ على أسرارها الداخلية بالغة الأهمية ... فكيف يمكنها أن تصبح فعالة ؟ » ... ومع ذلك فمن الصعب استبعاد ادعاء أوستروفسكي بأن الموساد قتلت خضرا .

أكدت لي مصادر من داخل منظمة أبو نضال مايلي : « مما لاشك فيه أنه في

صيف 1990 لم يكن الرجل الذي قتل خضرا إسرائيليا بل كان عضوا في منظمة أبو نضال ، وكان اسمه عدنان الرشيدي « واسمه الكودي هشام حجة » ، وأن السلاح الذي قتل به كان قد تم تهريبه إلى بلجيكا بمعرفة تونسي هو محمد أبو الجاسم وسلم إلى عدنان الرشيدي عن طريق مجهول .

بافتراض أن الوشاة الذين قابلتهم كانوا على حق ، فإن من الممكن أن نكون إزاء حالة مشاركة وتعاون بين الموساد ، وأبو نضال هي التي حاول أبو إياد إحاطتي علما بها ، مفترضا أن القاتل الذي تحدث عنه أوستروفسكي هو في الحقيقة الرشيدي . وطبقا لهذه النظرية فإنه إما أن تكون الموساد قد زرعت رجلها في منظمة أبو نضال ، أو حدث تواطؤ في المستويات العليا من القيادة ، فنجحت في التأثير على اختيار هدف أبو نضال .

بيد أنه يبقى الكثير والكثير من الحلقات المفقودة ، فإمكانية أن يكون الرشيدي هو نفسه رجل الموساد الذي قام بالقتل ، والذي تحدث عنه أوستروفسكي ، هو أمر يعتمد على دليل سماعي ، فهو غير مبرأ من الشبهات . وربما كان أوستروفسكي قد حصل على مبلغ من المال ليقول ذلك ، وربما يكون الوشاة من منظمة أبو نضال قد ضللوني . وعلى أية حال فإن مثالا بسيطا لما يمكن أن يكون اتصالا بين الموساد وأبو نضال لا يمكن اعتباره كافيا للتدليل على القضية ، فلربما لم يحدث هذا الأمر سوى مرة واحدة .

كانت هناك عودة بعد ذلك لقصة خضر ، التي جعلتني أكثر ارتيابا . ففي يوم 29 أغسطس 1981 ، وبعد مقتل خضر بثلاثة شهور اقتحم مسلحان تابعان لأبي نضال معبدا يهوديا في فيينا ، وقتلا يهوديين ، وجرحا تسعة عشر شخصا آخرين قبض على المسلحين ، واستجوبتهما الشرطة النمساوية . وحسب ما جاء في كتاب يوسي ميلمان Yossi Melman « أستاذ الإرهاب : القصة الحقيقية لأبي نضال » 1987 « The Master Terrorist : The True Story of Abu Nidal » ، فإن النمساويين أرسلوا صورا فوتوغرافية لأحد المسلحين ، الذي قبضوا عليه ، إلى فريق الشرطة البلجيكية الذي كان يحقق في عملية قتل خضر . ولقد تمكن شهود العيان لعملية إطلاق النار

على خضر من التعرف على هوية القاتل بأنه كان أحد المسلحين في عملية المعبد اليهودي في فيينا .

هاجم أبو نضال ، خلال السنتين السابقتين على اقتحام المعبد اليهودي ، عددا كبيرا من الأهداف اليهودية أو الإسرائيلية السهلة في أوروبا ، بيد أن معظم هذه الهجمات قد فشل . وفي يوم 13 نوفمبر 1979 ، مثلا حدثت محاولة لقتل إفرايم إلدر Efraim Elder ، السفير الإسرائيلي لدى البرتغال ، لكنها فشلت . ويوم 20 نوفمبر حدثت محاولة لإلقاء قنبلة على معرض بالقرب من القدس ، في فندق سالزبرج Salzburg ، أقامته الجالية اليهودية ، لكن المحاولة فشلت أيضا . ويوم 3 مارس 1980 تمت محاولة لقتل ماكس مازن Max Mazin ، وهو عضو بارز في الجالية اليهودية بمدريد ، لكنها أخطأته . وفي إحدى الحالات التي كان ظاهرها خطأً في التعرف على الشخصية ، قام القاتل بإطلاق النار على محامٍ أسباني هو « أدولفو كوتيللو » Adolfo Cottello ، الذي تصادف أنه كان يسكن ، أو يعمل في نفس المبنى .

فلو كانت الشائعات القائلة بأن إسرائيل اخترقت منظمة أبو نضال ، أو أنها تستغلها تحمل أي قدر من الحقيقة ، لأمكن أن تكون كل هذه العمليات الفاشلة مدبرة . بيد أنه في يوم 27 يوليو 1980 ألقى إرهابيو أبو نضال قنبلتين يدويتين على مجموعة من أطفال مدرسة أجودات يسرائيل في انتويرب Antwerp ، فقُتل فتى يهودي ، وجرح واحد وعشرون آخرون . وفي فيينا ، في أول مايو 1981 ، قتل هاينتس نيتال Heintz Nittal ، وكان عضوا بارزا في الجالية اليهودية بفيينا ، ورئيس جمعية الصداقة النمساوية – الإسرائيلية ، وصديق المستشار برونو كريسكي Bruno Kreisky .

فلو كان لإسرائيل عملاء بداخل منظمة أبو نضال ولها تأثير على انتقاء الأهداف ، فلم لم توقف مثل جرائم العنف هذه ضد اليهود ؟ إنه ليبدو لي إجمالا أنه من غير المقبول أن يعفو الإسرائيليون أو يتغاضوا عن قتل اليهود . إن الناس لتقبل أن يقتل الفلسطينيون فلسطينيين ، والروس روسا ، لكنه لم يعلم أن اليهود يقتلون يهودا . لقد كانت هناك حالة في بغداد عام 1950 – موثقة جيدا في كتاب عباس شبلاق

« خدعة صهيون » The Lure of Zion 1986 – قام فيها عملاء إسرائيليون بضرب أهداف يهودية بالقنابل لإجبار اليهود العراقيين على الهجرة إلى إسرائيل ، بيد أن هذه تعد حالة فردية . لم يكن أمامي من طريق يؤدي بي إلى النظر إلى الهجوم على مدرسة الأطفال اليهودية في بلجيكا باعتباره يتماشى مع النظرية القائلة بأن أبو نضال عميل إسرائيلي . وبوضوح ، لو أن الإسرائيليين اخترقوا منظمته ، فليس باستطاعتهم السيطرة عليها كلية . وبالطبع فإنه في الوقت الذي كان فيه أبو نضال غير قادر ، أو مترددا في مهاجمة أهداف إسرائيلية ، قام بالهجوم على أهداف يهودية غير إسرائيلية ، ليقنع العرب التابعين له أنه رغم ذلك معادٍ للسامية وأنه ليس بإمكان الإسرائيليين أن يوقفوه .

ومع ذلك فقد كانت هناك ظاهرة غريبة في القضية : إذْ لم يقم الإسرائيليون بمعاقبة أبو نضال ، رغم أنهم لا يتركون الهجمات ضد اليهود أو الإسرائيليين تمر دون عقاب ، فالسياسة الإسرائيلية المعلنة ، دائما هي الانتقام . إنه لغز محير .

ويبدو لي أن مقتل هينتس نيتال في فيينا ، وكان يهوديا ليبراليا بارزا ، عبر عن تعاطفه مع منظمة التحرير الفلسطينية ، ربما كان شيئا مختلفا . وأثناء عامي 1980-1981 كانت هناك دلائل في الدياسبورا « المنفى » اليهودي على تصعيد عدم الوفاق مع بيجين وتكتيكاته العدوانية المتشددة ، فقد انتقدت بعض الشخصيات اليهودية العالمية المعروفة ، مثل ناحوم جولدمان ، وفيليب كلوتسنيك ، وبيير منديس فرانس ، وبرونو كرايسكي ، السياسة الإسرائيلية صراحة . كان رجال مثل بيجين ، ووزير دفاع آريل شارون ، ينظرون إلى حملة السلام ، التي يقوم بها المستشار كرايسكي – يهودي المولد – مع صداقته لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ومقابلاته مع عرفات ، ودفاعه عن إقامة الدولة الفلسطينية ، بوصفها خيانة لقضية إسرائيل الكبرى . وحتى لو كان لا ينبغي لليهود أن يقتلوا يهودا ، فإني أتصور أنه مجرد أمر ممكن ، أن يقتل الإسرائيلي يهوديا يظن أنه خائن ، وكانت هذه هي نظرة بيجين لكرايسكي . من أجل هذا فربما أرسل الإسرائيليون أبو نضال وراء صديق كرايسكي ، هينتس نيتال حمامة السلام ، كإنذار ، الأمر الذي يشكل سلوكا يهوديا

مقبولا . وعلى الرغم من كون هذا مجرد تخمين فإنه يبدو لي مقبولا .

قتل عصام سرطاوي :

كان الدكتور عصام سرطاوي من شخصيات الحمائم البارزة في الحركة الفلسطينية بعد مقتل حمامي ، وياسين ، وقلق ، وخضر ، وكان بمثابة المثال الكامل للنوعية التي يمقتها كل من صقور إسرائيل ، والرافضين العرب . ولقد اتهمه أبو نضال مرارا وبشكل علني ، بأنه عميل إسرائيل . ففي مقابلة مع الجريدة اليومية الفرنسية المفضلة لوموند Le Monde يوم 22 يناير 1982 قال سرطاوي بجسارة :

« ليس أبو نضال مزايدا يخدم قضية الجبهة الرافضة ، لكنه مارق في خدمة إسرائيل . ولقد أعلن جهاز الخدمة السرية النمساوي ، دون أي شك ، أن الذراع الأيمن لأبو نضال لم يقتل فقط المستشار بالبلدية هينتس نيتال في أول مايو 1981 ، وقام بمهاجمة المعبد اليهودي في فيينا في أغسطس فحسب ، بل إنه قتل في أول شهر يونيو نعيم خضر ، مندوب المنظمة في بروكسل .

فمن بخلاف إسرائيل يمكن أن يكون مهتما بالتخلص من قادتنا ؟ من يعنيه أن يُفقد المقاومة الفلسطينية مصداقيتها بارتكاب جرائم تفضح الطبيعة المضادة للسامية ؟

لم نعد نسأل أنفسنا مثل هذه الأسئلة منذ اعترف أعضاء مجموعة أبو نضال الذين قبضنا عليهم في بيروت بأن الموساد جندتهم في الأرض المحتلة » .

كرر سرطاوي هذه التهمة أمامي بانفعال شديد عندما قابلته بعد سنة في الجزائر ، أثناء اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في فبراير 1983 . فقد ادعى أن فتح قبضت ، في بيروت على بعض رجال أبو نضال ، وأنهم اعترفوا بأن الوساد جندتهم في الضفة الغربية . لقد كان متأكدا بأن أبو نضال أو الموساد – أو الموساد من خلال أبو نضال – سوف يحاولون قتله .

وقد زاد الأمر سوءا بالنسبة له أن عرفات استنكر وجهة نظره ، ووجهة نظر الحمائم أثناء انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني لأنهم ذهبوا بعيدا حتى عن عرفات ، الذي لم يسمح لسرطاوي حتى بالكلام . وإني لأتذكر المنظر جيدا ، لأني كنت

واقفا بجوار سرطاوي على جانب القاعة . ألقى فاروق قدومي ، وزير خارجية المنظمة تقريرا سياسيا متشددا رفض فيه كل ما كان سرطاوي يدافع عنه . وبينما كنت أستمع إلى قدومي استدار سرطاوي إلي بوجهه الأبيض قائلا : « هل أنت مشمئز الآن بالقدر الكافي ؟ » في هذه المرة كان هذا الرجل ذو الشعبية وحيدا ، فلم يحضر أحد للحديث معه . ربما كان قد عرف ساعتها أنه قد حكم عليه بالعزلة ، في العراء بلا حماية ، أو غطاء سياسي ، وأصبح القتلة من كلا المعسكرين يتابعونه . لقد كان سرطاوي ينفذ تعليمات عرفات عندما قام بالاتصال بمعسكر السلام الإسرائيلي ، لكنه ربما يكون قد ذهب بعيدا بأكثر مما ينبغي .

وفي يوم 10 أبريل 1983 ، عندما كان سرطاوي يثرثر في ردهة فندق في البوفيرا Albufeira ، بالبرتغال مع وفود أخرى كانت تحضر مؤتمرا للاشتراكية الدولية ، قام أحد القتلة بإطلاق النار عليه فسقط ميتا في الحال . وبعد بضع ساعات ادعى أبو نضال في دمشق مسئوليته عن مقتل المجرم الخائن سرطاوي .

وسواء كان لإسرائيل يد في قتله أو لا ، فإننا نجد كالمعتاد تفسيرا بديلا . كان سرطاوي قد تسلم قبل موته ببضعة أشهر خطابا من أبو نضال يستفسر عن الموعد الذي خطط له لمقابلة الأطراف الإسرائيلية في فيينا . أراد أبو نضال أن يدبر لقتلهم . وصلت لسرطاوي معلومات من الشرطة النمساوية ، إذ كانت فتح وقتها تتعاون معهم ، ومع قوات شرطة أوروبية أخرى من أجل إحباط إرهاب أبو نضال . وعندما طار رجلان مسلحان تابعان لأبو نضال إلى فيينا قبض عليهما ، وعاون سرطاوي الشرطة في استجوابهما . واستشاط أبو نضال غضبا .

لم يكن سرطاوي دائما من الحمائم ، فقد كان لسنوات رفيقا لأبي نضال مشاركا إياه وجهات نظره الرافضة . ففي عام 1948 هربت أسرته من عكا إلى العراق ، حيث بدأ دراسته للطب ، ثم أصبح فيما بعد جراحا للقلب بالولايات المتحدة الأمريكية . وبعد هزيمة العرب عام 1967 ، غادر أمريكا والتحق بالفدائيين في الأردن ، وقاتل في معركة الكرامة في مارس 1968 .

انفصل سرطاوي عن فتح عام 1969 وأقام مجموعة سماها لجنة العمل من أجل

تحرير فلسطين ، كانت تمول في البداية من العراق ، ثم من مصر ، فأدى ذلك ببعض الفلسطينيين أن صدقوا أنه قد بيع لأجهزة الاستخبارات العربية . وفي تلك المرحلة من حياته ، كانت تصرفاته ولغته هي منتهى العنف . وفي شهر يناير 1970 شن هجوما على طائرة تابعة لشركة العال في مطار ميونيخ .

لكنه أيضا عام 1970 تحول ليصبح باقي حياته مدافعا متحمسا عن التعايش السلمي العربي – الإسرائيلي . عمل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، ومع الحركات الإسرائيلية للسلام ، ودافع عن هؤلاء الناس دفاع المستشار النمساوي برونوكرايسكي ، والملك الحسن ملك المغرب . واحتج بأن العرب لن يستطيعوا بقواتهم العسكرية التقليدية أو بحرب العصابات أن يتحدوا إسرائيل ، فمثل هذه المحاولات كانت عرضة للفشل ، ولن يأتي السلام إلى الشرق الأوسط إلا من خلال الحوار ، والاتصال مع القوى المختلفة داخل إسرائيل ، سلام من شأنه أن يمنح الفلسطينيين أخيرا دولة خاصة بهم .

وفي عام 1987 ، وخلال مقابلة بين أبو إياد وأبو نضال في الجزائر ، قدم الأول مظلمة عن القائمة الطويلة من رجال المنظمة الذين قتلهم أبو نضال ، أو كما يعتقد قتلتهم أيد سرية داخل مجموعته . وقد أخبرني أبو إياد فيما بعد بما دار بينهما فقال :

سألته : « لماذا قتلت عصام سرطاوي ؟ » لقد كان صديق عمرك ؟ قلت له : « أعتقد أن هذه العملية كانت إسرائيل تجذب خيوطها » . كل القضية كانت اختراقا واستغلالا ، الطريقة التي هربت بها الأسلحة ، وتهريب القاتل ، والقبض على شريك شاب أثناء سفره بجواز سفر مزور . قلت له : « إني أعلم أن إسرائيل تلعب اللعبة معك » .

أخبر أبو إياد أبو نضال أنه قد بدأ يشك في اختراق إسرائيل عندما زوده ضابط استخبارات مغربي بقائمة تضم رجال أبو نضال في أسبانيا – كانوا تسعة عشر – وقال إن مصدره الموساد . وقد راجع أبو إياد بنفسه القائمة فوجدها صحيحة : سبعة عشر منهم طلبة ، لا يزالون يعيشون في أسبانيا ، واثنان تخرجا وعادا إلى وطنهم .

قال لي أبو إياد : « كنت مندهشا من رد أبو نضال . نعم لقد رد بهدوء . أنت على حق لقد اخترقتنا إسرائيل في الماضي . لقد اكتشفت هذا من الأعضاء المغاربة والتونسيين . لقد عملت إسرائيل على زرعهم عندي . لكن دعني أخبرك أني أرسلت هؤلاء الأعضاء القادمين من شمال أفريقيا – لأنهم الوحيدون الذين أثق بهم حقيقة – إلى فرنسا من أجل تمويل وتجنيد عملاء إسرائيليين من شمال أفريقيا ! إن تيار الاستخبارات أحيانا يكون لصالحي . لقد زودني هؤلاء الناس بمعلومات حقيقية مدهشة » .

فعندك على سبيل المثال قضية سرطاوي . لقد أعطوني كل تفاصيل المعلومات التي كنت أحتاجها للعملية !

كان أبو إياد يسترجع محادثتهما وهو لا يكاد يصدق ما قد سمعه : « إن عملاء إسرائيليين موجودون في منظمته . وقد زودوه بالمعلومات . لقد اعترف ! لقد أدهشتني لهجته الواقعية . لقد أضاف أنه كان يحاول تصفية العملاء الإسرائيليين واحدا تلو الآخر . هذا ما قاله ! بيد أن الاعتراف لا يقرر سوى الاختراق . لقد كان أبو إياد مقتنعا أيضا بوجود مشاركة بين الموساد وأبو نضال .

قال لي أبو إياد إنه اعتقد في استغلال إسرائيل لأبو نضال من خلال عملاء شمال أفريقيا . جاء اعتقاده من حقيقة أن من قتل خضر كان عضوا تونسيا في منظمة أبو نضال . ونفس الشيء بالنسبة لحمامي ، وقلق .

أكد أبو إياد : لقد أقلعنا عن الإرهاب عام 1974 ، لكن الإسرائيليين لم يفعلوا ، على الرغم من أنهم أقنعوا العالم بالعكس . لقد استمروا يهاجموننا . وأحيانا يفعلون ذلك بمصاحبة ضجة كاملة كما فعلوا ذلك عندما قتلوا أبو جهاد عام 1988 . وفي الأغلب كانوا يصعّدون العمليات التي يمكن أن تقرأ بطرق مختلفة . أعترف بأن هذا أربكنا . ففي مناسبات عديدة لم نكن متأكدين فمن المسئول : هل هو أبو نضال أم الموساد ؟

لقد تدرب عملاء الموساد الذين كانوا في ذهن أبو نضال ، بالتأكيد ، في المغرب ،

حيث تدير حكومة المغرب ، ووكالة الاستخبارات المركزية مدرسة متخصصة في الشئون الفلسطينية . لقد علمت بهذه المدرسة من عدة مصادر استخباراتية ، عربية ، وغربية ، فقالوا لي إن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ، التي تعمل في تعاون وثيق مع إسرائيل في خصوص الشئون الفلسطينية ، قد أتت بالموساد لتشارك في الترتيبات أيضا . والطلاب في غالبهم من الشباب الشمال أفريقي ، تم تجنيدهم في أوروبا ثم أعيدوا إلى المدرسة المغربية كي يدربوا كجواسيس . يحضر هؤلاء دورات تدرس مختلف الفصائل الفلسطينية ، وتدرس شخصيات قادتهم ، وتشكيلهم ، وأيديولوجيتهم ، وعملياتهم – حتى إذا ما انتهت الدورة أصبحوا قادرين على استخدام رموز رطانة Arcane jargon أعضاء هذه المنظمات . ويتم دراسة كل الفصائل : فتح – الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – الجبهة الديمقراطية – الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين « القيادة العامة » – جبهة التحرير العربية – منظمة أبو نضال .

وبمجرد انتهاء الدورة يعود الشاب إلى أوروبا ليعطي تعليمات مفادها أن يحوم حول المقاهي ، ويقابل باقي العرب ، ويتحدث إليهم بالرطانة التي تعلمها ، بأمل أن تلتقطه في النهاية الفصائل الفلسطينية التي تعلموا كيف يقلدونها ، وبالتالي فيمكن لأي من المغاربة ، أو وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ، أو الموساد أن تستعملهم . لقد أصبح بعض خريجي المدرسة مخبرين ، وبعضهم مخططين للعمليات ، بل وبعضهم أصبح منظّرين أيديولوجيين للفصائل التي زرعوا فيها ، كما أن البعض منهم أصبح قتلة .

أبو داود ينجو من الموت :

كانت هناك حالة أخرى علمت بها ، هي محاولة قتل ، ولم تكن ضد أحد الحمائم في هذه المرة . ففي 27 يوليو 1981 ، قبل شهر من الهجوم على المعبد اليهودي في فيينا نجا أبو داود ، القائد المبّرز في فتح ، من الموت في وارسو بالكاد . وفي تونس أعطاني تقديره للحادث عام 1990 .

كان صديقا لأبو نضال ، كما قال لي منذ كانا في العربية السعودية في أيامهما

الأولى ، لكنه قطع علاقته معه عندما قتل ياسين وغيره من مندوبي منظمة التحرير الفلسطينية . وفي يوليو 1981 ذهب إلى وارسو لإجراء محادثات ، باسم فتح مع السلطات البولندية ، فحجز في فندق فكتوريا يوم 27 فبراير ، لكنه لما كان الوقت متأخرا ، ولا يسمح برؤية أحد ذلك اليوم ، فقد ذهب لأخذ حمام بخار « ساونا » في النادي الصحي قبل أن يذهب إلى المقهى في الدور الأول . قال لي : لقد كان مكانا هادئا لكنه كان مطروقا بالمومسات .

وبوصولي للمكان لاحظت أنه مكتظ بالعرب . وقد علمت فيما بعد أنه كان حفلا لثلاثين من ضباط للاستخبارات العراقية كانوا في مهمة رسمية . وبدلا من أن أجلس إلى منضدة ركنية كما أفعل عادة ، جلست إلى أول منضدة خالية وقع نظري عليها . كنت لا أريدهم أن يظنونني أحاول اصطياد فتاة .

وبمجرد أن طلبت فنجان قهوة وزجاجة مياه معدنية جاء رجلان مندفعين من خلال الباب . أشار أحدهما علي للآخر الذي اندفع وبدأ يمطرني بالرصاص من على مسافة حوالي ستة أقدام . اخترقت أول رصاصاته يدي ، والثانية كسرت فكي ، فظللت احتفظ بفمي مغلقا خمسة أشهر إلى أن التأم . أما الثالثة والرابعة فقد استقرتا في الأجزاء المليئة باللحم من جسدي .

تظاهر الضباط العراقيون الموجودون بالمقهى أنهم لم يروا شيئا ، ولم يتقدم أي منهم لمعاونتي .

طارد أبو داود الرجل المسلح حتى مدخل الفندق لكنه لم يستطع أن يمسك به . سقط على أريكة بالبهو ، وهو يدمي بغزارة ، وانتظر زهاء ساعتين حتى وصلت عربة الإسعاف البولندية لتأخذه إلى المستشفى ، حيث انتظر أيضا مدة طويلة قبل أن ينال عناية طبية . وفي اليوم التالي نقله البولنديون إلى عيادة تابعة لوزارة الداخلية ، حيث بقي عشرة أيام قبل التوجه إلى ألمانيا الشرقية للنقاهة . علم مؤخرا أن البولنديين قبضوا على من كان يريد اغتياله ، لكنهم أطلقوا سراحه بعدها بيوم مقابل مبلغ 200,000 دولار دفعتها شركة أبو نضال البولندية المسماه زيبادو Zebado .

أستأنف أبو داود قصته قائلا : كان الرجل الذي أشار إلي في القهوة أحد صبيان أبو نضال ، فلقد تعرفت عليه ، لكن من هو الذي هاجمني ؟ كنت شغوفا بالكشف عنه . لا أظن أنه كان من أعضاء منظمة أبو نضال لأني أعرف معظمهم ، ودربت الكثيرين منهم في مختلف الميليشيات . وما هو الدافع ؟ لم يكن يظهر لي سبب واضح لقتلي . فعلى عكس حمامي لم يكن أبو نضال يستطيع أن يتهمني بأني أتعامل مع الإسرائيليين ! إذن فلماذا أنا ؟

وبعد أحد عشر شهرا تصادف أن كان أبو داود في العراق ، حيث أخذ غرفة في فندق بغداد . وبينما كان هناك سمع أبو نضال بوجوده فظن أنه قد جاء ليقتله ، فأرسل أحد أتباعه الدكتور غسان العلي ليستطلعه ، فتظاهر أبو داود بأنه لا يشك في تورط أبو نضال في عملية إطلاق الرصاص ، وسأل عن صحته وقال إنه يود رؤيته .

استرسل أبو داود قائلا : « إن أبا نضال شيطان حذر » ، ولكي يضعني في اختبار أرسل من كان ينوي قتلي ليجلس في بهو الفندق ليرى كيف سيكون رد فعلي . كان رجلا أسمر اللون مجعد الشعر ، صغير الجسم ، وكان يقرأ جريدة ، ويلبس نفس الملابس التي كان يلبسها عندما أطلق النار علي .

جاء بعض الأصدقاء الفلسطينيين لزيارتي في الفندق ، لذا فقد استفسرت منهم بدقة عن هوية الرجل الذي يجلس بالبهو ، وعلمت أنه تونسي يتصنع أنه رجل أعمال ، لكنه يعمل لصالح أبو نضال .

ومن هناك كان يرمقني بحرص من خلف الجريدة . قررت أن أحاول الإمساك به . اقتربت منه ، لكنه رآني قادما فبدأ يعدو ، طاردته لكنه كما حدث في وارسو ، هرب .

وفي التوّ علم أبو نضال بما حدث ، فغادر بغداد إلى مزرعته بالشمال ، ولم يعد يظهر حتى تأكد من أني غادرت البلاد . لايوجد شك لدي في أنه متورط في القضية . فلا يوجد سواه يستطيع أن يرسل رجُله ليشير إلي في فندق وارسو ، وليس غيره الذي يستطيع أن يرشي البولنديين حتى يدعوا من هاجمني يهرب .

سأل أبو داود كل من استطاع سؤاله عن التونسي الذي حاول قتله . وقد قال لي إن التونسي قد جندته الموساد في باريس ، وأرسلته أولا إلى إسرائيل للتدريب ، ثم إلى مدرسة الاستخبارات المركزية الأمريكية في المغرب حيث تعلم نظريات أبو نضال ورطانته Jargon . ومن ثم أرسل إلى باريس حيث التقطة رجال أبو نضال وجندوه .

وبعد البحث المستفيض أصبح أبو داود يعتقد أن الإسرائيليين قد زرعوا التونسي عند أبو نضال . والسؤال الحقيقي في ذهنه هو من في المنظمة الذي اختار التونسي ليقتله وأعطاه الأوامر بذلك . ليس لديه شك في أن هناك من يتبع الموساد ، وأنه في مكانة أعلى من هذا في منظمة أبو نضال ... ربما كان في أعلى القمة نفسها . ولقد سألته من هذا ؟ لكنه لم يستطع أن يخبرني .

إن الشيء الهام هو أن أبو داود أضاف أن أبو نضال لم يخبر حتى أقرب المرتبطين به أنه أمر بالهجوم . وقد علم أبو داود فيما بعد أن السر يقتسمه اثنان : الرجل المسئول عن اختيار الهدف والبحث عنه – وبالتأكيد هو الدكتور غسان – والرجل التونسي نفسه .

أما الشاب الذي أشار إليه في الفندق بوارسو فقد أتي به في الدقيقة الأخيرة . لقد كان يعمل مراسله لأبو نضال ، وهو يعرف أبو داود جيدا .

يعيش التونسي المهاجم الآن في فرنسا ، إذ قال لي أبو داود : أنا أعرف ذلك ، وكذلك الأمن الفرنسي . لقد ترك منظمة أبو نضال الآن .

وعلى الرغم من أني غير مقتنع بالأدلة التي جمعتها ، فإنه يبدو لي أن هناك مبررات لتتبع الفرض القائل بأن إرهابيا حسن الإعداد مثل أبو نضال أكثر خطورة ، ليس عندما يعمل لحسابه ، ولكن كما قرر كلود بورديه ، حينما يتم استغلاله بطريقة منظمة بواسطة عقول أكثر تقدما ومعها جدول أعمال لايلين .

* * *

الفصـــل التاســـع

المنظمـــــة



المنظمـــة

لقد تركني البحث في قتل المعتدلين مع ظنوني التي قد تكون بعد كل شيء هي ادعاءات أبو إياد . وعلى كل حال فقط أستطيع رؤية فكرته تتمثل أمامي . الدليل مايزال مبعثرا ، لكنه بدأ يظهر لي كما لو كان عدد من عملاء إسرائيل من شمال أفريقيا تشغلهم منظمة أبو نضال بحرية ، وهم ما يزالون يقومون بمهام قتل . لكن من الذي يوجه هؤلاء العملاء ؟ قصة أبو داود ، التي ليس عندي من سبب للشك فيها تطرح فكرة أن الموساد لديها رجل ، وربما أكثر في أعلى قمة المنظمة . ومن ثم فقد نقلت تركيز استبياناتي . ففي مقابلات مع أطراف استخباراتية عربية ، وغربية ، ومع أبو إياد ، وبعض المرتدين إلى تونس ، حاولت أن أرسم خريطة لمنظمة أبو نضال كي أرى من – لو كان هناك أحد – كان في مركز يستطيع منه توجيه هؤلاء الشمال أفريقيين ، من حسب فكرة أبو إياد الذي قتل خضر ، وحمامي ، وقلق ، وحاول قتل أبو داود . ولقد اكتشفت أنها مهمة ليست يسيرة .

لدي دليل هام ، فقد قال لي أبو إياد إن الاستخبارات الفرنسية طلبت منه معلومات عن شخص محدد هو سليمان سامرين « اسمه الكودي الدكتور غسان العلي » ، وهو رجل رفيع المستوى جدا في منظمة أبو نضال ، وتشك الاستخبارات الفرنسية أنه عميل للموساد فمن هو الدكتور غسان ؟ وما هي الوظيفة التي يقوم بها ؟ وكيف دخل إلى التشكيل المحكم لأبو نضال ؟ وكيف يتم تسيير الجهاز بأكمله ؟ لقد استغرقت استبياناتي عدة شهور .

إن بعض الرجال يقود من الأمام ، وبعضهم من خلف الستار ، والبعض يجعل الوصول إليه يسيرا ، بينما يبتعد الآخرون . البعض يهيمنون من خلال شخصية ملهمة

« كاريزمية » ، والآخرون من خلال الخوف . البعض يرجع قوته إلى التصويت الشعبي أو إلى جهاز الحزب ، والآخرون يستندون إلى القوة المسلحة .

وأبو نضال يحكم من خلال التحقير – البلطجة ، وإخزاء ، وإذلال رفاقه . إنه لا يملي عليهم فقط مكان معيشتهم ، وأي الأعمال يعملون ، بل أيضا ماركة السجائر التي قد يدخنونها ، وكمية اللحم التي يجب أن يستهلكوها ، وأي الألعاب يتعين على أطفالهم أن يلعبوا بها ، وأي الأصناف – بالتأكيد ليس الشيكولاتة ! – يتعين عليهم أن يشتروها من السوق الحرة بالمطارات ، وحتى الملابس التي يسمح لزوجاتهم بارتدائها .

وأبو نضال كثير التحقير لزوجات الرجال الذين يعملون تحت امرته خاصة . ففي مرة حاول أن يوفر نقودا من خلال شراء ملابس داخلية للنساء بالجملة لكل نساء أعضاء منظمته . وقام حارس من دائرة الاستخبارات بقياس النساء من أجل تزويدهم بالملابس الداخلية ، ولم يلغ هذا المخطط إلا بسبب مقاومة كبيرة أبدتها النساء .

وعندما بدأ عمله في البداية من بغداد في السبعينيات ، فقد كانت أداة أبو نضال الرئيسية هي لجنة عسكرية سرية كانت تخطط وتوجه الأعمال الإرهابية ، ومن ثم التأمت حولها باقي الهيئات الإدارية . ولم تتخذ المنظمة شكلها إلا مؤخرا ، عندما عاد أبو نضال إلى الشرق الأوسط قادما من بولندا عام 1984-1985 . وكان النموذج الذي بنى عليه منظمته هو فتح ، لكنه اقتبس أيضا مما عرفه عن الموساد ومجموعة العمل المباشر Action Directe الإرهابية الفرنسية . وبعد أن طرد من سوريا عام 1987 أجرى تغييرات في منظمته لتتلاءم مع انتشاره بين ليبيا ولبنان .

أما اليوم فالمنظمة تتضمن عددا من الدوائر التنفيذية ، واللجان التي يدار العمل اليومي من خلالها . ويشرف عليها ثلاث مؤسسات مركزية – مكتب سياسي ، ولجنة مركزية أكبر بعض الشيء ، بها عشرون شخصا ، ومجلس ثوري أكبر من اللجنة المركزية . ويتكون المكتب السياسي من حفنة رجال يرأسهم أبو نضال ؟ وهو الجهاز الأعلى لاتخاذ القرار .

وتنظم الدوائر واللجان بطريقة هرمية على نفس النمط . والفرق أن الدائرة أكبر وبها عدد من اللجان . ويرأس اللجنة أو الدائرة عضو من المكتب السياسي أو من اللجنة المركزية .

ومن المعلومات التي حصلت عليها من مصادر مختلفة أصبحت قادرا على التعرف على الرفاق الرئيسيين لأبو نضال ، واستطيع أن ألقي نظرة على الأعمال الداخلية للمنظمة والتي تنقسم أساسا إلى : سكرتارية ، ودائرة استخبارات ، ودائرة تنظيم ، ولجنة العضوية ، والدائرة السياسية ، والدائرة المالية ، ولجنة العدل الثورية ، واللجان الفنية والعلمية ، والجيش الشعبي .

السكرتارية :

يسيطر أبو نضال على منظمته من خلال سكرتارية ، وهي وحدة للقيادة والسيطرة يديرها بنفسه ، ومن خلالها يحصل على المعلومات عن كل شيء بأدق التفاصيل . وتحتفظ السكرتارية أيضا بالأرشيف ، بيد أن مهمتها الرئيسية هي كونها مركزا للاتصال : فكل الاتصالات بين مختلف أجزاء المنظمة ، كل الوثائق المتبادلة بين ليبيا ولبنان ، تمر بها . ويعمل خمسة موظفين في أرشيف السكرتارية في ميناء صيدا بجنوب لبنان ، وخمسة آخرين في طرابلس بليبيا ، وظيفتهم التسجيل ، والإصدار ، والفهرسة والحفظ ، وإعلام أبو نضال .

وينتج عن كل هذه النشاطات كم كبير من الورق ـ معظمها ينقل بعد تشميعه بواسطة مندوب خاص « مراسلة » ، وترسل الرسائل المعتادة باللاسلكي ، هذا فضلا عن نقل كمية كبيرة من المنقولات الهامة بين ليبيا ، ولبنان ، خلال دمشق بالحقيبة الدبلوماسية الليبية .

ويشغل رئاسة السكرتارية شخص ما بخلاف سليمان سامرين « د . غسان العلي » ، الرجل الذي أخبرني أبو إياد أن الفرنسيين يشكون في كونه عميلا للموساد ، ووصفه عاطف أبو بكر لي بأنه : « أحد أكثر المجرمين عنفا وخطورة في كل المنظمة » . ولو كان د . غسان حقيقة رجل إسرائيل ، فإنه يكون قد أحسن

تنصيبه ، إلى حد بعيد ، في موقع يمكنه من استغلال المنظمة . لقد كان هو الشخص الوحيد ، بخلاف أبو نضال نفسه ، الذي يعرف كل شيء حدث بداخل الجهاز . إنه حقيقة يسير المنظمة .

ويتخذ د . غسان من لبنان قاعدة له ، باعتباره السكرتير الأول للجنة المركزية . وهو رجل نحيف ، أسمر ، كثير التدخين ، غضبه جنوني ، يشرب بكثرة ، وله شعر رمادي ، ويرتدي نظارة كبيرة ذات وقار . يدعي أنه خبير كاراتيه ، ويشاهد أفلامه كثيرا في الفيديو . وهو يقرأ أيضا في الاقتصاد الماركسي ، ويناقش الأحداث العالمية على ضوئه . وهو يتولى رئاسة تحرير الجريدة الداخلية للمنظمة « الطريق » ، وهو الكاتب الرئيسي فيها . وله تأثير كبير على أبو نضال ، ويعتبر نفسه وريثه الطبيعي . وقد شغل المنصب الثالث في المنظمة عام 1990-1991 ، بعد عصام مرقا « ويكنى بـ سليم أحمد » .

ورغم كل سلطاته فليست له شعبية ، بل وصار هدفا للشك . وهو منعزل ، ذو خصوصية ، يهين الآخرين . لكنه مع أبو نضال فإنه ذليل . وقد سُمع أبو نضال مرة وهو ينادي : « سامرين ، لقد سمعت أن أخواتك في الكويت ، أولئك العاهرات قد فعلن ... كذا وكذا ... ، فأومأ د . غسان بوداعة .

ولد د . غسان بقرية سلوان بالضفة الغربية عام 1946 . كان طالبا مجدا ، أرسل للدراسة في بريطانيا حيث حصل على البكالوريوس في الكيمياء ، ثم منح الماجستير ، ومع ذلك فهو يدعو نفسه دكتورا رغم عدم حصوله على هذه الدرجة .

تعلم الإنجليزية باتقان ، وتزوج من سيدة إنجليزية ، وأنجب منها العديد من الأطفال ، منهم توأم ذكر . وفي عام 1970 ذهب إلى بيروت للعمل مع فتح ، تاركا زوجه في بريطانيا مطلقة طلاقا بائنا . « وقد مات واحد من التوأم الذكر في حادث عنف ، وكان قد وقع في حب فتاة كانت تدرس الكمبيوتر مثله في معهد بصيدا بجنوب لبنان ، لكنها رفضته . .وفي يوم 18 أبريل 1990 أطلق عليها الرصاص وانتحر ، ونشرت القصة في مجلة أبو نضال ، حيث أشير إليه باسم كمال حسن ،

حتى لا يربط القراء بينه وبين والده . ولم يرد السبب الحقيقي للموت ، إذ وصف بأنه شهيد قتله أعداء الثورة الفلسطينية » .

كانت أولى وظائف د . غسان في أوائل السبعينيات العمل في تطوير الأسلحة وإقامة المواصلات اللاسلكية في اللجنة العلمية الوليدة التابعة « لفتح » . وعندما انتقلت اللجنة من بيروت إلى بغداد عام 1974 بسبب الإمكانات الأفضل المتوافرة هناك ، انتقل معها د . غسان – ونقل ولاءه نهائيا لأبو نضال عندما انفصل الأخير عن فتح – وعلى مدى السنوات القليلة التالية رُفّع ليصبح رئيسا للجنة العلمية بمنظمة أبو نضال ، وبمنتصف الثمانينيات أصبح رئيسا للجنة دائرة الاستخبارات للمهام الخاصة ، ذراع الإرهاب الخاص بها ، وذلك بعد أن التحقت لجنته بدائرة الاستخبارات في منتصف الثمانينيات .

أصبح في سلطته الإشراف على الهجمات على مكاتب شركة العال في مطارات روما وفيينا في ديسمبر 1985 ، واختطاف طائرة بان أميركان « Pan Am » من كراتشي في شهر سبتمبر 1986 ، وارتكاب أعمال القتل في المعبد اليهودي بإستانبول في نفس الشهر . بيد أنه لو كان أبو إياد محقا في اعتقاد أنه رجل الموساد فكيف يتسنى له فعل هذه الأمور ؟ إنه لغز لا يمكنني حله . فمما لا يمكن تصوره أن يدير إسرائيلي هجوما على معبد يهودي . ومع ذلك فليس في ذهني شك أن د . غسان كان يتولى لجنة المهام الخاصة في ذلك الوقت . إن أغرب الألغاز ألا ينتقم الإسرائيليون منه ، ولا من المنظمة في مقابل تلكم الهجمات على الأهداف الإسرائيلية واليهودية ، ومع ذلك ففيما عدا هذه الحالة ، فإنهم كانوا يطلبون الثأر سريعا وبعنف وثبات . لقد كانت هذه بوضوح المساحة التي تحتاج مني إلى المزيد من التحري .

كان نظام العمل باستخدام القوة في ذلك الوقت بداخل المنظمة موكولا إلى لجنة المهام الخاصة التي كان عليها أن تقدم الأهداف المحتملة ، التي يناقشها د . غسان ، ومن ثم أبو نضال ، وينتقون منها الأهداف التي هاجمتهم . وكما قال لي أحد المنشقين عن المنظمة :

« كان د . غسان يبدو دائما أنه يفضل العمليات الأكثر تطرفا وتهورا . وقد اعتاد الحديث بإعجاب شديد عن الخمير الحمر ، ومنظمة الجيش الجمهوري الإيرلندي ، ومنظمة الجيش الأحمر . كانت هذه هي النماذج التي اعتاد التحدث إلينا عنها . وكان يبغض أي نوع من الاعتدال .

وعلى الجانب الفلسطيني كان معارضا كلية لجهود رجال مثل عاطف أبو بكر في عقد تصالح مع فتح . بل على النقيض كان يشجع الخلاف الفلسطيني . لقد أصبح لدي إنطباع أنه كان عدميا يطرب للغة الدم » .

ومن ثم فإن العديد من عمليات د . غسان قد فشلت أو أجهضت في مرحلة مبكرة – وهذه في حد ذاتها تثير الشكوك في بعض مرءوسيه . فمثلا كانت هناك محاولة لتهريب السلاح إلى بريطانيا بنهاية عام 1986 – كانت عملية يديرها هو . فقام د . رمزي عوض ، وهو عضو في لجنة للمهام الخاصة ، ويعيش في إسبانيا ، قام بقيادة سيارة إلى بريطانيا وهو يخفي طردا من الأسلحة . مر من الجمارك دون صعوبة ، ووصل حتى لندن ، وهناك استوقف فجأة في الشارع وقبض عليه . وبالتأكيد فلقد بلغت الشرطة البريطانية معلومات عنه ، فحكم عليه بالسجن خمس وعشرين سنة .

وقد صرحت مصادر من داخل المنظمة أنه لم يكن هناك هجمات مخططة في هذه المرة . فلم يكن أبو نضال يريد سوى إخفاء سلاح في بريطانيا ليستخدم فيما بعد . وإذا ما استقر السلاح في مكان ما فلن تكون هناك حاجة لتزوير جواز سفر ، وتهريب رجل عبر الحدود ليقوم بهجوم . ولربما كان السلاح الذي كان د . عوض ينقله متجها إلى منظمة أخرى : فالمقايضة أمر شائع بين الإرهابيين الذين يعملون سرا ، فلربما يتم مقايضة قنبلة في لندن بمدفع ماكينة في مدريد ، وعشرة جوازات سفر مزورة في أمستردام ربما تساوي العديد من القنابل اليدوية في روما . ولما كان أبو نضال يتحسب لصفقة ، فقد أحب أن يقوم بتخزين إمدادات في مراكز مختلفة ..

فإذا ما طلب أحد وكلائه أسلحة في برلين ، أو باريس ، أو أثينا ، فإنه يصبح في وضع يمكنه من الأدلاء له بالجميل .

وبعد أن غادرت المنظمة سوريا عام 1987 أصبحت المنظمة في حاجة إلى أن تنقسم بين لبنان وليبيا . وبينما كان د . غسان يتولى الرئاسة في لبنان فإن نائبه ، الذي كان يعرف بالسكرتير الثاني ، كان يعيش ويعمل في ليبيا . ويشغل هذه الوظيفة حاليا سمير محمد العباسي « ويكنى بـ أمجد عطا » ، وهو الذي رآه جورد Jorde في المعسكر الليبي ، وهو رجل طويل ، أسمر ، في حوالي الأربعين عام « 1991 » ، متزوج من إحدى بنات عم أبو نضال ، وتسمى سليمة البنا ، وله منها ابن وابنة . وباعتباره اليد اليمنى لأبو نضال ، وموضع ثقته ، فقد كان على علم بالكثير من أسرار الجرائم . ولقد أعطى مركز عطا له السيطرة العليا على الأرشيف ، وعلى معسكر التدريب الذي أمضى فيه جورد شهورا من اليأس .

كان أمجد عطا معدا لهذه المهام ، فقد كان يعمل بجد في السبعينيات كعضو في اللجنة العسكرية ببغداد ، وعاون في تنظيم عمليتي احتجاز الرهائن في السفارة السعودية في باريس ، والنقل السري للأسلحة إلى اليونان التي كانت أحد المراكز الرئيسية لتخزين سلاح المنظمة وتوزيعه . وقد ترأس المكتب الخاص لأبو نضال في سوريا في الثمانينيات ، قبل أن يعين في قسم سكرتارية المنظمة في ليبيا منذ استقر أبو نضال هناك عام 1987 .

وتميل عناصر المستوى المتوسط في السكرتارية إلى التنقل من حين لآخر ، للحد من الخسائر التي قد تنتج بسبب التسربات وذيوع السر . بيد أن هذا لم يمنع من حدوث هروبين خطيرين .

ففي ديسمبر 1989 هرب محمد خضر صلحات « وكنيته كريم محمد » ، وكان في نهاية العشرينيات من العمر ، هرب ومعه زوجه وطفلاه إلى الجزائر ، وهناك استخلصت الاستخبارات الجزائرية منه - كما قيل - قدرا كبيرا من المعلومات لكن شيئا لم يظهر بخصوص احتمالات وجود اتصال مع إسرائيل .

كان أبو نضال قد انتقى صلحات للإشراف على قسم سري جدا من ملفات السكرتارية يعرف باسم الأرشيف الخاص . ومما جعل الأمور أسوأ أنه ابن عم زوج أبو نضال ، فهو عضو في العائلة . وربما كان لديه الإحساس بالضيق ناتج عن أمر ذي بال حدث له في بداية حياته الوظيفية : فقد أمضى عاما في أحد السجون التابعة للمنظمة ، بتهمة اختلاس مبلغ 125,000 دولار من مبلغ ضخم كان موضوعا في خزينة ، كان أبو نضال قد أودعها باسم صلحات في بنك أجنبي .

وكان الانحراف المدمر الثاني في مارس 1990 ، فقد كان عريف سالم أحد المنتقين القلائل ، أربعة أو خمسة رجال يمكنهم رسم صورة كاملة للمنظمة . وقد شغل منصبا حساسا لمدة ثلاث سنوات ، إذ كان سكرتيرا للسكرتير الأول وهو الرجل الذي يفض البريد ، ويفحص محتوياته ، ويقرر أي الموضوعات يمكنه التعامل معها بنفسه وأيها يتعين عليه أن يعرضها على رئيسه . وقبل ذلك عمل في مركز حساس مساوٍ تقريبا ، فقد كان في عضوية اللجنة ، التي بحسب تسميتها تحتفظ بملفات كل الأعضاء . هرب عريف سالم إلى الأردن ، ويشك أنه ربما عمل لصالح الاستخبارات الأردنية فورا . وقد أظن أنه طالما لم يكشف أي من هذين الشخصين للجزائر أو الأردن عن أية اتصالات مع إسرائيل ، فإما أنهما لا يعلمان عن ذلك شيئا ، أو أنه لا يوجد شيء من هذا .

دائرة الاستخبارات :

أصبحت العمليات الخاصة لأبي نضال من اللحظة التي انفصل فيها عن فتح عام 1974 ، في أيدي تنظيم سري عرف باسم اللجنة العسكرية ، ضم إليه رجالا تلقوا تدريبات خاصة ، وعملوا في الخفاء في أعمال عنف دفعوا إليها . وبدافع من اهتمامه بالسرية كان أبو نضال قلقا بخصوص ضرورة حماية هوية أعضاء اللجنة ، فوضع قواعد صارمة تحد من اتصالاتهم حتى مع بعضهم بعضا ، ولم يكن يسمح لهم بالتقابل مع بعضهم في بيت أي منهم ، وكانت اللجنة ككل مغلقة تماما أمام كل الأعضاء الذين لا يعملون بالفعل فيها .

وأثناء السنوات التي أمضتها المنظمة في بغداد كانت اللجنة العسكرية هي قلب

المنظمة ، وكان يرأسها من عام 1979 حتى 1982 خبير المفرقعات ناجي أبو الفوارس ، الذي كان قد فقد يدا وعينا في حادث عام 1973 . وكان متخصصا في قنابل السيارات ، وكان هو الذي أدار عملية قتل هاينتس نيتال صديق المستشار برونوكرايسكي في فيينا في مايو عام 1981 ، والتي كما رأينا يصعب لكن لا يستحيل ، أن تلتئم وفكرة اختراق إسرائيل للمنظمة .

وعندما انتقلت المنظمة من العراق إلى سوريا عام 1982-1983 غيرت اللجنة العسكرية اسمها وصارت تعرف باسم لجنة المهام الخاصة ، وتولى د . غسان العلي إدارتها منذ منتصف الثمانينيات ، وهو الذي كان يرقب معظم عمليات القتل في تلكم السنوات . وعلى الرغم من تغيير الاسم فإن العناصر الأساسية – ذات التدريب والخبرة الميدانية – بقيت في مكانها .

حدث تغير أكبر عام 1985 ، عندما تشكلت دائرة الاستخبارات وبها أربعة أقسام ، كما يلي :

- لجنة المهام الخاصة ، التي اندمجت في الدائرة الجديدة .
- لجنة الاستخبارات الخارجية .
- لجنة مكافحة التجسس .
- لجنة لبنان .

ومنذ البداية كانت هذه الدائرة هي الأكثر أهمية في كل المنظمة ، وكانت مهتمة ، مثل اللجنة العسكرية القديمة بزرع العملاء الذين يعملون بالخارج ، تحت ساتر ، وإقامة المخابئ السرية للأسلحة بالقرب من الأهداف المحتملة ، وتنفيذ أعمال الاغتيال ، ومراقبة واختراق الأجهزة السرية المعادية . وكانت مسئولة ، بداخل البلاد المعادية عن المعلمين والأسلحة ومخازن المنظمة ومختلف منشآت التدريب . وكانت أية معلومات ذات طبيعة سرية تلتقطها أية دائرة أو لجنة تبلغ إليها فورا . كانت مركز السيطرة الذي يرجع إليه في كل الأمور الهامة .

وقد كان لهذه الدائرة ثلاثون أو أربعون مقرا في بلاد أجنبية ، وكل منها مسئول

عن عشرات مخابئ الأسلحة ، ويحتمل أن يكون أكبرها في تركيا ، التي منها يمكن نقل الأسلحة إلى أوروبا والبلاد العربية بطريق البر . ولقد كانت هناك مرحلتان رئيستان لتوزيع السلاح ، في تاريخ المنظمة : المرحلة العراقية ، وكانت تكديسات السلاح ترسل إلى اليونان ، وتركيا ، وفرنسا ، والمرحلة السورية ، وفيها أضيفت قبرص ، وإيطاليا ، وألمانيا الغربية .

وللمراقب الأجنبي قد يبدو الأمر وكأنما هناك فترات نشاط مكثف للدائرة ، وفترات ركود ، بيد أن مصدرا داخليا أخبرني : أنه « حتى في حالة عدم وجود عمليات تنفذ أو يخطط لها فإن الدائرة كانت دائمة النشاط ، فكانت ترتيبات الأمن في المطارات ، والموانئ البحرية تراجع بشكل مستمر ، وكانت تعديلات التأشيرات وأختام الهجرة تراقب ، وكانت الموضوعات المحفوظة يتم تحديثها باستمرار : وتدريب الأعضاء مهمة يومية ، لقد كان العمل يجري طول الوقت . ولم تكن الدائرة لتستطيع أن ترتاح ولو للحظة » .

كانت هذه الدائرة موضع اهتمام أبو نضال الخاص ، ومهما عين لها من رئيس فقد كان هو رئيسها الحقيقي في كل وقت .

وعندما أنشئت هذه الدائرة عام 1985 ، فقد كان طبيعيا أن يختار عبد الرحمن عيسى في البداية رئيسا لها ، فقد كان أطول الأعضاء خدمة بالمنظمة ، وكان لسنوات بمثابة ظل أبي نضال . كان قريبا منه منذ تقابلا أول مرة في الأردن في الستينيات ، وأخذه أبو نضال معه إلى السودان ، ثم إلى العراق كمساعد له ، وسكرتير خاص له ، وكان يأتمنه على كل أنواع الأسرار الشخصية والعائلية .

وعندما عزمت المنظمة على التحرك إلى سوريا في مطلع الثمانينات ، أرسل عيسى في البداية ليدير الأمور ريثما يصل أبو نضال وأعضاء اللجنة المركزية الآخرون .

وعلى الرغم من أنه قبيح المظهر ، غير حليق الذقن ، رث الثياب ، فقد كانت له جاذبية ، وكان ذكيا حادا . ففي مرة استوقفه ضابط جمارك في مطار جنيف وسأله : هل لديك شيئا لتعلن عنه ؟ كان معه خمسة ملايين دولار سائلة ، كلفه

أبو نضال أن يودعها في أحد أرقام حسابات المنظمة . وبدون أي تردد أعلن عن كل الكمية . وبكل احترام كلف ضابط الجمارك أحد زملائه كي يرشده إلى البنك الذي يختار .

لكن عيسى كان لا يميل للاستقرار ، فقد كانت لديه غريزة ، وردود أفعال عميل الاستخبارات ، وكان يرى كل العالم مليئا بالمؤامرات والعمليات المستترة . نشأ عيسى في قرية أمين بالقرب من جنين بالضفة الغربية ، وكأقرانه الفلسطينيين الذين لهم نفس الخلفية كانت مرارة التشرد تعتصره . لقد كان عقائديا من الطراز القديم الذي يؤمن بالصراع المسلح ، ويقتنع بأن العنف وحده هو الذي سيحمل إسرائيل على التسليم ، وإعادته إلى بيته في فلسطين .

لو أن هناك من يستحق ثقة أبو نضال لكان عبد الرحمن عيسى : لقد كانا شريكين في الجريمة عن قرب لمدة عقدين من الزمان . لكن عيسى وقع في خطأ قاتل في منتصف الثمانينات إذ ارتبط عن قرب ببعض الزعماء أمثال مصطفى مراد « أبو نزار » ، وكانت وقتها نائبا لأبو نضال ، وعاطف أبو بكر المصلح الأيديولوجي الذي أغوته بعض الأحداث في لبنان وأصبح يعتقد أن المنظمة يمكنها أن تظهر فوق الأرض وأن تأخذ مكانها في التيار الرئيسي لحركة المقاومة .

وكان على عبد الرحمن عيسى أن يدفع ثمن غلطته . وبمجرد أن استقر أبو نضال في ليبيا عام 1987 عزل عيسى ، واستبعده من مركز الاهتمام واحتقره علنا .

حاول عيسى أن يستقيل ، لكن أبو نضال أصر على استبقائه في الدائرة في منصب أقل ، حتى يتلقى الأوامر من رجال كان يرأسهم ، بل إن أبو نضال أعطى أوامر كي يعامل عيسى معاملة ازدراء خاصة ، وبالتالي تشجيع صغار الأعضاء على الاعتقاد بأن ترقياتهم تتوقف على الاستهزاء برئيسهم السابق . وعلى الرغم من كون عيسى من مؤسسي المنظمة ، فإنه وجد نفسه عام 1988 وحيدا في مكتب صغير ، ممنوعا من الاتصال بأحد بالدائرة ، وأن عليه أن يعطي تقريرا يوميا لأبو نضال عن أية مكالمات هاتفية تلقاها ، أو أي زوار يكون قد استقبلهم .

عين أبو نضال في رئاسة دائرة الاستخبارات رجلين بدلا من عيسى ، هما : مصطفى عوض « يكنى بـ علاء » ، الذي كان مسئولا عن لجنة لبنان ، واتخذ من ذلكم البلد قاعدة له ، ونائبه ، علي الفرّا « وكنيته د . كمال » ، الذي اتخذ من ليبيا قاعدة له ، وتولى مسئولية اللجان الثلاث الباقية : المهام الخاصة ، والاستخبارات الخارجية ، ومقاومة التجسس . نظريا كان علاء هو الأرقى بلقب رئيس دائرة الاستخبارات ، لكن بما أن د . كمال كان يعمل مع أبو نضال في ليبيا يوميا ، فقد كان هو الرئيس الحقيقي . ومنذ ذلك الوقت وللآن فإن علاء ، ود . كمال قد صارا أهم أدوات أبو نضال الضاربة .

علاء رجل شهواني ، عنيف ، وسيم ، في الأربعينيات من عمره « عام 1991 » ، يشرب وربما يستخدم المخدرات مثل د . غسان ، وأبو نضال ، من قرية طال في الضفة الغربية ، درس في باكستان قبل أن يلتحق بأبو نضال في السبعينيات . وكما كان يفعل مع الكثيرين من رفاقه ، فإن أبو نضال كان يسيطر عليه . وفي عام 1978 كان علاء أحد رجال مجموعة بغداد المقاتلة الذين أرسلهم أبو نضال إلى صيدا لمساعدة أبو داود في إزعاج الإسرائيليين خلال غزوهم للبنان في تلكم السنة . وقد فسر عرفات وصول هؤلاء المقاتلين أنه بمثابة اختراق مكثف لصفوفه بواسطة أبو نضال ، فأحاط بهم واعتقلهم .

التحق علاء بفتح بدلا من أن يواجه السجن ، ثم تكلم ليكشف عن كل شيء يعلمه ، أدى ذلك إلى إفشاء أسرار أبو نضال ، فحكم عليه فورا بالإعدام غيابيا .

وعندما غزت إسرائيل لبنان للمرة الثانية عام 1982 ، وطردت منظمة التحرير الفلسطينية ، حول علاء ولاءه للمرة الثانية ليلتحق مرة أخرى بأبو نضال . أراد بعض الأعضاء تنفيذ حكم الإعدام لإنشقاقه السابق ، بيد أن آخرين أعتقدوا أن من الواجب منحه فرصة ثانية . استغل أبو نضال الموقف ليجعل علاء يفهم أنه إذا ارتكب أدنى خطأ ، فإن ماضيه سوف يعاد تذكره ويقتل .

ومن ساعتها وصاعدا حاول علاء أن يرضى أبو نضال في كل ما يتخيل ، مظهرا

طاعته المثالية وولاءه ، وأصبح أحد أشرس أعضاء المنظمة ، فغرق لأذنيه في الدماء . وكانت موهبته الخاصة هي نقل السلاح للخارج ، وإخفاؤه ، وتخطيط وتنفيذ العمليات .

ولسبب ما رق أبو نضال علاء بسرعة وأتى به إلى المكتب السياسي عام 1986 ، ومنحه حرية التصرف بشكل استثنائي ، فلقد كان أبو نضال دائما يحاضر أعضاء منظمته عن الحاجة إلى الأخلاق الجنسية المنضبطة – وكان الزنا جريمة تعاقب عليها المنظمة بالإعدام – لكن علاء كان يضاجع النساء المسجونات ، وكثيرات من النساء خارج المنظمة ، بل والكثيرات من نساء زملائه . وكان أبو نضال يتجاهل هذا .

وعلى سبيل المثال كانت هناك حالة محزنة هي حالة بسام العراج وهو حركي قديم ، فقد معظم أصابع يديه في هجوم على مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في كراتشي في السبعينيات . وكأمر طبيعي تزوج من فتاة لبنانية من صيدا هي عبير القبرصلي ، ليكتشف بعد ذلك أن علاء كان على علاقة بها . وعندما اعترض على هذا ، وجد نفسه متهما بجريمة أمنية ، وسجن بسجن في معسكر للاجئين ، وما لبث أن قتل شمال لبنان عام 1987 تاركا علاء حرا في استئناف علاقته مع زوجه .

كانت هناك اعتبارات عديدة في مسير علاء الوظيفي اعتبرتها شاذة . فقد انشق لكنه ترك ليعود ثانية ، وكان يمارس الجنس بفوضوية ، لكن ترك له العنان . وعندما اكتشفت أنه منع خلية للموساد ، اكتشفت في لبنان ، من العمل ، فقد بدا لي أنه ربما كان يتعامل مع الموساد ، إذا كان هناك من يفعل ذلك مع د . غسان ، فجعلته في القائمة القصيرة التي خصصتها لمن أشك في أنهم عملاء مخترقون . وكرئيس لقاعدة استخبارات المنظمة في لبنان يكون قد وضع ، بشكل يثير الإعجاب لاستغلال الحوادث لصالح إسرائيل .

أما علي الفرّا « أو د . كمال كما ينادونه كثيرا » ، والذي كان رئيسا لقاعدة الاستخبارات في ليبيا فقد كان هو الآخر مدانا بأن لديه نقطة ضعف إزاء الجنس ،

وكان أبو نضال يعذره فيها أحيانا ، ويستخدمها كدليل ضده أحيانا أخرى ، فقام بالحصول لي صور فوتوغرافية لكمال في مختلف الأوضاع الجنسية ، أخذتها الشرطة الفرنسية له خلسة أثناء وجوده في أحد مواخير باريس ، فكانت بمثابة سيف مسلط على رقبته ، يهدد بأن يرسلوها لعائلته ولقريته .

كان د . كمال طويلا ، أصلع ، في الأربعينيات من عمرة « عام 1991 » ، جاء من خان يونس بقطاع غزة ، وكان قد طرد من جامعة الإسكندرية بمصر بعد أن أمضى عامين في كلية الهندسة . وكان قد التحق باللجنة العسكرية التابعة لأبي نضال ، حيث بدأ يصعد سلم الاستخبارات . وبمجرد أن تحركت المنظمة إلى طرابلس صارت مسئولية كمال الخاصة هي المحافظة على العلاقات اليومية مع الاستخبارات الليبية . بيد أن أبو نضال استخدمه كمبعوث لدى الدول الأجنبية ، والمنظمات الإرهابية ، التي كان للمنظمة تعاملات استخبارية معها ، من أجل إزالة الخلافات . كان ضابط الاتصال مع الجيش السري الأرميني ASALA ، ومع الجيش الشعبي الجديد في الفلبين . وكان أيضا يدير العلاقة الهشة التي كانت تتم تحت ساتر بين أبو نضال والاستخبارات الفرنسية .

كان كمال متزوجا من ليلى حمودة شقيقة عاطف حمودة الشخصية الرئيسية في الدائرة المالية بمنظمة أبو نضال . وكانا هو وزوجه في وقت ما يسكنان في غرفة في أعلى مكتب أبو نضال ، وكان عليه أن يعاني من إزعاجه الدائم . فعلى سبيل المثال كان أبو نضال يستدعي إليه زوجة د . كمال بالدور السفلي لينتهرها على رائحة طبيخها ، أو لأنها قد صارت سمينة جدا ، أو لاتهامها بسرقة أشياء تافهة وصلت المكتب ، أو حتى بسبب ثرثرتها وزوجات أخريات عن أبو نضال . كما اتهمها بأنها أعطت رقم هاتفه لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA . ولهذا كانت بلطجة أبو نضال هي طريقته في السيطرة على كل الناس من حوله .

وفي لقاءاته كان أبو نضال يقضي نصف الساعة الأول في إلقاء خطبة رنانة يتهكم فيها على الحضور ، ويلقي عليهم بالملاحظات ، وينتهرهم ، حتى إذا ما وصل إلى مناقشة الأمور ذات الخطورة كانوا في حالة نفسية سيئة . وكان من الموضوعات

المفضلة عنده أن يقول : « إنكم تتزوجون نساء رقيقات ، لكنهن يتحولن إلى أفيال خلال شهر . بالتأكيد فإن هذا بسبب الشيكولاته التي تطعمونهن إياها ! عن نفسي إذا أخذت قطعة من الشيكولاته على الطائرة فإني آخذها إلى ابني ، لكنكم تأخذون الشيكولاته من أفواه أبنائكم لتأكلوها أنتم أنفسكم . ويستمع أعضاء المنظمة بتواضع إلى مثل هذا الكلام الفارغ .

دائرة التنظيم :

تختص هذه الدائرة بتجنيد الأعضاء الجدد ، وتربيتهم على قواعد وفلسفة المنظمة ، وأعدادهم للعمل في وظيفة معينة بها . ومن الناحية النظرية ، فهي بمثابة الدائرة الأم بالمنظمة ، فيما عدا أنها كانت في حالة فوران لأن أبو نضال كان مقتنعا بأن زعماءها كانوا جواسيس في خدمة قوى معادية . وللدائرة ثلاثة أفرع رئيسة : لجنة الدول الأجنبية ، ولجنة الدول العربية ، ولجنة الأردن .

أولى هذه اللجان هي الأهم ، لأنها تتعامل مع الطلبة الفلسطينيين في الجامعات والمعاهد الأجنبية ، وهي التي كانت منذ البداية حجر الزاوية لكل تنظيم أبو نضال . ففي المرحلة الأولى في منتصف السبعينيات كان يتم تسجيل مجموعات من الطلاب ، ويرسلون إلى يوغسلافيا ، وإسبانيا ، وبريطانيا ، وتركيا ، وباكستان ، وهي المراكز الرئيسية حسب تعليماته في ذلك الوقت . وكان الطلبة يتلقون تعليمات بنشر مبادئهم ، وتجنيد آخرين ، وتجميع بيانات مفيدة ، والتحري عن الأهداف المحتملة - وكانوا يقيمون مخابئ سرية للأسلحة - لكنهم لم يكونوا يتورطون عادة في العمليات العسكرية أو شبه العسكرية . وعندما كان يتم التخطيط لعملية كان فريق مخصص للقيام بالضربة يدرب تدريبا خاصا ، ويرسل لأداء المهمة .

بعض الطلبة التحقوا بالمنظمة لاحتياجهم للمال ، والبعض الآخر كانوا متعصبين ، منجذبين بآرائه السياسية . وكانت المنظمة مهتمة بتجنيد الشباب الصغير ، الذين لم تتكون عقولهم بعد . كان معظمهم من الريفيين ، من واحدة من ستمائة قرية أو مايقرب من ذلك ، وهي التي كانت باقية في أيدي الفلسطينيين بعد عام 1948 . وكان يتم تجنيد أمثال هؤلاء الطلبة قبل أن يرسلوا للخارج من أجل الدراسة . وكان

أسلوب المنظمة ، مثل سائر الفصائل الفلسطينية ، هو الاقتراب من الشباب الذين أنهوا المدرسة حديثا ولا يعلمون ماذا يفعلون بعد ذلك . فكان يقال لهم : « هناك منحة دراسية إلى بولندا ، أو ألمانيا الشرقية » ! وكان الطالب يظل متعلقا بهم مادامت المنظمة متعهدة بالإنفاق عليه .

وقد أنفق أبو نضال الملايين على الطلبة ، وكان أحسن من يدفعون من بين كل الفصائل الفلسطينية ، اعتادت فتح أن تمنح الطالب في أوروبا الشرقية خمسين دولارا في الشهر ، في الوقت الذي كان أبو نضال يمنح خمسمائة ، وهذا أمر خارج المنافسة . وكان يأخذ في اعتباره ولاء الطالب عند إعطائه المنحة . لقد كان الكثيرون منهم شخصيات ثورية وطنية جيدة ، بيد أنهم بدلا من أن يكرسوا مثاليتهم من أجل العمل لصالح فلسطين فقد كان أبو نضال يوظفهم في الأعمال الإجرامية . لقد جاء هؤلاء الطلبة لرؤية العالم من خلال منظار فلسفته اللاذعة ، وكان يمتلكهم وهم في عزلتهم هذه .

ربما كان أبو نضال أكثر نجاحا في أوروبا الغربية لأنه كان يستطيع أن يتحمل كل نفقات طلبته ، إيجار ، طعام ، مصاريف السفر ، مصروف الجيب ، التي تمكنهم من الإقامة في المدن الكبيرة وممارسة الحياة الأوروبية ، وأن يكونوا مستعدين للعمل عندما يحتاجهم . وقد قام بإنشاء تنظيم قوي من خلال السيطرة على الطلبة الذين كانوا تابعين لفتح : لقد كان قادرا على أن يدفع لهم جيدا ، في حين لم تكن فتح قادرة .

وفي الثمانينيات ، كان هناك تغير رئيسي في المناخ بكثير من البلدان التي ينفذ فيها أبو نضال عملياته . كان وجوده في إسبانيا قد محي نهائيا بعد قيامه باغتيال منشق كانت الشرطة الإسبانية على حذر من نشاطاته ؛ وفي بريطانيا وجد من الصعب عليه أن يحتفظ بمجرد موطئ قدم بعد الشقاق الذي حدث في أعقاب محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي ، وفي تركيا أيضا ضربت المنظمة بشدة بعد اغتيالها لدبلوماسي أردني في أنقرة في يوليو 1985 ، وفي باكستان قاست المنظمة من رد فعل خشن في أعقاب اختطاف طائرة جامبو تابعة لشركة بان آم عام 1986 . هذا فضلا عن أن وجوده

في يوغسلافيا قد تم تخفيضه كثيرا ، بعد أن كانت المركز الرئيسي لعملياته ، وفي نهاية الثمانينيات انتقل العديد من الطلبة التابعين لأبو نضال من يوغسلافيا إلى المجر .

ولما صارت العمليات في أوروبا أكثر صعوبة ، وأصبحت أجهزة مكافحة الإرهاب أكثر نشاطا نقلت المنظمة نشاطها إلى جنوب شرق آسيا ، خاصة في تايلاند ، والفلبين ، وإلى أمريكا اللاتينية ، وبعض الدول الأفريقية . وكما أوضح لنا المسير الوظيفي لجورد ، فإن مثل هذه العمليات القاصية لم يكن من شأنها أن تخدم القضية الفلسطينية . وفي ذلك الوقت كان أبو نضال يدير عمليات وقاية عشوائية من خلال رفع المبالغ التي يحصل عليها من خلال الابتزاز ، والنهب .

وكانت لجنة البلاد العربية التابعة لدائرة التنظيم ، كما يدل على ذلك اسمها ، تشرف على الأعضاء في البلدان العربية التي كان للمنظمة وجود بها ، ولم تكن موجودة بكل البلاد العربية . وبعد مغادرة العراق وسوريا فإن المنظمة حافظت على وجود سري في هذين البلدين . وقد كانت المنظمة ممثلة تمثيلا جيدا في الجزائر وفي ليبيا بالطبع كان لها وجود قوي . لكن في باقي البلدان كان الأمر لا يعدو بضعة أفراد يعيشون في الظل .

كانت لجنة الأردن / فلسطين هي الأضعف بين الجميع ، فقد كانت المنظمة قوية في الأردن في السبعينيات ، لكنها بدأت تضرب أهدافا أردنية لحساب سوريا في الثمانينات فقوبلت برد فعل عنيف ، إذ تم القبض على زعمائها وأعضائها ، وفي الكثير من الحالات ، كانوا يمضون سنوات في السجن . وبالنسبة لفلسطين فكانت الفضحية الحقيقية ، أنه على الرغم من الدعاية واسعة النطاق ، والادعاءات المبالغ فيها فإن منظمة أبو نضال كانت في الحقيقة غائبة من 1974 حتى 1990 ، ولم يكن لها أي نشاطات عسكرية ، ولم تلقِ حجرا واحدا خلال الانتفاضة ، ناهيك عن عدم القيام بأية عمليات أكثر عنفا . وقد أتصور أن هذه تعد أكثر من أي شيء آخر مفتاح أولوياته الحقيقية .

وحتى عام 1986 كان رئيس دائرة التنظيم هو فؤاد صوفاريني ، وكنايته عمر

حمدي » الذي التحق بالمنظمة عندما كان كاتبا صغيرا في أبو ظبي ، وسلم نفسه كلية إلى المنظمة . وقد خدم كرئيس للمكتب الخاص لأبو نضال وعرف كل أسراره ، وشاهد من علي محاولة قتل وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام في الإمارات العربية المتحدة ، وقام باستجواب وإعدام عدد من الناس في سجون المنظمة . ونتيجة لذلك فقد رقي ليرأس دائرة التنظيم ، وهو مركز لصيق تماما بمركز القوة .

لكن صوفاريني لم يستطع الاستمرار في التواؤم النفسي مع الأمور الرهيبة التي كان يشهدها . أصابه اكتئاب نفسي ، فطلب أن يسرح ، بمبادرة منه . ولما كان يعرف طرق أبو نضال فقد خاف على نفسه أن يقتل ، فمكث في بيته وأغلق على نفسه ، ولم تكن زوجة تفتح لأي شخص من المنظمة يدق الباب ، ولم يكن يتعامل إلا مع أولئك الأعضاء الذين كان يشعر أنهم لن يخدعوه . ولما كان ولاؤه فوق الشبهات ، وكان حقيقة في حاجة للراحة ، فإن أبونضال أرسله كمندوب له إلى اليونان ، ومن هناك فر إلى الأردن عام 1987 .

وعندما شك أبو نضال أنه يفكر في الانشقاق أمر بإعدامه هناك متهما إياه بالتجسس لصالح الملك العميل ، وكانت هذه عبارته المعهودة لوصف الملك . لكن الأمور سارت إلى الأسوأ في المنظمة عندما شعر رجل في مثل مركز صوفاريني المرموق أن طريقه الوحيد للخروج من المنظمة هو أن يهرب إلى الأردن ، بلد كان عدوا له ، مارس ضده عمليات قتل ، لكنه كان يرى أن من هذا البلد يتوقع الرحمة أكثر من التي يتوقعها من أبو نضال .

حل مصطفى مراد « أبو نزار » محل صوفاريني ، وكان نائبا لأبو نضال ، وقد قلت الآن حظوته ، فكان انتقاله إلى الدائرة بمثابة تنزيل كبير في الدرجة ، لأن أبو نزار كان قد شغل منصب الرجل الثاني في كل المنظمة لسنوات عديدة .

كان المسير الوظيفي لأبو نضال نموذجا لتجربة المقاومة الفلسطينية المعاصرة . ولد يوم 15 مارس 1946 في قرية أم الفهم الفلسطينية ، التي استولت عليها إسرائيل عام

1948 ، فهاجرت أسرته في البداية إلى جنين ، ثم طولكرم في الضفة الغربية ، حيث شب ، وذهب إلى المدرسة في مخيم للاجئين ، تابع دراسته في مدرسة لتدريب المدرسين في إربد في الأردن ، وباختصار عمل كمدرس ثم التحق بفتح في سن العشرين عام 1966 .

كان شابا شجاعا ، قويا تميز بما قام به من اشتباكات مع الجيش الأردني ، وقبض عليه في سبتمبر 1970 ، فضرب بقسوة أدت إلى ترك جروح خطيرة في ساقه ، كان في حاجة لإجراء عملية في تشيكوسلوفاكيا . انتقل في ذلك الوقت مع الكثيرين من المقاتلين الآخرين إلى العراق حيث التحق بأبو نضال عام 1974 ، بعد انفصاله عن فتح فتولى اللجنة العسكرية التي كانت قد تشكلت حديثا .

تورط أبونزار في العمليات الفاشلة التي قام بها أبو نضال لقتل محمود عباس « أبو مازن » ، أحد قادة فتح ، في دمشق عام 1974 . وكانت هذه هي العملية التي جعلت منظمة التحرير الفلسطينية تحكم عليه بالإعدام غيابيا ، والتي أدت باحتجازه في سجن فتح بسوريا لمدة ثمانية عشر شهرا ، وبإطلاق سراحه عام 1976 عاد إلى بغداد ليتولى قيادة اللجنة العسكرية من جديد . وفي عام 1979 ، في الوقت الذي نشبت فيه أزمة ناجي علوش ، لعب دورا حاسما في إعادة المنظمة كلها تحت سيطرة أبو نضال ، فكوفئ بسخاء . وعندما انتقلت المنظمة إلى سوريا انتخب نائبا لأبو نضال .

كان أبو نزار رجلا ضخما ، نشيطا متباسطا مع الجنود ، الذين كان الكثيرون منهم قد تدربوا على يديه ، لكنه كان غبيا من الناحية السياسية ، إذ لم يكن معدا للصراع الداخلي الذي بدأ عام 1985-1986 ، عندما بدأه أبو نضال – وكان قد خططه من أجل إحكام سيطرته على المنظمة – بعد عودته إلى الشرق الأوسط من بولندا ، ودمر فيه نائبه .

بدأ الصراع حول منصب نائب الرئيس في دمشق عام 1985 ، عندما كان أبو نضال مايزال في الخارج يسافر بين بولندا وليبيا . أحس – وكان على حق – أن أبو نزار الذي كان في الصورة فترة غيابه الطويلة ، أصبح شخصية قوية لحساب نفسه ،

وازداد تضخما بزيادة تدفق المجندين الجدد في لبنان . لذا بد أبو نضال – كعادته – في مهاجمة أبو نزار في خطابات حادة وجهت للجنة المركزية ، وتآمر لإحلال شاب في منتصف الثلاثينيات محله ، كان هو عصام مرقا « كنيته سالم أحمد » .

كان مرقا يعتبر رجلا وسطا ، لكن كانت له صفتان حببتاه إلى أبو نضال : كان زوجا لبنت أخ زوجته ، فهو عضو في العائلة ، والثانية أنه كان ذا ولاء يصل حد العبودية لأبو نضال . ولد عصام في الخمسينيات ، كان أشقر ، ذا عينين زرقاوين ، من الخليل بالضفة الغربية ، ذهب إلى العراق في السبعينيات للدراسة بكلية الزراعة في البصرة ، لكنه تركها ليلتحق بفتح قبل إنهاء دراسته . وفي عام 1974 لحق بأبو نضال ، وعمل مع اللجنة العسكرية ، فتعهده أبو نضال ودفعه إلى أعلى السلم ، إذ عاونه كي ينتخب في اللجنة المركزية عام 1986 ، ومن ثم ليدخل المكتب السياسي نفسه على الرغم من معارضة باقي زعماء المنظمة . وكانت هذه أول مرة يرفّع فيها عضو دون حصوله على أغلبية الأصوات من أعضاء القيادة .

قام أبو نضال بتنزيل أبو نزار لمعارضته لخططه المتعلقة بمرقا ، فقام الأخير بالإنسحاب إلى منزله ، كسير القلب ، لعدة شهور رفض فيها حضور الاجتماعات . لكنه أجبر على مواصلة واجباته ، فقط تحت ضغط الحاجة لتعبئة الجهود من أجل حرب المخيمات ، فاعتبر أبو نضال ذلك بمثابة سبب آخر يدعو لقتله .

وبمرور الوقت غادرت المنظمة سوريا عام 1987 ، وعين أبو نضال عصام مرقا نائبا له ليتخذ من لبنان قاعدة له ، مع د . غسان رئيس السكرتارية ، بينما جُرِّد أبو نزار من سلطاته ، وأزيح جانبا إلى دائرة التنظيم ، ونقل إلى ليبيا تحت السيطرة المباشرة لأبو نضال .

لجنة العضوية :

وهي لجنة غاية في السرية ، تسيطر على ملفات كل أعضاء المنظمة أينما وكيفما كان العضو ، وقد تم إدخال نظام التخزين في الحاسوب « الكمبيوتر » لتسجيل

المحتويات الأصلية للملفات . ولا يعرف أحد بالضبط كم عدد أعضاء منظمة أبو نضال ، ومن يكونون ؟ وتقدرهم منظمة التحرير الفلسطينية بعدة مئات . وقد قدرتهم الاستخبارات الإسرائيلية عام 1986 بقرابة خمسمائة إلى ثمانمائة عضو نشط ، وعدة مئات متعاطفين معهم . أما المصادر الغربية فتقدر أن العضوية قد تصل في مقدارها إلى ألفي رجل ، حيث إن المنظمة تحوز على ولاء الكثيرين من الطلبة الفلسطينيين في الجامعات بمختلف أنحاء العالم .

وقد اتخذت اللجنة من صيدا بلبنان قاعدة لها منذ عام 1987 ، وتولى رئاستها عزيز عبد الخالق « وكنيته عوض » ، وهو فلسطيني من الضفة الغربية ، ولد عام 1947 ، والتحق بالمنظمة في بغداد وهو شاب .

بذل أبو نضال كل الجهود للاحتفاظ بهذه اللجنة محكمة لا يتسرب منها شيء لباقي لجان المنظمة ، فلا يسمح لأي شخص بدخول مكاتبها ، ولا يوجد اتصال مباشر بأعضائها . وتعد اللجنة بمثابة بنك للمعلومات وغربال للسرية ، من حيث صلاحيتها لقبول أو رفض العضوية لمن ترشحه اللجان والدوائر الأخرى .

وتحتوي ملفاتها كل ما يراد معرفته عن كل عضو بالمنظمة : الميلاد ، والخلفية العائلية ، والتعليم ، والأقارب ، والزواج ، والأطفال ، والتاريخ المهني ، والاتجاه السياسي ، كذا تفاصيل عن أي تورط له مع أية وكالات للأمن أو للاستخبارات ، بطبيعة الحال . هذا فضلا عن الصور الفوتوغرافية للعضو ، ولزوجه ، وأبنائه ، وأقاربه ، وصورة لجواز سفره . ويقوم كل عضو جديد بكتابة سيرته الذاتية المطولة حتى تاريخ كتابتها ، ويتم إضافة بيانات جديدة كلما احتاجت اللجنة ذلك ، فمثلا يمكن أن يطلب من العضو كتابة من يعرفهم من جهاز الاستخبارات الأردني أو من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ، أو أي شخص غني ، وقد يطلب منه ما إذا كان يشك في أن لخطيبته علاقة برجال آخرين قبله ، ولو كان هذا حقيقيا فمن هم . ويجب أن يتم تسليم الإجابات مستوفاة ، ويكون قرار اللجنة نهائيا .

ويظل العضو المقبول عرضة لمواجهة المزيد من الأسئلة لعدة شهور أو سنوات

تالية ، وربما يسأل أن يكتب سيرته الذاتية مرة ثانية ، كما حدث لجورد ، أو أنه يواجه مراجعة إذا ما ظهرت على السطح معلومات جديدة عنه .

وتعلن اللجنة بعد ذلك عن أي الأماكن التي سوف يوجه إليها العضو الجديد ، لكن للقيادة أيضا قولا في مثل هذه الأمور . فمثلا إذا كان يرى أن للعضو مؤهلات عسكرية ، فإن شخصا ما في القيادة يمكن أن يوصي بتحويله إلى منصب مناسب - ولو كان يظن أن له مستقبلا سياسيا فإنه يعين في عمل سياسي . ويتدخل أبو نضال عندما يجد أن لدى شخص ما موهبة العمل في الاستخبارات أو الأمن .

ومعظم الأعضاء يلتحقون بالمنظمة بناء على توصية عضو عامل ، ولكن بمجرد تولية المنصب يمنع العضو الجديد من إجراء الاتصال مع الشخص الذي أوصى له بالعضوية . ولو أن شخصا ما أوصى لنفسه بالعضوية يشك فيه على الفور على أنه ربما كان يراد زرعه ، ويتعرض لاختبار صعب طويل . وربما تطول التحريات ، وإذا كانت الشكوك مبررة جيدا فإن الإجراءات المعتادة أن يقبل المرشح ، وينقل إلى معسكر للتدريب ، ويقبض عليه ، ويستجوب ، وغالبا ما يقتل . وللأعداد لمثل هذه الأمور ، فإن المنظمة تتخذ الاحتياطات اللازمة ، بأن يوقع العضو المرشح ، كما فعل جورد على إقرار يقول بأنه يقبل أن يقتل إذا ما ثبتت خيانته . وعندما كانت المنظمة في سوريا كان المرشحون للعضوية ينقلون عادة إلى لبنان للتعامل معهم .

وفي كثير من الأحيان يتم اصطياد أعضاء من المنظمات الفلسطينية الأخرى ، وتكلف دائرة الاستخبارات بهذا العمل . وفي الحقيقة فإن كل دائرة وكل لجنة يُناط بها التصيّد والتجنيد - من الشارع ، ومن مخيمات اللاجئين ، والقرى ، والمنظمات الأخرى . وتبذل جهود مستمرة للتغلغل وزرع الأعضاء في المنظمات الأخرى .

الدائرة السياسية :

وهي تعد ، من طرق متعددة ، الشريحة الأعلى في المنظمة . وهي تشرف على لجنتين : « لجنة النشر » ، و « لجنة العلاقات السياسية » ، وهي كشقيقاتها الدوائر

الأخريات مقسمة بين لبنان ، وليبيا ، ويعرف قسمها في ليبيا بمكتب الدائرة السياسية في الخارج .

والوظيفة الرئيسية للجنة النشر هي نشر الجريدة الأسبوعية للمنظمة ، وصوتها الرئيسي ، والمسماه بفلسطين الثورة ، وهو نفس الاسم الذي تحمله جريدة منظمة التحرير الفلسطينية . وهذا يعد ثاني مثال يدل على أن أبو نضال يرغب في تقديم نفسه كمنافس وكبديل لحركة ياسر عرفات .

ولقد حررت الجريدة للمرة الأولى في بغداد ، ثم انتقلت إلى دمشق منذ بداية الثمانينات وحتى عام 1987 ، وبعد مغادرة المنظمة من سوريا ، أنشئت رئاستها في لبنان في الشوف بالجنوب ، في منطقة كان يسيطر عليها وليد جمبلاط زعيم الدروز ، وهي تطبع وتوزع قرابة أثنتي عشرة نسخة أسبوعيا .

ولأن المنظمة منعزلة وسرية ، وفي حالة حرب مع أعداء فلسطينيين وغيرهم فإن المجلة هي صوت المنظمة ومنصتها ، وهي وسيلة الإعلام ، والدعاية ، والتعبير السياسي لأبو نضال . لكنها أيضا الوسيلة التي يحقق بها اتصال مجرى خطه السياسي بأعضائه المبعثرين . وأحيانا تستخدم في إرسال تعليمات مشفرة . وعندما كانت المنظمة في سوريا جرت محاولة لإصدار نسخة باللغة الإنجليزية ، لكن لم يظهر منها سوى عددين .

وتستخدم لجنة النشر أيضا الملصقات ، وبطاقات البريد ، ومواد النشر الأخرى ، فضلا عن سلسلة من الكتيبات التي ظهر منها عشرة حتى الآن تحت عنوان « منشورات فلسطين الثورة » . وفي نهاية الثمانينات اعتقد أن أبو نضال أنفق 165,000 دولار شهريا على لجنة النشر .

وعندما اتخذت اللجنة من سوريا قاعدة لها امتلكت وأدارت مطبعة صحفية ، وخدمة صحفية تحت اسم مستعار هو دار صبرة . وكانت إدارتها تحتل شقتين في دمشق ، بينما كانت الحاسوبات « الكمبيوترات » ، وماكينات الطباعة الإلكترونية ، والمطبعة الألمانية الصنع « التي تم شراؤها بمبلغ 22 مليون ليرة سورية عام 1984 » ، موجودة في ورشة خارج المدينة .

كان يرأس دار صبرة صحفي فلسطيني يدعى دكتور أحمد أبو مطر ، وهو رجل قدير حاصل على الدكتوراه في الأدب العربي ، وإن لم يكن ولاؤه للمنظمة معلوما بشكل عام . فقد كان له ماض في العمل السياسي الفلسطيني الراديكالي ، إذ كان عضوا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مع الدكتور وديع حداد في السبعينيات قبل أن يلتحق بأبو نضال سرا عام 1983 . اعتاد أن يدعي أن الشقق والمطابع الصحفية مملوكة ملكية مشتركة له ولأسرة زوجه ، لكنها في الحقيقة ملك للمنظمة ، وكان هو يتقاضى راتبا قدره 1,300 دولار شهريا ، مع منزل وسيارة ، ونفقات سفر . وبسبب اتصالاته الواسعة في المجال الصحفي ، والسياسي ، وعالم الاستخبارات ، فإنه يتمتع بقدر كبير من الاستقلالية ، إلى درجة كتابة مقالات انتقادية عن أبو نضال في الصحافة اللبنانية . ومع ذلك فقد كان يرسل تقريرا منتظما لأبو نضال حول المسائل الأمنية والاستخباراتية .

وعندما غادرت المنظمة سوريا أغلق د . صبرة معظم أعماله فيما عدا الخدمة الصحفية التي كان د . مطر مستمرا في إدارتها كعمل خاص « على الرغم من وجود شك في أن لها علاقة بالاستخبارات السورية » . ترك د . مطر المنظمة ، لكنه لم يهرب من اهتمام أبو نضال كلية : فمنذ عام 1989 حدثت محاولات لخطفه إلى لبنان توطئة لقتله هناك .

وفي لبنان أدارت المنظمة خدمة صحفية سميت منارة ، كانت تشتري مادة الصحافة من كتاب غير مرتبطين بصحف وتبيعها للوكالات الصحفية والجرائد . كانت على السطح مؤسسة صحفية مستقيمة ، لكنها كانت أيضا تمد المنظمة بالمعلومات السياسية ، التي تلتقطها من اتصالاتها . وقد أدارت منارة برس لسنوات عديدة امرأة لبنانية تسمى إبتسام عبود ، بموجب عقد . كانت تعلم أن أبو نضال يسيطر على الشركة ، لكنها لم تكن عضوا في منظمته . وفي عام 1987 قررت أن تستقيل متمردة على طرقه الدكتاتورية ، وطالبت بتعويض قانوني . وكان رد المنظمة هو محاولة قتلها . فبناء على أوامر من علاء رئيس دائرة الاستخبارات المتمركز في لبنان أشعلت النار في سيارة كانت تستقلها وخطيبها ، فقتل ، وجرحت هي جرحا خطيرا . وبإبلاغ الحادث تحدثت الصحافة اللبنانية عن مهاجمين مجهولين .

وفي الوقت نفسه ، كان لمنارة برس فرع في دمشق تديره بنت شقيق أبو نضال سلوى البنا ، وهي صحفية مستقلة التفكير نسبيا ، كانت متخصصة في الشئون الفلسطينية ، وكانت قد كونت اتصالات واسعة ، لكن صلة العائلة لم تشفع لها إذ خضعت لنظام أبو نضال الخشن . فحينما رفضت الزواج من داخل المنظمة ، وحاولت أن تقيم حياة اجتماعية خاصة بها - وهو أمل وجده أبو نضال يستوجب العقاب - سجنها سنة في العراق . وبعد أن عوقبت عقابا مناسبا وافقت في النهاية على الزواج من إبراهيم التيمي « وكنيته طارق محمود » ، وهو عضو في لجنة النشر ، وفي عام 1987 عادت للعمل مع المنظمة ، فالتحقت بهيئة تحرير فلسطين الثورة .

لكن جانب التحرير في المجلة ، كباقي المنظمة ، كان تحت سيطرة صارمة ، فقد وضع أبو نضال معجما كاملا للمصطلحات والتعبيرات عليهم أن يلتزموا به بدقة ، فكانت منظمة التحرير الفلسطينية يشار إليها : « بما يسمى منظمة التحرير الفلسطينية » ، وإسرائيل « بالكيان الصهيوني » ، والأردن « نظام شرق الأردن » ، والسعودية العربية « نظام العائلة السعودية » أو « العائلة المصهينة » ، وكان أسلوب التهكم هو المستخدم في كل محتويات المقالات السياسية .

كان أعضاء اللجنة يرتعدون وهم يكتبون لأن أي زيغ عن القانون الموضوع لهم يؤدي إلى تهمة أمنية . فيمكن أن تكون صحفيا يوما ما وفي اليوم التالي في المحكمة . وكان الفشل في استيعاب الخط السياسي للمنظمة كما وضعه العقل ، والمهندس الأعلى ، يعد جريمة خطيرة . لقد كان المحررون بمثابة رهائن أكثر منهم صحفيون ، لكونهم يكتبون ما يمليه عليهم أبو نضال . كانت النسخة التي تصل من ليبيا - تسمى باحترام المادة الرئيسية - تستخدم كما هي دون أي تعديل ، حتى الأخطاء النحوية يجب أن تظل دون تصويب .

وخلال مدة قصيرة من 1985 حتى 1987 ، تخلصت الجريدة من هذه القيود ، وصارت مجلة فلسطينية حقيقية ، قادرة على المنافسة مع المجموعات الأخريات ، وكان يرأس تحريرها آنذاك عاطف أبو بكر المصلح الأيديولوجي الذي حاول أن يوجه مصالح الفلسطينيين فقال : « إن حرب المخيمات هي فرقة لصفوف الشعب

الفلسطيني .... إلخ » . وعندما أرسل إليه أبو نضال مقالا يتهم عرفات بأنه يعاني من مرض الإيدز فإن أبو بكر رفض نشره . وتساءل ساخرا : هل هو إيدز سياسي أم حقيقي ؟ فلو كان هو المرض فإنه ببساطة غير صحيح ، والافتراء ليس هو الطريق لتحدي السياسات التي لا يوافق عليها المرء . لكن أبو نضال استعاد السيطرة ، وانقلبت المجلة إلى طرقها القديمة . وللمرة الثانية أصبح عرفات العدو الداخلي ، الخائن الذي يقود السفينة الفلسطينية فوق الصخور .

كانت هناك تغيرات أخرى في نغمة المجلة بالطبع، تتوقف على مكان تمركزها . فعندما كانت في العراق في السبعينات كانت سوريا توصف بأنها النظام الطائفي العلوي الخائن بينما كان العراق يوصف بالنظام القومي ، والعمود الفقري للثورة العربية .

وعندما انتقلت المنظمة إلى دمشق جاء دور سوريا كي تمتدح بوصفها بطل التوازن الاستراتيجي . وبناء على أوامر أبو نضال كانت تظهر صورة للرئيس الأسد في كل عدد مع مقال إطرائيّ لسوريا ، في حين كان السباب يوجه للعراق بوصفه بالنظام الدكتاتوري الفاشي ، وكانت الانتصارات الإيرانية في حرب الخليج تمجد ، وصار وزير الخارجية العراقي طارق عزيز الهدف الخاص لحقد أبو نضال : أصله النصراني ، وعقليته الصليبية كانتا تهاجمان باستمرار . وكان يدعي أنه أداة تآمر الفاتيكان ضد العرب . ثم عندما حدث الانتقال إلى ليبيا أسقطت صورة الأسد ومعها المقال الإطرائيّ ، وامتُدِح القذافي وليبيا .

كانت اللجنة الثانية للدائرة السياسية مكلفة بإدارة كل العلاقات السياسية للمنظمة – مع الدول العربية والأجنبية ، ومع الأحزاب السياسية ، والفصائل الفلسطينية الأخرى – فيما عدا ذوات الطبيعة الاستخبارية والأمنية . ولم يستطع أبو نضال أن يقاوم سلبه اللجنة تلكم العلاقات التي تهمه – مثل العلاقة مع فرنسا – فحجته أن هناك حقيقة أمورا استخباراتية . لكنه كان حاذقا بالقدر الكافي ، في أن يعترف أن بعض العلاقات تتم بشكل أفضل من خلال بعض ذوي العقول المنفتحة من أعضاء اللجنة ، الذين يقدرون على إدارة مناقشات سياسية

حسامة ، بأكثر من القتلة التابعين لدائرة الاستخبارات .

كان عاطف أبو بكر رئيسا للدائرة السياسية من عام 1985 حتى 1987 . ثم حل محله منصور حمدان ، الرجل المثقف ، المعتدل ، الذي كان في مقابل حياة هادئة ، قد أعد على ما يبدو لتنفيذ أمر أبو نضال . وعندما غادرت المنظمة سوريا انقسمت لجنة العلاقات السياسية إلى قسمين ، ذهب قسم إلى لبنان ليشرف على العلاقات مع الفصائل الفلسطينية واللبنانية ، وذهب الآخر إلى ليبيا ، ومن هناك كان يتبع مباشرة لأبو نضال . ومنذ عام 1987 أصبح رئيس هذه اللجنة رزق سعيد عبد المجيد « وكنيته وليد خالد » ، الذي كان محل اهتمام الصحافة الأجنبية في وقت قضية سيلكو التي عمل أثناءها كمتحدث رسمي باسم المنظمة . وسيلكو هي سفينة صيد فرنسية محولة كان قد قبض عليها بمعرفة الليبيين عام 1986 في مكان ما بين مالطة ، وليبيا . وبعد عام وفي نوفمبر 1987 ادعى أبو نضال أن هذه كانت عمليته من أجل أن يبرئ القذافي .

الدائرة المالية :

كانت رئاسة هذه الدائرة تتمركز حيثما يكون أبو نضال متواجدا – في العراق أو بولندا أو سوريا أو ليبيا – والرجال الذين يديرونها ليسوا سوى موظفين من ذوي الولاء الكامل له . فكل المسائل المالية كانت تحت قبضته القوية . وكان أبو نضال شخصيا هو الذي يراقب الحسابات في البنوك الأجنبية ، وهو الذي يقرر حجم ميزانية المنظمة ، ويصادق على التحويل الشهري للمبالغ ، ويتخذ كل قرارات الاستثمار . وكلما زادت تحرياتي عن منظمة أبو نضال كلما تكشف لي بشكل أوضح أن أكثر ما يهمه هو الملايين المكدسة في البنوك الأجنبية – مقترنة بأمنه الشخصي الذي يملي عليه علاقاته السياسية مع البلدان المضيفة – ويعني انشغاله بالمال وبالصورة السياسية والدبلوماسية العريضة ، أنه ترك تخطيط وإدارة العمليات بشكل كبير للآخرين ، مانحا حريات واسعة لرجال مثل د . غسان العلي وعلاء .

وقد قسمت الدائرة المالية إلى فرعين ، أحدهما يتعامل في النفقات ، والآخر في

الاستثمار . فالأول يتعامل مع نفقات المنظمة اليومية ، والثاني يدير المبالغ المالية ، مشرفا على الشركات المملوكة كليا أو جزئيا للمنظمة ، والتجارة في السلاح ، والسلع الأخرى ، وجمع العمولات من خلال نشاطات السمسرة . وعلى الرغم من أن الدائرة متمركزة حاليا في ليبيا ، حيث يستطيع أبو نضال أن يسيطر عليها ، فإن عضوا رفيع المستوى من قيادتها يعيش في لبنان ليشرف على الإنفاق في ذلكم البلد .

إن الرئيس الحقيقي لهذه الدائرة هو أبو نضال . ونائبه ، وهو عاطف حمودة « أبو سهام » رجل غير ملهم لكنه فتى « تكنوقراط » صغير ، كان يعمل مع المنظمة منذ تأسسها . وعلى الرغم من أنه كان عضوا في اللجنة المركزية لسنوات ، فإنه لم يُعرف على الإطلاق أنه نطق بكلمة في أي من اجتماعاتها . وكحارس على الأسرار المالية للمنظمة فإنه غير مسموح له بإقامة علاقات اجتماعية مع أي شخص ، فكان يعيش في عزلة . أخته متزوجة من علي « الفرّا » « د. كمال » رئيس مجموعة الاستخبارات التي تتخذ ليبيا مقرا لها ، والذراع الأيمن لأبو نضال .

كان خالد الماضي هو نائب الرئيس السابق للدائرة المالية ، وسلف حمودة ، ولما كان أقل صمتا منه ، فجرؤ على النطق ببعض التحفظات عن عمله . ولمعاقبته بسبب عدم إظهاره للعقلية الخاضعة تماما فإن أبو نضال أزاحه عن منصبه ، ومن اللجنة المركزية ، ونزل درجته ليصبح عضوا عاديا . وفي عقاب تال ، كما هي طبيعة أبو نضال ، تم إيقاف معاش كان يدفع لوالدته العجوز ، وأزيل تكييف الهواء من منزله ، وكان عقابا قاسيا بالقدر الكافي في منتصف الصيف بليبيا .

وفي منتصف الثمانينيات ، كانت امرأتان مسئولتين بدرجة كبيرة عن الاستثمارات الخارجية للمجموعة ، كانت إحداهما هي « درر عبد الفتاح السلواني » ، كانت عضوا في رئاسة الدائرة المالية ، التي كانت تدير أحد شركات المنظمة من مكتب في برلين الشرقية ، وكانت هذه الشركة تسمى زيبادو ، بيد أن درر هربت في البداية إلى ألمانيا الغربية ، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأفشت أسرار شبكة استثمارات أبو نضال وتجارته إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية .

وكان هناك مدير هام آخر فيما وراء البحار هو سمير نجم الدين « وكنيته أبو نبيل » ، وكان يدير من وارسو شركة الاستثمارات والتجارة الأجنبية SAS ، وكانت شركة مساهمة ضخمة لها العديد من الأفرع والمصالح ، تتراوح بين توسيع الملكية وحتى تجارة السلاح . واصطلاح SAS هو الحروف الأولى لثلاثة أعضاء من الإدارة المالية هم : سمير نجم الدين نفسه ، وعدنان الكيلاني ، وشاكر فرحات ، وكان الاسم الأخير بمثابة اسم مستعار لعاطف حمودة .

وكان سمير نجم الدين فلسطينيا من العراق ، وكان رئيسا لمشروع وهو في الستينيات من عمره ، وذلك في الثمانينيات . جعل من SAS فوزا تجاريا ، ربما كان هو سبب سقوطه . ففي عام 1987 استدعاه أبو نضال إلى ليبيا ، وعزله ، ومنع أي شخص من التعامل معه . ولكي يكسره بأكثر من هذا ، قبض على زوج ابنته ، وكان اسمه د . صادق ، وظل صادق معتقلا لمدة عام ثم قتله في سبتمبر 1989 ، وادعى أن الموساد قتلت صادقا .

وفي بداية تفكير أبو نضال في أن ينفصل في بداية السبعينات ، كانت أصوله قليلة جدا . وكانت أولى ممتلكاته هي الأصول التي كانت تمتلكها فتح في العراق ، وكانت تقدر بأربعة ملايين دولار ، سلمها له العراقيون . « هذا التقدير بخلاف خمسة عشر مليون دولار ثمن أسلحة أعطوها له أيضا » . ثم أعطاه العراقيون خمسة ملايين دولارا أخرى عندما حكمت عليه فتح بالإعدام . كان حاذقا في الإدارة والمال ، فبهذه المبالغ الصغيرة نسبيا تمكن من إقامة مشروعات ذات عائد مرتفع تماما . لم يكن هناك في المنظمة من يعلم تفاصيل البنوك أو السماسرة الذين يتعامل من خلالهم ، فقد كان يحتفظ لنفسه بهذه الأمور تماما .

جمع الكثير من الأموال من خلال التهديد والابتزاز ، فأضاف قدرا ملموسا إلى أصوله . وقد قالت لي مصادر بداخل المنظمة أنه كان يبتز السعوديين منذ السبعينات ، مستخدما اتصالات كان قد أقامها عندما عمل في العربية السعودية ، وكان الوسيط سعوديا يعيش في لندن . وقد تمكن من خلال ابتزاز السعوديين ، وحكام الخليج ، بصورة أقل ، من جمع ما يقدر بخمسين مليون دولار خلال

السنوات الاثنتي عشرة من 1976 حتى 1988 .

قام بجمع أموال أكثر من خلال تجارة السلاح ، فقد أخبرتني الاستخبارات العراقية أن أبو نضال كان يشتري سلاحا لصالح العراقيين ، من السوق الدولية ويشحنه إلى فصائل حركات التحرر التي كان العراق يرغب في دعمها . وقد كان العراقيون قادرين من خلال استخدام أبو نضال كوسيط ، أن ينكروا معرفتهم بحركة السلاح . وقال لي العراقيون : « لقد جمع الملايين من خلال صفقات السلاح نيابة عنا » .

يسرت صفقات منتصف السبعينات لأبو نضال الاتصال بالبولنديين والبلغار من الموردين ، وبالتجار السوريين ، واللبنانيين ، والعراقيين . وبنهاية السبعينات ، وكان ما يزال يجمع المزيد من المال من بيع أسلحة صغيرة بولندية ومدافع ماكينة للقبائل على الحدود السعودية وحدود جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، كشف السعوديون عن ذلك بالصدفة ، عندما أفشى سعوديون كان يبيع لهم طوال سنوات ، الشركات . كان يشتري الكلاشنكوف من بولندا بسعر 120 دولارا ، ويبيعه في جنوب السعودية بعشرة أضعاف المبلغ . وكان أيضا يشتري بعض السلاح الغربي مخفض السعر من الشركات البلجيكية التابعة للدولة . جمع مالا كثيرا من هذه الصفقات ، لكن الأهم أنه استخدم بلدان الكتلة الشرقية كملاجئ آمنة لعملياته المختلفة .

كان لدي أبو نضال قبل الحرب العراقية الإيرانية حوالي 120 مليونا من الدولارات ، فزاد هذا المبلغ عام 1988 بنهاية الحرب ، حسب ما قالت لي مصادر الاستخبارات الغربية فأصبح 400 مليون . وككثير من سماسرة السلاح ، فقد باع لكل من العراق وإيران . وكانت معظم الأموال في الثمانينات عن طريق بيع سلاح من الكتلة الشرقية .

كانت معظم هذه البالغ قد تم إيداعها في شركات معينة ، أو كإيداعات في بنوك بسويسرا ، والنمسا ، وإسبانيا . وقد فقد أبو نضال المبالغ التي كان قد أودعها بنك الاعتماد والتجارة BCCI في لندن عام 1991 ، عندما اتضح أن البنك كان يدار بطرق ملتوية . كان غسان أحمد قاسم ، المدير السابق لفرع البنك في سلون ستريت

Sloone Street ، بغرب لندن ، فد قال في برنامج بانوراما يوم 29 يوليو 1991 أن حسابا يبلغ 50 مليونا من الدولارات قد فتح في فرع البنك بلندن عام 1981 باسم سمير نجم الدين ، المستشار التجاري لأبو نضال ، واستخدم لتمويل صفقات سلاح من شركات بريطانية . قال قاسم إنه كان قد صاحب أبو نضال في رحلات شراء خلال ثلاث زيارات قام بها للندن في الثمانينات ، وقال أيضا إن جهاز الأمن البريطاني MI5 قد جنده عام 1987 كي ينقل إليه معلومات عن معاملات أبو نضال المالية مع بنك الاعتماد والتجارة .

كان الكثير من أموال أبو نضال قد أودع في بنوك أجنبية بأسماء : زوجه ، وابنه نضال ، وابنته بادية ، وزوجها ، وأعضاء آخرين من عائلته . وقيل إنه أودع 20 مليونا في حساب باسم ابن شقيقة زوجه عندما كان قاصرا . كما أن مبالغ كبيرة قد أودعت أيضا بأسماء أعضاء قيادية مثل أبو نزار ، وسمير نجم الدين ، ود . غسان ، وغيرهم وكان هناك توقيعان لكل حساب بطبيعة الحال . ولكن في عام 1985 استعاد أبو نضال سيطرته على هذه المبالغ . وحسبما قال عاطف أبو بكر فإن أبو نضال قال لأبو نزار : « لقد تم الكشف عن هوية حسابك المشترك مع فلان الفلاني في بنك بجنيف . ونحن نفكر الآن في أن من الأفضل أن ننقله إلى اسم كذا . ومن ثم ذهب أبو نزار إلى البنك وألغى حقوقه في التوقيع وجعله للشخص الذي سماه له أبو نضال . وكان هذا كالمعتاد عاطف حمودة نائب رئيس الدائرة المالية ، الذي أعطى بدوره السلطة لأبو نضال لممارسة ادعائه ملكية كل الأموال المسجلة باسمه . كان حمودة أحد أكثر أعضاء الدائرة حركة ، يقوم بالتحري الدائم عن شركات المنظمة في الخارج ، ويودع أو يسحب مبالغ من بنوك سويسرا ، ويراقب الحسابات المختلفة . وكان يتصرف بناء على أوامر مصدر داخلي واحد ، كما لو كان كلب أبو نضال الوفي ، وكان أبو نضال يناديه بقوله : « أيها الكلب الملعون ! » .

لجنة العدالة الثورية :

هذه اللجنة غير الشهيرة تدير سجون المنظمة ، ومراكز الاستجواب ، وأماكن تنفيذ الإعدام . ومقرها الرئيسي في قرية بقصطة Baqasta جنوب جبال الشوف بلبنان ، وهو مكان أجره أبو نضال من زعيم الدروز وليد جمبلاط ، وهو بجوار قريتين

من قراهم هما : « كرخة » ، و « علما » ، وكان أبو نضال يستخدم المكان كمستودع للسلاح وكقاعدة عسكرية ، وقد أمد أبو نضال جمبلاط بالسلاح في مقابل هذه الأرض ، كما أمده بالخبرة ، والمبالغ المالية ، والأمن . فكان هذا بمثابة تبادل مرضٍ للترتيبات .

ويرأس اللجنة ، رسميا عبد الله حسن « وكنيته أبو نبيل » ، وهو مدرس سابق ، بلغ الآن الستين ، وهو لا يشارك مباشرة في الاستجواب أو التعذيب ، ولكنه طالما يوقع أوامر الإعدام فإنه ولاشك متورط في جرائم اللجنة .

وقد كان حسن عضوا كبيرا بفتح من مدة طويلة ، لكنه تركها ليلتحق بأبو موسى في أثناء التمرد الذي قامت به فتح عام 1983 . وعندما أحبط التمرد انضم إلى أبو نضال عام 1985 ، لكنه لم يوثق فيه ، وواجه الكثير من الاستجوابات عام 1987 أدت به إلى أن أصيب بنوبة قلبية . وبينما كانت يداه ماتزالان مصفدتان أسرع به إلى مستشفى غسان حمود في صيدا حيث تماثل للشفاء . وقد تم إعادته إلى وظيفته في اللجنة لكنه عاش في ظل ابتزاز خفيف دائم .

ويعد مصطفى إبراهيم صندوقة « وكنيته خلدون » هو الرئيس الحقيقي للجنة ، وهو متزوج من إحدى بنات أخ أبو نضال ، كما أنه عضو في اللجنة المركزية ، وقد اعتاد على تسجيل الملاحظات في اجتماعاتها ، لذا فهو يعرف الكثير عن أسرار أبو نضال . وفي الفصل القادم ، سوف أصف أحداث نوفمبر 1989 ، عندما تم اكتشاف عميل للموساد . وهذه القصة التي أدت بي إلى أن أشك في أنه ربما كان لصندوقه علاقة إسرائيلية مثل د . غسان ، وعلاء ، هي بالتأكيد جزء منها .

اللجنة الفنية :

وهي الوحدة الصغيرة ، المسئولة عن تزوير جوازات السفر ، والتأشيرات ، وأختام الهجرة ، وسائر الوثائق ، وقد اعتادت على أن تكون هيئة مستقلة ، منذ تم الانتقال إلى ليبيا ، وقد ألحقت بدائرة الاستخبارات ، ومثل اللجان الرئيسية للدائرة فهي تتمركز في ليبيا قريبا من أبو نضال .

وقد كانت الحاجة لجوازات سفر بمثابة الشغل الشاغل وأحد الأمور التي أعطاها أبو نضال اهتمامه . وكل جوازات سفر الأعضاء في حوزته . وعندما كانت المنظمة في سوريا وفي لبنان ، فقد تم استخدام الخبرة الأمريكية في أعمال الطباعة ، من خلال اتصالاتها مع الجيش السري الأرمني ASALA . وكانت الجوازات المزورة تطبع في إيطاليا ، واليابان ، بينما كانت السودان مصدرا مفيدا للجوازات الحقيقية ، وذلك بصفة أساسية لأن الفورات السياسية في السنوات الأخيرة فتحت دواوينها للفساد والرشوة .

كان إسماعيل عبد اللطيف يوسف أحد أعضاء اللجنة الفنية « وكنيته حمدي أبو يوسف » ، فلسطينيا من غزة ، وكان مهتما بالتزوير لسنوات طويلة . وفي الوقت الحالي أصبح مشغولا بإعداد برامج الحاسوب « الكمبيوتر » بمكتب المنظمة في صيدا . وقد عمل أيضا في نفس الوقت كسكرتير خاص لأبو نضال في أحد مخابئه ، ويعلم الكثير عن أسراره . والظل الوحيد الذي نجده في مسير عمله هو أنه أمضى زمنا في سجن تركي في السبعينيات تحت الاستجواب ، ويعتقد أنه أخبر الأتراك بما علم .

اللجنة العلمية :

وهي لجنة صغيرة أخرى متخصصة في تصنيع وتطوير الأسلحة ووسائل التفجير ، قنابل السيارات ، وقنابل الحقائب ، والمدافع المخبأة في الحقائب « والتي تطلق عندما يتم الضغط على يد الحقيبة » ، والسجائر القاتلة ، والسموم الكيماوية ، ووسائل التخدير ، وما شابهها . ويحاول فريقها من المتخصصين أن يتابع التطورات في هذه الميادين ، ويوظفها في احتياجات المنظمة .

ويتولى مصطفى أبو الفوارس « وكنيته ناجي » رئاسة اللجنة ، وكان يرأس اللجنة العسكرية حينما كانت في بغداد ، وقد فقد يدا وعينا في إحدى تجاربه عام 1973 .

ولم يتلق أبو الفوارس أي تدريب علمي على وجه التحديد ، لكن من خلال خدمته الطويلة مع المنظمة اكتسب قدرا كبيرا من الخبرة العملية . كان معلما عسكريا

في معسكر فتح بالعراق عام 1968 ، وظل هناك عندما ورث أبو نضال أصول فتح في ذلكم البلد .

وتشغل اللجنة عدة مبانٍ في قرية الوردانية اللبنانية ، جنوب الشوف .

الجيش الشعبي « يعرف أحيانا بالدوائر العسكرية » :

وهو منفصل كلية عن باقي دوائر المنظمة ولجانها ، وهو مكون من قوات ميليشيا نظامية شبيهة تماما بباقي الفصائل الفلسطينية . والجيش موجود فقط في لبنان ، ويهتم بمقاتلي حرب العصابات الفلسطينيين ، وبقواعدهم ، وتدريبهم ، وأسلحتهم ، ومعداتهم .

وليس للجيش أية اتصالات بالعملاء السريين ولا بمخابئ دائرة الاستخبارات ، أو المهام الخاصة ، أو العمليات الخارجية ، أو القتل ، أو عمليات الخطف ...إلخ . كما أنه لا يجب الخلط بينه وبين اللجنة العسكرية السابق تحولها إلى دائرة للاستخبارات .

وقد أنشئ الجيش الشعبي عام 1985 حينما ظهرت المنظمة فوق السطح في لبنان ، وبدأت في تجنيد الأعضاء بكميات كبيرة . وكما سبق ذكره ، فقد استفاد الجيش من تمرد عام 1983 في فتح عندما تحول عدد كبير من المقاتلين إلى أبو نضال من أبو صالح . وقد أدى الدور الذي قام به الجيش الشعبي في حرب المخيمات إلى تزايد جدواه ، فساهم في إعادة تشكيل المنظمة بعد أن كانت مجرد شبكة سرية .

ويتولى وصفي هنون – عضو المكتب السياسي – قيادة الجيش الشعبي ، وهو همزة الوصل الوحيدة مع كل المنظمة . وقد اعتاد أن يكون حساسا ، رجلا متعلما . وهو في الأصل من النبطية بالضفة الغربية ، وقد أتم دراسته في الموصل بالعراق ، وقد بدأ مع فتح ، لكنه التحق بأبو نضال منذ بداية عام 1974 . ومع ذلك فعلاقته بأبو نضال قد قادته إلى ارتكاب جرائم كسرته وأضلته . وبالطبع كان أفظعها هو قتل حماته ، وشقيقة زوجه عام 1986 ، بناء على التهمة الباطلة التي ألصقها بهما أبو نضال أنهما عميلتان للاستخبارات الأردنية .

والقصة تستحق أن تُقوّم كتوضيح لما يحدث للرجال الذين تطبق عليهم منظمة أبو نضال . وقد اشتملت القصة ليس فقد على وصفي هنون ، لكن أيضا شقيق زوجه ، وهو عضو بالمنظمة يدعى محمود تميم « وكنيته عبد الله » ، وهو الآن يرأس مكتب الدائرة السياسية بالخارج ، أي فرع الدائرة في ليبيا . وكان تميم أيضا تاريخ مؤلم ملوث ، والقصة تبدأ به .

فقبل تعيينه في منصبه بليبيا استخدمته منظمة في لبنان ، حيث اتهم بالعمل لصالح الأردن . سجن وزوجه وأطفاله لأكثر من ثلاثة شهور ، وكنوع من أنواع الإكراه أجبروا على النباح كالكلاب . وبإطلاق سراحه استمر الأطفال في النباح عندما يتكلمون لاعتيادهم على هذا .

كانت زوج تميم أحد أخوات أربعة ، إحداهن كانت متزوجة من وصفي هنون . وعندما قبض على تميم وزوجه فإن حماته ، مصحوبة بابنتها الصغرى جاءتا إلى دمشق قادمتين من الأردن لتريا ما قد حدث . وبوصولهما قبض عليهما وسيقتا إلى لبنان ، وأعدمتا على أساس أنهما كانتا عميلتين أردنيتين أيضا . حتى أبو نضال ادعى أن الشابة قد أرسلت من أجل غواية هنون وتجنيده لصالح الأردنيين . وفي شطحة سقيمة من الوصف الكاذب ، وصف الرداء البني الذي يفترض أنها لبسته ، وما تحمل معها من سموم . حكم أبو نضال عليهما بالموت ، لكنه اختص هنون نفسه بإعدامهما .

أفقدت تجربة هنون في قتل حماته ، وشقيقة زوجه لإنقاذ حياته ، أفقدته توازنه نهائيا . وتقول مصادر داخلية أن وصفي هنون قد استحال إلى شخص متهالك منذ مدة طويلة . وهو يعلم أن دوره في رئاسة الجيش الشعبي هو دور مظهري إلى حد بعيد .

ومن تحرياتي استنتجت أن السلطة الحقيقة في لبنان هي لسليمان سامرين « د . غسان العلي » ، السكرتير الأول للجنة المركزية ، ورئيس السكرتارية مصطفى عوض « علاء » رئيس دائرة الاستخبارات ، ومصطفى إبراهيم صندوقة « خلدون » رئيس لجنة العدل .

* * *

الفصـــل العاشـــــر

الخيــوط الخفيــة



الخيوط الخفية

إن دراسة احتمال وجود علاقة بين إسرائيل وأبو نضال تقوم على وجود بعض الأدلة . وبعض هذه الأدلة استدلالي وتخميني ، وبعضها حقيقي جوهري . وفي الفصول السابقة فقد تناولت احتمال تورط بعض العملاء الإسرائيليين وبخاصة من شمال أفريقيا في قتل شخصيات فلسطينية معتدلة بالرغم من أنها تنسب مع ذلك إلى أبو نضال . وقمت بالكشف عن هوية الرجال الكبار بداخل المنظمة الذين ربما يكونون مسئولين عن توجيه هؤلاء العملاء الذين ينفذون العمليات التي تخدم المصالح الإسرائيلية .

الحصانة من الهجوم :

إن بعض أنشطة أبو نضال وبخاصة في لبنان قد جذبت انتباهي وزادت من شكوكي . فمنذ أواخر الستينات قامت إسرائيل مرارا وتكرارا بغارات جوية وقصف مدفعي وهجمات تدميرية لمواقع أعدائها الفلسطينيين والشيعة في لبنان وكانت تلك المواقع تابعة لمنظمة فتح ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة الكامة ، وحزب الله ... وجهات أخرى . لقد كان لإسرائيل - ولاتزال - الحرية الكاملة في لبنان ، فهي تسيطر على سماء ذلك البلد ، وتسيطر على أرضه الجنوبية . ولهذا فهي لا تواجه سوى القليل من المقاومة . ولا يكاد يمر شهر إلا ويعلن عن وقوع هجوم ضد مواقع إرهابية ، ويعقب ذلك الإعلان الإشارة إلى أن طائراتنا قد عادت إلى قواعدها سالمة .

ومنذ السبعينات فقد قامت إسرائيل بصفة منتظمة بإرسال قوات برية إلى الشمال من منطقتها الأمنية التي رسمتها لنفسها في جنوب لبنان عام 1978 . وكما رأينا ، فقد قامت إسرائيل بإرسال مجموعات قتالية لأسر وقتل شخصيات فلسطينية مشهورة .

إن أغلب تلك الهجمات كانت توصف من قبل إسرائيل بأنها وقائية وللإخلال بتوازن الخصم . وإذا ما تمكن الفلسطينيون من المرور في وقت أو آخر من الدفاعات الإسرائيلية وتوجيه ضربة في العمق فإن انتقاما شديدا يعقب ذلك : إن تلك هي السياسة الإسرائيلية الرسمية التي تستوجب معاقبة الذين يهاجمونها ، وليس هناك استثناء في ذلك .

ومع ذلك فإن أبو نضال لم يُعاقب بالرغم من هجماته على مكاتب شركة العال في مطاري روما وفيينا . وبالرغم من هجماته المميتة على مجمعات دينية يهودية في إستانبول ومدن أوروبية عديدة . وبالرغم من جرائم أخرى موجة ضد اليهود . إن منظمة أبو نضال في لبنان وليبيا لم تهاجم أبدا بخطورة من قبل عناصر الاغتيال التابعة للموساد أو من قبل السلاح الجوي الإسرائيلي الذي هاجم بعنف مواقع فلسطيتية أخرى . ولهذا فإن ترك أبو نضال يقتل اليهود مسألة تسترعي الانتباه لأنها تتعارض مع السياسة الإسرائيلية .

إن خبيرا ألمانيا متخصصا في مواجهة الإرهاب أخبرني في لندن عام 1990 « أن الذين تود إسرائيل تدميرهم فإنها تدمرهم حتى إذا كان ذلك يتطلب أن ترسل لهم عناصر للاغتيال . ولكن ماذا فعل الإسرائيليون لأبو نضال في خمسة عشر عاما ؟ إنه يبدو كما لو أن الموساد يود أن يبقيه حيا ! » .

إن المؤسسة الكبيرة التابعة لأبو نضال بالقرب من قرية باكستا إلى الشرق من صيدا في لبنان تعرف باسم « مدرسة كادرز » وهي في الحقيقة معسكر حربي مكشوف في الجبال ، يمكن أن يكون هدفا سهلا من الجو . لقد هوجمت تلك المدرسة مرة واحدة فقط في صيف عام 1988 عندما أسقطت قنبلة دقيقة فوق خيمة فقتلت ثمانية مدربات . ولكن عشرات من المباني التي يعيش فيها رجال أبو نضال تركت سليمة بدون قصف .

وقبل انفصال عناصر من رجال أبو نضال عنه – ذلك الانفصال الذي يجعل القادة يخشون بعضهم بعضا – فقد تحرك كبار القادة المقربين منه بحرية بدون حماية

كما لو أنهم لا يخشون اعتداءً إسرائيليا ، وقد ناموا في منازل بلا حراسة ، بدون أن يبدو عليهم الشك من أنهم يمكن أن يتعرضوا لعمليات عدائية . إن كل ذلك كان يحدث بالرغم من أن كل إنسان كان يعرف أن منظمة أبو نضال قد قتلت السفير الإسرائيلي في لندن في يونيو 1982 ، بالإضافة لاعتداء على الكنيس اليهودي في إستانبول ، ومهاجمة أهداف يهودية أخرى . و لم يكن هناك ضحايا من القيادات القريبة من أبو نضال بواسطة هجمات من الجانب الإسرائيلي .

عمليات في المناطق المحتلة :

هناك شكل آخر من أنشطة أبو نضال تحيرني إن القوميين الفلسطينيين من اليسار الاشتراكي إلى اليمين الإسلامي ينظرون إلى الانتفاضة في المناطق المحتلة على أساس كونها معركة وطنية . فهو جهد متميز من نوعه بعد سنوات من السلبية لتحرير تلك المناطق . ومع أن أبو نضال قد هاجم أهدافا في كل أجزاء العالم تقريبا من بانكوك إلى استراليا وبيرو فإنه لم يلق حجرا في المناطق المحتلة قبل الانتفاضة أو اثنائها . وعلى مدى السنين التي تحادثت فيها مع الناس في المناطق المحتلة فلم يسمع شخص واحد عن عملية قام بها أبو نضال مهما كانت تافهة . الأطفال ذوو الثماني سنوات من عمرهم يلقون الحجارة على الجنود الإسرائيليين النساء العجائز يقذفن بقنابل الغاز المسيل للدموع . ولكن أبو نضال لا يفعل شيئا . ولا يعلم أغلب الفلسطينيين في المناطق حتى اسمه لأنه لم يكلف أحدا منهم بعمل ما و لم يتبرع بقرش و لم يفعل شيئا على الإطلاق لدعم كفاحهم ضد الحكم الإسرائيلي .

وعندما تأسست القيادة الوطنية المتحدة للانتفاضة – وهي المظلة التي تنظم الانتفاضة – عام 1988 ، اعتبرتها مطبوعات أبو نضال على أساس كونها امتدادا لمنظمة التحرير الفلسطينية التي يرأسها عرفات وتجاهلتها – لذلك – تجاهلا تاما .

إن تجاهل أبو نضال للمسألة الفلسطينية يظهر بوضوح من بنيان منظمته . فلجنة إدارة المخابرات للمهمات الخاصة – التي تقوم بأعمال الاغتيال تقوم بتوظيف العشرات من الرجال ولها اعتمادات غير محدودة أما إدارة اللجنة الأردنية الفلسطينية

المشتركة فليس لديها تقريبا اعتمادات مالية أو تسهيلات وكانت تتألف فقط من رجلين اثنين على مدى فترة طويلة هما : سمير درويش الذي أرسل إلى مهمة في بيرو حيث تم أسره هناك ، والثاني هو فضيل القيس الذي مات في لندن بعد إجراء عملية في القلب . وعلى مدى سنوات الانتفاضة لم يعط أبو نضال أية تبرعات إلى اللجنة الأردنية الفلسطينية ولم يقم بأية عمليات في جنوب لبنان مثلما فعل ويفعل العديد من المنظمات الفلسطينية لإزعاج الإسرائيليين .

وفي عام 1988 قام عاطف أبو بكر بالدعوة إلى عقد جلسة لمناقشة ماذا يمكن عمله لمساعدة الانتفاضة . وقد ضرب أبو نضال اللقاء مدعيا أن تلك الأمور من التفاهات .

وبعيدا عن دعم الانتفاضة ، فإن أبو نضال تعمد التدخل فيها مثلما جرى في حالة العميد مأمون ماريش والذي يعرف دوليا على أنه فلسطيني يحمل اسم مأمون الصغير . إن ماريش واحد من قادة منظمة فتح القادرين والأكفاء ، كان يخدم في قاعدة فتح البحرية السرية في اليونان ، وبالتعاون مع أبو جهاد كان يحرك الرجال والسلاح إلى داخل المناطق المحتلة . ولذلك فقد كان للموساد الأسباب الكافية لقتله . كذلك كان هناك بعد آخر يخص ماريش . فالمصادر الفلسطينية تقول إنه كان يتمتع بصلات قوية ممتازة مع السوفييت حيث أعطاهم معلومات ومعدات فنية حساسة مما جعل وكالة المخابرات المركزية تتعقبه هي الأخرى .

وفي 20 أغسطس 1983 ، وفي يوم صيفي حار من ضاحية بحرية لمدينة أثينا « باليونان » قام رجل يركب دراجة بخارية مزدوجة بالاقتراب من سيارة ماريش وأطلق عليه عدة أعيرة نارية فقتله . وقد استنتجت منظمة التحرير الفلسطينية أن الموساد أو وكالة المخابرات المركزية هي المسئولة عن ذلك الحادث .

ولما كان الروس يعتبرون ماريش رجلهم فقد تحرُّوا لمدة عدة أشهر وتوصلوا إلى أن ماريش قد قتل بواسطة أبو نضال وقدموا دليلهم لعاطف أبو بكر وكان في ذلك الوقت المرشد السياسي لأبو نضال وطلبوا منه تفسيرا لما حدث . هل كان أبو نضال على علم – كما تساءل الروس – بالمخاطر التي يقوم بها لقتل عملاء سوفيت ؟

وعندما تقابلت معه – أي مع عاطف – في تونس بعد انفصاله عن أبو نضال . فقد قال أنه واجه أبو نضال بالاتهامات السوفيتية ولدهشته فقد قال أبو نضال أنهم – أي السوفيت – على صواب في أنه كان قد قتل ماريش ليعود إلى فتح ، ولكنه أوضح أن دوره في تلك العملية لا يجب أن يظهر على العلن ، وذلك لأن العديد من الفلسطينيين كانوا يعلمون بأن ماريش كان واحدا من أقوى الروابط بين منظمة التحرير الفلسطينية والضفة الغربية . ومن أجل ذلك لم يرغب أبو نضال في أن يظهر على أنه قاتله .

ولم يكن سلوك أبو نضال من المناطق المحتلة فقط هو الذي جعلني أشك فيه . فالمعروف أن الجنوب اللبناني – شمال المنطقة الأمنية الإسرائيلية – كان على مدى سنوات ولا يزال مسرحا للصراع بين الأحزاب المسلحة المتباينة التي تعتنق سياسات وأيديولوجيات غير متجانسة . فهناك الشيعة والدروز والناصريون والشيوعيون والبعثيون والموالون لسوريا بالإضافة إلى الفصائل الفلسطينية العديدة والتي تتصارع للدفاع عن مواقعها . ولقد أخبرني العديد من الرجال من تلك الفصائل والجماعات بأنه عندما يحدث صراع بين فصيل فلسطيني وآخر ، فإن رجال أبو نضال يقومون بإطلاق النار على كلا الطرفين لكي يزداد ويتعمق الصراع بينهما . ولقد استخدم أبو نضال تكتيكات مماثلة ضد الجماعتين الشيعيتين هناك وهما جماعة أمل وحزب الله .

إن صيدا هي البناء الرئيسي لجنوب لبنان . ويشرف عليها الناصريون بقيادة مصطفى سعد . وعلى مقربة منها معسكر عين الحلوة الذي تسيطر عليه منظمة التحرير الفلسطينية حيث يوجد الود والمحبة بين الجانبين . ومع ذلك فقد أخبرني منشق على منظمة أبو نضال ، أن أبو نضال قام بإرسال رجال مقنعين مرارا للتوغل داخل المعسكر الفلسطيني وإلقاء متفجرات وإثارة اللاجئين . وفي الوقت نفسه زرع قنابل في صيدا بهدف إثارة الشقاق بين معسكر منظمة التحرير الفلسطينية وبين رجال مصطفى سعد . وفي صيف عام 1990 فإن تلك التكتيكات قد اكتشفت وطرد العديد من رجال أبو نضال من صيدا ومن معسكر عين الحلوة .

لقد أخبرني العديد من الضباط السابقين بجيش أبو نضال أن أبو نضال نفسه تعود أن يطلب من مؤيديه في لبنان أن يرسلوا إليه بتقارير عن مدى قوة ومواقع وعمليات القوات الأخرى العاملة في لبنان وبصفة خاصة الجيش السوري . ولقد اعترض السوريون حاملا لرسائل كانت مرسلة إلى أبو نضال . لماذا ؟ ولمن ؟ هذا هو ما أرادوا معرفته . هل كان أبو نضال يجمع معلومات عنهم ؟

ولقد أخبرني عضو سابق من لجنة العدل التابعة لأبو نضال ذات مرة أنه عندما يتم أسر عملاء للموساد من قبل المنظمة فإنهم يُقتلون عادة في الحال . في نفس يوم أسرهم . والأسلوب المتبع هنا هو إبقاء هؤلاء المسجونين لفترة كافية لاستخلاص كل ما يمكن معرفته منهم من معلومات . أما إذا قتل الأسير قبل أن يتحدث فإن ذلك يكون من أجل منعه من الكلام الخطير فيما بعد . ولقد أخبرني هذا العضو أن هناك شخصا ما قد زرع في لجنة العدل لقتل عملاء الموساد قبل أن يعترفوا .

حالة زياد زيدان وفتحي حرز الله :

في يوليو 1989 علم الجيش الشعبي التابع لأبو نضال – وهو قواته العاملة في لبنان – أن هناك خلية من رجلين تابعين للموساد تعمل في مخيم اللاجئين الفلسطينيين الكبير في عين الحلوة بالقرب من صيدا . واحد منهما يسمى زياد زيدان قام بالاعتراف بروابطة مع الإسرائيليين لقائد الجيش الشعبي « التابع لأبو نضال » في جنوب لبنان والذي يحمل الاسم الكودي سفيان . ولقد قال زيدان إنه يود أن يرضي ضميره ويغسل العار الذي حمله في الماضي ، وأنه مستعد أن يموت نتيجة للأخطاء الفظيعة التي ارتكبها بحق القضية الفلسطينية . وأخبر سفيان أنه كان قد أسر من قبل الإسرائيليين خلال حرب عام 1982 وأرسل إلى إسرائيل وحبس وتأهل هناك وتدرب إلى أن تم إرساله مرة أخرى إلى جنوب لبنان كجاسوس . ولقد كشف زيدان عن أنه ورفيقه فتحي حرز الله – وهو قريب له من مدينة تل القريبة من نابلس بالضفة الغربية – قد عملا للموساد في جنوب لبنان منذ عام 1982 ككاشفي خبايا الصور الجوية التي تلتقطها طائرات الاستطلاع الإسرائيلية . حيث يتم إرسال أفلام لهما « كان مع زيدان في وقت أسرة فيلم طوله عدة أمتار » لمخيم عين الحلوة

ومواقع أخرى ، وكانت مهمة زيدان هو أن يقوم بمعرفة من يسكن في المنازل التي رقمت بالحبر الأحمر « على الفيلم » . ومتى يكون سكان تلك المنازل في داخلها ثم يخبر الإسرائيليين بذلك .

ولقد أخبر زيدان سفيان أنه على مدى السنين فقد اتصل بإسرائيل من خلال جهاز راديو بشفرة خاصة . ليخبرهم ما لا يقل عن سبعة آلاف رسالة ، ولهذا فقد كان مسئولا عن العديد من الهجمات الجوية الإسرائيلية على لبنان وعن مئات الضحايا الفلسطينية . واعترف بأنه حصل على أموال جيدة من عمله هذا .

ولقد عاد زيدان لإسرائيل مرتين أو ثلاث مرات للإدلاء ببعض التفاصيل ولمزيد من التدريب . وقد يخبره الإسرائيليون عبر الراديو أين ينتظر على الشاطئ لمقابلة زورق بحري صغير به ضفادع بشرية لنقله عادة قبل حلول الفجر . وفي حالة الطوارئ ، فإن زيدان ورفيقه حرز الله يقوما برفع علم أبيض صغير فوق قمة أحد المباني أو التلال لتقوم طائرة هليكوبتر إسرائيلية بنقلهما أو بواسطة زورق دورية إسرائيلي .

ولقد أثرت اعترافات زيدان على سفيان وأثارته . وكان أول خاطر راوده هو أن يوجه هذه الخلية تجاه إسرائيل . فعلى الأقل فإن زيدان وحرز الله يمكنهما من الإيقاع بزورق إسرائيلي مما ينتج عنه تدميره أو أسر طاقمه . وعلى الفور قام سفيان باصطحاب زياد زيدان لرؤية وصفي حنون وهو قائد الجيش الشعبي التابع لأبو نضال ، والذي حول الحالة إلى مصطفى عواد « علاء » والذي يشغل أعلى رتبة من رتب ضباط المخابرات التابعين لأبو إياد والذي لديه اتصال فوري مع الدكتور غسان العلي وكذلك مع أبو نضال .

ولقد أبدى علاء عدم الاهتمام بقصة زيدان بل إنه حتى شعر بالملل منها . وعلق على اقتراح سفيان بتحويل الخلية للعمل ضد الإسرائيليين بأنها فكرة حمقاء لأنها لن تنجح أبدا . وبعدما نفس دخان غليونة أوضح سفيان أن عملية الكشف عن خلية تابعة للموساد ومع فيلم مصور ورسائل يعتبر أمرا عاديا . ومع ذلك فقد اقترح علاء

بأن يتم إحضار الرفيق الآخر لزيدان وإجباره على الاعتراف بما قام به في تلك العملية سواء تحت التعذيب أو بالتهديد بالموت .

وعندما تمت مواجهة حرز الله ، فقد صرح بأنه إنما فعل ذلك خوفا من انتقام الإسرائيليين من زوجتيه وأطفاله إذا ما هو ترك العمل معهم ولكنه صرح بأنه إذا ما أرادت المنظمة « منظمة أبو نضال » منه أن يعمل معها ضد الإسرائيليين فإنه سيطلب 1500 دولار شهريا ذكر أنه يتقاضاها من الموساد نظير عمله معه .

ولقد اتضح أن أسرة حرز الله وأعضاءها في الضفة الغربية كانت على اتصال عميق مع المخابرات الإسرائيلية بأكثر مما كانت عليه أسرة زيدان . فمنذ سنوات مضت ذهب فتحي حرز الله إلى دولة الإمارات العربية للبحث عن عمل وهناك تم تجنيده بواسطة المخابرات الأردنية بعد ذلك - كما يقول - جاءه رجل من بلدته واقترح عليه بأنه إذا ما عاد إلى الوطن فإن الموساد سوف يعطيه - بالنظر إلى خبرته في أعمال المخابرات - أكثر مما يعطيه الأردن . فوافق على ذلك وتم تجنيده وتدريبه وأرسل إلى لبنان للعمل مع زيدان .

وبالرغم من عدم تشجيع علاء للفكرة . إلا أن سفيان وزيدان سارا إلى المتاعب بإقناع فتحي كي يعمل ضد الإسرائيليين .

وبعد يومين من ذلك القرار أرسل الموساد رسالة عبر الراديو لزيدان تخبره بالحضور إلى إسرائيل . وكانت تلك الرسالة هي الثالثة فقط منذ عمله مع الموساد والذي استمر سبعة أعوام . ولقد فكر سفيان في أن يستغل تلك الفرصة لقتل أو أسر أيا من الإسرائيليين الذين سيتم إرسالهم لالتقاط زيدان . ورسم خطة عرضها على علاء موضحا أنه إذا كانت المنظمة « منظمة أبو نضال » لا يتوافر لها المقدرة العسكرية التي تحتاجها العملية فإن منظمة فلسطينية أخرى - مثل منظمة جبريل - الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة ستكون سعيدة بالتعاون .

وبعد يوم من ذلك . وبدون أن يخبر سفيان - وبناء على أوامر مباشرة من أبو نضال - تم اعتقال فتحي حرز الله حيث اتهم بالعمل مع الموساد . وقام المكتب

المحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية - والذي كان كالعادة يراقب عمليات أبو نضال - بعد أن علم باعتقال حرز الله وبالتهمة الموجهة إليه سارع باعتقال زيدان وهو الرجل الذي تعرف منظمة التحرير الفلسطينية بأنه رفيق حرز الله . بالرغم من أن زيدان كان هو الذي اعترف أولا وأبدى استعداده للتحول للعمل ضد إسرائيل .

ولقد أزعج الإسرائيليون باعتقال عميليهم . فقاموا بوقف خطتهم بالرسو على الشاطئ اللبناني . وبذلك نسفت العملية . وبعد نحو شهر من اعتراف زيدان فإن أي أمل لاستغلال فشل الموساد الإسرائيلي - من قبل الفلسطينيين - قد تحطم بالكامل . وأوضحت مصادر فلسطينية عليمة بهذه الحالة أن هناك العديد من الشخصيات تحوم حولها الشكوك :

إن شكوك علاء وقلة اهتمامه تستدعي الانتباه . فبعد عام من اعتقال فتحي حرز الله لم يقم أبو نضال بالكشف عن أي شيء عن محاكمته أو العقاب الذي نزل به . ولم يقم بمناقشة أية منظمات فلسطينية أخرى عن المعلومات التي جمعها عن طرق جهاز الموساد ، أو عن أية ارتباطات قد تكون موجودة لدى حرز الله ، أو عن مدى الضرر الذي وقع للأمن الفلسطيني من جراء هذه الخلية التي اكتشفت .

وعندما اقترب زيدان من سفيان لأول مرة صرح بأنه كان مترددا لفترة طويلة من الاعتراف لأنه كان يتشكك من منظمة أبو نضال وطرق عملها وصفتها واتصالاتها . وصرح بأن تشككه ذلك كان مشابها لتشككه من الموساد الذي درب وهو وصديقه فيه .

وأخيرا فإن أوامر أبو نضال لعلاء قد أدت إلى إجهاض العملية مما يوحي بالتواطئ مع المخابرات الإسرائيلية .

لقد اقتنع سفيان عن طريق أسلوب تنازل أبو نضال لتلك العملية أن عليه أن يترك المنظمة .

حالة مصطفى إبراهيم صندوقة :

كما رأينا فإن صندوقة كان مسئولا عن منظمة العدالة الثورية وهي المؤسسة المسئولة عن السجون والاستجواب والتعذيب والإعدام . ولقد عمل من قبل ككاتب جلسات المكتب السياسي واللجنة المركزية وتزوج واحدة من بنات أشقاء أبو نضال .

وفي أكتوبر 1989 ظهر زيدان آخر « ليس زياد زيدان السابق الإشارة إليه » يتعامل مع الموساد . أنه يوسف زيدان العالم الذي تدرب في ألمانيا . وبعد تخرجه التحق باللجنة العلمية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت أولا ثم بعد ذلك في بغداد . وعندما انفصل أبو نضال عن عرفات عام 1974 وأحتل المرافق التابعة لمنظمة التحرير في العراق ، قام زيدان هو الآخر بالانفصال عن منظمة التحرير وانضم إلى اللجنة العلمية التابعة لأبو نضال . حيث شغل وظيفة لم تكن مثل وظيفة الدكتور غسان العلي ذلك الكيميائي الذي تدرب في إنجلترا والذي شغل منصب رئيس السكرتارية والذي ينظر له من قبل المصادر الاستخبارية في كافة أنحاء أوروبا على أنه على اتصال عالي المستوى مع الموساد .

وفي نوفمبر 1989 أختفى يوسف زيدان في لبنان ، ولقد أخبرت من قبل مصادري أن أبو نضال يشك في أن زيدان قد اختطف من قبل منافسه الجديد عاطف أبو بكر الذي أرسل من قبل لجنة العدالة التابعة لمصطفى صندوقة ليحاول اختراق قيادة الطوارئ وإزاحة زيدان . ولقد تم اكتشاف محاولة الاختراق وأسر الرجل الذي أرسله صندوقة وحقق معه في يونية عام 1990 بواسطة رجل ليس هو إلا صديقنا القديم سفيان الذي انشق عن منظمة أبو نضال والذي يمثل الآن القيادة الطارئة . ولقد أجري التحقيق بصورة نظيفة بدون تعذيب وبدون استخدام القوة . وطبقا لما قاله عاطف أبو بكر – الذي سجل له شريط فيديو لكي يعرض في المخيمات الفلسطينية في جنوب لبنان كجزء من حملة القيادة الطارئة ضد أبو نضال – فإن رجل صندوقة قد اعترف :

1 – بالعمل مع الموساد .

2 - أن قائده هو مصطفى إبراهيم صندوقة .

3 - أن مهمته كانت في التوصل إلى يوسف زيدان لمساعدته على الهرب وإذا لم يتمكن فليقتله .

ولقد انتهت قيادة الطوارئ إلى أنها توصلت إلى خلية موساد داخل منظمة أبو نضال وأن أعضاء تلك الخلية يتكونون بالإضافة إلى زيدان وصندوقة من السمكة الكبرى سليمان سامرين المعروف باسم الدكتور غسان العلي .

لقد كان يوسف زيدان والدكتور غسان صديقين منذ بداية السبعينيات أي منذ أيام اللجنة العلمية لمنظمة فتح . وتذكر مصادر مخابرات منظمة التحرير الفلسطينية بأنه كان هناك مخاوف أمنية من كلاهما ترجع إلى احتمال اتصالهما بالموساد منذ أيام دراستهما . ولهذا فقد تم تحويلهما بواسطة منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت إلى بغداد لإزالتهما من مركز عمليات منظمة التحرير الفلسطينية . ولكن عندما تسلمهما أبو نضال عام 1974 فقد رقاهما . وخاصة الدكتور غسان على وجه الخصوص الذي ارتقى السلم بسرعة .

ولقد انتهت القيادة الطارئة إلى أنه عندما اختفى يوسف زيدان واعتقد أنه أختطف . فإن كلا من الدكتور غسان ومصطفى إبراهيم صندوقة قد خشيا أن يكتشف أمرهما إذا ما تكلم زيدان .

ولهذا فقد تم إرسال رجل تابع لصندوقة للبحث عن زيدان لتحريره أو قتله .

وكان افتراض عاطف أبو بكر - الذي أوضحه لي - أن الإسرائيليين يرون في الدكتور غسان العلي ومصطفى إبراهيم صندوقة عميلين على أعلى مرتبة في منظمة أبو نضال . يمكن بهما تنفيذ - كما سنرى - الإعدامات الكبرى لرجال أبو نضال المقاتلين عامي 1987-1988 .

ولقد حررت القيادة الطارئة بيانا توضح فيه أن الذين يعذبون ويقتلون أعضاء المنظمة بتهمة التخابر هم أنفسهم جواسيس للموساد .

الإخوة عثمان :

طبقا لمصادري فإن فاروق عثمان كان وسيلة اتصال حقيقية بين الموساد وأبو نضال . أما شقيقه نبيل عثمان فقد كان على مدى سنوات عضوا من مجلس إدارة منظمة أبو نضال . ولبعض الوقت كان مسئولا عن اللجنة الأردنية الفلسطينية . وفي أواخر الثمانينات كان الممثل المقنع لأبو نضال في الكويت . وطبقا لمصادر الاستخبارات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية . فإن شقيق نبيل – فاروق – كان منذ بداية السبعينات عميلا للموساد . يعمل في المناطق المحتلة وخارجها . وذكر أنه خان العديد من الأسر الفلسطينية لصالح الموساد

وطبقا لعاطف أبو بكر فإن فاروق عثمان هو ضابط مخابرات للموساد الذي ذكر عنه قيامه بالمساعدة في التخطيط لقتل مجيد أبو شرار ذلك المسئول الهام لمنظمة فتح في روما عام 1981 ، وكذلك الهجوم على مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس « في حمام الشط » عام 1985 وكذلك مقتل أبو جهاد نائب عرفات في تونس في 16 أبريل 1988 بواسطة فرقة اغتيالات إسرائيلية . وفي تلك العملية الأخيرة فإن ضابط الموساد عمل مع فاروق عثمان .

وطبقا لمصادر الاستخبارات التونسية ، فإن فاروقا كان في تونس في الفترة مابين 1 أبريل و 17 أبريل 1988 مسافرا على جواز سفر مصري مزور . وفي صباح يوم 17 أبريل وهو اليوم التالي لمقتل أبو جهاد فقد سافر من تونس إلى مالطا ثم إلى ليبيا « بواسطة جواز سفر أردني ذكر أنه يسافر به عادة » لزيارة شقيقه نبيل – رجل أبو نضال – ليبقى في أحد منازل أبو نضال الآمنة في طرابلس .

ولقد عرف أبو نضال خلفية فاروق عثمان من رجاله ولكنه لم يفعل شيئا ، موضحا أنه لا يود أن يغضب شقيق فاروق – نبيل – وأخبر واحدا من أعضائه بأن منح أحد عملاء الموساد كرم الضيافة قد يثبت يوما ما أنه عمل مفيد(*) .

(*) بعد عامين من مقتل أبو جهاد ، نشرت صحيفة الشرق الأوسط الدولية الصادرة في لندن في 12 =

حالة محمد خاير :

كان محمد خاير فلسطينيا من غزة ولد عام 1961 ودرس في تركيا وقد حظي بثقة أبو نضال حيث عينه عام 1986 – عندما تأسست المنظمة في سوريا – كمسئول عن أرشيف مجلس الإدارة السياسي .

ولكن عاطف أبو بكر أخبرني – وكان رئيسا لمجلس الإدارة في ذلك الوقت – أنه كان يكره الأسلوب الجاف الذي يتبعه خاير وطريقة إيقاعه برفاقه في الحديث ليتسنى له أن يكتب عنهم تقاريرا . ولهذا فقد قام بنقل خاير للعمل في بيروت .

وبعد نقله إلى بيروت بقليل أسرت المنظمة عميلا إسرائيليا حيث أمر محمد خاير بالتحقيق معه . ولكنه قتله على الفور ، وبالتالي لم يكن أمام ذلك الجاسوس الفرصة أن يتحدث عما يعرفه عن الموساد . ولقد أدى ذلك إلى إثارة الشكوك لدى المحيطين بخاير ، فتم اعتقاله والتحقيق معه بدوره واعترف أنه عندما كان يدرس في تركيا ارتكب بعض الأخطاء مما أدى إلى سجنه ، وبعد الإفراج عنه سمع به الموساد فجندوه . ولقد فاجئ خاير مستجوبيه عندما صرح لهم بأن أحد مهامة كانت اغتيال عاطف أبو بكر وذلك عن طريق وضع مادة سامة في قهوته . وعندما علم أبو بكر بذلك فقد ذهل . فلماذا يود الموساد اغتياله ؟ إنه ليس إرهابيا . إنه ضد الإرهاب منذ عام 1985 ونحى بالمنظمة بعيدا عن الأعمال الإجرامية وركز مهامها على العمل السياسي ، وبخاصة بعد اندلاع أعمال الحرب بين الفصائل في المخيمات . لقد وضع اليوم للمنظمة منهاجا سياسيا على عكس ما يرغب أبو نضال .

= أكتوبر 1990 أن محمد علي محجوبي ضابط البوليس التونسي المسئول في وقت القتل قد اعتقل حيث ذكرت تقارير صحفية أن فرقة البوليس الدائمة التواجد خارج منزل أبو جهاد كانت متغيبة في ليلة 16 أبريل . ولقد ذكر أن المحجوبي كان على اتصال بسيدة لديها صالون تجميل راقي المستوى كثيرا ما تذهب إليه السيدات زوجات كبار المسئولين الفلسطينيين ، تلك السيدة تم اعتقالها هي الأخرى في الوقت نفسه الذي اعتقل فيه المحجوبي ولنفس التهمة : احتمال العمالة للموساد .

وعندما سئل محمد خاير عن ذلك بعد أسره في بيروت أجاب : إن ذلك صحيح . إن المنظمة كانت مجرد عصابة للقتل قبل أن يأتي عاطف ويسيسها .... ومن وجهة نظر إسرائيل فقد جعل المنظمة أخطر من ذي قبل بكثير وهذا ما يجعلهم يودون قتله .

مذابح ورعب بلا معنى :

إن المذابح الذي ارتكبها أبو نضال في أواخر الثمانينات ، والتي سوف أتعرض لها فيما بعد تشكل واحدة من أكبر الألغاز في حياته المهنية . إذ كيف تقوم منظمة لا يزيد عدد أعضائها عن عدة مئات بتصفية نصف أعضائها عن طريق قتلهم ؟ وكما سنرى ، فقد أعطى أبو نضال الأوامر وهو في ليبيا لتنفيذ تلك التصفية الشاملة . وقام تابعوه المخلصون الدكتور غسان العلي ، ومصطفى إبراهيم صندوقة « الأول من السكرتارية العامة والثاني من لجنة العدل » بتنفيذ عملية التصفية في لبنان .

ولقد أخبرتني بعض المصادر أن أبو نضال أعطى تلك الأوامر بالقتل عندما كان يشرب الخمر بكثرة . لقد كان ذلك هو الوقت – ليلا – عندما تظهر عليه المعاناة من البارانويا ويخشى القلاقل ضده . وربما تكون مخاوفه تلك كانت تغذى من رجل مثل الدكتور غسان . فالتوتر الداخلي في منظمته في الحقيقة لم يكن شديدا ليدفعه لقتل هذا العدد من الرجال لإنقاذ نفسه . ولكن على العكس فقد أدت تلك التصفيات الدموية إلى انفصال عاطف أبو بكر وآخرين عنه من نهاية عام 1989 .

وبالرغم من ذلك ، فقد جاء التفسير على لسان أعضاء سابقين في المنظمة حيث ذكروا أن أبو نضال رغب بسلوكه الدموي في تدمير الجماعة المستقلة التي ظهرت في لبنان عام 1985 لتعود إليه السيطرة ويذهب متخفيا إلى ليبيا .

وبغض النظر عن الطريقة التي ينظر لها . فإن عملية قتل عدة مئات من الشباب يعتبر حلا متطرفا للغاية ليس له من تفسير كامل من الظروف التي كانت تحيط بأبو نضال في ذلك الوقت . فعندما ناقشت أنا وعاطف أبو بكر تفاصيل المقتلة ذكر لي أن إسرائيل وجهت أبو نضال،سواء بصفة مباشرة أو عن طريق الدكتور غسان

وآخرين للتخلص من أفضل الرجال في المنظمة .. « فقد كان الرجال الذين تم قتلهم هم زبدة المنظمة » كما أخبرني ... خيرة الضباط وأشجع المقاتلين . ولقد اكتشف عاطف أبو بكر بدهشة أن بعضا من رجال إدارة المخابرات قد تم قتلهم كذلك . لقد كانت أفضل وأكبر الخدمات التي قدمها أبو نضال إلى إسرائيل بدون شك قيامه بذبح أكثر من ستمائة مقاتل فلسطيني .

بعد ذلك وعندما اندلعت الانتفاضة في ديسمبر 1987 قام أبو نضال بتنفيذ سلسلة من العمليات « وهي التي سأرويها عند الحديث عن الشئون الخارجية » والتي لم يكن لها هدف واضح سوى التقليل من وزن الانتفاضة وبلا إضرار بالمصالح الفلسطينية في بلدان كانت دائما صديقة لهم . وعلى سبيل الذكر انفجار سيارة ملغومة في قبرص عام 1988 قتلت وجرحت 15 شخصا مما أدى إلى تحول في الرأي العام القبرصي . هجمات بالقنابل في السودان استهدفت التقليل من الدعم السوداني الطويل المدى للفلسطينيين . انفجارات في أثينا ، والهجوم الذي وقع في سفينة « مدينة بوروس » مما أضعف كثيرا من التعاطف اليوناني مع الفلسطينيين . مقتل الدبلوماسيين السعوديين الذي لم يؤد إلى كسب الأصدقاء في الرياض . واختطاف أطفال فرنسيين كرهائن على متن سفينة « سيلكو » لم يزد من محبة الرأي العام الفرنسي للفلسطينيين .

وقبل أن أفحص تلك الأحداث . فهناك حالة أخرى توضح مدى قناعة أبو إياد من أن أبو نضال يعمل لصالح الإسرائيليين أو أنه يستخدم بواسطتهم . إنها حالة أرجوف . محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن ، والتي كانت الحجة التي أدت إلى غزو لبنان بواسطة إسرائيل عام 1982 .

موضوع أرجوف :

رغب مناحم بيجين طوال حياته أن يضم الأراضي المحتلة إلى دولة إسرائيل . تلك الأراضي التي احتلت عام 1967 والتي أحب أن يسميها يهودا والسامرة والتي تعرف باسم الضفة الغربية .

وعلى النقيض من رغبات بيجين فإن السكان الفلسطينيين المحليين لم يريدوا الحكم الإسرائيلي ونظروا إلى قيادة ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت موجودة في ذلك الوقت في لبنان .

ولقد اعتقد بيجين أنه إذا ما كان لإسرائيل أن تجعل الضفة الغربية جزءا من إسرائيل الكبرى فإن منظمة التحرير الفلسطينية يجب أن تدمر .

ولقد حاول بيجين ثقته في تنفيذ تلك المهمة - مهمة تدمير منظمة التحرير - إلى وزيره العنيف للدفاع أريل شارون الذي كان قد اكتسب شهرة لشجاعته وقسوته وحتى لعدم اتزانه .

وفي عام 1981 وضع شارون خطة هدفها الرئيس غزو لبنان وتدمير منظمة التحرير وإخراج القوات السورية المتواجدة في لبنان منذ عام 1976 وإقامة حكومة مسيحية في بيروت يرأسها قائد ميليشيا الكتائب المسيحية بشير الجميل والذي عرف عنه ميوله لإسرائيل .

وإذا ما تم تحييد سوريا وإخضاع لبنان للنفوذ الإسرائيلي فإن إسرائيل يمكنها ضم الضفة الغربية إلى إسرائيل الكبرى بدون مخاطر داخلية أو خارجية . إن هذا كان تصور بيجين وخطة شارون .

ولقد ساعد على ذلك أن الظروف المحيطة كانت مشجعة . فإسرائيل كانت بالغة القوة وجيرانها العرب ضعافا وأكثر انقساما عن ذي قبل فمصر - أكبر دولة عربية - كانت على صلح مع إسرائيل ، وسوريا منعزلة وفي وضع سيئ مع العراق والأردن ، ووضعها الدولي في الحضيض منذ المذبحة التي وقعت في مدينة حماه في فبراير 1982 بعد صراعها لمدة خمسة أعوام مع الإخوان المسلمين الأصوليين ولم يكن بمقدور سوريا أن تحارب . أما بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية وهي مركز العداوة الموجهة من بيجين إلى الفلسطينيين ، فإن فئاتها المتصارعة كانت تحت قيادة سيئة ومعها سلاح ضعيف ومخترقة إلى العمق بالعملاء الإسرائيليين ، ولهذا فقد كانت منظمة التحرير قوة عسكرية بلا فاعلية . وهناك عنصر آخر دعم من الموقف

الإسرائيلي وهو التعاطف والتأييد الكبيرين من واشنطن وخاصة من الرئيس رونالدريجان ووزير خارجيته الكسندر هيج ذلك السياسي الجندي المثير الذي لديه طموحات رئاسية والذي يعلم مقدرة العضلات الإسرائيلية في السياسة الأمريكية .

ولكن إسرائيل كانت تفتقد إلى حجة لغزو جارتها الضعيفة الشمالية وهنا أخبر هيج شارون أن إسرائيل تحتاج إلى عملية استفزازية دولية كبرى قبل أن تهاجم لبنان .

وعلى مدى شهور حاول بيجين وشارون إثارة الفلسطينيين لكي يردوا على إسرائيل لتتخذ من ردود أفعالهم حجة للهجوم .

ولقد أرسلت إسرائيل قواتها خمس مرات من يوليو 1981 حتى يونية 1982 إلى الجبهة ثم إعادتها مرة أخرى لأن الفلسطينين رفضوا القتال . وفي الأحد عشر شهرا تلك لم يطلق الفلسطينيون رصاصة واحدة على حدود إسرائيل الشمالية . وكان ذلك ما حدث مع سوريا كذلك . ففي 14 ديسمبر 1981 – للإيقاع بالأسد في عمليات عسكرية – قام بيجين بتطبيق القانون الإسرائيلي على مرتفعات الجولان التي احتلت عام 1967 . ولقد عرف الأسد أنه إذا ما قام بحركة عسكرية فإن إسرائيل ستستغل ذلك لضربه ولهذا فلم يفعل شيئا .

وإزاء ذلك كله ماذا كان على إسرائيل أن تفعل لإيجاد فرصة وحجة لغزو لبنان ؟ لقد أحبط كل من بيجين وشارون . ولكن وكما يعتقد أبو إياد فإن أبو نضال استغل حرص العرب وإحباط إسرائيل وقام بإعطاء الحجة لإسرائيل من ناحيته . ففي 3 يونية 1982 أرسل رجلا مسلحا قام بقتل شالومو أرجوف السفير الإسرائيلي في بريطانيا خارج فندق دورشستر في لندن .

ولقد تمكن البوليس البريطاني من اعتقال الرجل المسلح واثنين من رفاقه وكانوا هم : نواف روزان الذي يحمل باسبورا عراقيا ، وحسين سعيد ومروان البنا اللذان يحملان جوازي سفر أردنيين . ولقد عرف أن البنا كان ابن خال بعيد لأبو نضال .

وبالتأكيد فقد عرف بيجين أن أبو نضال ليس له شأن بمنظمة التحرير لأن ياسر عرفات هو عدوه اللدود . ولكن وكما يقول رفائيل إيتان رئيس الأركان الإسرائيلي

فإن إسرائيل لا تهتم بهذه الأمور فقد كان علينا أن نضرب منظمة التحرير . وعلى مدى يومي 4 و 5 قام سلاح الجو الإسرائيلي بقصف بيروت الغربية بينما كانت المدفعية بعيدة المدى ومدفعية الأسطول الإسرائيلي تقصف المخيمات الفلسطينية مسببة مئات الخسائر . وفي السادس من يونية عبرت القوات البرية الإسرائيلية الحدود حيث بدأت حرب بيجين في لبنان .

وطبقا لإحصائيات الأمم المتحدة فإن سبعة عشر ألف لبناني وفلسطيني قد قتلوا في الأسابيع السبعة الأولى .

وقد أدعى أبو نضال أنه وطني فلسطين . ولكن كيف يستفيد شعبه وقنابل إسرائيل تتساقط من فوقهم ؟ ربما يكون قد رغب في أن تقوم إسرائيل بتدمير منظمة التحرير لكي يجد المجال الفلسطيني مفتوحا أمامه ولكن هذا الاحتمال ضعيف . فبالرغم من أن أبو نضال أقام منظمته في سوريا بهدف السيطرة على لبنان نظرا لكبر حجم السكان الفلسطينيين هناك ذلك الحجم الذي أراد أبو نضال من التحكم فيه بدلا من عرفات ولكن أليس في قيام إسرائيل بغزو لبنان وطرد العديد من الفلسطينيين من هناك وإخضاع لبنان لإسرائيل أو إقامة نظام ماروني أليس في ذلك تقليل من طموحاته الفلسطينية ؟

وفي تلك الأوقات العصيبة في الشرق الأوسط فإنه ليس من المحتمل أن يكون أبو نضال قد قام بقتل أرجوف – مساعدا رد فعل إسرائيلي كبير – بدون تشجيع خارجي قوي . ويبدو لي أنه قام بهذه المهمة لصالح واحد من مؤيديه : إما العراق أو سوريا أو ربما إسرائيل ، أو ربما يكون قد دفع عمدا أو بدون عمد للقيام بها .

لقد أوضح الكاتب والصحفي الإسرائيلي عوري أفنيري في كتابه : صديقي العدو أن سوريا رفعته لتنفيذ المهمة لحث الإسرائيليين على تدمير عرفات لكي تتمكن سوريا من تأسيس منظمة تحرير فلسطينية أخرى تحت سيطرتها . ولكن منذ عام 1976 فصاعدا وبخاصة قبيل فترة التجهيز لحرب عام 1982 امتنعت سوريا عن إعطاء إسرائيل أية حجة لكي تغزو لبنان . بل إن سوريا بذلت الجهود بما في ذلك القوة

العسكرية لكي تمنع الفلسطينيين من إثارة إسرائيل لتهجم على لبنان . إن الأسد الحذر الضعيف عسكريا والخائف من تقلب مزاج بيجين كان مستعدا أن يفعل أي شيء ليتجنب حربا مع إسرائيل .

ولهذا فإن افتراض أن سوريا قد خططت لقتل أرجوف فإننا سوف نجده افتراضا يتجاهل مخاوف سوريا وسياساتها في ذلك الوقت .

أما افتراض أن العراق هو الذي خطط لقتل أرجوف فهو افتراض أكثر قبولا . فصدام حسين وجد أنه في حرب ضروس مع إيران ولهذا فكان ينظر إلى عذر مشرف ليوقف القتال . ولما كان قيام إسرائيل بغزو لبنان قد يساعد على تواجد ذلك العذر فربما يكون العراق هو الذي دبر مقتل أرجوف . إن صدام حسين بعد غزو إسرائيل للبنان قام فورا بطلب وقف إطلاق النار في الخليج ولكن الإيرانيين تجاهلوه واستمرت الحرب . ومع ذلك فهناك أخطاء في ذلك الافتراض كذلك . ففي عام 1982 كان أبو نضال على علاقات سيئة مع صدام حسين ولهذا لم يكن ليساعده فقد كان يجهز لنقل قاعدته من بغداد ويحاور السوريين لتحسين علاقته معهم ، والذين يؤيديون الإيرانيين ضد العراق . لقد كان أبو إياد على علم بتفاصيل السياسة العربية . فلم يكن ليقوم بقتل أرجوف من أجل خاطر صدام ويغضب - بالتالي - الأسد حليفه المستقبلي واضعا أمن سوريا الوطني في خطر ذلك الخطر الذي ستشكله حرب في لبنان .

ومحتمل كذلك أن الموساد دفع أبو نضال لمد إسرائيل بالحجة لغزو لبنان . تلك الحجة التي أرادها كل من بيجين وشارون بشدة . لقد أكد عصام سرطاوي - وهو الذي استغل كل فرصة لإعلان أن أبو نضال هو عميل إسرائيلي - أن شارون قد أمر بالهجوم . ومع ذلك فإن تأكيد سرطاوي هذا به جانب ضعيف . فأبو نضال لم يكن ليغضب سوريا لصالح إسرائيل بنفس المقياس الذي جعله يرفض العمل لصالح العراق ويبقى هنا سؤال حول ما إذا كانت إسرائيل رغبت في القيام بقتل سفيرها في لندن لخلق الحجة لغزو لبنان ؟ إن ذلك الافتراض هو غير قابل للتصديق حتى مع وجود الجناح اليميني المتطرف الذي كان في ذلك الوقت يحكم

إسرائيل . ومع ذلك فإن واحدا من أهم مصادري في المخابرات الغربية قد صرح لي أن عملاء إسرائيليين ربما يكونون قد تلقوا معلومات لتجنيد منظمة أبو نضال لإعطاء إسرائيل الحجة التي تحتاجها لغزو لبنان . ولهذا فربما يكون الهجوم على أرجوف هو نتيجة مبادرة شخصية ناتجة عن طريق تلقينات وأوامر عامة .

إن عملية قتل أرجوف إذن تبدو كما لو أنها وقعت بدون تخطيط . فالهجوم لا يحمل في طياته صفات التخطيط المحكم المعتاد من أبو نضال . ولم يتمكن الجناة من الفرار ، وعلى النقيض من كل قواعد المنظمة فإن مروان البنا – ابن خال أبو نضال – المقيم في لندن كان تلميذا بأكثر مما كان إرهابيا . إنه الآن ومعه رفيقيه سيقضيان عقوبة السجن لمدة ثلاثين عاما في بريطانيا .

إن محاولة اغتيال سفيره في لندن تبقى عملية غير ملائمة لبيجين ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لرجل مثل الدكتور غسان العلي .

وبالرغم من أن مقتل أرجوف قد طغى على أهم العناوين في العالم فلم يكن هو الحادث الوحيد في ذلك الوقت . فقد أخبرني باسل – وهو أحد قادة أبونضال الميدانيين في لبنان في ذلك الوقت – عندما سألته في أحد الفنادق المطلة على الشاطئ في مدينة تونس عام 1990 أنه في ليلة حرب لبنان أمر أحد كبار القادة في المنظمة باستعجال شن عمليات هجومية عبر الحدود ضد إسرائيل . وبالنسبة لباسل في ذلك الوقت فقد بدت فكرة مهاجمة إسرائيل مجنونة ، ولكنه أطاع الأوامر بالرغم من أن العمليات الأرضية ضد إسرائيل لم تكن من مهام المنظمة . فقام بتدريب فرقة هجومية ولكن مقتل أرجوف والغزو الإسرائيلي وقعا قبل أن يتمكن من العمل ولهذا فقد تراجع هو ورجاله إلى وادي البقاع بعيدا عن أيدي إسرائيل حيث نفدوا بجلدهم .

ولم تكن حالة أرجوف هي المناسبة الوحيدة التي خدم فيها أبو نضال سواء بنية أو بدون نية كعميل لصالح إسرائيل . ففي 28 يوليو 1989 قامت طائرة هليكوبتر إسرائيلية تحمل كوماندوز إسرائيليين باختطاف الشيخ عبد الكريم عبيد وهو زعيم

منظمة حزب الله الشيعية مما زاد التوتر بشدة في المنطقة . فقد قامت الجماعات التي تختطف رهائن غربيين بالتهديد بقتلهم إذا لم يتم إطلاق سراح عبيد وبالفعل ففي 31 يوليو تم إعدام العقيد روبرت هيجنز من قوات مشاة الأسطول الأمريكي وهو الذي كان قد اختطف من جنوب لبنان في فبراير 1988 عندما ألحق بالعمل في المنظمة الدولية المشرفة على الجنوب اللبناني .

وأدى ذلك إلى إعلان حالة الطوارئ في وادي البقاع لدى كل الأفراد خشية قيام إسرائيل بعمل عسكري ، وفي تلك اللحظات الحساسة جاءت الأوامر من أبو نضال بشن عمليات هجومية ضد إسرائيل في خلال 48 ساعة . ووصل إلى البقاع من صيدا عصام عودة « له اسم كودي هو زكريا إبراهيم » وهو الرجل الثاني في قيادة الجيش الشعبي التابع لأبو نضال لكي يوصل تلك الأوامر إلى باسل وكان القائد العسكري لأبو نضال في منطقة البقاع في ذلك الوقت .

ولقد أخبرني باسل أنه وجد الطلب - أي طلب أبو نضال - مدهشا . لقد بدا بوضوح أن هناك شخصا ما يحاول أن يبدأ الحرب . لقد كان أبو نضال يحاول أن يعطي إسرائيل عذرا لكي تضرب ولأنني - الحديث من باسل للمؤلف - كنت أعلم بمدى خطورة الأوضاع فقد رفضت تنفيذ الأوامر . ولقد علمت أن المنظمة اتصلت بجماعات عسكرية أخرى في المنطقة وبخاصة جماعة الحزب الاشتراكي الاجتماعي السوري « وهي جماعة فاعلة موالية لسوريا في لبنان » حيث طلبت منها تنفيذ الأوامر نفسها . ولكنهم رفضوا كذلك العمل .

وهناك استطراد آخر كما أرى يمكن أن يفسر أعمال أبو نضال ، ففي مناسبتين مختلفتين الأولى عام 1982 والأخرى عام 1989 ظهرت منظمة أبو نضال كما لو أنها مستخدمة في صراعات تكون إسرائيل فيها وحدها هي الفائزة .

المناسبة الأولى عام 1982 والتي ظهر فيها أبو نضال كما لو أنه لا يعلم بالأوامر الموجهة إلى باسل . فقد كان في بولندا عندما اندلعت الأحداث بينما كانت منظمته في منتصف الطريق بين بغداد ودمشق مما جعلها أكثر عرضة للضغوط ربما من قبل الدكتور غسان ذلك الرجل الذي يعتقد العديد من الفلسطينيين أنه يخدم أغراض الموساد من خلال منظمة أبو نضال .

وعندما تقابل كل من أبو إياد وأبو نضال في الجزائر عام 1987 سأل الأول الثاني عن عملية أرجوف فأجاب بتملص وأبدى عدم سعادته بتذكير أبو إياد له بها . ولهذا كان انطباع أبو إياد منصبا على أن أبو نضال ليس مسيطرا على الأمور بما فيه الكفاية في ذلك الوقت .

أما زوجة أرجوف وهي لا تؤيد تحالف الليكود بقيادة بيجين فقد كتبت مقالة صحفية فيما بعد عبرت فيها عن امتعاضها من استغلال بيجين لحادث الاعتداء على زوجها .

وعلى أي حال فإن الحجة التي أشار بأهميتها الكسندر هيج لتحقيق الغزو قد جاءت وسار الغزو طبقا لخطة شارون . فطرد الفلسطينيون وهوجمت المخيمات الفلسطينية وسقط العديد من القتلى وتحطم سلاح الجو والدفاعات الجوية السورية في لبنان . وتقابلت القوات الإسرائيلية مع مليشيا بشير الجميل العسكرية وتم قصف بيروت وفرض عليها الحصار . وأجبر رجال عرفات على الانسحاب من لبنان حيث تفرقوا في بلدان العالم العربي . وتم انتخاب بشير الجميل رئيسا كرجل موال لإسرائيل . وبالرغم من أن ذلك لم يفسر لماذا اغتيل أرجوف إلا أنه ما من أحد استفاد من مصرعه أكثر مما استفادت إسرائيل . ولكن سرعان ما أخذت الأمور تسير إلى الأسوأ في لبنان .

فمنذ قيام دولة إسرائيل استخدمت فنون المخابرات التقليدية وغير التقليدية لتقوية المؤسسة الصهيونية وإحباط أعدائها .

لقد استخدمت إسرائيل عمليات الخداع والحيل واختراق المجتمعات العربية وتحطيم البرامج العسكرية العربية ، وزرع القلاقل في القوة العسكرية العربية عن طريق إشعال الفتن وإثارة الأقليات مثل الأكراد ، وإجراء التحالفات مع دول حليفة غير عربية مثل إيران وأثيوبيا وتدمير الأعداء الكامل كما حدث في جنوب لبنان ، والصراع المستمر الذي لا يكف عن تحطيم النزعة القومية الفلسطينية . إن كل ذلك استخدمته إسرائيل كوسائل لتحقيق سياستها على مدى أربعين عاما .

وضد هذه الخلفية ، فقد اعتقدت فيما توصل إليه أبو إياد من أن أبو نضال – وهو أخطر إرهابي – قد استخدم فيما قد يصبح يوما ما أكبر عمليات استخبارية إسرائيلية .

* * *

الفصـــل الحـادي عشـــر

عمليـــة الإرهـــاب



عملية الإرهاب

إن شهرة أبو نضال كإرهابي تقوم أساسا على إشعاله العنف في منتصف الثمانينات . فالخبث المتنوع في هجماته كان صاعقا . فهناك - مثلا - الهجوم المسلح على مقهى باريس في روما في سبتمبر 1985 ، وخطف الطائرة المصرية المدنية في نوفمبر 1985 والتي انتهت بمذبحة في مالطا ، والهجوم على مكتبي حجز تذاكر تابعين لشركة العال الإسرائيلية في مطاري روما وفينا في ديسمبر 1985 وذبح ركاب طائرة ألبان أمريكان في كراتشي ، والهجوم على المعبد اليهودي في إستانبول في سبتمبر 1986 .

لقد كان أبو إياد قبل عام من هذه الهجمات في بولندا متخفيا عن الأنظار ، وكان يبدو أنه مستعد لترك كادره الوظيفي كإرهابي .

وفي عام 1984 نشرت مجلة نيوزويك أن أبو نضال يرقد على سرير الموت . وبالرغم من أن ذلك كان مبالغة إلا أنها كانت تعكس وجهة نظر حتى أعضاء منظمته في ذلك الوقت من أنه قد انتهى . فقد قطع صلاته مع العراق وساءت علاقته مع سوريا . وفي لبنان بدا أنه في خطر كزعيم لأن الكوادر الفلسطينية الجديدة التي تعارض سياساته رغبت في التخلي عن الإرهاب والانضمام إلى التيار العام من الفلسطينيين . ولقد ذهبت تلك الكوادر الجديدة للدفاع عن المخيمات الفلسطينية وفتحت الجسور بينها وبين منظمة فتح تلك المنظمة التي قاتلها أبو نضال بمرارة على مدى عقد كامل .

ولقد كان ذلك هو الوقت الذي وجد فيه أبو نضال الدعم الليبي فقام بتنفيذ سلسلة من العمليات التي جذبت الأنظار دوليا واستهدفت أهدافا غربية بدلا من العربية .

ولكن يريح التقارير المتضاربة حول عزوفه وتركه للإرهاب قام أبو إياد بالإدلاء بثلاثة أحاديث صحفية مع صحيفة فرانس بايه آراب ، ومجلة ديرشبيجل الألمانية وصحيفة القبس الكويتية الهامة . وفي تلك الأحاديث هاجم بشدة كالعادة الإمبريالية والصهيونية . ولكنه أعلن بغضب أنه سوف يقتل العديد من زعماء العالم بما فيهم رونالد ريجان ومرجريت تاتشر والملك حسين ملك الأردن والرئيس المصري مبارك . وادعى أنه يتحالف مع أكثر المنظمات عنفا في العالم مثل الجيش الجمهوري الأيرلندي ومنظمة الباسك الانفصالية ومع الجيش الأحمر الألماني ومنظمة العمل المباشر الفرنسية ، وقد أظهر أبو نضال ذلك على كونه سيبدأ الهجوم .

ولاشك أن مقره الجديد في طرابلس والتسهيلات العديدة التي قدمها له القذافي ككفيل كريم له قد ساعدت على تبدل مزاجه .

وبالتأكيد فإن الكثير من العمليات التي نفذها قد نفذها نيابة عن القذافي . ولكن وكما أخبرني المنشقون عنه فيما بعد فقد كان له أهداف ملحة على عقله مثل : إغضاب السوريين لكي يطردوه مما يجعل من رحيله إلى ليبيا أمرا مقبولا . كذلك لكي يحول الاتجاه الإصلاحي الموجود في لبنان . وفوق كل شيء لكي يسيطر مرة أخرى على منظمته .

لقد عرف أبو نضال أنه إذا ما هاجم أهدافا غربية بينما لا يزال في دمشق فسوف تتعرض سوريا لضغوط غربية شديدة حتى تطرده ، فسوريا قد تتمكن من تجنب التطورات التي يمكن أن تعقب عمليات إرهابية يقوم بها أبو نضال ضد الأردن أو دول الخليج ولكنها ستجد صعوبة إذا ما وجهت القنابل تجاه أهدافا في أوروبا . لقد أراد أبو نضال أن لا يُرى على أنه يود الخروج من سوريا بل أراد أن تطرده سوريا من تلقاء نفسها مما يجعله يظهر كزعيم فلسطيني عوقب نتيجة عدم وقوفه بجانب سوريا في حرب المخيمات . وإذا ما طرد من سوريا فسوف يتمكن من إعادة السيطرة على الحركة التي تكبر في لبنان ويحولها كما يشاء .

لقد كانت تلك من ضمن الأسباب التي وقفت خلف عملياته الدموية في منتصف الثمانينات .

صنوف من الإرهاب :

لا يوجد هناك في الشرق الأوسط تقريبا من لم يلعب بالإرهاب في وقت من الأوقات . فالحكومة العراقية تحت حكم البعث قد تأسست بالرعب كما يصفه سمير الخليل في كتابه جمهورية الخوف 1989 . واستخدم الأرمنيون الإرهاب ضد الترك ليستخلصوا منهم اعترافا بالذنب لقيامهم بذبح شعبهم . واستخدم الشيعة في لبنان الإرهاب لدعم إيران إبان حربها مع العراق ولإحباط المحاولات الإسرائيلية للسيطرة عليهم . فقام المقاتلون الشيعة بمهاجمة الجيش الإسرائيلي بطائرة شراعية ، وقاموا بتفجير السفارة الأمريكية ، وذبحوا مشاة الأسطول واختطفوا رهائن غربيين .

واستخدمت سوريا الإرهاب ضد مواطنيها في حماه عندما ناوءوا النظام عام 1982 ، وشجعت حلفائها على أن يستخدموا الإرهاب لطرد إسرائيل من لبنان . واستخدمت الإرهاب ضد الأردن حتى لا يقوم بعقد صلح منفرد مع إسرائيل .

وقد استخدمت إسرائيل كذلك الإرهاب حتى من قبل قيام دولة إسرائيل فقد قتل الإرهابيون الصهاينة اللورد موين وهو الوزير البريطاني المقيم في القاهرة عام 1944 ، وتقريبا قتلت كذلك المفوض العام على فلسطين السير هارولد ماكمشيل . وفي منتصف حرب فلسطين قام متطرفون صهاينة « أو ما يسمى عصابة شتيرن » بقتل وسيط الأمم المتحدة الكونت برنادوت الذي فاوض من أجل عقد هدنة و حاول أن يجعلها دائمة – والتي كان يمكن أن تحد من توسع إسرائيلي إضافي – وفي كتابه : برنادوت في فلسطين 1948 « الصادر عام 1989 » أوضح أميتزور إيلان أن قادة منظمة شتيرن الإرهابية : ناتان إيلين مور ، والدكتور إسرائيل ألدريد وإسحق شامير كانوا مسئولين مباشرة عن ذلك الاغتيال . وكما رأينا فقد قام عملاء إسرائيليون بمهاجمة أهداف يهودية في بغداد عام 1950 لإجبار اليهود العراقيين على الهجرة إلى إسرائيل .

وفي عام 1954 قامت وحدة إسرائيلية سرية بتفجير قنبلة في مركز المعلومات الأمريكي بالقاهرة في محاولة للإضرار بالعلاقات الأمريكية العربية ، وسميت تلك

العملية بعملية لافون نسبة إلى اسم وزير الدفاع الإسرائيلي في ذلك الوقت . ومنذ عام 1967 إلى عام 1972 قام كل من إسحق شامير وجولا كوهين - وكلاهما إرهابيان سابقان - بتشجيع عصبة الدفاع اليهودية التابعة لوزير الشريعة اليهودية مائير كاهاني لكي تهاجم وتخرب وتفجر أهدافا سوفيتية وغير سوفيتية في الولايات المتحدة وأوربا بما في ذلك مسرح سول هيروك اليهودي والذي كان يروج للفنانين السوفييت في أمريكا ، ولقد قتلت سكرتيرة سول هيروك في إحدى الهجمات . وكما أوضح روبرت فريدمان في كتابه عن كاهان : النبي المزيف الصادر عام 1990 أن الهدف من تلك العمليات كان ينصب على وضع العلاقات السوفيتية الأمريكية تحت الضغط حتى تقوم موسكو بالإفراج عن مئات الآلاف من اليهود السوفيت الذين سيذهب أغلبهم إلى إسرائيل ، وهي المحاولة التي أثمرت في الوقت المناسب .

وعلى مدى عقود قامت إسرائيل بتسليح الأكراد ضد بغداد ، وتسليح السودانيين في الجنوب ضد الخرطوم ، والمارونيين في لبنان ضد الفلسطينيين كما صرح كونور جيرتي في نشرة الإرهاب عام 1991 .

وبنفس القدر يمكن إضافة أن إسرائيل مارست إرهاب الدولة لاغتيال علماء متعاونين مع العرب في برامج الأسلحة منذ قيامها باغتيال العلماء الألمان الذين عملوا في مصر إبان حكم عبد الناصر في الستينيات وحتى قيامها باغتيال آخر ضحية وهو الدكتور جيرالد بول العالم الكندي الذي اخترع المدفع العملاق للعراق ، والذي قتل بواسطة عملاء إسرائيليين في بروكسل في مارس 1990 « كما شرح في كتاب وليام لوثر : الأسلحة والرجل ، الدكتور جيرالد بول والعراق والمدفع العملاق » والصادر عام 1991 .

وفوق ذلك فقد قصفت إسرائيل بالطائرات ودمرت ونسفت مدنا وقرى لبنانية ، واعترضت سفنا وطائرات في المياه والأجواء الدولية ، وقامت بهجمات بعيدة المدى ضد بغداد وتونس ، واختطفت وعذبت وسجنت معارضين عديدين تشك فيهم .

ولكن وبينما الإرهاب الإسرائيلي يخدم دائما أهدافا سياسية بعيدة المدى ، فإن

إرهاب أبو نضال كان بلا غرض ومتشنج ، بالرغم من أن العديد من هجماته كانت تستهدف إطلاق سراح بعض من رجاله المسجونين في أوروبا ، كذلك فإن هجماته على أهداف أوروبية في منتصف الثمانينات كانت – كما أعتقد – بهدف إغاظة سوريا ولتفسير مغادرته لتلك الدولة .

إن إرهاب إسرائيل كان ملائما محترفا وناجح إلى حد كبير في تحقيق أهدافه ، على العكس من إرهاب أبو نضال غير الملائم العاجز والذي يجلب الأذى للمصالح الفلسطينية .

لقد أرادت إسرائيل سحق منظمة التحرير الفلسطينية ، وإزالة المقاومة اللبنانية وتحقيق التفوق العسكري وإجهاض أية محاولات قد تهدد أمنها وإشاعة عدم الاستقرار في البيئة العربية . أما إرهاب أبو نضال فقد أخذ شكل « تحقيق وتنفيذ الخدمات » للدول العربية العديدة التي ترعاه بدون أية رؤية استراتيجية .

لقد ادعى أنه يريد أن يمنع اتفاقا بين منظمة التحرير وإسرائيل لإعادة فلسطين . وهذا لم يكن هدفا قابلا للتصديق . إن عدم التوازن الكبير في القوة بين إسرائيل ومعارضيها جعل مثل ذلك الهدف انتحاريا ... وبجذب الكفاح التحرري الفلسطيني إلى أن يصبح مجرد عنف إجرامي ، فإن أبو نضال أعطى إسرائيل الحجة لكي ترفض التفاوض . وتعطي الفلسطينيين لاشيء سوى السيف .

الخيوط المتشابكة للعنف :

عند تلك الرحلة من أبحاثي فقد قررت أن أقوم بعرض قائمة أخرى – هذه المرة من أجل التركيز على عمليات العنف الدولية التي نسبت للاعبين في الشرق الأوسط – لأرى إذا ما كنت أستطيع أن استخلص نموذجا أو أسلوبا كما فعلت في القائمة الأولى .

أبدأ بالهجوم على أرجوف عام 1982 ولكن أنظر عن قرب إلى الفترة من عام 1984 إلى عام 1986 عندما كان الإرهاب في الشرق الأوسط في أعلى قمته . وقد عَلّمتُ على العمليات التي تُنسب إلى أبو نضال بتلك العلامة (●) من أجل إظهار

الفروق بينها وبين العمليات التي ارتكبت بواسطة منظمات أخرى .

● 3 يونية 1982 ، أطلقت النار على السفير الإسرائيلي في بريطانيا شبولومو أرجوف في مدينة لندن حيث جرح جروحا بالغة بواسطة رجل تابع لأبو نضال .

6 يونية 1982 ، إسرائيل تغزو لبنان بجيش قوامه 76 ألف رجل معهم 1250 دبابة ، و 1500 حاملة جنود بدعم من سلاح الجو والأسطول .

9 يونية 1982 ، دمرت إسرائيل مجمل شبكة صواريخ سام السورية في وادي البقاع ، تلك الشبكة التي مثلت الوجود السوري في لبنان .

13 يونية 1982 إلى 12 أغسطس 1982 ، إسرائيل تقصف بيروت من الجو والبر والبحر .

1 سبتمبر 1982 ، أعلن الرئيس ريجان خطته لسلام الشرق الأوسط التي تستبعد الوجود الإسرائيلي في الأراضي المحتلة وتجميد بناء المستوطنات وإعلان حكم ذاتي للفلسطينيين بالارتباط مع الأردن . وقد علق رئيس الوزراء الإسرائيلي بيجين على تلك الخطة : بأنها جاءت في يوم هو أسوأ الأيام في حياته .

14 سبتمبر 1982 ، أغتيل الرئيس اللبناني المدعم من إسرائيل بشير الجميل من قبل عملاء سوريين تقريبا . وقد خلفه شقيقه أمين .

16-18 سبتمبر 1982 ، قامت مليشيات الكتائب المسيحية اللبنانية كما يبدو أنه انتقام لقتل بشير الجميل بذبح ما يزيد عن ألف رجل وسيدة وطفل فلسطيني في مخيمي صابرا وشاتيلا تحت بصر القوات الإسرائيلية .

11 نوفمبر 1982 ، تم تفجير مقر القيادة الإسرائيلية في مدينة صور اللبنانية حيث قتل 67 إسرائيليا وذلك من قبل المقاومة اللبنانية .

28 ديسمبر 1982 ، بدأت المباحثات اللبنانية الإسرائيلية تحت الرعاية الأمريكية من أجل توقيع معاهدة سلام ثنائية .

18 أبريل 1983 ، تم تفجير مبنى السفارة الأمريكية في بيروت بواسطة رجل انتحاري قاد سيارة محملة بالمتفجرات .

17 مايو 1983 ، توقيع اتفاقية بين إسرائيل ولبنان بمساعدة أمريكية تقضي بأن تتمتع إسرائيل بأساليب سيطرة واسعة في لبنان . وقامت سوريا وحلفاؤها في لبنان بإعلان الحرب على الاتفاقية .

29 أغسطس 1983 رئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجين يقدم استقالته بعد هبوط روحه المعنوية من ارتفاع الخسائر الإسرائيلية في لبنان .

3-25 سبتمبر 1983 ، إسرائيل تسحب قواتها من جبال الشوف اللبنانية ، بينما قامت قوات الدروز والشيعة بطرد حلفاء إسرائيل من المارونيين من المنطقة ومحاصرة القصر الرئاسي ونتج عن ذلك مصرع المئات من المدنيين وهجرة عشرات الآلاف .

16 أكتوبر 1983 ، في معركة بين الإسرائيليين والشيعة « الذين كانوا يحتفلون بيوم عاشوراء » قامت القوات الإسرائيلية بقتل العديد من المدنيين ، مما جعل غضب الشيعة يوجه إلى حليف إسرائيل ؛ أمريكا ، بالإضافة إلى إسرائيل كذلك .

23 أكتوبر 1983 ، وقع هجوم بسيارة محملة بالمتفجرات على معسكرات البحرية الأمريكية بالقرب من مطار بيروت مما نتج عنه مصرع 241 رجلا .

● أكتوبر 1983 ، نوفمبر 1985 ، استخدمت سوريا أبو نضال للقيام بحرب إرهاب في الأردن لمنع الملك حسين من الدخول في مباحثات منفصلة مع إسرائيل « انظر الفصل السادس لمزيد من التفاصيل » .

نوفمبر 1983 قام وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز بإحياء اتفاقية التعاون الاستراتيجي « والتي وقعت عام 1981 ثم علقت بعد قيام إسرائيل بضم الجولان ، ثم أعيد تنشيطها عام 1982 بواسطة ألكسندر هيج » مما أعطى إسرائيل فرصا عديدة لتنفيذ السياسات الأمريكية في الشرق الأوسط .

ديسمبر – يناير 1983-1984 قامت طائرات حربية أمريكية والسفينة نيوجيرسي بمهاجمة قوات حليفة لسوريا في جبال لبنان .

4 ديسمبر 1983 لقي ثمانية جنود من البحرية الأمريكية مصرعهم في لبنان ، كما أسقطت طائرتان أمريكيتان بواسطة المقاومات السورية .

26 يناير 1984 ، قال رونالد ريجان في حديثه إلى الأمة الأمريكية بأننا لا يجب أن ننحرف عن أهدافنا من أجل تحقيق السلام في لبنان بواسطة الإرهاب الذي ترعاه الدولة .

29 فبراير 1984 ، إلغاء الاتفاقية اللبنانية الإسرائيلية الموقعة في 17 مايو 1983 حيث سافر الرئيس أمين الجميل إلى سوريا من أجل إظهار الولاء للرئيس الأسد .

مارس 1984 ، اختطف وليام بكلي مدير مكتب المخابرات المركزية الأمريكية في بيروت وقتل في شهر يونية . كذلك اختطف العديد من الغربيين كرهائن في لبنان بواسطة الشيعة مابين عامي 1985 ، 1988 .

3 أبريل 1984 ، وقع الرئيس ريجان قرارا يتيح ضرب الإرهابيين مشيرا إلى سوريا وليبيا وإيران . وأشار جورج شولتز أن الإرهاب المدعوم من الدولة ما هو إلا شكل من أشكال الحرب وهي وجهة النظر التي عرضها جورج بوش نائب الرئيس الأمريكي ومدير وكالة المخابرات المركزية وليام كيزي .

17 أبريل 1984 ، قتلت الشرطية البريطانية إيفون فلتشر عندما أطلق رجل مسلح بداخل المكتب الشعبي الليبي في لندن النار على متظاهرين ضد القذافي . وقد قطعت بريطانيا علاقاتها الدبلوماسية مع ليبيا .

23 مايو 1984 ، اتهم مكتب المدعي العام الإسرائيلي 25 مستوطنا إسرائيليا بالتورط في أعمال إرهابية يهودية سرية ، ومن ضمنهم رجال قاموا بتفجير سيارة وشوهوا عددا من العمد الفلسطينيين في الضفة الغربية في يونية 1980 .

في صيف عام 1984 ، قامت إسرائيل بتوسيع استخدامها للتصنيف الذي أطلقته على كافة العناصر الفلسطينية بأنها إرهابية ، وذلك بهدف تشكيل اتجاه الرأي العام الأمريكي . وفي ذلك الوقت توصلت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل إلى الخطر الماحق الذي أحاط بسياستهما في لبنان . فقد انسحب الإسرائيليون إلى خارج لبنان ، بينما تعرضت السفارة الأمريكية للتفجير وذبح جنود البحرية الأمريكية في معسكراتهم واتضح ــ كذلك ــ أن الدبلوماسية الأمريكية قد انهارت بانهيار

الاتفاقية اللبنانية الإسرائيلية والتي كان جورج شولتز قد توسط فيها .

وبدا بعد ذلك أن بؤرة الاهتمام قد تحولت إلى الإرهاب الذي تدعمه الدولة ... تلك العبارة التى استخدمها كل من رونالد ريجان ووزير خارجيته شولتز ، وردده‍ا نائب الرئيس جورج بوش ومدير إدارة المخابرات المركزية وليام كيزي . مما يعني أن السياسة الأمريكية في الصراع العربي الإسرائيلي سوف تتحدد لمواجهة الإرهاب بأكثر مما تتحدد وتوجه إلى استكشاف جذور العنف لدى الفلسطينيين والإسرائيليين والشيعة على حد سواء .

ولقد كان الرئيس ريجان في ذلك الوقت متأثرا بالمؤتمر المنعقد في واشنطن في يونية 1984 والذي ينظمه معهد جوناتان الإسرائيلي . وفيما بعد فقد أصدر السفير الإسرائيلي في الأمم المتحدة بنيامين ناتانياهو تفاصيل ما جرى في ذلك المؤتمر في كتاب سمي : الإرهاب ، كيف ينتصر الغرب ... ومثلما كان مؤتمر كلير ستيرلنج وكتابه : شبكة الرعب في سنوات ريجان المبكرة ، فقد جاء مؤتمر معهد جوناثان وكتابه ليسيطر على العقل الأمريكي في حقبة ريجان الثانية . وقد ظهر أن الكثير من الحرب النفسية قد وجهت إلى منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا وليبيا . ولقد ساعد الكتاب على إقناع الرأي العام الأمريكي بأن أعداء إسرائيل هم كذلك أعداء أمريكا وأن العرب المخالفين لإسرائيل هم إرهابيون مما يعني أن استخدام القوة القاسية معهم يعتبر أمرا مشروعا ومرغوبا فيه .

وفي حديث أمام المؤتمر في 26 يونية 1984 دعى وزير الدفاع الإسرائيلي إلى غلق جميع مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية حول العالم لأن تلك المكاتب ما هي إلا مراكز لدعم العمليات الإرهابية . ووصف سوريا بأنها الدولة الأساسية التي تدعم عمليات الإرهاب والتي تستخدم الفلسطينيين والأرمن واليابانين وحتى التانيين !

وسوف أستمر في سرد القائمة مرة أخرى » مع مراعاة أنني وضعت علامة « ● » أمام العمليات التي نفذها أبو نضال » :

29 يونية 1984 ، وهو نفس الشهر الذي شنت فيه إسرائيل حملتها الجديدة

المضادة للإرهاب . حيث قامت إسرائيل باعتراض زورق يبحر في المياه الدولية من قبرص إلى بيروت واعتقلت تسعة مسافرين .

18 يوليو 1984 اعترضت إسرائيل سفينة تجارية لبنانية خارج مرفأ طرابلس واقتادتها إلى ميناء حيفا حيث استجوبت طاقمها .

● 24 مارس 1984 انفجرت قنبلة خلف فندق إنتركونتيننتال في عمان قبل يومين من الزيارة المخطط لها من الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا إلى الأردن . وقد ادعى أبو نضال مسئوليته عن الحادث .

● 28 مارس 1984 قتل كين وبتي المستشار الثقافي للسفارة البريطانية في أثينا عندما أطلق عليه رجل مسلح النار في سيارته . وفي بيروت ادعت منظمة المسلمين الاشتراكيين الثورية ؛ وهي واحدة من منظمات أبو نضال ؛ مسئوليتها عن الحادث .

● 27 نوفمبر 1984 قتل بيرس نوريس نائب الممثل البريطاني العالي في بومباي بالهند . وفي مكالمة هاتفية لوكالة أنباء بلندن ادعت منظمة المسلمين الاشتراكيين الثورية مسئوليتها عن الحادث .

● 29 نوفمبر 1984 تم تفجير مكتب شركة الخطوط الجوية البريطانية في بيروت . وقد ادعت منظمة المسلمين الاشتراكيين الثورية مسئوليتها عن الحادث .

ويبدو أن مقتل الدبلوماسيين البريطانيين في أثينا وبومباي ، وتفجير مكتب شركة الخطوط الجوية البريطانية في بيروت ، واختطاف الصحفي البريطاني ، والهجوم على سياح بريطانيين في فندق أثينا كانت محاولات من أبو نضال للضغط على الحكومة البريطانية لإطلاق سراح أربعة من رجاله مسجونين في بريطانيا ثلاثة منهم في حادث السفير أرجوف ، والرابع رمزي عواد سجن لقيامه بتهريب أسلحة إلى داخل بريطانيا .

12 فبراير 1985 ، وفي لندن تم الحكم بسجن ثلاثة إسرائيليين يعتقد أنهم من عملاء الموساد ورابع نيجيري لفترات تتراوح مابين عشرة إلى أربعة عشر عاما لقيامهم

باختطاف وتخدير وزير المواصلات النيجيري السابق أومارو ديكو في يوليو 1984 وقد نظرت السلطات النيجيرية إلى ديكو على أساس أنه تعاطى رشا تقدر بملايين الدولارات .

21 فبراير 1985 ، قامت وحدات عسكرية إسرائيلية بمهاجمة 11 قرية شيعية شرق صور حيث قتلت وأصابت العديد من المدنيين واستخدمت البلدوزرات في هدم وتحطيم سيارات ومنازل .

8 مارس 1985 انفجرت سيارة ملغمة حيث قتلت 80 شخصا على مقربة من شقة المرشد الروحي لحزب الله الشيخ محمد حسين فضل الله الذي لم يصب . وبعد عامين من ذلك نشرت الواشنطن بوست مقالا أوضحت فيه أن الانفجار قام به فريق من عملاء المخابرات المركزية تحت برنامج سري غير معلن أمر به الرئيس ريجان . وفي كتابه الحجاب أوضح بوب وودورد أن مدير وكالة المخابرات المركزية وليام كيزي التجأ إلى السعوديين من أجل إعطائه ثلاثة ملايين دولار لتنفيذ العملية .

10 مارس 1985 ، قام رجل انتحاري بقيادة سيارة وفجرها وسط جنود إسرائيليين حيث قتل على الأقل 12 وجرح 14 آخرين في الهجوم الذي وقع بالقرب من الحدود اللبنانية .

21 مارس 1985 ، هاجمت قوات إسرائيلية تسع قرى شيعية في جنوب لبنان بالقرب من النبطية وصيدا حيث قتلت وجرحت العديد من الناس وفجرت العديد من المنازل .

24 مارس 1985 قالت الواشنطن بوست إن وكالة المخابرات المركزية أسست عشر فرق لمواجهة الإرهاب في 12 دولة على الأقل من ضمنها لبنان .

● 28 مارس 1985 ، اختطفت الصحفية البريطانية أليس كوليت والتي تعمل مع مؤسسة تابعة للأمم المتحدة بواسطة منظمة المسلمين الاشتراكيين الثورية التي طالبت بإطلاق سراح أعضائها المعتقلين في بريطانيا .

● 24 مايو 1985 اعتقل البوليس المصري عميلا تابعا لأبو نضال كان يخطط

لنسف السفارة الأمريكية بسيارة مملوءة متفجرات ولقد ذكر أنه تلقى أوامر من رئيس المخابرات الليبية في روما .

14 يونية 1985 اختطف مسلحون شيعة طائرة تابعة للخطوط الجوية العالمية في رحلتها من أثينا إلى روما حيث أجبرها المختطفون على السفر بين بيروت والجزائر . وقد قتل أثناء الاختطاف غطاس من مشاة البحرية الأمريكية . وطالب المختطفون إطلاق سراح 766 معتقلا في معسكر عتليت في إسرائيل من اللبنانيين الشيعة .

● 1 يوليو 1985 انفجرت قنبلة في مكتب شركة الخطوط الجوية البريطانية في مدريد . وأعلنت منظمة المسلمين الاشتراكيين الثورية مسئوليتها عن الحادث وذلك من بيروت .

● 7 أغسطس 1985 انفجرت قنبلة في أحد الفنادق في منتجع جليفادا بالقرب من أثينا حيث أصيب 13 شخصا من ضمنهم 6 مواطنين بريطانيين . ولقد ادعت منظمة المسلمين الاشتراكيين الثورية مسئوليتها عن الحادث قائلة إن الفندق كان يستخدم من جماعات بريطانية كمركز للتجسس على العرب والإسلام .

11 سبتمبر 1985 اعترضت إسرائيل زورقا في المياه الدولية بين لبنان وقبرص حيث اعتقلت فيصل أبو شاره وهو قائد مهم من المجموعة 17 التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية حيث أرسلته إلى إسرائيل للاستجواب ثم السجن .

● 18 سبتمبر 1985 حدث هجوم مسلح على مقهى باريس في العاصمة الإيطالية روما بشارع فنيتو حيث جرح 40 شخصا . وقد ادعت منظمة المسلمين الاشتراكيين الثورية مسئوليتها قائلة إن المقهى هو مركز لأجهزة الاستخبارات الأمريكية والبريطانية .

● 18 سبتمبر 1985 اغتيل ميشيل نمري الصحفي الأردني المعروف بدعمه لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات . وقد وقع الحادث في أثينا بواسطة رجل مسلح تابع لأبو نضال .

25 سبتمبر 1985 ، للانتقام من قيام إسرائيل باعتقال فيصل أبو شاره . قتل ثلاثة

إسرائيليين فوق زورق بواسطة رجال مسلحين من القوة 17 التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية . وقد وقع الحادث في قبرص . وقالت إسرائيل إن الرجال الثلاثة هم من المدنيين السياح . بينما قال الفلسطينيون إنهم كانوا عملاء للموساد يتجسسون على التحركات البحرية الفلسطينية خارج قبرص .

1 أكتوبر 1985 ، للانتقام من مقتل الإسرائيليين الثلاثة في قبرص . قامت طائرات إسرائيلية من طراز إف – 16 بالهجوم على مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بالقرب من تونس حيث قتلت 56 فلسطينيا و 15 تونسيا ، وجرحت 100 آخرين . بينما نجا عرفات من الموت .

9 أكتوبر 1985 وكردٍ على الهجوم الإسرائيلي على تونس قامت جماعة فلسطينية متطرفة تابعة لأبو عباس وهي جبهة التحرير الشعبية باختطاف سفينة سياحية إيطالية تسمى أكيلي لاورو وقتل ليون كلينجوفر وهو أمريكي يهودي معوق .

7 نوفمبر 1985 أذاع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات بعد لقائه بالرئيس المصري مبارك « إعلان القاهرة » وأوضح فيه إدانته لكل صنوف الإرهاب .

9 نوفمبر 1985 أسقطت إسرائيل اثنتين من طائرات ميج 23 السورية فوق الأراضي السورية إثر محاولتهما العودة لسوريا في أعقاب اقترابهما من طائرة تجسس إسرائيلية تطير فوق لبنان .

21 نوفمبر 1985 تم في واشنطن اعتقال جوناثان جاي بولارد وهو محلل في مخابرات البحرية الأمريكية وأدين بالتجسس لصالح إسرائيل .

● 23 نوفمبر 1985 اختطفت طائرة مدنية مصرية بواسطة أربعة رجال تابعين لأبو نضال في رحلة من أثينا إلى القاهرة وأجبرت على الهبوط في مالطا . وقد قتل ستة من المسافرين قبل أن يقتحم الكوماندوز المصريين الطائرة في اليوم التالي . ومن ضمن 97 راكبا قتل ستون إثر تبادل إطلاق النار وإلقاء القنابل .

ديسمبر 1985 – فبراير 1987 – متشجعا من رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت

تاتشر حاول شيمون بيريز جذب الملك حسين إلى مباحثات ثنائية بعيدا عن التدخل السوري .

● 24 ديسمبر 1985 أطلق رجال مسلحون تابعون لأبو نضال النار على مكتبي حجز التذاكر التابعين لشركة العال الإسرائيلية في مطار ليوناردو دافنشي بروما ، وفي مطار سكوكات بفيينا . حيث قتل رجال أبو نضال السبعة « 4 في روما و 3 في فيينا » 18 شخصا وجرحوا 110 على الأقل . بينما قتل منهم 4 بواسطة حراس الأمن وجرح الثلاثة الآخرون وأسروا .

7 يناير 1986 ، صرح الرئيس رونالد ريجان بأن هناك دليلا لا يقبل الإنكار يدين العقيد معمر القذافي وأبو نضال . ووصف حادثي الاعتداء في روما وفيينا بأنهما آخر المحاولات الإرهابية القاسية فقط . والتي ترتكب بدعم من القذافي .

وقد وقع الرئيس ريجان أمرا تنفيذيا يفيد بأن أعمال الحكومة الليبية تشكل تهديدا للأمن القومي وللسياسة الخارجية للولايات المتحدة . ولذلك فقد أنهيت كافة الأنشطة الاقتصادية بين الولايات المتحدة وليبيا .

8 يناير 1986 صدر قرار تنفيذي ثان بتجميد كل العوائد المالية الحكومية الليبية في الولايات المتحدة وفي أفرع البنوك الأمريكية في الخارج « وإذا لم تكن تلك الخطوات كافية لإنهاء إرهاب القذافي فإني أعدكم بأن خطوات أخرى ستتخذ » كما صرح الرئيس ريجان .

11 يناير 1986 ، صرح الجنرال جيديون ماكنيامي – وهو مستشار لمواجهة الإرهاب لرئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز في ذلك الوقت – بأن أفضل وسيلة لمواجهة الإرهاب هي في قتل زعماء الإرهابيين . وصرح بأن أبو نضال موجود في ليبيا . ولكن لم تتخذ إسرائيل أي عمل ضده .

12 يناير 1986 أعلن القضاة الإيطاليون عن إصدار طلب دولي لإلقاء القبض على أبو نضال المتهم بارتكاب قتل جماعي . وفي 12 فبراير 1988 صدر حكم غيابي عليه بالسجن لمدى الحياة بسبب الهجوم الذي وقع في مطار روما .

12 يناير 1986 ، أعلن ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية مجددا تنديده بكل أنواع الإرهاب الموجهة لأشخاص أبرياء . وأوضح أن وكالات استخبارية عربية سرية تجند الفلسطينيين من أجل تنفيذ عمليات إرهابية .

15 يناير 1986 ، أنكر العقيد معمر القذافي وجود أبو نضال في ليبيا وحذر الرئيس ريجان من مهاجمة بلده ، وهدد بإرسال فرق انتحارية تقوم بمهاجمة أهداف داخل الولايات المتحدة .

4 فبراير ، دعى القذافي من طرابلس القوات الثورية في العالم العربي إلى مهاجمة المصالح الأمريكية إذا ما هاجمت ليبيا .

4 فبراير 1986 في محاولة لأسر قادة فلسطينيين قامت المقاتلات الإسرائيلية باعتراض طائرة ليبية وأجبرتها على الهبوط في إسرائيل وكان بداخلها بعثة رسمية سورية عائدة إلى دمشق برئاسة عبد الله الأحمر السكرتير المساعد لحزب البعث . وفي مجلس الأمن استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو ضد قرار يعتبر ما فعلته إسرائيل عملا من أعمال القرصنة .

13 فبراير 1986 انفجرت سيارة محملة بالمتفجرات في وسط العاصمة السورية دمشق . ولقد عزي ذلك الانفجار إلى عملاء إسرائيليين والمخابرات الأمريكية والعراق والإخوان المسلمين .

23 مارس 1986 بدأت قوة من سفن الأسطول الأمريكي مناورات « حرية الملاحة » في المياه المتنازع عليها في خليج سدر . وعندما أطلقت ليبيا الصواريخ على الطائرات الأمريكية ، قامت الولايات المتحدة بمهاجمة سفن ليبية وقواعد صواريخ بداخل ليبيا .

2 أبريل 1986 ، انفجرت قنبلة على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية العالمية تطير من روما إلى أثينا فأحدثت فجوة في الطائرة شفطت أربعة أمريكيين إلى خارج الطائرة التي تمكنت من الهبوط في أثينا .

5 أبريل 1986 ، انفجرت قنبلة في الملهى الليلي « لابل » الواقع في برلين الغربية

المكتظ بالقوات الأمريكية فقتلت شخصين أحدهما جندي أمريكي وجرحت 200 آخرين منهم 60 أمريكيا . وقد صرح رسميون أمريكيون أن هناك دليلا قويا يربط ليبيا بالانفجار .

15 أبريل 1986 ، قامت بعض الطائرات الأمريكية من فوق حاملات الطائرات ومن قواعد داخل بريطانيا بقصف موقع إقامة العقيد معمر القذافي في طرابلس وكذلك أهداف ليبية أخرى . ولم يصب القذافي بأذى ولكن عشرات من المدنيين – من بينهم ابنته الطفلة المتبناه – قد قتلوا من جراء القصف .

16 أبريل 1986 انفجارات عديدة في شاحنات وقطارات في مناطق مختلفة في سوريا تؤدي إلى مصرع 144 شخصا وتصيب العديدين . وقد ألقى بعض الملاحظين اللوم على الكولونيل أوليفر نورث مستشار الأمن القومي الأمريكي وعلى أميرام نير الخبير في مواجهة الإرهاب بمكتب شيمون بيريز وذلك ردا على الذين يحتضنون الإرهاب في الشرق الأوسط .

17 أبريل 1986 ، ردا على هجوم الولايات المتحدة على ليبيا تم قتل ثلاثة من المختطفين في لبنان . اثنان بريطانيان هم : ليت دوجلاس وفيليب بادفيلد وبيتر كيلبرن .

● 17 أبريل 1986 ، اكتشف حارس أمن إسرائيلي في مطار هيثرو بلندن عبوة ناسفة في جيب سري بحقيبة نزار هنداوي وهو أردني تم تجنيده من قبل المخابرات السورية . وكان ينوي أن يعطي الحقيبة لخطيبته الأيرلندية الحامل لتحملها بداخل الطائرة التابعة لشركة العال والمتجهة إلى تل أبيب . وقد تم اعتقال هنداوي بعد تورط السفارة السورية . وكما سنرى فإن أبو نضال كان متورطا .

● 23 أبريل 1986 ، ردا على الدور البريطاني في الهجوم الأمريكي على ليبيا وزعت منظمة المسلمين الاشتراكيين الثورية شريط فيديو في لبنان يدلل على إتمام إعدام الصحفية البريطانية آليس كوليت المختطفة في مارس 1985 .

14 مايو 1986 ، دعا العقيد معمر القذافي قبرص أن تغلق القواعد البريطانية فوق

الجزيرة والتي كما قال استخدمتها الولايات المتحدة في غاراتها « البربرية الوحشية الصليبية العدوانية ضدنا » .

17 مايو 1986 ، في مقابلة مع صحيفة الواشنطن بوست أنكر الرئيس السوري حافظ الأسد أية علاقة لسوريا بالإرهاب . وفي حديث في مدينة أثينا دعا إلى ما أسماه « حوار دولي » للتفريق ما بين الإرهاب والأعمال المشروعة للمقاومة الوطنية .

● 3 أغسطس 1986 ، أطلقت صواريخ وقذائف مورتار على القاعدة العسكرية البريطانية في أكروتيري بقبرص مما أدى إلى جرح سيدتين بريطانيتين وقبرصي . وفي لبنان ادعت منظمة الاتحاد الناصري ، القاهرة « وهي تابعة لأبو نضال » مسئوليتها عن الحادث .

● 5 سبتمبر 1986 ، سيطر رجال مسلحون على طائرة جامبو تابعة لشركة بان أمريكان الأمريكية في مطار كراتشي وبداخلها 358 مسافرا بالإضافة إلى الطيارين . وعندما اقتحمت القوات الباكستانية الطائرة قتل عدد من الركاب ، وتم اعتقال المختطفين . وفي 10 سبتمبر صرح وزير الدفاع الأمريكي كاسبر واينبرجر بأن منظمة أبو نضال هي المسئولة عن الحادث .

● 6 سبتمبر 1986 ، قام رجلان مسلحان تابعان لأبو نضال بقتل 21 مصليا يهوديا في هجوم معبد نيفي شالوم بمدينة إستانبول خلال صلاة يوم السبت . وبالرغم من أن أبو نضال قد أعلن مسئوليته فإن إسرائيل لم تنتقم .

30 سبتمبر 1986 ، غررت فتاة من الموساد الإسرائيلي بمردخاي فانونو الخبير النووي الإسرائيلي المغربي الأصل والذي باع معلومات تتعلق بمفاعل ديمونة النووي الإسرائيلي لصحيفة صانداي تايمز . فسافر معها من لندن إلى روما ومن هناك اختطف وأعيد إلى إسرائيل حيث حوكم وعوقب بثمانية عشر عاما في السجن .

● 12 أكتوبر 1986 ، أكدت وزارة الداخلية البريطانية أن ستة أشخاص يعتقد أنهم تابعون لأبو نضال قد أخبروا بأن عليهم مغادرة بريطانيا .

24 أكتوبر 1986 ، حكم على نزار هنداوي الذي اتهم بمحاولة تفجير طائرة

شركة العال في أبريل بالسجن لمدة 45 سنة . وهي أطول مدة في تاريخ الجريمة البريطانية . وبعد صدور الحكم قامت بريطانيا بقطع علاقاتها مع سوريا .

3 نوفمبر 1986 ، نشرت صحيفة الشارة البيروتية أول تقرير عن تبادل الأسلحة بالرهائن بين الولايات المتحدة وإيران . وقد أوضحت الفضيحة التي أعقبت ذلك وهي فضيحة إيران جيت ، كيف أن إسرائيل سحبت الولايات المتحدة لتعاملات سرية مع إيران من أجل التمويه على صادراتها السرية هي لإيران من أجل جعل الحرب في الخليج تستمر ، والإثقال على العراق ، ومن أجل منع ظهور جبهة شرقية تتكون من العراق وسوريا .

إن الاستنتاج الأول من هذه القائمة يظهر أن أبو نضال هو الإرهابي الوحيد أو الإرهابي الخطير بصفة عامة في منتصف الثمانينيات .

ولكن ما يجعله مختلفا عن أغلب الآخرين أنه لايوجد هجوم واحد شنه كان من أجل القضية الفلسطينية . وظهرت دوافعه على أنها إما ذاتية أو للارتزاق . وأخذ أبو نضال في الابتعاد عن القضية الفلسطينية حتى أصبح مسدسا للإيجار بائعا لكل القيم .

إن محاولة تفجير سيارة ملغومة خارج السفارة الأمريكية بالقاهرة في مايو 1985 ، وخطف طائرة البوينج التابعة لشركة مصر للطيران إلى مالطا في نوفمبر من نفس العام ... كانتا عمليتا قرصنة نفذتا ضد مصر لصالح ليبيا . ويجب أن ينظر إليهما في إطار النزاع الذي كان يحدث في ذلك الوقت بين القاهرة وطرابلس . فقد اتهمت مصر ليبيا بإرسال إرهابيين لقتل مواطنين مصريين وكذلك ليبيين في المنفى بمصر وزعزعة استقرار الحكومة المصرية . أما ليبيا فقد أخذت تطرد العمال المصريين وتهاجم « اتفاقية الخضوع » المصرية مع إسرائيل .

إن منشقين على أبو نضال أخبروني فيما بعد أن أبو نضال أعار خدماته ببساطة إلى ليبيا لكي يخطف الطائرة المصرية . حيث قام أعضاء من المكتب الشعبي الليبي في اليونان باستخدام جوازات سفر دبلوماسية ، لتفادي شرطة الجوازات ، وتمرير

الأسلحة إلى الفريق التابع لأبو نضال المنتظر في صالة الترانزيت بمطار أثينا . فقام الفريق بحمل الأسلحة إلى داخل الطائرة واختطفها أثناء طيرانها . وكانت الخطة الأصلية هي تحويل مسار الطائرة إلى ليبيا ، ولكن الليبيين قرروا في آخر دقيقة تغيير الخطة وتحويل الطائرة إلى مالطة وذلك خشية الغضب العام عليهم . وقام مبارك غاضبا بإرسال قوات إلى الحدود مع ليبيا ، وأرسل فريق كوماندوز إلى فاليتا لاقتحام الطائرة الأمر الذي نتج عنه خسائر كبيرة في الأرواح .

ولكي يحول أبو نضال الأنظار عنه أعلن أن الذي نفذ العملية هو منظمة المصريين الثوريين ، حيث كان الهدف من العملية إطلاق سراح بعض السجناء في سجون مصر ، وفي الحقيقة فإن تلك المنظمة الانفصالية المصرية مرتبطة في العقل العربي باسم خالد عبد الناصر ، ابن الرئيس المصري الأسبق . ولكن تلك المنظمة لم تقم بالاختطاف ولكن أبو نضال أراد أن يستخدم اسمها بعد قيام تلك المنظمة بمهاجمة مسئولين إسرائيليين وأمريكيين في القاهرة ما بين 1984 و 1987 ومما نتج عنه مصرع اثنين من الإسرائيليين . « في عام 1991 برأت محكمة مصرية خالد عبد الناصر من تهمة تحويل أموال إلى منظمة ثورة مصر . ولكن المحكمة حكمت علي رئيس المنظمة محمود نور الدين بالأشغال الشاقة المؤبدة » .

أما عن هجوم قاعدة أكروتيري البريطانية في قبرص بالصواريخ ومدافع المورتار في أغسطس 1986 ، فقد كان كذلك عملية مرتزقة نفذت لصالح ليبيا . وأعقبها تصريح القذافي للحكومة القبرصة بإغلاق القاعدة البريطانية في قبرص . وقد أخبرتني عناصر بداخل منظمة أبو نضال أن الأسلحة سربت إلى قبرص عن طريق حقيبة دبلوماسية ليبية ، وأن الزورق الصغير الذي استخدم في الهجوم والفرار بعد تنفيذه كان أيضا ليبيا . وقد قاد الهجوم على القاعدة البريطانية هاني سامرو ، وهو ضابط مدرب تدريبا حسنا في منظمة أبو نضال وتم الإشراف على الهجوم من لبنان بواسطة مدير المخابرات في ذلك الوقت عبد الرحمن عيسى . والذي أعطاني أبو إياد شرائط مسجلة عنه . ولكن عضوا من جماعة تنفيذ الهجوم تم أسره وهو هشام سعيد . ومرة أخرى قام أبو نضال بالإعلان عن أن المنظمة التي نفذت الهجوم هي منظمة الناصريين المتحدين بالقاهرة ، ولكن الاشتراك المصري في تلك العملية كان غير حقيقي ومزيفا .

روما وفيينا :

إن أشد وأخطر العمليات التي نفذها أبو نضال في ذلك الوقت ، والتي كانت مسببة لضرر بالغ للقضية الفلسطينية هي الهجوم في شهر ديسمبر 1985 على مكتبي حجز التذاكر التابعين لشركة العال الإسرائيلية في مطاري روما وفيينا . حيث عكست القسوة التي نفذ بها الهجومان الطابع الخاص لعمليات أبو نضال .

فقد كانت إيطاليا والنمسا الدولتين الأوربيتين اللتين تمتعت منظمة التحرير الفلسطينية بعلاقات وثيقة معهما ، وبتشجيعهما تطور الحوار الأوروبي الفلسطيني بصورة مرضية . وخلف الكواليس كان قادة هاتين الدولتين يحاولان جمع الإسرائيليين والفلسطينيين معا للوصول إلى تفاهم سلمي . وفي تلك اللحظة جاءت تلك الهجمات . ولم تتمكن منظمة التحرير الفلسطينية إلا أن تفترض أن الغرض من الهجوم كان إجبار إيطاليا والنمسا ـ تحت ضغط الرأي العام لهما ـ على أن تقطعا علاقاتهما مع منظمة التحرير الفلسطينية .

كان المهاجمون من الفلسطينيين صغار السن . نتاج مر لمخيمات اللاجئين ، الذين تم لهم غسيل مخ للتضحية بحياتهم من أجل قضية اعتقدوا أنها تستحق ذلك . إن المهاجم الوحيد الذي نجا من عملية روما فقد أبيه ـ وكان سائق تاكسي ـ في مذابح صابرا وشاتيلا .

أما محمد نضال وهو مهاجم آخر ـ ولكن قتل في الهجوم ـ فكان يحمل جواز سفر لبنانيا وتأشيرة إلى الولايات المتحدة ليبدأ حياة جديدة هناك . ولكن قبل سفره فقد سأل المنظمة لإعطائه بعض التدريب العسكري الذي اعتقد أنه سيكون مفيدا . وخلال تدريب بسيط في وادي البقاع أقنع بأن يشترك في العملية التي أدت لمصرعه .

وتحت تأثير العواطف فقد تلقى القتلة الصغار الأوامر بقذف قنابلهم وإمطار رصاصهم عشوائيا على الواقفين أمام مكاتب فحص جوازات السفر . لقد أخبروا ـ كما علمت فيما بعد ـ أن الناس الواقفين أمام مكاتب فحص جوازات السفر طيارون إسرائيليون يرتدون الملابس المدنية وهم نفس الطيارون الذين قصفوا

أسرهم – أسر القتلة – في جنوب لبنان . إن ذلك هو ما اعتقده أبو نضال وادعاه فيما بعد عندما طلب منه رفاقه تفسيرا للعمليتين . وقد قامت منظمة فتح بإرسال ضباط مخابرات تابعين لها إلى إيطاليا والنمسا للتحري عن ادعاء أبو نضال ولكن بالطبع وجدت أن ادعاءه لا أساس له .

وإلى يومنا هذا . فلا أحد يعلم في الحركة الفلسطينية لماذا نفذت تلك العمليات ولكن مساعدا مقربا من أبو نضال أخبرني أن الخطة الأصلية لم تكن تستهدف ضرب روما وفيينا فقط ، ولكن مطار فرانكفورت كذلك . وذلك بمساعدة أحمد جبريل زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة وهو واحد من أكثر الضباط العسكريين حنكة في الحركة الفدائية وله سجل طويل في العمليات ضد إسرائيل . ولقد اتفق أن تكون عملية فرانكفورت من نصيب جبريل ، الذي كان في ذلك الوقت يتنافس مع أبو نضال من أجل خاطر القذافي ربما من أجل الفرار من اعتماده على سوريا .

ولكن قبل قليل من التاريخ الذي اتفق عليه لتنفيذ الهجوم غير أبو نضال رأيه ربما من الغيرة من جبريل أو ربما خشي أن تكون منظمة جبريل قد اخترقت مما قد يكشفه . واشتكى جبريل بغضب مصرحا أن أبو نضال قد تراجع عن اتفاقه معه وانتقد الطريقة التي نفذت بها عمليتا روما وفيينا . مدعيا أنه طالما دخلت الأسلحة إلى الترانزيت في المطارين فقد كان يمكن أن تتما بدقة أكثر مما يوقع إصابات بالغة في الإسرائيليين .

وعندما ناقشت هاتين العمليتين مع أبو إياد في تونس في صيف عام 1990 ، قال إنه منذ حادثي روما وفيينا أدلى بحوالي عشرين حديثا صحفيا لشرح براءة وتنصل منظمة التحرير الفلسطينية من تلك الهجمات الشنيعة ، ولكن ذلك لم يكن سهلا . « فعندما تحدث تلك الجرائم الفظيعة فإن عامة الناس يعتقدون أن كل الفلسطينيين مجرمون » كما قال . لقد كان الضرر إذن بالغا على منظمة التحرير الفلسطينية .

وأخبرني أن أغلب الناس في الغرب – وحتى العديد من العرب – قد لايتمكنون

من التفريق بين منظمة فتح التابعة لأبو نضال والأخرى التابعة لعرفات . فعندما يرتكب أبو نضال مذبحة ، ينظر لها أي إنسان على أساس أن الفلسطينيين هم الذين نفذوها ، ولهذا فمنظمة التحرير الفلسطينية كاذبة ، وادعاؤها بإدانة الإرهاب كاذب . إن أبو نضال والمنضمين له يريدون الناس أن يشكو فينا . وأخشى - كما يقول أبو إياد - أن يكونو قد نجحوا .

ويتساءل أبو إياد : كيف نتمكن من إقناع الأوروبيين بعدالة قضيتنا ؟

كيف نقنع عرب الخليج أن مصرع الغباشي « وزير الدولة للإمارات العربية المتحدة الذي قتل بواسطة أبو نضال في أكتوبر 1977 » لم يكن بسببنا ؟ كيف نقنع أسرة سفير دولة الإمارات العربية في باريس بأن دمه لم يسفك على أيدينا ؟ لقد رأيت وجوههم عندما ذهبت لأعزيهم . كيف نقنع الكويتيين أن تفجيرات القنابل في مقاهيهم لم نكن نحن الذين قذفناها ؟ إنهم يعتقدون أن كل الفلسطينيين مذنبون .

إن أعضاء سابقين في منظمة أبو نضال أخبروني أن المخابرات الليبية قد لعبت دورا في التخطيط وقامت بإمداد الجماعة بالسلاح والذي حول بطريقة تقليدية إلى الرجال المسلحين بواسطة وسيط في آخر لحظة .

إن جوازات السفر التونسية التي وجدت مع الرجال المسلحين كانت جوازات سفر عمال تونسيين كانوا يعملون في ليبيا وقامت ليبيا بترحيلهم ومصادرة جوازات سفرهم وذلك عام 1985 .

ولقد وصفت وكالة الأنباء الليبية الهجومين بأنهما « عمليتان بطوليتان نفذتا بواسطة أبناء شهداء صبرا وشاتيلا » . لقد كان القذافي نفسه مهتما بتفاصيل مثل تلك العمليات مع أبو نضال ، ولكن ضباط مخابراته - طبقا لما ذكره لي البعض - قاموا بالتأكيد بدراسة تلك العمليات بدقة ، ومنهم رجال تخصصوا في الاغتيالات وأعمال الإرهاب مثل سيد قذاف الدم وعبد الله حجازي وصالح الدورقي .

أما في جبهة أبو نضال ، فقد كان المخطط الرئيسي لعمليتي روما وفيينا هو الدكتور

غسان العلي رئيس شعبة الاستخبارات للعمليات الخاصة وقام رفيقه علاء بإدارة العمليتين على الأرض وكان في فيينا في ذلك الوقت ليرى الأمور عن بعد . لقد كان كلاهما بالطبع في القائمة الصغيرة التي أعرفها كعميلين محتملين لإسرائيل .

لقد كان أبو إياد مقتنعا أن منظمة أبو نضال في حالة روما وفيينا قد تعرضت للإيحاءات والضغط من عملاء إسرائيليين . فقد وقفت إسرائيل وحدها لتجني ثمار تلك العمليات كما يقول . ولكنه ـ أي أبو إياد ـ لا يعلم إذا ما كان أبو نضال نفسه قد درب بواسطة الموساد ، ولكنه يعتقد أن شخصيته الإجرامية تجعله معرضا بصورة استثنائية للضغوط الخارجية .

وعندما أخبرني أبو إياد بذلك لم أتمكن من التصديق ـ وحتى الآن ـ أن الإسرائيليين هاجموا إراديا مكتبي شركة العال لقتل شعبهم .

إن إسرائيل لا تذبح اليهود مهما كانت العوائد السياسية أو الإعلامية لها . ولكن المشكلة العويصة والحقيقة التي ليس لها تفسير هي أن كل شخص يعلم أن عمليتي روما وفيينا كانتا بواسطة أبو نضال وأنه نقل قيادته إلى ليبيا ، التي يمكن أن تقوم إسرائيل بضربها بشكل يسير . ولكن إسرائيل لم تنتقم من ليبيا ولا من أبو نضال أو من الرجال الذين تورطوا بصفة مباشرة مثل الدكتور غسان ورفيقه علاء .

ومع ذلك ـ وإذا كان هؤلاء الرجال ـ كما يعتقد أبو إياد ـ تابعين للموساد . فإنه من الصعب شرح لماذا قاموا بمهاجمة أهداف إسرائيلية . ولكنهم هاجموا أهدافا إسرائيلية ، وإسرائيل ـ على النقيض من سياستها المتبعة ـ لم تعاقب أحدا منهم . ولكن وبغض النظر عن من أمر بالهجومين فإن الأثر السياسي منهما كان واضحا : وقف تطور الاتصالات بين كل من إيطاليا وفيينا مع منظمة التحرير الفلسطينية مما يعود بالفائدة على إسرائيل .

إن ضحايا إرهاب أبو نضال من الرجال الذين قتلوا ومن فقدان سمعة منظمة التحرير الفلسطينية التي سارعت بالتحري عن من الذي اخترق منظمة أبو نضال أو دفعه لارتكاب تلك الهجمات . لقد أدت عمليتا روما وفيينا إلى ظهور المشاعر

المعادية للعرب في الغرب ، وساعدتا إسرائيل على الاستفادة السياسية من وقوع الإرهاب . إن هاتين العمليتين – بالإضافة إلى عملية ملهى لابل في برلين والتي لم يقم بها أبو نضال – قد مهدت الأرض للهجوم الأمريكي على ليبيا في أبريل عام 1986 .

لقد أخبرني أبو إياد : « عندما قابلت أبو نضال عام 1987 سألته عن عملتيي روما وفيينا . ولكنه لم يتمكن من أن يحكي ما حدث بطريقة مباشرة . فقد بدا متناقضا مع نفسه ولم يتمكن من إخفاء الشرعية على العمليتين » . ويضيف أبو إياد : « عندئذ أخبرته بالقصة التالية : في زيارتي للنمسا عام 1988 حضرت حفلا نظم من قبل أصدقاء فلسطينيين وفوجئت بسيدة جميلة تتحدث بحماس عن القضية الفلسطينية . وهنا أخبرني وزير خارجية النمسا الأسبق أن تلك السيدة كانت من ضمن المسافرين بمطار فيينا وقد قذفت قنبلة تحت قدميها ولكنها لم تنفجر وبالرغم من ذلك فقد ظلت على صداقتها للفلسطينيين . التي تؤمن أنهم – أي الفلسطينيين إنما يفعلون تلك العمليات نتيجة اليأس ، لقد أخذت تدعمهم أكثر من ذي قبل » .

وعندما أنهى أبو إياد قصته تلك التي رواها لأبو نضال علق الأخير عليها بالقول : « لو أن عشرين آخرين كانوا قد قتلوا فإن ذلك لم يكن ليعني شيئا ... فكلهم صهاينة ! » .

وطبقا لأبو إياد فإن الهجوم الأمريكي على ليبيا الذي استهدف مركز إقامة القذافي ومباني حساسة أخرى كان يمكن أن يصل إلى أهدافه عن طريق القنابل الذكية لو أن هناك فقط شخصا ما يساعدهم في داخل ليبيا . وكما نشرت صحيفة الواشنطن بوست في 17 أبريل 1986 فإن المخابرات الإسرائيلية استمرت في إرسال معلومات متصلة عن أماكن تنقل القذافي حتى الساعة 11,15 « الحادية وخمس عشرة دقيقة » بتوقيت ليبيا . أي قبل ساعتين وخمس وأربعين دقيقة قبل الهجوم الأمريكي . ولما كان أبو نضال يعمل عن قرب من المخابرات الليبية فإن مثل تلك المعلومات ربما تكون قد وصلت إلى الإسرائيليين عن طريقه .

وطبقا لرأي أبو إياد الذي يؤمن به إيمانا شديدا فإن ليبيا وغيرها من الدول التي

تكفل له الإقامة والتحرك هو ومنظمته وأن يستخدم التسهيلات المقدمة له وبخاصة في مجال المخابرات ترتكب أخطاء قاتلة من جراء ذلك . إن أبو إياد يؤمن أن منظمة أبو نضال لا تستخدم فقط من أجل اختراق الحركة الفلسطينية من قبل إسرائيل ، ولكن المجتمع العربي ككل . إن تعامل ليبيا مع أبو نضال قد قلل من أمنها وكشفها أمام الهجوم المباشر .

موضوع هنداوي :

اكتشف رجل أمن إسرائيلي في 17 أبريل 1986 بمطار هيثرو بلندن 1,5 كيلو جرام من مادة سيمتكس ، وهي متفجرات بلستكية من صنع تشيكوسلوفاكيا وذلك في جيب سري لحقيبة تحملها سيدة إيرلندية تدعى آن ميرفي . وكانت في طريقها لركوب طائرة شركة العال المتجهة إلى إسرائيل . إن آن ميرفي كانت عاملة في أحد فنادق لندن أعطاها خطيبها الأردني الأصل نذار هنداوي « والتي كانت حاملا منه في شهرها الخامس » الحقيبة ووعدوا باللحاق بها في إسرائيل ليتزوجها ولقد أصطحب هنداوي البالغ من العمر 32 عاما خطيبته آن إلى المطار بواسطة تاكسي الذي قام بداخله بتركيب بطارية للتفجير متصلة بآلة حاسبة . ولقد ضبط التوقيت بحيث تنفجر القنبلة أثناء وجود الطائرة في الجو .

وعندما ودع هنداوي خطيبته في مطار هيثرو في الثامنة صباح يوم 17 أبريل ، رجع إلى مدينة لندن ، وفي ظهر نفس اليوم ركب سيارة تابعة لشركة الخطوط الجوية السورية ليعود إلى المطار ليلحق برحلة الساعة الثانية بعد الظهر المتجهة إلى دمشق . ولكن قبل أن تتحرك سيارة الخطوط السورية أذيعت الأخبار بأن قنبلة قد تم اكتشافها بمطار هيثرو . وهرول هنداوي مسرعا من خارج السيارة واتجه للسفارة السورية هناك طلب المساعدة من السفير السوري الدكتور لطف الله حيدر .

لقد تحريت عن ذلك الحادث الإرهابي الذي ورط السوريين وذلك عندما كنت أبحث في سيرة حياة الرئيس حافظ الأسد . هل يمكن أن يكون الأسد قد عرف بتلك العملية ؟ إن إبداءه القلق لتجنب حرب مع إسرائيل يجعلني لا أصدق أنه أجاز

قنبلة هيثرو . هل تدمير طائرة مدنية إسرائيلية قد ارتبط بسوريا ، إن ذلك يجعل بلد الأسد ونظامه عرضة لأشد المخاطر الفورية .

إن ما علمته فيما بعد عام 1990 من منشق مهم على أبو نضال في تونس يفيد أن اللجنة الفنية التابعة لأبو نضال قد صنعت حقيبة القنبلة وأرسلتها إلى مخابرات سلاح الجو السوري ، وهي الجهة التي احتضنت أبو نضال أثناء وجوده في سوريا . وقامت إدارة مخابرات سلاح الجو السوري بعد ذلك بإرسال القنبلة بحقيبة دبلوماسية سورية إلى لندن ومن هناك سلمت إلى هنداوي . إن الذين يعتقد أنهم علموا بذلك كانوا أثنين أو ثلاثة من ضباط مخابرات السلاح الجوي السوري بما فيهم اللواء محمد الخولي مدير المخابرات الجوية . واثنين أو ثلاثة من أعضاء منظمة أبو نضال .

ولقد اعتقد على نطاق واسع أن دافع الخولي من تلك العملية كان الانتقام من حادث وقع قبل ذلك بشهرين عندما أملت إسرائيل من اعتقال قادة للفدائيين الفلسطينيين فاعترضت وأجبرت على الهبوط في إسرائيل طائرة رسمية سورية تحمل رسميين سوريين إلى دمشق . إن هذا التفسير يظهر أن جانبا من المخابرات السورية يدار بطريقة غير منضبطة . وبالرغم من ذلك فإن اشتراك أبو نضال أعطى العملية عمقا آخر .

إن هنداوي كان معروفا من السفير السوري الدكتور حيدر في لندن . ففي عام 1985 - أي قبل عدة أشهر من حادث مطار هيثرو - قام حيدر بتقديم هنداوي إلى المخابرات السورية على أنه معارض للنظام الأردني في لندن والذي يمكن أن يستفاد به في حملة سوريا في ذلك الوقت التي تشنها ضد الأردن . « والذي لم يعلمه حيدر أن رسالته عبر الراديو إلى دمشق عن هنداوي كانت قد اعترضت من قبل المخابرات البريطانية وبالتأكيد قد تم توزيعها على عدد من الدول من بينها إسرائيل التي تتعامل مع بريطانيا في الأنشطة المضادة للإرهاب » .

لهذا . فعندما ظهر هنداوي في السفارة السورية طالبا المساعدة ، قام السفير السوري - الذي عامله على أساس أنه عميل سوّري في حالة خطر - بتسليمه إلى

رجال أمن السفارة السورية الذين حاولوا إخفاء معالمه فقاموا بقص وصبغ شعره .
ولكن في صباح اليوم التالي 18 أبريل ولأسباب غير واضحة ترك هنداوي السوريين ، وقام بالاتصال بشقيقه الموظف بسفارة قطر في لندن ، وبعد ذلك قام بتسليم نفسه إلى البولس البريطاني ، حيث استجوب بكثافة على مدى عدة أيام في أثنائه كان نومه يقطع . وبعد ذلك اعترف أنه كان قد قابل الجنرال الخولي في دمشق في يناير 1986 وبعد ذلك بشهر ، قام العقيد هيثم سعيد وهو أحد الضباط التابعين للخولي بإعطائه جواز سفر سوري باسم مزيف وأمره بوضع قنبلة في طائرة تابعة لشركة العال الإسرائيلية في لندن . وتم إرساله إلى لندن لإجراء تدريب ، وعند عودته لدمشق أظهر له سعيد حقيبة القنبلة وأخبره كيف يحافظ عليها .

وفي 5 أبريل أرسل مرة أخرى إلى لندن وأعطيت له القنبلة ومفجرها بواسطة رجل اعتقد أنه موظف بشركة الطيران العربية السورية .

إن ذلك الاعتراف كان الأساس الذي قامت عليه بعد ذلك الدعوة في المحاكمة التي جرت في أولد بيلي في أكتوبر 1986 . وبالرغم من ذلك وأثناء المحاكمة فقد تراجع هنداوي عن اعترافه وأخبر المحكمة أنه كان ضحية لمؤامرة ربما من قبل عملاء إسرائيليين . وأوضح أن العريف البريطاني الذي استجوبه بعد اعتقاله هدده بأن يسلمه إلى الموساد الإسرائيلي ، وأخبره كذلك أن أمه وأباه وكلاهما يعيشان في لندن قد تم اعتقالهما كذلك . وأخبر المحكمة أن البوليس البريطاني قد اخترع عبارات نسبها إليه وأجبره على التوقيع عليها بدون أن يقرأها .

ولم يكن ذلك كافيا لإقناع القاضي . فأعلن أن هنداوي مذنب وحكم عليه بالسجن لمدة 45 سنة ، وهي أطول عقوبة صدرت في تاريخ الجريمة البريطانية .

وبعد ساعات من صدور الحكم قطعت بريطانيا علاقاتها مع سوريا وحثت حلفاءها على أن تفعل مثلها .

وبالرغم من ذلك فقد غضبت السيدة تاتشر عندما صرح رئيس الوزراء الفرنسي جال شيراك في مقابلة مع الواشنطن تايمز في 10 نوفمبر 1986 بأن المستشار الألماني

كول ووزير خارجيته جنيشر يعتقدان – كما يعتقد هو كذلك – « أن قضية هنداوي لم تكن سوى استفزاز صمم من أجل إغضاب نظام الأسد وزعزعته . فخلفه – أي خلف قضية هنداوي – بعض الأشخاص الذين يحتمل أن لهم اتصالات بالموساد الإسرائيلي » .

وفي لقاءات مع رسميين أردنيين في عمان ، علمت أن أسرة هنداوي هي من أصل فلسطيني سكنت في قرية البكورة بالضفة الشرقية وأن لهذه الأسرة تاريخا في التعامل مع الموساد . أما الأب فقد عمل كطباخ في السفارة الأردنية بلندن قبل أن يُكتشف أنه عميل إسرائيلي ولقد حول لمحاكمة في الأردن – غيابيا – وحكم عليه بالإعدام ، ولكنه هرب من الحكم بالبقاء في بريطانيا . وفي شقة الأب بضواحي لندن قام هنداوي بحفظ الحقيبة والقنبلة لمدة عشرة أيام في أبريل عام 1986 . أما هنداوي نفسه فإن له سجلا عل أنه عميل ضعيف الأجر ، ورجل اتصالات بدون هوية أيديولوجية .

وقد أخبرني مسئول أردني رفيع المستوى أنه عمل في عدة أنشطة لصالح سوريا ضد الأردن ، أو لصالح الأردن ضد الفلسطينيين . وكذلك لصالح الحزب الشيوعي الأردني المحظور . بالإضافة إلى الموساد . وكان يتلقى أجره عن ذلك » .

وعلى مدى سنوات فقد كان كقطعة الشطرنج في أيدي أجهزة المخابرات المتصارعة في الشرق الأوسط . وبسبب نشاطه ذلك فقد رفضت الأردن تجديد جواز سفره عام 1985 مما دفعه للعمل مع سوريا وفي عملية مطار هيثرو كان هناك أخطاء في سلوكه منها : إسراعه بالذهاب إلى السفارة السورية بمجرد أن أكتشفت القنبلة لكي يطلب مساعدة السفير « ولقد تم رصد المحادثة التي دارت بينهما بواسطة المخابرات البريطانية » ... ثم إنه هرب من رجال الأمن بالسفارة السورية . ولم يحاول التخفي أو مغادرة بريطانيا . ولكنه قام بتسليم نفسه . إنه بدا كما لو أنه أراد أن يورط ويفضح السوريين .

لقد كان هناك بالطبع تورط من إدارة المخابرات التابعة لسلاح الجو السوري في

حادثة مطار هيثرو : فقد جندت هنداوي وأعطته جواز سفر حكومي رسمي سوري باسم مزور ، وأرسلته إلى لندن وهناك أعطته الحقيبة والقنبلة . ولكن ... هل يمكن أن يكون هنداوي الذي ذكر عنه أنه عمل مع عدة أجهزة مخابرات بما في ذلك الموساد عميلا مزدوجا . يعمل لسوريا ولكن مسيطرا عليه من قبل إسرائيل ؟ هل يمكن أن يكون قد تم زرعه عمدا بداخل السوريين أو أنه قد روقب في لحظة قيام سوريا بتجنيده ؟

طبقا لتلك النظرية فإن هنداوي يعتبر أداة اختراق إسرائيلية للمخابرات السورية . عميل يكون مهمته فضح سوريا كدولة إرهابية .

إذا كان ذلك صحيحا فإن قنبلة مطار هيثرو لم تكن أبدا لتنفجر ، وبالتالي فإن اكتشافها من قبل رجل أمن إسرائيلي كان لعبة وحجة ولم يكن نتيجة حذر استثنائي . وربما يكون هنداوي نفسه قد أُقنع بأنه سيتلقى عقوبة قصيرة طالما لم يؤذ أحدا .

إن الخلفية السياسية لتلك القضية تعطي بعض الدعم لذلك التفسير . ففي 13 مارس 1986 كان هناك انفجار شديد نتج عن سيارة مفخخة في وسط دمشق . وكان ذلك الانفجار هو بداية لحملة قصد منها زعزعة نظام الأسد .

وفي 15 أبريل هاجمت الولايات المتحدة ليبيا . وفي 16 أبريل انفجرت عدة قنابل في شاحنات وقطارات في أنحاء مختلفة من سوريا نتج عنها مصرع ما لا يقل عن 144 شخصا وجرح العديدين . وفي 17 أبريل اكتشفت قنبلة هنداوي في هيثرو والتي جلبت تنديدا دوليا فوريا لسوريا .

وفي الأشهر التي سبقت تلك الأحداث قام رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز بشن هجوم دبلوماسي واسع بهدف جذب الملك حسين ملك الأردن في مفاوضات مباشرة مع إسرائيل ، وقد طلب الدعم الأوروبي والأمريكي لتنفيذ ذلك ، وأوضح أن منظمة التحرير الفلسطينية ليست مقبولة بأي ثمن ، وأن الاتحاد السوفيتي ليس مدعوا إلى المفاوضات إلا إذا أعاد العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل . أما سوريا فقد وصفها بأنها العقبة الرئيسية وبأنها « دولة إرهابية » مما يبعدها عن طريق المفاوضات .

لقد دعمت مارجريت تاتشر بقوة بيريز وذلك لعلاقتها الوثيقة مع الملك حسين مما جعلها قادرة على تحقيق اتفاقية بين الأردن وإسرائيل ترضي بيريز . ولم يبد أنها كانت قادرة على فهم لماذا تعترض سوريا على قيام الأردن باتمام اتفاق منفصل مع إسرائيل . لقد اعتقدت أن الأسد كان ضد السلام بصفة عامة .

وعندما وقع حادث هنداوي بلغ التنديد بسوريا قمته . وسرعان ما قامت إسرائيل بمضاعفة جهودها لجذب الأردن في محادثات منفصلة وتطور ذلك إلى ما عرف باتفاقية لندن في فبراير عام 1987 والتي فيها اجتمع بيريز مع حسين سرا ووافقا على شروط أمريكية للمباحثات الثنائية « وبالنسبة لبيريز فإن اتفاقية لندن لم يتم متابعتها بسبب اعتراض شامير الذي شل الحكومة الإسرائيلية » .

وعندما سمع الأسد بحادثة هيثرو اعتقد أن ذلك سيتسبب في هجوم مباشر على سوريا سواء بواسطة إسرائيل بمفردها أو بالتعاون مع الولايات المتحدة . لقد أحس أن أعداءه يريدون الإقلال من شأنه حتى يتمكنوا من إقامة سلام أردني إسرائيلي يعطي إسرائيل التفوق الإقليمي . وفي مقابلة مع مجلة تايم في 20 أكتوبر 1986 ادعى الأسد أن المخابرات الإسرائيلية قد خططت عملية هنداوي .

وقد أخبرني رسميون سوريون كبار - بعد إنكار تورطهم في الحادث - أن المخابرات السورية سقطت في فخ إسرائيلي . فقد اخترقت أجزاء من جهازهم بغرض إظهار سوريا كدولة مرتبطة بالإرهاب وعزلها دوليا . ولقد تم اعتقال العقيد مفيد عكور وهو ضابط بإدارة مخابرات القوات الجوية السورية - وقد ذكر هنداوي اسمه في التحقيق - بتهمة احتمال العمل مع إسرائيل ، أما رئيسه العقيد هيثم سعيد فقد اختفى لبعض الوقت ، وفقد رئيس الإدارة الفريق الخولي منصبه القوي - وقد كان في وقت من الأوقات كفيلا لأبو نضال - وحول للعمل في وظيفة أخرى تابعة للقوة الجوية .

ولكن إذا ما كانت المخابرات السورية قد اخترقت . فماذا كان الدور الذي لعبه أبو نضال في ذلك ؟ لقد أمد - السوريين - بالحقيبة والقنبلة . ولكن هل قام

هو – أو ربما الدكتور غسان العلي – يبيع السوريين فكرة مهاجمة طائرة شركة العال ؟ هل كانت منظمته النفق الرئيسي لاختراق إسرائيل ؟

إن رسميين سوريين كبارا أخبروني أنهم مقتنعون بأن أمن بلادهم قد تعرض للأذى بسبب علاقة أبو نضال بالفريق الخولي قائد مخابرات سلاح الجو ، وهم يتذكرون حادثا مبكرا ولكن أقل أهمية والذي فيه تم اعتقال رجل تابع لأبو نضال يدعى عدنان الفارسي « اسمه الكودي سامي أبو هيثم » في مطار دمشق عام 1985 حاملا معه تقرير مخابرات حول العديد من الشئون الداخلية في سوريا » .

وكانت تلك هي المرة الثانية التي يحدث فيها مثل ذلك العمل من أبو نضال ويبدو أن منظمة أبو نضال كانت تجمع معلومات عن الجيش السوري وعن الفضائح التي تخص قادة سوريين ، وحتى عن السوق السوداء وسعر الخبز . إن السوريين اليوم يشكون في أن أبو نضال كان يتاجر بهذه المعلومات من أجل الحصول على تسهيلات في مكان آخر . كما يعتقد بعض محللي المخابرات السوريين أن إسرائيل كانت مرتبطة بذلك . وفي نهاية عام 1986 قام السوريون أخيرا بوضع المنظمة « منظمة أبو نضال » تحت الملاحظة وأحكموا سيطرتهم عليها .

اختطاف في كراتشي :

لقد أدى حادث هنداوي إلى توتر العلاقات بين سوريا وأبو نضال إلى درجة كبيرة . ولكن الحادث الذي أنهى تلك العلاقات كان خطف طائرة ألبان أمريكان النفاثة بركابها البالغ عددهم 358 راكبا في مطار كراتشي في 5 سبتمبر 1986 .

وبالمعيار الفني فقد نفذ الاختطاف جيدا على الأقل في مراحله الأولى . حيث قام أربعة رجال مسلحين يرتدون زي رجال الأمن الباكستانيين ويركبون سيارة شرطة وتمكنوا من دخول المطار وارتقوا إلى داخل طائرة البوينج 747 بينما كانت تقف للتزود بالوقود في الصباح الباكر وهي في طريقها من بومباي إلى نيويورك . وسرعان ما تم السيطرة على طياريها وملاحيها وركابها . ولكن قائدها تمكن من الخروج من كابينته وأبلغ عن اختطاف الطائرة ، مما أغضب الخاطفين فأخذوا في إطلاق النار

وعندما اقتحمت قوات الأمن الباكستانية الطائرة تمكن أحد الأشخاص من فتح باب للطوارئ فخرج منه الركاب وهم يصرخون . وقد قتل عشرين شخصا أثناء ذلك وقبل أن يستسلم المختطفون .

وقد أخبرني منشقون « على أبو نضال » أن استراتيجية العملية وضعها واحد من أكثر رجال أبو نضال حنكة وهو سميح محمد خضير والذي كانت أول عملياته منذ ثمانية أعوام هي اغتيال صديق الرئيس السادات ، المحرر الصحفي يوسف السباعي في نيقوسيا في فبراير 1978 . وفي منتصف الثمانينات استقر خضير في لبنان وحصل على ثلاثة جوازات سفر لبنانية وتزوج من ثلاث سيدات أجنبيات : سويدية وفنلندية ودنماركية ، وقد تزوجهن كغطاء ، كان يزورهن في بلدانهن كلما واتته الفرصة . ومثل المحرك لعمليات أبو نضال الخارجية فقد كان في كراتشي في وقت اختطاف طائرة ألبان أمريكان ، وتمكن من الفرار من الأسر « بالرغم من أن مساعده محمد حرب الترك المعروف باسم سلمان علي الترك قد اعتقل » .

ولقد تم تدريب فريق الاختطاف على نموذج للطائرة في معسكر في وادي البقاع يدار بواسطة مدير مخابرات أبو نضال . ولإقناعهم بالاشتراك في العملية ، فقد أخبروا بأن الطائرة سوف تذهب إلى إسرائيل ، وستفجر فوق منشأة عسكرية هامة . ولقد كان الفريق مستعدا للموت ، ولكن قائد الفريق ـ اسمه الكودي عباس – والذي كان سيحمل شريطا من المتفجرات حول وسطه أمر بأن يفجر الطائرة بعد إقلاعها مباشرة . وبعد انتهاء التدريب أخذ الرجال إلى سوريا وأخبروا أن يستعدوا للسفر من مطار دمشق .

وفي دمشق كان لعباس رأي آخر في العملية أسر به إلى خاله فؤاد الصوفاريني ، وهو مسئول كبير في المنظمة . ولكن سوفاريني والذي عمل كمدير لمكتب أبو نضال في السبعينيات ، والذي خطط لعمليات قديمة والذي فكر في الانشقاق عن أبو نضال « وأخيرا هرب إلى الأردن » أقنع ابن شقيقته بأن لا يضيع حياته الصغيرة من أجل مؤسسة بلا معنى « يقصد منظمة أبو نضال » .

وفي اللحظة الحرجة التي كان المختطفون يتحدثون فيها مع برج المراقبة قام عباس بدفع مضيفة أمريكية بداخل دورة مياه بالطائرة وأخذ يتحسسها فيما يبدو كمحاولة منه لإجهاض العملية . ولهذا . وبينما عباس مشغول مع المضيفة تمكن كابتن الطائرة من الهرب . أما الأعضاء الآخرون من الفريق – والذين قد يكونون شكوا في الانتحار – فقد قللوا من مراقبتهم وسرعان ما تم اقتحام الطائرة من رجال الأمن الباكستانيين .

وكما هو الحال مع العديد من عمليات أبو نضال . فإن عملية اختطاف الطائرة في مطار كراتشي لم تخدم أي هدف للقضية الفلسطينية . بل ربما تكون ساعدت على أن تبرر الهجوم الأمريكي على ليبيا في أبريل الأسبق .

ولقد أنكر متحدث باسم منظمة أبو نضال تورط المنظمة في تلك العملية . ولكن عندما ظهرت صور المختطفين في الصحف وعُرف أنهم أعضاء من المنظمة ، علم أعضاء المنظمة « في ليبيا » أن المنظمة هي التي نفذت العملية .

وبصفة عامة فعندما تفشل أية عملية أو تثير موجة من الكراهية أو أن أبو نضال لم يكن متأكدا من موافقة كفيله ، فإنه يعزو مسئولية العملية إلى منظمة غير حقيقية. فعملياته المضادة لبريطانيا – مثلا – نفذت بواسطة منظمة المسلمين الاشتراكيين الثورية . وعمليتي روما وفينا نسبت إلى خلايا من الفدائيين العرب . وحوادث القنابل على المقاهي الكويتية نسبت إلى الألوية الثورية العربية . وخطف الطائرة المصرية المدنية كانت من عمل منظمة الثوريين المصريين . وفي كل مرة كان اسم المنظمة يشابه العملية .

وبالرغم من ذلك فقد كسب أبو نضال من عمليات لم يقم بها أصلا . فعندما أغتيل زفير المصري عمدة مدينة نابلس بالضفة الغربية في مارس 1986 والذي كان الإسرائيليون قد عينوه . أصدر أبو نضال بيانا طويلا ادعى فيه أن منظمته هي المسئولة عن تلك العملية . في نفس الوقت الذي كان كل شخص في الحركة الفلسطينية يعلم أن جورج حبش « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » كان هو المسئول .

ومن ضمن أكاذيب أبو نضال ادعاؤه بأنه – وليس الجيش الجمهوري الأيرلندي – هو الذي قام بمحاولة قتل مرجريت تاتشر في مدينة بريدجتون في نوفمبر 1984 ، وأنه – كذلك – كان وراء اندلاع الحريق المدمر في ملعب مدينة برادفورد ببريطانيا في مايو 1985 .

وعندما انفجر مكوك الفضاء الأمريكي شالينجر في الجو فقد قام بطبع تهنئة في مجلته وأمر بإحضار الحلوى لتوزع على أعضاء منظمته وذلك لكي يظهر أن المنظمة قادرة على القيام بمثل تلك الأعمال .

وعندما فجرت طائرة الـ « بان أميريكان » فوق لوكربي باسكتلاندا – وهي عملية إرهابية لا ترتبط به – فقد صرح بطريقة غامضة « كما قال أحد المقربين منه » : لقد قدمنا بعض المساعدة في ذلك الأمر ، ولكنه إذا ما صرح أحد آخر بذلك فسوف أقتله بيدي ! » .

وهكذا ... « إذا ما تعرقل جندي أمريكي في أي مكان من العالم ، فإن أبو نضال يدعي فورا أن ذلك من صنعه » كما يقول أحد المقربين منه .

الطرد من سوريا :

منذ صيف عام 1986 أخذ أبو نضال يحرك منظمته خارج سوريا ، ولهذا فقد رسم الظروف حتى يبدو أنه شخص غير مرغوب فيه في سوريا ، فهو لم يكن يود المغادرة من تلقاء ذاته أو أن يطرد فجأة بدون ترتيب منه . ولهذا – وبعد هجوم كراتشي – قام بحركته الأولى وأمر رئيس مخابراته عبد الرحمن عيسى بإزالة أرشيف المنظمة والوثائق الهامة الأخرى ونقلها إلى ليبيا « وقد كان هناك نسختان لأوراق الأرشيف نسخة للمنظمة حملها عيسى شخصيا إلى طرابلس والأخرى للاستخدام الشخصي لأبو نضال » وبالتدريج ، وبينما كان المديرون ومساعدوهم يغادرون إلى لبنان وليبيا ذهب الجنود المخلصون بشدة له إلى لبنان وآخرون مثل عاطف أبو بكر كبير المفكرين الأيديولوجيين ذهبوا إلى ليبيا .

وفي الوقت نفسه تم إغلاق مبانٍ وشقق ، ويعتقد السوريون أنه أغلق حوالي دستة

من المباني ، ولكنهم فوجئوا عندما علموا أنه كان يشغل أكثر من مائتي موقع ، ولم يجدوا في أي منها أية وثيقة أو قطعة من الورق .

ولكن على العكس من الكفاءة التي نفذت بها العملية ترك رجال أبو نضال خلفهم مخبأ أسلحة . فعلى مدى السنين تمكن عبد الرحمن عيسى وآخرون بناء على أوامر من أبو نضال من تهريب أسلحة إلى داخل سوريا حقائب ملابس ممتلئة مسدسات ومدافع آلية أدخلت بواسطة جوازات سفر دبلوماسية ليبية : « إذا ما وجد السوريون مسدسا واحدا فإننا سنكون في خطر حقيقي » . كما حذر عيسى : « حليف اليوم عدو الغد ... قد نحتاج المسدسات بداخل سوريا » يرد عليه أبو نضال . ومهما كان الأمر ، فإن مخبأ كبيرا للسلاح تم اكتشافه ففي أسفل منزل كان يمتلكه مدير المخابرات التابعة لأبو نضال وجد السوريون حوالي سبعين رشاشا أغلبها طراز العقرب البولندي وعوزي الإسرائيلي معلقة على الحائط ومغطاة بستائر . وربما يكون أبو نضال قد نسي وجودها هناك ، لأنه في الأشهر الأخيرة التي كان يخطط فيها لمغادرة سوريا طلب من رجال ماليته أن يبيعوا المنزل الذي كان قد اشتراه بواسطة ضابط سوري .

وبعد ثلاث سنوات وفي عام 1990 قام شخص ما باكتشاف مخبأ السلاح وأعطاه للسوريين كهدية . « وعندما سمع الأسد بقصة المخبأ ذُكر أنه قال : « بتلك الترسانة من السلاح كان يمكن للمعارضة أن تقتلني وتقتل كل الحكومة ! » . وفي المنظمة « منظمة أبو نضال » حدث ذعر عندما جاءت أخبار اكتشاف المخبأ . فمن يا ترى أخطأ ؟ من خانهم ؟

إن واحدا من القلة التي عرفت بتلك الأسلحة كان الرجل الذي علق المدافع في حائط المخبأ : نضال حمادي « اسمه الكودي بغيس أبو عطوان » ، ومعروف في المنظمة بالمنفذ . وكان هو الرجل الذي يعتبر أمين سر إدارة المخابرات ، حيث يحفظ وثائق الأرشيف والخرائط السرية لمخابئ السلاح السرية حول العالم .

وقد التحق بغيس بالمنظمة في العراق عندما كان صغيرا وعمل في المخابرات تقريبا منذ الطفولة ، ولديه معرفة تفصيلية بعمليات المنظمة الخارجية ، وعلاقاتها السرية مع الجماعات والدول الأجنبية .

والآن وبعد اكتشاف مخبأ السلاح وتسليمه للسوريين ، فقد قرر بغيس الانشقاق والتوجه إلى سوريا بصحبة أبيه وشقيقه « وكل منهما عضو بالمنظمة » بالاضافة إلى ما لا يقل عن 15 عضوا من عائلته . البعض يقول إن بغيس هو الذي أعطى الأسلحة لسوريا والبعض يقول إنه عندما سمع بإهداء السلاح للسوريين فقد قرر الفرار بحياته لأنه علم أن حياته ستكون في خطر عندما تصل الأخبار إلى أبو نضال . وفي فبراير 1990 ذُكر أنه غادر سوريا متوجها إلى الأردن حيث يعتقد أن السلطات هناك قد عرضت عليه مأوى آمنا . وذكر أن أبو نضال قد حاول عدة مرت أن يقتله هناك .

إن السلطات السورية لم تعرف ولم توافق على خطف الطائرة المصرية في نوفمبر عام 1985 ، ولا عمليتي روما وفيينا بعد ذلك بشهر ولا باختطاف الطائرة بكراتشي في سبتمبر 1986 ، بالرغم من أن الباكستانيين قد أرسلوا إلى سوريا ما يثبت أن رجال أبو نضال قد وصلوا باكستان مستخدمين مطار دمشق وتسهيلات سورية أخرى .

وبالرغم من كل الغضب والاحتجاجات المتكررة من الولايات المتحدة ودول أخرى ، فإن السلطات السورية كانت بطيئة الحركة ضد أبو نضال .

ولكن حادث هنداوي أعطاهم هزة خطيرة : أن سوريا قد اتهمت دوليا ، وأن سمعتها الدولية قد تضررت بشدة . وربما يكون بنيان القوة الداخلي قد اهتز لأن الشخص المذنب كان هو الفريق القوى الخولي . وعلى مدى أشهر قامت الحكومة السورية بالتحري عن ذلك الأمر المعقد في محاولة منها لتحديد المسئوليات . وعندئذ اقتنعت سوريا بأن أبو نضال هو شريك خطير حان الوقت للتخلص منه .

ولكن النظام السوري يعمل ببطء ، ولم تفهم الأمور بوضوح حتى مارس 1987 عندما قام الرئيس الأسبق جيمي كارتر بزيارة خاصة إلى دمشق ؛ ولما كان كارتر قد علم بوجهة نظر وزارة الخارجية الأمريكية في موضوع حادث كراتشي فقد أثاره مع الرئيس الأسد . وسرعان ما طلب الأسد الملف الذي كانت الحكومة

الباكستانية قد أرسلته إلى دمشق . فقرأه للمرة الأولى . وفي أول يونية 1987 تم طرد كل أعضاء منظمة أبو نضال وزوجاتهم وأطفالهم من سوريا وأغلقت مكاتبهم .

ولكن أبو نضال لم ينتظر حتى صدور قرار الطرد . فقد غادر دمشق في 28 مارس 1987 أي قبل شهرين من القرار ، مصطحبا معه رئيس مخابراته عبد الرحمن عيسى . وبداية فقد ذهب إلى بولندا قبل أن يطير إلى ليبيا بعد ثلاثة أيام . وأصبحت ليبيا مقر إقامته الدائم .

أما زوجته هيام وأبناؤه الثلاثة : نضال وبديعة وبيسام فقد بقوا في دمشق حتى أغسطس وذلك لنقل محتويات بيتهم الكبير في حي الزبداني .

وسواء أكان أبو نضال أو المقربون منه قد عملوا لصالح إسرائيل أم لا ، فيداخل منظمته ينظر لأبو نضال على أنه حقق ما أراد : الإصلاحي الخطير والوجود الفلسطيني فوق لبنان تم احتواءه ، المنظمة سوف يتم تصفيتها عما قريب ، وحدوث انفصام بين لبنان وليبيا . وعلى مدى اهتمامه فإن الهجمات في روما وفيينا وهيثرو وكراتشي قد حققت أهدافها .

وطبقا لمقتطفات من مذكرات عبد الرحمن عيسى المسجلة والتي سمعتها كان يوم 31 مارس 1987 يوما مشهودا في حياته :

سأله أبو نضال : « لماذا تستمر في تذكر ذلك اليوم ؟ »

أجاب عيسى : « لأنه يمثل انتهاء حياتنا التعسة في سوريا وبداية السرور الحقيقي في ليبيا» .

* * *

الفصل الثاني عشر

الشئون الخارجية



الشئون الخارجية

في ليبيا وفي أواخر الثمانينيات ، بدت نفس أبو نضال المتعبة تُشبع . فقد أعطته ثروته إحساسا بالقدرة المطلقة ، ووجد في القذافي كفيلا متجانسا معه ، يشاركه في متعة العنف . وأخذ يتخلص من مناوئيه المحتملين خاصة عاطف أبو بكر ، وتمكن من فرض سيطرته الكاملة على منظمته باستخلاصها من يد سوريا ، فوزعها ما بين ليبيا ولبنان وجعلها سرية مرة أخرى .

مستبد مضطرب :

لقد أخبرني المقربون السابقون من أبو نضال أن ليبيا أخرجت منه أسوء ما فيه . فقد كان دائما ديكتاتورا أما الآن فهو مستبد فهو لا يسمح لأعضائه أن يجتمعوا معا ويرفض حتى أن يتصلوا فيما بينهم خارج واجبات العمل ، وهذا المنع يسري كذلك على الأعضاء الكبار ؛ مثل أبو نزار – والذي أمضى سنوات كنائب له – وكذلك عبد الرحمن عيسى رئيسه السابق للمخابرات . وإذا ما حدث وقام أبو نزار بخرق القواعد واتصل بعيسى في منزله فعليه أن يتصل بأبو نضال ليخبره بأنه أمضى المساء مع أبو عيسى . ويفعل أبو عيسى نفس الشيء . إن خوف أبو نضال الوسواس من المؤامرات كان يعني أن أي لقاء لا يُبلغ به سيعني الموت .

ويمارس أبو نضال العقاب بآلاف الوسائل . فقد كان يأمر بأن تسلم إليه كافة جوازات السفر الحقيقية والمزورة ، وحتى رؤساء الإدارات كان عليهم الطاعة . لا أحد كان يمكن أن يفكر بالقيام برحلة بدون موافقته الشخصية . كذلك فلم يكن يسمح للأعضاء العاديين باستخدام التليفون ، وإذا ما قام واحد منهم بتأجير منزل به جهاز تليفون فإن أبو نضال يأمر بإزالته . أما الأعضاء القياديون فكان يسمح لهم

بالتليفونات ولكن للمكالمات المحلية فقط .

وكان الأعضاء الذين يرسلون لمهام في الخارج يُحذرون من أن يدخلوا في محلات السوق الحرة ، وكان مجرد شراء قطعة من الشيكولاته أو صندوق من السجائر من أي مطار كافيا - لو أبلغ عنه - لهبوب عاصفة من أبو نضال . ومن ناحية أبو نضال فلم يكن هذا راجعا إلى الرغبة في توفير المال بل كان رغبة في إذلال الأعضاء والسيطرة عليهم . لقد كان عبقريا في قراءة أمزجة الأعضاء ، واستخدام ذلك في إظهار سلطته . وكان يصمم على موافقته الشخصية على أية نفقات مهما كانت صغيرة مما يزيد عن ميزانيات الإدارات التي يراجعها شهريا . وفي ذات مرة هاجم عاطف أبو بكر النظام . فقد اشترى منضدة للقهوة ومقعدين ليضعهما في حجرة معيشته وأرسل الوصل إلى عاطف حمودة رئيس الإدارة المالية وعندما سأل حمودة بخجل عما إذا كان أبو نضال يعلم بذلك ووافق على الشراء ؟ ولكن أبا بكر اشتكى لأبو نضال الذي سارع بتقريع حمودة أمام أبا بكر قائلا : « إنك حمار ... بالتأكيد عاطف أبو بكر يمكن أن يوقع القسيمة » .

إن كل الاتصالات التي تتم بين الكوادر في ليبيا وأمثالهم في لبنان تتم عن طريق أبو نضال ، ولم يكن ليمنع خطابات ، أو إعادة كتابة محاضر الجلسات ليتأكد من أن جانبا من المنظمة قد بقي مجهولا عن الآخر . وبفصل القيادة ما بين ليبيا ولبنان فقد أضعفها وجعل نفسه أقوى . إن نصف السكرتارية ، ونصف المكتب السياسي وأغلب الجيش الشعبي - وهو الجناح العسكري السري للمنظمة - قد بقي في لبنان ، ولكن كل تلك الأجهزة لا تستطيع أن تفعل شيئا بدون إذن من أبو نضال في طرابلس . فهو شخصيا يدير إدارة المخابرات ، وإدارة المالية ولجنة العلاقات السياسية مع ليبيا . وهو يشرف شخصيا على إدارة معسكر الصحراء ، حيث - بعيدا عن المقاتلين ومدربي الإرهابيين - حفظ 23 أسرة في معزل مكيف الهواء بعيدا عن رفاقهم في طرابلس . كذلك فقد أخذ منصب مدير تحرير نشرة « الطارق » وهي النشرة التي تطبعها المنظمة داخليا .

لقد رغب أبو نضال في أن يظهر أمام أعضائه بصورة الرجل المهيب في عمله .

فالنكات محظورة . وفي الاجتماعات ، فإن أي محاولة لمناقشة موضوعات غير متصلة بالعمل تقابل بالدهشة أو بالتحذير من قبل الأعضاء القلقين .

وبالرغم من كل ذلك ، فقد كان أبو نضال يتصف بالتناقض . فقد لاحظ المقربون منه أنه وإن كان مدمنا للتسلط فإنه لم يكن يستطيع أن يمارس السلطة بسهولة أو بثقة . فقد كان يشعر بالعصبية عندما يخطب أمام أكثر من ستة أفراد في وقت واحد . أما أمام عدد أكبر من ذلك فقد كان يبدو كما لو أنه غير قادر على الكلام . وكان شكاكا ونادرا ما نام في منزل واحد لمدة ليلتين متعاقبتين . وكانت زوجته وأطفاله عادة في الخارج « وأشيع أنهم ذهبوا إلى النمسا للبقاء مع ابنته الكبرى بديعة المتزوجة من خالد عبد القادر الممثل السري لأبو نضال في ذلك البلد » . ولقد فقد أبو نضال وزنه بسب النظام الغذائي الذي وصفه له أطباؤه بسبب متاعب قلبه .

وأصبحت يداه وساقاه نحيفة ، ولكن صدره احتفظ بالضخامة بسبب الرداء الواقي من الرصاص الذي يرتديه تحت بذته . واليوم فهو يلبس باروكة من الشعر الأسود .

ولاختفائه عبر سنوات ، فلم يعد يبدو عليه أنه يعرف كيف يعيش بصورة طبيعية . ففي ليبيا عانى الكثير من الألم حتى يخفي حقائق حياته اليومية حتى عن أعضائه المقربين . فهم لا يعلمون أين يعيش أو أين يعقد اجتماعاته السرية ، أو أين تخفى أسلحته أو أين حفظ أرشيفه الخاص . ولأسباب أمنية فلم يتمتع أبدا بالتسلية في مقر إقامته ، وإذا ما كان لديه زائر في المساء فإنه يقابله في منزل أحد مساعديه حيث تقوم زوجة مساعده بتحضير الطعام وتقديمه .

وفي تلك المناسبات عادة ما يحضر ضيفه مصطحبا معه سكرتيره فقط ، أما حراسه فينتظرون خارج المنزل . وقد تعود أن يحيي زائريه بطريقة رسمية ، مشيرا إلى سكرتيره بأن يكتب ملاحظات عن المحادثة .

وبالرغم من ذلك يبدو أنه خجول بعض الشيء ، فهو يتحدث بصوت منخفض ناظرا إلى السجاد . ولكنه يستطيع أن يتحول للهجوم بدون سابق إنذار ، فقد

يستخدم كلمات عدوانية كما لو أنه يود أن يظهر من في السلطة . وبالرغم من أنه يبدو وحيدا إلا أنه يعطي الانطباع لزائريه على أنه ماهر ومحنك وعليم ببواطن الأمور . فهو يقرأ كثيرا بالعربية ، أما الكتب الأجنبية فإن لديه عددا صغيرا من المترجمين الذين يقدمون له خلاصتها .

تثبيت الأقدام في ليبيا :

فيما بين عام 1987 وعام 1990 ركز أبو نضال قواته في ليبيا ... في المعسكرات والمزارع والعديد من المكاتب والمقار التي حولها له القذافي . فقد كان للمنظمة محطتا إذاعة ، واحدة لربط السكرتارية بمعسكر الصحراء ، والثانية تربط السكرتارية بكل من الجزائر ولبنان .

وأصبحت ليبيا المركز العصبي للعمليات الخارجية للمنظمة . وكما سبق القول فقد أمدتها المخابرات الليبية بكل التسهيلات من التدريب إلى وثائق السفر إلى وسائل نقل الأسلحة إلى استيراد المعدات والإمدادات . وقد كان هناك منفعة متبادلة في ذلك وكان هناك أيضا تبادل لمعلومات المخابرات . فقد قدم الليبيون المنظمة إلى من تتصل بهم . وقامت المنظمة بفعل الشيء نفسه .

ففي ليبيا تقابل أعضاء من منظمة أبو نضال مع ممثلين من الجيش الأحمر الياباني ، ومع جيش الشعب الفلبيني الجديد . وشجعت ليبيا المنظمة لدعوة أي جماعة مسلحة أو حزب سياسي يمكن تأسيس علاقات عمل معها .

وكانت علاقات أبو نضال مع الليبيين تسير عبر قناتين : المخابرات الليبية ، والقذافي نفسه . ولم يكن لأبو نضال علاقات مع هيئات حكومية ليبية أخرى . فأغلبها لم تره .

ولم يكن يُسمح لأي عضو في المنظمة أن يعلم بالطبيعة المحددة لعلاقاته مع ليبيا . فقد كانت كل الاتصالات مع ليبيا تمر من خلاله .

ولقد عامل القائد الليبي أبا نضال بكرم فاق كرمه مع بقية الفلسطينيين فقد كان يدفع

له راتبا شهريا لتغطية نفقاته في ليبيا ، وكان يسمح له بجلب دولارات وتبديلها في السوق السوداء بسعر يصل ثلاثة أمثال ونصف قيمتها الرسمية . كذلك أعطى القذافي أبو نضال مبالغ مالية لاستثمارها في أوروبا ومناطق أخرى لكي يتلقى منها أورباحا تغطي نفقاته في لبنان وكان ذلك ما يفضله أبو نضال لأنه يشعر بالاستقلالية والحماية إذا ما تعرض لقطع التمويل المفاجىء .

ولما كان أبو نضال قلقا على أمنه الشخصي فقد أخذ يعتمد على خدمات الأمن والمخابرات التابعة لمضيفه . فقد فعل كل ما هو ضروري لكي يوثق علاقاته مع عبد الله السنوسي ـ أهم رجل للقذافي في الأمن الداخلي ـ حيث كان يناديه بلقب السيد مثلما يفعل الجندي عندما يخاطب قائده الضابط . أما القذافي ، فكان أبو نضال يسميه بالقائد ، بل إنه كان يشبهه بصلاح الدين . ولم يكن هناك ـ لذلك ـ أي نقد بأي صورة من الصور إلى ليبيا في المطبوعات الداخلية للمنظمة خشية أن تسقط مثل تلك الانتقادات في أيدي الليبيين .

وكان أبو نضال يستشيط غضبا إذا ما اعترض أي فرد من المكتب السياسي للمنظمة وذكر أن المنظمة قد أصبحت تحت سيطرة السياسة الليبية .

وكان يدعي أن مثل تلك الآراء يمكن أن تؤدي إلى تدميرهم جميعا .

وكان يقول لأعضائه : « احفظوا كرامتكم ... سوف أحميكم وأحمي المنظمة » وكان يلمح بأنه يقبض بيديه على عنق الليبيين لأنه يعرف عنهم الكثير ولهذا فإنهم لن يتمكنوا من التخلص منه . ولكي يوضح كم كان محصنا كان يخبر رفاقه المقربين بقصص عن حياة الحب الخاصة بالقذافي .

وكان أعضاء من شعبة ليبيا في المكتب السياسي واللجنة المركزية أحيانا يتنقلون للعيش في الجزائر التي وجد فيها أبو نضال بديلا إذا ما كان على القذافي أن يتحول إلى عدو . وقد فكر أبو نضال ذات مرة أن يرسل زوجته وأولاده إلى هناك لتوسيع العلاقات مع المخابرات الجزائرية تلك العلاقات التي بدأت عام 1986 .

وبدورهم ، فقد أحب الجزائريون أن يحافظوا على اتصالهم بكل العناصر

الفلسطينية طالما كان ذلك ممكنا والمساعدة في تسوية المنازعات بينها .

تقويض الانتفاضة :

بعد أشهر قليلة من اندلاع الانتفاضة في ديسمبر 1987 قام أبو نضال بشن ثلاث عمليات أدت إلى إيذاء القضية الفلسطينية . مثلها في ذلك مثل الأنشطة التي أضرت بالفلسطينيين منذ أن بدأ أبو نضال نشاطه .

فقد كانت قبرص – في شرق البحر المتوسط وعلى مقربة من الساحل السوري – منذ فترة طويلة متعاطفة مع الفلسطينيين ، فقد دعمتهم عندما حاصرت إسرائيل بيروت عام 1982 ، وأعطتهم المأوى عندما طردتهم دول عربية ، بل حتى لقد ظهرت قبرص أكثر اهتماما بالفلسطينيين من العديد من الدول العربية مما أغضب إسرائيل .

لقد قامت منظمة أبو نضال بتفجير سيارة في نيقوسيا في 11 مايو 1988 مما أدى إلى مصرع وإصابة 15 شخصا بما فيهم سيدة قبرصية كانت في سيارة خلف السيارة المفخخة ، وكان من ضمن الضحايا كذلك دبلوماسي قبرصي سابق هو أندرياس فرانجوس الذي كان يسير قريبا من الانفجار . ولقد ادعى أبو نضال لأعضاء منظمته أن الخطة كانت تستهدف تفجير السفارة الإسرائيلية ، ولكن السيارة انفجرت على بعد 200 ياردة من مبنى السفارة الذي لم يصب بضرر . وبعد ذلك الحادث فقد حدث تحول في الرأي العام القبرصي ضد الفلسطينيين ، وقامت سلطات الجزيرة بفرض سيطرتها من حول الفلسطينيين الداخلين إليها أو الخارجين منها ، كذلك تم ترحيل بعض المقيمين الفلسطينيين هناك .

وبعد أربعة أيام من انفجار نيقوسيا ، قام رجال مسلحون تابعون لأبو نضال بالضرب مرة أخرى . وهذه المرة كان في السودان . ذلك البلد الذي وقف مع الفلسطينيين بأكثر مما فعلت قبرص . ففي هجمات عدة حدثت كلها الساعة 8 مساء بتوقيت السودان المحلي يوم 15 مايو 1988 ، قام فريق مكون من خمسة رجال بمهاجمة اثنين من الأهداف « الضعيفة » في الخرطوم؛ الأول هو نادي السودان

المخصص للمواطنين البريطانيين ودول الكومنولث حيث أمطروه برصاص المدافع الرشاشة . والثاني فندق الأكروبول وهو مؤسسة سياحية قديمة تديرها اليونان حيث ألقيت بداخله متفجرات مما أدى إلى مصرع خادم سوداني ، ولواء سوداني وخمسة بريطانيين هم : سالي روكت وهي مدرسة تبلغ الثانية والثلاثين من العمر وأسرتها المكونة من أربعة أشخاص « كريستوفر وكلير رولف وكلاهما في منتصف الثلاثينيات واثنين من أطفالهما يبلغان من العمر ثلاث سنوات وسنة واحدة » . ولقد ظهر فيما بعد أن أحد الطفلين قد فصل الانفجار رأسه عن جسده . وكانت أسرة الرولف في مهمة عمل خيري في السودان بدأها منذ شهرين بعد أن أمضيا ثلاث سنوات مع لاجئين من الصومال . كذلك جرح في الهجوم 17 شخصا آخرين من بينهم أمريكي وسويسري وبولندي وفرنسي .

ولقد حاول أبو نضال أن يضفي الشرعية على تلك العملية أمام أعضاء منظمته حيث صرح لهم أن الهجومين وجها إلى أماكن كان يتم فيها تحويل يهود الفلاشا من أثيوبيا إلى إسرائيل . ولكن كل شخص عارف بالمنطقة ـ المنطقة التي وقع فيها الهجومان ـ يعلم أن ما قاله أبو نضال عار من الصحة ولا يصدق .

ولقد أدت عملية السودان ـ والتي نددت بها الحكومة والمعارضة السودانية ـ إلى غضب الفلسطينيين بالسودان ، حيث خلعت من الانتفاضة التأييد السوداني الشعبي وخلقت مشاكل بين السلطات وبين المقاتلين الفلسطينيين الذين رحلوا إلى مأواهم في السودان بعد رحيلهم من لبنان عام 1982 . وبعد أسبوعين من الهجومين أصدر أبو نضال بيانا باسم خلايا الفدائيين العرب ـ وهي منظمة وهمية ـ وعزى إليها قيامها بالهجومين اللذين استهدفا وكرين للجواسيس الأجانب . ولكن البيان ـ الذي جاء في عدة صفحات ـ أخذ يتعرض لمناقشة الظروف السياسية والاقتصادية في السودان ليشير فيما يبدو إلى المعارضة السودانية ويظهرها كما لو أنها متورطة في الهجومين . وفي الحقيقة فإن المعارضة السودانية ليس لها مصالح في أن ترى جماعة أجنبية تعودت على الإرهاب تقوم بإلصاق أفعالها للمقاومة الوطنية السودانية . ولهذا فقد رأت في بيان أبو نضال محاولة للتعدي على كفاحها .

ولقد تم اعتقال خمسة من الإرهابيين التابعين لأبو نضال ـ كانت أعمارهم تتراوح ما بين 22 - 30 سنة ـ وحكم عليهم بالإعدام ولكن العقوبات لم تنفذ . فبالرغم من غضب الرأي العام السوداني من الهجومين ، فإنه لم يكن ليتحمل إعدام رجال سموا أنفسهم فدائيين فلسطينيين . وقد نددت نقابة المحامين السودانيين بالإرهابيين ولكنها تضامنا مع القضية الفلسطينية دافعت عنهم .

وفي 7 يناير 1991 تم إطلاق سراح الإرهابيين الخمسة التابعين لأبو نضال مما أفزع الحكومتين الأمريكية والبريطانية ، ولقد تم دفع فدية لأسر السودانيين الذين لقوا حتفهم ، وقدم اعتذار لأسر الضحايا البريطانيين .

وإذا ـ كما يعتقد الذين كانوا مقربين من أبو نضال ـ كانت العملية قد أوحي بها من قبل الموساد ، فقد كانت نصرا كبيرا لأنها وصفت الفلسطينيين بالقتلة عديمي القلب ، كما أنها ـ أي العملية ـ أضرت بالسودان .

لقد أخبرني بعض المقربين السابقين لأبو نضال أنه « باع» العملية للقذافي كوسيلة لإزعاج ـ أو ربما للإطاحة ـ بالحكومة الجديدة التي كونها رئيس الوزراء الصادق المهدي منذ عدة أيام أي في 11 مايو 1988 . فقد جمعت حكومة « الوحدة الوطنية » القوى السياسية الرئيسية في البلاد معا وهي : حزب الأمة التابع للمهدي ، وحزب الاتحاد الديمقراطي « الصديق لمصر » ، والجبهة الإسلامية الوطنية « وهي الفرع المحلي لجماعة الإخوان المسلمين والتي كانت تسعى لتطبيق قانون الشريعة الإسلامية » . أما جون جارنج المتمرد في الجنوب والذي كان يشن الحرب على مدى سنوات ضد الحكومة السودانية وضد تطبيق الشريعة الإسلامية ، فإنه لم يدخل في تشكيل الحكومة . ولم يحب القذافي تلك التطورات ولهذا فهو لم يساند جون جارنج فقط ولكنه رغب في زيادة نفوذه في السودان على حساب مصر ولوضع ضغط على تشاد ... ولهذا فقد رحب بمحاولة أبو نضال من أجل زعزعة استقرار السودان .

لقد كان لأبو نضال بواعث خاصة به مع السودان .. فمنذ عامين ـ أي عام 1986 ـ أرسل ممثلا سريا إلى الخرطوم حاملا جواز سفر ليبي باسم إبراهيم حسين

المغربي بصفته رجل أعمال . أما اسمه الحقيقي فهو عبد الكريم محمد الذي كان عضوا في الإدارة السياسية لمنظمة أبو نضال . إن الاتصالات التي أجراها ذلك الرجل من الخرطوم رفعت من شكاوى مصر ومنظمة التحرير والولايات المتحدة ... وسرعان ما قامت السلطات السودانية بطرده « ولكن ليس قبل أن يتمكن من تمرير أسلحة معينة أرسلها معه أبو نضال عن طريق الحقيبة الدبلوماسية الليبية والتي استخدمت فيما بعد في الهجوم كما يعتقد الذين أخبروني بذلك » .

وفي سلسلة من المراسلات من أبو نضال إلى رئيس الوزراء المهدي ، حاول أبو نضال إعادة الرجل إلى السوادن ولكنه لم ينجح في ذلك ، مما أحزن أبو نضال الذي بدأ حياته العملية كممثل لمنظمة فتح في السودان لقد كان حساسا من أن ترفض طلباته من دول عاش فيها وادعى أنه كان له بها نفوذ . ولهذا ، فمما لاشك فيه أن الرغبة في الانتقام ساعدت على أن تملي عليه أن يختار أهدافا لتخريبها بالقنابل في الخرطوم .

إذن ، فقد كان لكل من القذافي وأبو نضال أسباب لكي يزعزعا من استقرار السودان ، تلك الأسباب التي تعطي تفسيرا بديلا للهجومين والذي كان الهدف الرئيسي منهما التقليل من شأن الفلسطينيين في وقت كانوا يحتاجون فيه كل الدعم الذي يمكن أن يحصلوا عليه . لقد أتاح أبو نضال الفرصة لاعتبارات أخرى أن تبعده عن إخلاصه لفلسطين . وبالرغم من ذلك فمن المحتمل مرة أخرى أن تكون منظمته قد تعرضت للتأثير الخارجي . لقد بدا التفسير البديل مثل الغطاء .

لقد كان هناك التواء آخر إضافي في القضية . فعندما وضع الإرهابيون الخمسة في الحبس سارع أبو نضال من أجل رشوة الحكومة السودانية لإطلاق سراحهم . فاقترب من السفارة السودانية في الجزائر بعرض قيمته ربع مليون دولار كمساعدة منه لإنقاذ ضحايا الفيضان في السودان وأرسل اثنين من أعضائه بالمبلغ إلى الخرطوم فقبله وزير بالحكومة السودانية ، وذكر ذلك في وسائل الإعلام . ولكن عندما بدأ المبعوثين بدون كياسة في الاستفسار عن المسجونين شعرت الحكومة السودانية الساخطة بأن هدية أبو نضال لها خيوط مترابطة فطردت المبعوثين . ومن وجهة

النظر الفلسطينية فقد أساء أبو نضال للموقف المتأزم أصلا .

إن ضربة أخرى قاتلة وجهت للفلسطينيين في 11 يوليو 1988 عندما وقع هجوم بالرشاشات والمتفجرات على سفينة سياحية يونانية تسمى « سيتي أوف بروس » ، والتي كانت تقل مئات من السياح . حيث قام خمسة رجال مسلحين تابعين لأبو نضال بفتح النيران على ركاب السفينة فقتلوا تسعة ركاب وجرحوا ثمانين آخرين .

ولم تخدم العملية الدموية تلك أي مصلحة عربية أو فلسطينية . فقد كانت اليونان أكثر الدول الأوروبية تعاطفا مع القضية الفلسطينية ، وكان رئيس الوزراء اليوناني أندرياس باباندريو أكثر زعيم أوروبي دافع عن العرب ضد اتهام إسرائيل لهم بالإرهاب . وعلى سبيل المثال ففي خلال قمة أزمة هنداوي عام 1986 وعندما اعتقدت سوريا بأنها ضحية « حيل إسرائيلية قذرة » استقبل باباندريو حافظ الأسد في أثينا وأعطاه منصة للدفاع عن نفسه .

أما الآن ، فقد هاجم أبو نضال اليونان ، وكما هو متوقع فإن اليونانيين استشاطو غضبا لأن الفلسطينيين قد أضروا السياحة اليونانية البالغة الأهمية وساعدوا على إسقاط حكومة باباندريو .

إن العديد من مصادر المخابرات التي طلبت استشارتها في ذلك الموضوع كانت مقتنعة من أن الهجوم على سفينة « سيتي أو بوروس » هي عملية من وحي الموساد تماما .

لقد غطى الهجوم على حادث آخر وقع في اليوم نفسه في أثينا ، حيث انفجرت سيارة كانت متجهة إلى إحدى المعديات النهريات ونتج عن ذلك مصرع قائدها الذي كان سميح محمد خيضر الذي عمل في إدارة مخابرات أبو نضال ، ووجد أن بصمات أصابعه ماثلت تلك التي للإرهابي الذي اغتال الصحفي المصري يوسف السباعي في 18 فبراير 1978 أي منذ عشر سنوات ، والذي ـ كذلك ـ حاول الهرب بواسطة طائرة بعد اختطاف رهائن ولكنها اضطرت للهبوط في قبرص بعد أن رفضت كل المطارات استقبالها ، وكان ذلك هو الحادث الذي انتهى بمعركة بين الكوماندوز المصريين والحرس الوطني القبرصي .

وفي وقت مصرعه بداخل السيارة الملغومة ، فإن خيضر كان يرأس لجنة المخابرات الخارجية التابعة لإدارة مخابرات أبو نضال ، وكان موجها للعديد من العمليات بما فيها عملية الاختطاف بمطار كراتشي وتفجير القنابل في مقاهي بالكويت ، كذلك فقد صمم عملية سفينة « سيتي أوف بورروس » . وعرف فيما بعد أن المفاتيح التي وجدت بسيارته كانت لشقته في السويد حيث تعيش واحدة من زوجاته الثلاث الأجنبيات . وطبقا لمصادر في المنظمة فقد كان مفترضا أنه سيذهب إلى هناك بعد اتمام العملية .

إن العديد من رفاقه لا يعتقدون أن وفاته كانت بسبب عارض فقد أخبر عبد الرحمن عيسى أبو إياد « كما علمت من الشريط المسجل لذلك » أن مصرع سميح محمد خيضر صُمم من قبل أبو نضال ، وقال إن الهجوم على السفينة اليونانية كان مفترضا له أن يكون انتحاريا ، حيث كان الفريق الذي نفذ العملية عليه أن يعبر بسيارة ملغومة إلى داخل السفينة تنفجر بداخلها خلال ستين دقيقة ، وكان مفترضا أن يقود خيضر السيارة إلى العبارة « المعدية » ثم يسلمها إلى عضو من الفريق بداخل السفينة . ولكن خيضر لم يعرف أن أبو نضال كان قد أعطى الأوامر لأحد رجاله – وهو هشام حرب – لتقديم موعد انفجار القنبلة لكي تنفجر خلال خمس عشرة دقيقة فقط – وليس ستينا – وذلك لكي يضمن أن السيارة ستنفجر أثناء قيام خيضر بقيادتها وليس والسيارة فوق السفينة .

وتقول بعض المصادر بداخل المنظمة أن أبو نضال قتل خيضر لأنه أصبح بالغ القوة ، بينما يقول آخرون إنه جاء ليعطي إشارة للحكومات الغربية – التي كانت تضغط على ليبيا لوقف مساندتها للإرهابيين . كذلك لازال البعض – داخل المنظمة – يدعون أن نزاعا قد وقع بين خيضر وأبو نضال حول عملية سفينة « سيتي أوف بورروس » ، حيث لم ير خيضر أهمية لها . أو كما تساءل « ماذا تستفيد ؟ » . وبالطبع فلم يكن للعملية غرض عدا إساءة العلاقات بين اليونان والفلسطينيين . إن خيضر – غير المدرك لإمكانية وجود علاقة بين أبو نضال والموساد – كان قد أخذ يسأل أسئلة حرجة ، والتي يحتمل أن تكون وراء قتله .

غطاء الزورق سيلكو :

في أواخر صيف عام 1986 قام لنش دورية ليبي يبحر بين الشاطئ الليبي ومالطة بإيقاف وتفتيش زورق صيد يسمى سيلكو . ووجد بالزورق رجلان وسيدتان وأربعة أطفال ، بعضهم يتحدث لغة الفليمش « وهي لغة أقليم تابع لفرنسا » والتي ظنها الليبيون اللغة العبرية ، وكان لدى أحد الرجال بالزورق جواز سفر يحمل تأشيرة إسرائيل . وقد تم اقتياد الزورق إلى طرابلس واعتقل ركابه . ولما كان الليبيون قد هوجموا قبل عدة أشهر من قبل الولايات المتحدة وكانوا يخشون من حدوث اختراق لشواطئهم البالغ طولها ألفي كيلو مترا فقد أحسوا بضرورة اعتقال الزورق بمن فيه ولكن ذلك كان خطئا كبيرا .

لقد بدأت قصة غريبة من قصص الرهائن في الشرق الأوسط ولهذا لم يعلن القذافي – الذي خشي من غضب فرنسا – عن احتجاز الزورق « سيلكو » ، وسأل أبو نضال أن يجد غطاء لذلك ، فسر من ذلك بالطبع . وفي 8 نوفمبر 1987 أعلنت منظمة أبو نضال في بيروت أنها أسرت الزورق « سيلكو » بواسطة يخت فلسطيني مسلح وذلك شمال مدينة غزة ، وأن من عليه قد احتجزوا – لإمكانية أن يكونوا جواسيس لإسرائيل – في جنوب لبنان . لم يود القذافي أن يظنوا ظنا سيئا به ، ولكن أبو نضال لم يمانع من إغضاب الفلسطينيين .

وفي تلك الأثناء كان كلا من الرجلين وزوجتيهما وأطفالهم الأربعة محتجزين في فيلا خصصها القذافي لهم على الشاطئ الليبي .

لقد كانا شقيقين بلجيكيين : إيمانويل وفيرناند هوتكنز ، وزوجة إيمانويل « جودليفي » وطفليهما لورن وفاليري . وخطيبة فيرناند الفرنسية جاكلين فالنتي وابنتيهما « من رجل آخر » ماري لور وفيرجيين .

وفي خلال العام الأول من إقامتهم في ليبيا أنجبت جاكلين فالنتي طفلة ثالثة سميت صوفي ليبرتيه من خطيبها فيرناند هوتكنز .

إن تلك الجماعة من الرهائن تم أخيرا الإفراج عنهم ولكن على مراحل فأولا تم

الإفراج في 27 ديسمبر 1988 عن ابنتي جاكلين الكبريين ماري لور وفيرجين بفضل تدخل العقيد القذافي .

ثم في 10 أبريل عام 1990 تم الإفراج عن فيرناند هوتكنز وجاكلين وابنتيهما الصغرى صوفي ليبرتيه حيث تم ترحيلهم إلى بيروت ثم إلى فرنسا بعد طلب « رأفة » من القذافي لكل المسلمين أن يطلقوا سراح كل الرهائن والمسجونين السياسيين بمناسبة شهر رمضان ، وكما يبدو أنه جاء لإزالة الحظر الأوروبي التجاري على ليبيا مما أدى إلى أن قامت فرنسا بالإفراج عن ثلاث طائرات ميراج نفاثة كان قد أوقف إرسالها إلى ليبيا وأرسل الرئيس الفرنسي ميتران شكره الشخصي . أما وزير خارجيته رولان ديما فقد ذهب بعيدا في شكر القذافي ووصف تدخله بأنه « لفتة إنسانية أصيلة » وهي عبارة جلبت الغضب في لندن وواشنطن عندما كان معلوما أن القذافي قام بالاختطاف . وهنا ... فإن منع نشر الحقيقة عن الزورق « سيلكو » قد يكون جزءا من الثمن الذي استخلصه أبو نضال من الفرنسيين نظير تعاونه .

ولم يتم الإفراج عن آخر الرهائن حتى يوم 8 يناير 1991 عندما أُطلق سراح إيمانويل هوتكنز وزوجته وابنتيهما وذلك من بيروت حيث سافروا من ليبيا إلى سوريا ومن هناك بالسيارة إلى جنوب لبنان لتحقيق وإثبات القصة التي تنفي أن القذافي هو الذي أسرهم بل أبو نضال . وفي تلك الحالة كذلك تم دفع الثمن . حيث تحدث الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بحرارة عن « الدور الأساسي » الذي لعبه القذافي لتأمين إطلاق سراح الرهائن بينما الحكومة البلجيكية اضطرت للموافقة على إطلاق سراح إرهابي تابع لأبو نضال هو نصير السعيد الذي أمضى عشر سنوات في السجن من عقوبة بالسجن المؤبد في قضية إلقاء متفجرات على أطفال يهود في حافلة تحمل أطفال مدرسة أجودات إسرائيل عام 1980 ، ذلك الحادث الذي قتل فيه ديفيد كوهان – 15 سنة – وجرح 15 آخرون من الأطفال .

إن هناك ملاحظة هامة في حادث الزورق « سيلكو » ففي 15 يناير – أي بعد أيام من إطلاق سراح أسرة هوتكنز في نظير الإفراج عن نصير السعيد . وجد المتحدث باسم أبو نضال في بيروت وليد خالد في وسط مدينة بروكسل . وسرعان

ما أبلغت الشرطة، كانت عاصفة الصحراء على بعد أيام من بدئها .

وكان البوليس البلجيكي - مثل قوات البوليس الأوروبية الأخرى - في حالة تأهب كاملة خوفا من عمليات إرهابية يتبناها العراق. وهنا - في وسط بلجيكا - وجد إرهابيا حيا . فتم اعتقاله ولكن سرعان ما أفرج عنه بعد اكتشاف أن معه تأشيرة لدخول بلجيكا لمحادثات يجريها مع جان هولانتس فان لوك مدير الشئون السياسية بوزارة الخارجية البلجيكية . وعندما أعلن عن ذلك اللقاء فإن فان لوك ورفيقا هاما له قد قدما استقالتيهما ، ونجا وزير الخارجية مارك إيسكنز من اللوم في البرلمان ، ولم يجد رئيس الوزراء ولفريد مارتنز مفرا لتحاشي أزمة في الوزارة سوى ترحيل خالد .

لقد أرسل أبو نضال خالدا إلى بروكسيل ليرى ماذا يمكن أن يستخلصه من البلجيك بأكثر مما استخلص . إن ذلك السلوك كثيرا ما يستخدمه مع الحكومات الأجنبية . فهو يشن هجوما على أراضيهم ويستخدمه لتأسيس علاقة مع مخابراتهم ثم يطلب منهم تسهيلات وتنازلات . إنها نصب وابتزاز كما رأينا تلك الوسيلة التي جعلت أبو نضال ثريا .

وبعيدا عن اختطاف مواطنين بلجيك فوق الزورق « سيلكو » فإن أبو نضال شن هجمات على البلجيك لكي يخضعهم ، فكان هجوم في عام 1980 على أطفال يهود في أنتويرب . وهجوم آخر عام 1981 لقتل نعيم خيضر ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في بروكسل ، وهجوم ثالث في مايو 1988 حيث خطف طبيب بلجيكي في مخيم الراشدية الفلسطيني بلبنان ، وهجوم رابع قتل فيه إمام مسجد بروكسل ومساعده عام 1989 ، لقد كان البلجيك يتوقون لشراء أبو نضال .

ولقد اتضح فيما بعد أن أبو نضال لم يكتف من المخابرات البلجيكية بالإفراج عن نصير السعيد ولكن طلب كذلك مكافأة قيمتها 30 مليون دولار . ولقد أمضى أسابيع من المساومة قبل تخفيض ذلك المبلغ إلى 6,6 مليون دولار دفع على مدى عامين إلى بند مساعدة الفقراء الفلسطينيين ، وكذلك بعثتين تعليميتين لاثنين من رجال

أبو نضال . إن أبو نضال يحتاج البعثات لأنها تشكل العمود الفقري لشبكته الخارجية . ومع ذلك فلم أتمكن من معرفة ما إذا كان الاتفاق هذا مع أبو نضال قد فلت من العاصفة السياسية في بلجيكا حول موضوع وليد خالد .

إن الأسر التي كانت في الزورق « سيلكو » لم تكن عملاء للموساد ، فقد تم أسرهم بعيدا جدا عن الشاطىء الإسرائيلي أو اللبناني ، وكان أبو نضال في هذه القضية يمثل رجل المقدمة للقذافي . وعندما تفاوض من أجل إطلاق سراحهم فلم يكن يقصد من هذا أي فائدة للفلسطينيين لقد أراد فقط الفائدة لنفسه ولزعيمه الليبي الذي يدفع له . لقد أخذ يملأ عناوين الصحف العالمية بالقضية الفرنسية البلجيكية عندما أخذت الانتفاضة تندلع وتجذب عواطف الرأي العام الدولي .

لقد كان لأبو نضال علاقات طويلة مع فرنسا تتسم بالسرية فبعد قتل عز الدين قلق ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس عام 1978 ، واكتشاف عدد من مخابىء الأسلحة . قامت وكالة الأمن الداخلي الفرنسية بالتوصل إلى حقيقة أن أفضل وسيلة لتحييد أبو نضال هي في وضع اتفاق معه . بعد ذلك عقدت عدة اجتماعات بين تلك الوكالة وبين أبو نضال في بلدان قريبة من فرنسا ثم في فرنسا نفسها فيما بعد .

وفي عام 1984 تم التوصل إلى اتفاقية « بالرغم من أن بعض المصادر تفيد أنها تمت عام 1985 » يتم بمقتضاها أن يقيم ممثل سري لأبو نضال في فرنسا للاتصال مع وكالة الأمن الداخلي الفرنسية . وكان ذلك الممثل يبدل بصفة مستمرة ، وكان آخر ممثل هناك عام 1990 هو إميل صائب ، وهو لبناني والذي كان يرسل تقاريره إلى علي الفرا « أو الدكتور كال » الذي شغل منصب رئيس فرع الاستخبارات التابعة لأبو نضال في ليبيا ، والذي كان يسافر كثيرا إلى فرنسا .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أعطت السلطات الفرنسية تأشيرات لدخول أعضاء تابعين لأبو نضال بصفة متقطعة ، وسمحت له بممارسة الأنشطة التجارية ، وعالجت بعضا من مرضاه في مستشفيات فرنسية وأعطته سيارات إسعاف وسيارات ماركة بيجو

كهدية ليستخدمها في لبنان ، ومنحت بعثات تعليمية إلى ثلاثة أو أربعة من أعضاء منظمته للدراسة في فرنسا .

وأمام ذلك وعد أبو نضال بعدم إدخال أسلحة إلى داخل فرنسا ووعد بعدم شن هجمات على أهداف في فرنسا أو أن يستخدم الأراضي الفرنسية كمنطلق لعمليات في أي مكان آخر .

وبالطبع فقد علم الفرنسيون بتفاصيل حادث الزورق « سيلكو » وبعمليات تمت بواسطة أبو نضال ، ولكنهم لم يظهروا ذلك . فأقل تكلفة لهم أن يدفعوا له لا أن يحاربوه . لقد وصلتني تفاصيل عن الاتفاق الفرنسي مع أبو نضال من أعضاء كبار سابقين عملوا معه ؛ الذين كانوا يجرون المباحثات مع الجانب الفرنسي . وبالرغم من ذلك فلم يؤكد مسئول فرنسي واحد تلك المباحثات .

إن سويسرا هامة ـ كذلك ـ بالنسبة لأبو نضال لأن الكثير من أمواله تذهب إلى هناك ولهذا فهو يريد حمايتها ـ أي حماية أمواله ـ لقد أراد إقامة في سويسرا وتأشيرات . حرية للحركة والتنقل داخلها له هو شخصيا ولبعض الأعضاء الكبار . وقد فعل كل ما يمكن أن يفعله لإقناع السلطات السويسرية بإقامة اتصال معه ، وقام بإرسال ممثلين عديدين له مثل عاطف حمودة المدير المالي ، وعلي الفرا من إدارة المخابرات للتباحث في سويسرا . ولكن عندما شعر أن الحوار لن يدوم لم يتردد في استخدام القوة . ففي عامي 1988 ، 1989 ، وعندما اكتشفت بعض تفاصيل معاملاته المالية « بعد انشقاق عبد الفتاح السلواني مدير مؤسسته التجارية في برلين الشرقية واتجاهه إلى الغرب » فقد خشي أن تقتنع سويسرا بالضغوط وتقوم بتجميد أمواله بها ، فقام بإرسال رسالة إلى المخابرات السويسرية يهددها بمهاجمة مطار زيورخ . وفي حركة قصد بها إثبات مدى استعداده لتنفيذ تهديداته قام باختطاف اثنين من مبعوثي الصليب الأحمر السويسريين في صيدا في أكتوبر 1989 . وعندما مرت الأزمة أطلق سراح المبعوثين . إن التكتيك الذي استخدمه في تلك العملية ـ مثله مثل غيره من العمليات ـ هو أن يعرض التوسط لدى « المختطفين » الذين هم ـ بالطبع ـ رجاله .

لقد أراد - ولايزال - أبو نضال أن يؤسس وجودا ظاهرا في أوروبا الشرقية ولكن أحرز قليلا من النجاح ومع العديد من النكسات وكمثال على ذلك . فبعد أن اكتشف البوليس السويدي مخبأ للأسلحة قريبا من مطار ستوكهولم عام 1988 تعقبوا أثر اثنين من الفلسطينيين الأشقاء . كانا من أعضاء منظمة أبو نضال حتى مدينة أوميا - على بعد 540 كيلو مترا إلى الشمال من العاصمة - وتم ترحيلهما عام 1990 . أما الإيطاليون فقد رفضوا كل اتصال بأبو نضال وأصدروا عقوبات صارمة على بعض أعضائه . إنه شخصيا له عقوبة إعدام في إيطاليا - غيابيا - نتيجة اتهامه بهجوم نفذ ضد مكتب حجز التذاكر التابع لشركة العال في مطار روما . أما أسبانيا فلازالت تحتفظ ببعض رجاله في السجن . وقد حاول الفرنسيون ترتيب لقاء بين رجاله والمخابرات الأسبانية يعقد في باريس . ولكن الأسبانيين رفضوا ذلك الابتزاز . فهم يدركون أن فتح أصغر نافذة معه سوف تعني تشجيع شهيته لطلب المزيد .

وفي أواخر السبعينيات وبداية الثمانينات قام أبو نضال بتحويل إستانبول إلى المقر السري الرئيسي للعديد من لجانه . لقد استخدم تركيا كمكان لتخزين الأسلحة وإدخالها إلى أوروبا الغربية . ولكن قيامه بقتل دبلوماسي أردني في أنقرة ، وهجومه على المعبد اليهودي في إستانبول جعل الأتراك يهاجمونه ويقفون ضده . وتركيا اليوم من ضمن أعدائه الرئيسيين .

أما بريطانيا ، فإن مخابراتها وأجهزة أمنها قد وضعت في حالة يقظة دائمة منذ حادث اغتيال السفير أرجوف عام 1982 . وتفيد العناصر القريبة من أبو نضال أنه قام بالعديد من المحاولات لإجبار بريطانيا أن تتعامل معه ، مثل قتل دبلوماسيين بريطانيين في أثينا وبومباي وخطف الصحفية البريطانية أليس كوليت في لبنان وتفجير مكاتب شركة الخطوط الجوية البريطانية . وقام كذلك بعرض تبادل للمعلومات التي تمكن من الحصول عليها من ليبيا عن الجيش الجمهوري الأيرلندي . ولكن البريطانيين رفضوا محاولاته . ويعتقد أبو نضال أن بريطانيا تترأس شبكة مخابرات أوروبية موحدة ضده . ولكن انطباعي أن هناك القليل من المعلومات لدى الأوروبيين حول أبو نضال . إن كل دولة تحتفظ لنفسها بما تعرفه عنه ، وهي تخشى أن تفصح عما تقيمه معه من اتصالات .

وطبقا لأبو إياد ، فإن منظمة التحرير الفلسطينية تود بشغف أن تعمل مع كل الحكومات الغربية عن قرب من أجل هزيمة أبو نضال ومن أجل تنقية الصورة الفلسطينية من تهمة الإرهاب . ولكن بالرغم من هذا فإن بعض أجهزة المخابرات الغربية « وخاصة البريطانية » تتجاهل مطلب منظمة التحرير هذا . بل إن العديد من قتلة ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية في أوروبا قد أطلق سراحهم بعد تمضية عدد قليل من السنوات في السجن ، وعلى سبيل المثال فإن قاتلي عز الدين قلق وهما كايد حسين وحسني حاتم تم إطلاق سراحهما في فرنسا في فبراير 1986 بعد أن أمضيا نصف العقوبة التي فرضت عليهما وقدرها خمسة عشر عاما . أما في البرتغال فقد قام محمد حسين رشيد بالضحك ضحكا هستيريا وقحا بعد أن حكمت عليه المحكمة حكما بسيطا لمدة ثلاث سنوات بعد أن قتل عصام سرطاوي . ومن وجهة نظر منظمة التحرير الفلسطينية فإن أوروبا إما أن تكون قد خضعت لأبو نضال أو اختارت أن تخلي أراضيها من مسجونين يمكن أن يكون وجودهم بها دافعا لأبو نضال كي يشن عليها هجمات جديدة للإفراج عنهم .

« أصالة » وإرهابيون آخرون :

لقد حاول أبو نضال كثيرا إقامة علاقات مع منظمات إرهابية دولية ولكن يبدو أنه لم يحقق نجاحا في ذلك . فطبقا للمقربين السابقين له لم يكن له أي اتصال بالجيش الجمهوري الأيرلندي ـ بالرغم من أن ليبيا كان لها علاقات مع ذلك الجيش ـ وكانت إدعاءاته بأن له علاقة مع حركة الباسل الانفصالية مجرد خيال باستثناء لقاء واحد له مع ممثلي تلك الحركة في الجزائر. وبالمثل ، فإن روابطه بالجيش الأحمر الياباني وحركة العمل المباشر الفرنسية كانت تافهة .

أما بالنسبة لبلجراد ـ يوغسلافيا ـ فقد قام أعضاؤه بالاتصال لمجاملة خالد عبد الناصر ـ ابن الرئيس المصري الأسبق والرأس المنفذ للثورة المصرية ـ بعد الهجمات على إسرائيليين وأمريكيين في القاهرة .

لقد حاول أعضاء أبو نضال أن يظهروا احترامهم لابن أحد الأبطال القوميين

العرب بأكثر مما حاولوا أن يقيموا علاقات تخص العمليات معه . وحاول أبو نضال كذلك أن يقيم اتصالات بمنظمة بادر - ماينهوف الألمانية - ولكن لم يكن هناك تعاون عضوي معها . أما مع ألمانيا فقد كان له بعض التعاملات الخاصة بالأسلحة وجوازات السفر المزورة وليس أكثر من ذلك . أما التقارير الغربية حول اتصالاته الخفية فقد كان مبالغا فيها .

ولكن كان لأبو نضل علاقة مع « أصالة » وهي تعني الجيش السري الأرمني لتحرير أرمينيا ، وهي جماعة انفصالية صغيرة معادية للغرب والصهيونية تأسست في لبنان في منتصف السبعينات وساعد على اتجاهها الانفصالي الشديد دعم بعض الجماعات الثورية الفلسطينية المتواجدة هناك . ولقد اعتقدت « أصالة » أنها إذا ما قتلت الأتراك فإن هذا سيشكل ضغطا على حكومة أنقرة مما يدفعها إلى الاعتراف بمسئوليتها عن مذبحة الأرمن مما قد يساعد على قيام دولة أرمينيا المستقلة في شرق أناتوليا « شرق آسيا الصغرى » .

ولقد قامت الحركة أساسا بوحي رجل أرمني يدعى جورجن يانيكيان الذي قام - انتقاما لقيام تركيا بأعمال وحشية ضد أسرته عام 1915 - بقتل اثنين من الدبلوماسيين الأتراك في حجرة فندق في سانتاباربارا « مدينة بولاية كاليفورنيا » . ولقد أيقظت الجريمة العديد من الأرمنيين بالمنفى لكي يشعروا بالغبن الذي كان قد وقع عليهم وعلى أمتهم ، ولهذا قامت « أصالة » لكي تكون حزبا معارضا يمثل الأرمن بالمنفى .

وسرعان ما التقى الشباب المتمرد الصغير حول « أصالة » ... وفي منتصف الثمانينات فقد قتل ما لا يقل عن 28 دبلوماسيا تركي - أو من أفراد أسرهم - في أكثر من عشرين قطرا .

لقد توحدت مشاعر الأرمنيين والفلسطينيين . فكل منهم يعيش في المنفى ، وانتقلت المشاعر المتحدة إلى إنشاء معسكرات تدريب مشتركة لـ« أصالة » وجماعات فلسطينية راديكالية مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في جنوب لبنان بين عامي

1977-1982 ، ولكن الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 أخرجهم من الجنوب مع أغلب أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية . ولما غادرت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لبنان قام أبو نضال بالسيطرة على « أصالة » حيث وعدها بالدعم المالي واستخدام معسكراته في وادي البقاع .

ويمكن وصف العلاقة بين منظمة أبو نضال وبين « أصالة » عن طريق وصف لمهنة أحد أعضاء جماعة « أصالة » ... واسمه الكودي هاجوب هاجوبيان « الاسم الأرميني المساوي لجون سميث » . فقد نظر له البعض على كونه وطنيا ملتزما ، ونظر له البعض الآخر على كونه إرهابيا محترفا مثل عنف وابتزاز أبو نضال . ولقد عرف في الأوساط الفلسطينية على أنه « مجاهد » ، فقد كان أرمينيا من العراق له شكل العرب ، ولهذا فلم يعرف الكثير من الفلسطينيين أنه أرمينيا .

وقبل تأسيس « أصالة » كان هاجو بيان عضوا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التابعة لوديع حداد ، وأصيب في بيروت عام 1976 وكان على وشك الموت بواسطة عضو آخر في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي اتهمه بالعمالة للمخابرات السوفيتية . وبين عامي 1982-1983 قدم أبو نزار وعبد الرحمن عيسى – وهما أهم شخصيتين لأبو نضال – هاجوبيان إلى ضباط في مخابرات السلاح الجوي السوري كان منهم العقيد هيثم سعيد « الذي تورط فيما بعد في حادث هنداوي » الذي ينالا الخطوة لديه ، ونتيجة لذلك فقد منح هاجوبيان تسهيلات في سوريا ووفق له على تأسيس مركز سري لتزوير جوازات السفر ووثائق أخرى مستخدما في ذلك خبرة الطباعة المعروف بها الأرمنيون اللبنانيون .

ولقد مكن قيام تعاون بين « أصالة » وأبو نضال من أن تقوم « أصالة » بعمليات إرهابية واسعة النطاق أثارت موجة كبيرة من الاهتمام وبخاصة من الأرمنيين . وكان ذلك كافيا لتدميرها . ففي سبتمبر 1982 هاجم إرهابيان أرمينيان مطار أنقرة الدولي فنتج عن ذلك مصرع عشرة أشخاص وجرح ثمانون آخرون . ولقد اعتقل أحد الإرهابيين وحكم عليه بالإعدام . ولقد اعترف أن هاجوب هاجوبيان أخبره أن أبو نضال قد أمده بالأسلحة التي استخدمت في الهجوم . وفي السنة التالية ،

في يوليو 1983 ، انفجرت قنبلة موقوتة في مطار أورلي « بباريس » فنتج عن ذلك مصرع ثمانية أشخاص وجرح أكثر من ستين آخرين معظمهم من الأتراك الذين كانوا يتجهون للطائرة التركية المتجهة إلى أنقرة . وهي عملية ربما يكون أبو نضال قد هيأ لها السلاح . وعقب ذلك قامت السلطات الفرنسية باعتقال رئيس الفريق التابع لـ « أصالة » « فاروجان جاريدجان » والذي نفذ الهجوم وحكم عليه بالسجن لفترة طويلة . ولكي يتم الانتقام من فرنسا ، قام رجل مسلح يعتقد أنه هاجوبيان بقتل الكولونيل كريستيان جوتير وهو ملحق عسكري فرنسي وذلك في بيروت الشرقية في سبتمبر 1986 .

ولقد كان هاجوبيان متهورا لإفشاء أسرار الهجوم لواحدة من المجلات العربية . فبعد عدة أشهر وفي عام 1988 تم قتل هاجوب هاجوبيان في أثينا « التي اتخذ منها مقرا لقيادته بعد أن طردته سوريا عام 1987 وهو الوقت نفسه الذي طردت فيه أبو نضال كذلك » . فقد كان في طريقه إلى المطار للسفر إلى بلجراد للقاء أعضاء من منظمة أبو نضال وطبقا لأسرار الإرهاب ، وليتلاشى أبو نضال الظهور أمام الفرنسيين بمظهر العاجز فقد خان هاجوبيان من أجلهم . وذُكر أنه وضع الفرنسيين على اتصال مع فريق من المنفصلين عن « أصالة » فقاموا بقتل هاجوبيان .

في ذلك الوقت كانت « أصالة » قد تعرضت لعدد من الضربات الشديدة حيث خسرت تسهيلات التدريب بجنوب لبنان ، وحدوث تصدعات وانفصال بداخل المنظمة نتجت عن رفض مذبحة مطار أورلي ، واعتقال العديد من أعضائها في فرنسا ، والصراع مع جماعات أرمينية أخرى مثل جماعة كوماندوز العدالة لمذبحة الأرمنيين ، كذلك تم طرد « أصالة » من سوريا ، ثم مصرع هاجوبيان ... وأخيرا تحول أنظار الأرمنيين إلى كفاح إقليم ناجورنو كاراباخ المحاصر من قبل أذربيجان .

وفي نهاية الثمانينات حارب كل من أبو نضال وعبد الرحمن عيسى للحفاظ على بقايا « أصالة » . أما أرملة هاجوبيان فلاتزال تعيش في اليونان ، ويقال إنها الشخص الوحيد الذي يعلم أين توجد ثروته .

المأوى في أوروبا الشرقية :

لقد أوضحنا بالتفصيل أن أوروبا الشرقية الشيوعية قد ساعدت أبو نضال وإرهابيين فلسطينيين آخرين على شن هجمات في الغرب . ومع ذلك فهناك دليل من الفلسطينيين ومصادر المخابرات الغربية على أن تلك العلاقة - التي كانت بين أوروبا الشرقية والمنظمات الإرهابية - كانت تتصف بالتقلب بالرغم من أن أبو نضال اتخذ من بولندا مقرا له على مدى سنوات في بداية الثمانينات وأوضح إعجابه بأريك هونيكر رئيس ألمانيا الشرقية ، وكان يزور المجر لتمضية الأجازات .

وكان لأبو نضال ثلاثة أسباب رئيسية للتعامل مع أوروبا الشرقية :

الأول : الاحتياج لأماكن آمنة لإقامته وكبار معاونيه ، ولهذا فقد كان تواقا لتأسيس اتفاقيات أمنية مع أجهزة مخابرات أوروبا الشرقية . وكانت الحجة التي تعود على استخدامها أن علاقة معه ستعطي الدولة حصانة من عملياته ، وهو أسلوب الابتزاز الذي استخدمه مع دول أوروبا الغربية أيضا .

الثاني : إن تجارة الأسلحة في الكتلة الشرقية كان عنصرا هاما للارتقاء بعوائده المالية .

الثالث : إنه رغب في تقويض العلاقات الوثيقة التي رسخت بين منظمة التحرير الفلسطينية ودول أوروبا الشرقية .

ولقد أقامت العديد من دول أوروبا الشرقية اتفاقيات مع أبو نضال من أجل تحييده ، ولكن ليس هناك دليل على أنها تعاونت معه في عمليات إرهابية مشتركة . فمثلما كان حال الدول الغربية كانت لدول أوروبا الشرقية مصالح تود حمايتها . فقد كان هناك لجنة تشيكية مجرية ألمانية شرقية تجتمع كل شهر لتتبادل معلومات عن الإرهاب وكانت هناك لجنة أوسع تجتمع فيها كل دول أوروبا الشرقية على فترات لمراجعة الموقف الأمني في شتى أنحاء الكتلة الشرقية .

وكان ضباط الأمن والمخابرات في الشرق - مثلهم في ذلك مثل الغرب - ينظرون لأبو نضال على أنه إرهابي يجب احتواؤه .

ولم يكن هناك أي مفهوم أيديولوجي في علاقات أبو نضال مع أوروبا الشرقية أو أي تطابق مع اتجاهه السياسي ، فقد أحب أن يوضح أنه قومي فلسطيني تأثر بنظريات ماركس ، ولكنه كره الاتحاد السوفيتي وهاجمه باستمرار في مطبوعاته . وأعلن أنه من المؤمنين بماوتسي تونغ وعبر عن إعجابه بالتجربة الصينية ولكنه لم يعد إلى الصين أبدا بعد زيارته القصيرة لها عام 1972 « عندما كان لايزال في منظمة فتح » ولم ينم أبدا أي نوع من العلاقة مع الصينيين . وكان يقول أحيانا إن الألبانيين هم الماركسون الحقيقيون المتبقون في العالم ولكنه لم يقم معهم علاقات كذلك .

لقد تعود أبو نضال أن يتلون بلون الجماعة التي يتواجد معها . فمع الماركسيين يكون واحدا منهم ، ومع القوميين العرب يدعى أنه قومي ، ومع الأصوليين المسلمين يفتخر أنه مسلم ملتزم ، وبين الشيعة يقسم بالإمام علي في جنوب لبنان ، وحتى فقد ذهب بعيدا جدا عندما غير الأسماء الكودية لرجاله لكي يجعلها جذابة للسكان الشيعة المحليين . ولما ذهب إلى ليبيا فقد كان يحب أن يسمع الليبيين اسم عمر المختار – بطل الكفاح الليبي ضد الإيطاليين في العشرينات .

ولكن في أوروبا الشرقية فقد وجد أن أفضل وسيلة لكسب الأصدقاء هي في توزيع الهدايا – وليس تمجيد الماركسية – فهدي ساعة قيمة لهذا ، وهدية لزوجة ذاك ... أو – كهذا ببساطة – يعطي كميات من أوراق البنكنوت لمن حوله « أوراق دولارات » . وفي بولندا خاصة ، وجد أنه من السهل أن يوزع الرشا ليصل إلى مركز السلطة .

إن أقدم علاقات أبو نضال مع أوروبا الشرقية كانت مع يوغسلافيا حيث كان الفلسطينيون يذهبون بأعداد كبيرة للدراسة هناك منذ الستينات . ولما انشق أبو نضال عن منظمة فتح عام 1974 تمكن من اصطياد بعض طلبة فتح في يوغسلافيا واستخدمهم في بدء التدريب بنشاط ، فوقعت مصادمات بين مؤيديه ومؤيدي فتح . وفي أبريل من عام 1980 قام رجاله في بلجراد بإلقاء قنبلة على سيارة كان يعتقد أن أبو إياد مسافرا بها . ولما رغبت يوغسلافيا في إنهاء تلك المشكلة فقد سارعت بفتح باب للاتصال بأبو نضال .

ولقد اعتبر اليوغسلافيون أبو نضال إرهابيا ولم يوافقوا عليه ، ولكنهم تجاهلوا أنشطته على أمل إقناعه بألا يقيم علاقات مع الحركات الانفصالية بداخل يوغسلافيا ، وألا يدير صراعه الدموي مع فتح فوق أراضي يوغسلافيا . أما من ناحيته استغل التسامح اليوغسلافي إلى أقصى حد ممكن . فمنذ عام 1980 فصاعدا احتفظ بممثل سري في بلجراد : كان الأول هو على الفرا « الدكتور كمال » ، ثم تلاه إياد محمد « زوج إحدى بنات أشقائه » ثم تلاه علي عفيفي . ثم تلاه آخرون .

ونتيجة لذلك ، فمنذ عام 1980 وحتى 1985 أصبحت يوغسلافيا المركز التنظيمي لعمليات أبو نضال الأوروبية . حيث خزنت الأسلحة هناك ، واستخدمت فرق الاغتيال التابعة له والقادمة من ليبيا أو لبنان يوغسلافيا كمحطة انتقال إلى أماكن أخرى ، وكانت الأسلحة تنقل من يوغسلافيا إلى بقية أوروبا . وبداخل المنظمة فقد كانت يوغسلافيا مقرا شبه آمن يمكن - إذا ما تعرض الأعضاء للمشاكل - أن تقوم المنظمة بالتعامل سرا مع اليوغسلاف لإخراجهم من أراضيها .

أما علاقات أبو نضال مع ألمانيا الشرقية فقد بدأت تقريبا عن طريق المصادفة عندما اعتقل أحد رجاله وهو عدنان فارس « وهو مسئول في لجنة العلاقات السياسية » في مطار برلين عام 1984 وتم استجوابه . وهنا اقترح بجرأة إجراء بعض التعاون ، وأخبر قادته - بعد عودته إلى سوريا - بذلك . فذهب أعضاء من إدارة المخابرات إلى ألمانيا الشرقية . وبدأت العلاقات .

وفي النصف الثاني من الثمانينات فقد حدث على الأقل أربعة اتصالات .

● عام 1985 ، زار أبو نضال برلين وأجرى حديثا مطولا مع أريك مايلك ، الرجل البالغ القوة الذي كان يرأس إدارة أمن الدولة ، المسماة : ستاس .

● وبعد ذلك بفترة ليست طويلة قامت بعثة مكونة من ستة وعشرين رجلا من المنظمة برئاسة عصام مرقة « الذي كان فيما بعد نائب أبو نضال » بحضور فرقة تدريبية لمدة ثلاثة أشهر في ألمانيا الشرقية بدعوة من الستاس .

• وفي أواخر عام 1985 ، قامت بعثة أخرى سياسية ترأسها تلك المرة فؤاد الصوفاريني من مجلس إدارة المنظمة « والذي انشق عن المنظمة وذهب إلى الأردن » بزيارة ألمانيا الشرقية .

• وفي بداية 1986 قامت بعثة عسكرية مكونة من اثنين وعشرين رجلا برئاسة عضو يحمل الاسم الكودي : جميل ، بحضور دورة تدريبية على الأسلحة والمتفجرات في معسكر الستاس التدريبي الذي يقع على مساحة 12 ألف فدان في مدينة موسو جنوب برلين . ويتذكر أحد الرجال الذين قاموا بتلك الدورة أن أبو نضال قام بزيارتهم في ذلك الوقت وخاطب المضيفين بوصفهم : « أشجع اشتراكيين في العالم » كما يحب أن يسمع الألمان الشرقيون .

وبالرغم من ذلك فلم تساعد الستاس أبو نضال في أي من عملياته الخارجية ، ولم تقم ألمانيا الشرقية علنا بإذاعة أن لها روابط مع أبو نضال أبدا . وفي الحقيقة فقد قام جهاز أمن الدولة الألماني الشرقية بجعله يقسم بألا يخزن أسلحة في ألمانيا الشرقية ، أو ينقلها عبر أراضيها أو يشن هجمات في برلين الغربية . ولكنها سمحت له – مع ذلك – بتأسيس شركته التجارية في برلين الشرقية والمعروفة باسم : زيبادو « وهي شركة مضاربة » . ولكن عندما انشق مدير تلك الشركة عن المنظمة وهو ضرار عبد الفتاح السلواني وخرجت المعلومات للصحف عن نشاطها فقد تم إغلاق الشركة .

ولحزنه ، فلم تقم ألمانيا الشرقية بالسماح لأبو نضال بأن يعكر صفو علاقتها مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات . وعندما حوصر عرفات عام 1983 في ميناء طرابلس بشمال لبنان بواسطة المتمردين على منظمة فتح الموالين لسوريا ، فقد قام أريك هونيكر بإرسال زوارق معبأة بالأسلحة والأدوية والملابس والطعام مجانا .

ولم تكن لمنظمة التحرير الفلسطينية علاقة وثيقة مع الستاس ، ولكنها تعاملت مباشرة مع وزارة الخارجية الألمانية الشرقية من خلال سفاراتها بالخارج ، وكان لها

قناة إلى منظمات الحزب الشيوعي التي أمدت منظمة التحرير بحوالي ثلاثمائة منحة طبية في السنة وحوالي مائة بعثة تعليمية . ولهذا فقد كان انهيار النظام الشيوعي ضربة إلى كل من منظمة التحرير ولعدوها اللدود أبو نضال .

أما في بولندا فقد كان لأبو نضال مقر إقامة لطلبته في البعثات التعليمية . ولكن علاقاته مع البولنديين كانت متقلبة .

فقد ادعى أن له اتصالات سياسية عالية المستوى معهم ، ولكن ذلك كان إدعاء كاذبا . إن اتصالاته الحقيقية كانت فقط مع المخابرات وأجهزة الأمن . فلم يكن القادة السياسيون يقابلونه ، وفي نصف المرات التي كان هناك لم يكن رجال الأمن يعلمون أنه هناك . ومثل الأوروبيين الشرقيين الآخرين ، فقد منحه البولنديون مأوى من أجل الحصول على العملة الصعبة بواسطة تصدير أسلحتهم ولمنعه من شن هجمات ضدهم أو من أراضيهم .

أما المجريون فقد أصبحوا مهتمين بأبو نضال عندما كشف أحد الإرهابيين الذين اعتقلوا بعد الهجوم على مطار فيينا في ديسمبر 1985 أنه كان في بودابست ثم وصل إلى فيينا من هناك بالسيارة . ولمنع مشاكل مستقبلية قام المجريون بوضع اتفاق أمني مع أبو نضال ذلك الاتفاق الذي درس بواسطة عاطف أبو بكر الذي كان – قبل الانشقاق عن أبو نضال – سفيرًا لمنظمة التحرير الفلسطينية في بودابست عامي 1983 ، 1984 ، وكما فعل الآخرون خضع المجريون للابتزاز بأن سمحوا لدستة من طلبة أبو نضال بأن يحصلوا على دورات في بلادهم ، وبأن يتجاهلوا تحركات رجاله داخل وخارج المجر . وبحلول عام 1986 تحولت المجر لتحل محل بلجراد كمركز لعمليات أبو نضال الأوروبية .

أما التشيك فقد اعتبروا أبو نضال إرهابيا ولم يقيموا علاقات معه بالرغم من أنهم كانوا على ود مع عاطف أبو بكر الذي كان سفيرا لمنظمة التحرير في براغ .

وبالنسبة لبلغاريا التي زارها أبو نضال كثيرا ، والتي أحب أن يجري فيها اجتماعات عديدة ، فقد سمحت له بإقامة وجود طلابي محدود وباعت له بعض الأسلحة ،

وجعلت رجاله يستخدمون صوفيا كموقع تنقلات ، وأعطته فيلا بالقرب من فندق فيتوتشا حيث كان يمضي جزءا من فصل الصيف هناك . ولكن البلغار لم يشعروا بالسعادة عندما علموا بأنه قام بتهريب أسلحة من تركيا عبر بلادهم إلى مواقع في أوروبا . ولقد ضبطت إرساليات وحول بعضا من رجاله إلى السجن .

وبالنسبة للرومانيين ، فقد كانوا أكثر أعداء أبو نضال في أوروبا الشرقية . وذلك بسبب مقتل الدبلوماسي الأردني عزمي المفتي وجرح آخر في بودابست في ديسمبر عام 1984 . وقد حاول أبو نضال ابتزاز الرومانيين بكل طريقة ممكنة بما في ذلك وضع قنابل في سفارتهم ببيروت ، ولكنهم رفضوا أن يكونوا جبناء واعتقلوا أعضاءه حيثما كان ذلك ممكنا .

ولم يذهب أبو نضال أبدا إلى الاتحاد السوفيتي في زيارة رسمية ولم يقابل أي مسئول سوفيتي ، بالرغم من أنه اختار أحيانا أن يمر بموسكو في طريقه - مثلا - من جنيف إلى دمشق ، وقد تعود أعضاء من منظمته أن يتصلوا بسفارتي الاتحاد السوفيتي في دمشق وبغداد ، ولكن هذه الاتصالات توقفت عندما تحرك إلى ليبيا .

لقد دهش الدبلوماسيون السوفييت من وصف الغرب لموسكو بأنها تدعم الإرهاب الدولي ، ولهذا فقد كانوا - أي الدبلوماسيون السوفييت - ينأون بأنفسهم بعيدا وبحرص في اتصالاتهم بأبو نضال .

وفيما يخص القضايا الفلسطينية فقد كانوا واضحين في أنهم يدعمون خط عرفات المعتدل ورفض الإرهاب .

بين العراق وإيران :

في 29 مارس 1989 قتل بالرصاص موظف سعودي يدعى الشيخ عبد الله الأهبل وهو زعيم الجالية الإسلامية في بلجيكا وهولندا ولكسمبورج وذلك بمسجده في بروكسل . وقتل معه أمين مكتبه التونسي الأصل . ولقد ارتبط القتل لدى الرأي العام بعقوبة الإعدام التي أصدرها - قبل ستة أسابيع في 14 فبراير 1989 - الزعيم

الإيراني آية الله خوميني على الكاتب البريطاني سلمان رشدي لتعديه على النبي محمد في روايته « آيات شيطانية » . ويبدو أن إمام مسجد بروكسل ـ وهو معتدل ـ لم يوافق على العقوبة التي أصدرها الخوميني ويعتقد أن ذلك كلفه حياته ، وكما يفترض بواسطة مسلمين متطرفين .

ولكن ذلك لم يكن صحيحا . لقد كان أبو نضال هو الذي أمر بالقتل . فقد كان الاغتيال جزءا من حملة ابتزاز موجهة إلى العربية السعودية والتي كانت مستمدة بعدة ملايين من الدولارات « أموال حماية » ... وأراد كذلك أن يبيع إيران خدماته .

فمنذ الوقت الذي طرد فيه من العراق عام 1983 أراد أبو نضال أن يرتبط بإيران . فعرض على إيران معلومات عن المواقع العسكرية العراقية وأراد إغراءها بصفقات سلاح تقدر قيمتها بمئات الملايين من الدولارات وقام رجاله في دمشق بزيارات منتظمة إلى السفارة الإيرانية التي كان يرأسها في ذلك الوقت علي أكبر محتشمي المتشدد « والذي أصبح فيما بعد وزيرا للداخلية ثم تحول لبرأس الجانب المتشدد في إيران المعارض للرئيس هاشمي رافسنجاني » .. وعلى أمل أن يقيم علاقات مع الحراس الثوريين الإيرانيين فقد كان أبو نضال حريصا للغاية على مدح المجهود الحربي الإيراني وذم نظام صدام حسين الفاشستي . وفي كل وقت كانت الصحافة تنشر عن شراء إيران السري للسلاح من إسرائيل فكانت مجلة أبو نضال تصارع بدحض التهمة عن إيران ، كما لو أنه هو قد وقف مذنبا .

ولكن الإيرانيين لم يبتلعوا ذلك الطعم ، ولم تأت الدعوة التي انتظرها طويلا أبو نضال لزيارة طهران أبدا . فبالرغم من جهوده ليجتمع بهم اعتقد الإيرانيون أنه لايزال مرتبطا بالمخابرات العراقية التي دعمته وقوته في المحل الأول . كذلك فلم يرغب الإيرانيون في مساعدته بشن عمليات خارجية ، حيث لم يرغبوا في زيادة أعبائهم بشخص له مثل سمعته . بالإضافة إلى أنهم فضلوا أن يتعاملوا مع جماعات تقاسمهم نفس الأيديولوجية الإسلامية والتي هو بعيد عنها .

وبالرغم من ذلك ، وعلى أرض جنوب لبنان ، فإن رجال أبو نضال قاموا ببعض الاتصالات المحدودة مع حزب الله ، وقام هو نفسه بالادعاء بأن له علاقات طيبة مع الشيخ محمد حسين فضل الله المرشد الروحي لحزب الله . ولكن على النقيض من تقارير الصحافة فإن ذلك لم يؤد إلى تعاون عملياتي ملحوظ .

وليس هناك دليل على أن أبو نضال لعب أي جزء من العمليات العديدة التي نفذها حزب الله ضد المنطقة التي اعتبرتها إسرائيل حزاما أمنيا لها في جنوب لبنان . كذلك فلم يقم حزب الله بلعب أي دور في هجوم أبو نضال على السفينة اليونانية « سيتي أوف بوروس » كما يقال أحيانا . لأن ذلك الهجوم – في 11 يوليو 1988 – نفذ في المراحل النهائية للحرب بين العراق وإيران . وبعد عدة أيام من قيام السفينة الأمريكية فينسنز بإسقاط الطائرة المدنية الإيرانية فوق الخليج مما أدى إلى مصرع 290 شخصا ذهب معظم الناس إلى الاعتقاد بأن حادث السفينة اليونانية إنما جاء كانتقام توحد فيه حزب الله مع جماعة أبو نضال . ولكن ذلك ليس صحيحا فلم يكن لإيران أو أصدقائها يد في حادث السفينة « سيتي أوف بوروس » ... وكانت طهران واحدة من أوليات العواصم التي نددت بتلك العملية .

وبحلول وقت قيام العراق باحتلال الكويت عام 1990 كان أبو نضال قد يئس من التعامل مع إيران . وتحول لكي يستفيد من الأزمة الجديدة وذلك عن طريق استعطاف الأعضاء في التحالف المعادي للعراق . ولكن عاصفة الصحراء جاءت وذهبت بدون أن يدخل أبو نضال المعركة أو يجذب لنفسه الانتباه . تاركا قتل أبو إياد في تونس إلى ليلة المعركة . ذلك القتل الذي ظن العديد من العاملين في أجهزة المخابرات أنه كان من وحي الموساد ، ومع ذلك كان لأبو نضال – كالعادة – أسبابه الخاصة لقتل سيده السابق .

* * *

الفصـــل الثالــث عشــر

عملية التطهير الكبرى



عملية التطهير الكبرى

بدأ أبو نضال عمليات القتل مبكرا في بغداد في صراعه مع فتح ، المنظمة الأم التي رفضها بل واضمر لها كرها دام دوام حياته .

ولقد كان لحكم الإعدم الذي أصدرته فتح غيابيا على أبو نضال عام 1974 واغتيالهم في نفس العام لصديقه أحمد عبد الغفور كان لهذه الأحداث أثر عميق في نفسه حيث أطلقت العنان لسيل جارف من العنف داخله . إذا كان هذا هو مسلك فتح فلم لا يكون مسلكه مماثلا ؟! وكما قال لقد علمته فتح كيف يقتل ولهذا! فلقد أصبحت فتح شغله الشاغل خوفا من انتقامها ، قدرتها على التسلل داخل منظمته ، وخوفا من قوتها . ولذا فإذا أقدم أحد أعضاء منظمته على الاتصال بفتح ، اعتبر أبو نضال هذا خيانة .

ممارسات وحشية مبكرة :

أقام أبو نضال منظمته على أسس ثابتة من الوحشية والخوف وذلك في أوائل السبعينات . فعلى سبيل المثال ، اختفى الكثير من أعضاء منظمته أثناء سنوات بغداد بناء على أوامره ، وانتهى الأمر ببعضهم للموت في معسكرات التدريب أو الدفن في المركز 85 ببغداد . وإذا كان الشخص الذي ينتوي أبو نضال قتله شخصية بارزة ومن ثم يصعب قتلة ببغداد ، يرتب أبو نضال لإرسال هذا الشخص في مهمة بالخارج حيث يتم قتله هناك .

ويسترجع عبد الرحمن عِزة ، رئيس مخابراته في ذلك الحين ، كيف أن أبو نضال استفسر منه على مخبأ الأسلحة في أوروبا . وأجاب عِزة مع ذكر اسم الشخص الذي قام بذلك . وبعد فترة من التفكير سأل أبو نضال « ألم يتم إرسال هذا الشخص

في مهمة بالخارج ؟ » وبالطبع لقد تم دفن هذا الرجل كما قام بدفن الأسلحة . وفي بعض الأحيان ، كان من المألوف أن تدعي المنظمة استشهاد أحد أعضائها بل وترثيه في صفحات الوفيات بمجلة المنظمة .

ولا مجال للشك في تأثر أبو نضال بنظام صدام حسين الذي بدء في تطبيقه في ذلك الحين – النظام الذي اتسم بوحشية مفرطة . ولكن لا يمكن أن نرجع لجوءه للقتل في بعض الأحيان لهذا التأثر بل يرجع هذا لطبيعته التي تتسم بجنون عظمة ذي صبغة وحشية . ولقد كان هذا جزءا من استراتيجيته فلقد كان يعتقد أن القسوة والوحشية ستثير الرعب في نفس أعدائه وتدفعهم لاحترامه .

وفي بعض الأحيان كان ضحاياه من الأبرياء ، لم يقترفوا ما يستدعي قتلهم ولكنه لم يكن ليهتم . قتل هؤلاء سيردع غيرهم . لقد حدد أبو نضال طريقه ، سائرا في الظلام ينشد فريسة ومن ثم لا يوجد ما يلزمه بتصرف ما فلا توجد ضوابط أخلاقية أو قانونية بل إنه لا يعبأ بالإنسانية ككل .

وفي أواخر السبعينات ، تم اختطاف مهندس فلسطيني معروف يدعى أحمد جمعة وعروسه بعد شهر من الزفاف أثناء تسوقهم في محال بغداد مع أحد كوادر أبو نضال ، تم وضعهم في عربة وأخذهم لمركز 85 حيث تم تعذيبهم مما أودى بحياتهم . ولقد كان جمعة عضوا مؤسسا لفرع منظمة فتح بالعراق ولكنه انسلخ عن المنظمة عام 1974 لينضم لمنظمة أبو نضال حيث برز كأحد أعضائها . ولهذا فلقد بدا أن عمليات الخطف والقتل كانت بلا دوافع : لم يكن هناك أية أدلة ضده أو ضد زوجته . ولكن الكادر الذي كان يصاحبهم عند التسوق كان في بيروت مؤخرا حيث قابل بعض أعضاء منظمة فتح مما أثار شكوك أبو نضال . ولذا تم قتل ثلاثتهم . ولقد بلغ الابتذال في التصرفات حده حيث قام قتلة جمعة وزوجته بأخذ المشتروات لأولادهم « أولاد القتلة » .

ومن الحوادث الوحشية تلك الخاصة بنبيل عبد الفتاح ، والذي كان موضع ثقة أبو نضال الذي جعله يتولى مسئولية وحدة مكافحة الجاسوسية في العراق وهو

منصب جعله يتولى إرسال الكثيرين للموت . ولقد أبلغ أبو نضال أعضاء منظمته أن عبد الفتاح قادم من نابلس ، إحدى كبريات مدن الضفة الغربية ، ولكن في حقيقة الأمر كانت المعلومات محدودة عن عبد الفتاح الذي لم يسبق له العمل مع فتح أو أية منظمة فلسطينية أخرى . وفي نهاية الأمر ، دب الشقاق بينه وبين أبو نضال وفر للأردن حيث أعلن أبو نضال أن عبد الفتاح ليس فلسطينيا بل أردنيا يعمل مع المخابرات الأردنية ولقد دُس عليه . وبالطبع لم يجرؤ أحد أن يسأل أبو نضال عن المكان الذي وجد فيه عبد الفتاح ولماذا رفعه لأحد المناصب الجوهرية بالمنظمة إذا كانت المعلومات التي أشار إليها صحيحة ؟!

ولقد نجح أبو نضال في أوائل الثمانينات ـ حينما انتقلت المنظمة لسوريا ـ أن يُغري عبد الفتاح بالذهاب لدمشق بحجة إعادة الصلة بينهما . ولكن حدث العكس حيث تم نقل عبد الفتاح وزوجته للبنان وتم قتلهما هناك .

ولقد كانت زوجة عبد الفتاح تُدعى نهى الترك شقيقة محمد حرب الترك الذي يقضي عقوبة السجن الآن في باكستان لدوره في اختطاف طائرة تابعة لشركة بان أميريكان في كراتشي في سبتمبر 1986 .

هل كان عبد الفتاح بريئًا أم أنه دُس على أبو نضال ؟ لقد تاهت الحقيقة في ظل ما قاله أبو نضال . وإن كان عبد الفتاح مسئولا عن تعذيب العشرات بل المئات . ولذا فلقد ذاق من نفس الكأس الذي أذاقه لغيره !

ولقد كان من عادة أبو نضال أن يكلف الآخرين بإنجاز بعض الأعمال القذرة ثم بمجرد انتهائهم من ذلك يتم قتلهم .

ففي عام 1983 حينما تم طرد المنظمة من العراق كانت سجون المنظمة مازالت تحوي عشرين شخصا كانوا موضع اشتباه ولكن لم يتم الانتهاء من استجوابهم . ما سبل التعامل معهم ؟ لقد أصدر أبو نضال أوامر بإلقاء قنابل يدوية داخل الزنزانة إذا حاولت العراق إطلاق سراحهم . وفي نهاية الأمر ، قام أبو نضال بنقل المساجين لسوريا ثم للبنان حيث تم قتل أغلبهم .

ولد باسل في فلسطين عام 1950 ولقد كان جنديا طيب القلب ، جادا في عمله ، وسيما لحد يجعل البعض يعتقد على سبيل المثال أنه بريطاني .

ولقد انضم لمنظمة أبو نضال في أوائل السبعينات ولكنه رفض القيام بأية عمليات في الخارج . ولقد كان رأس الحربة عند دخول المنظمة لبنان .

ولقد تدرج حتى أصبح رئيس العمليات العسكرية لمليشيا أبو نضال – جيش الشعب – وذلك بمنتصف الثمانينات . ولكن الكيل فاض فلم يعد باسل قادراً على تحمل المزيد من الممارسات الوحشية فخرج على منظمة أبو نضال وانضم لقيادة الطوارئ المنشقة والتي سنعلم عنها فيما بعد ، ولقد أسسها عاطف أبو بكر في نوفمبر 1989 والذي وافق على أن أجري معه حديثا بتونس في عام 1990 . ولقد التقينا خفية أكثر من مرة في بعض الفنادق الساحلية الصغيرة .

ولقد قال لي باسل إنه أمضى ستة عشر عاما مع المنظمة وإن كان لم يتسن له التعرف على طبيعتها الحقة إلا بعد أن تركها . ولقد طرح سؤال ما الذي يعد خيانة في نظر المنظمة ؟ ولقد كان كل عضو من أعضاء المنظمة يعيش في عزلة عن الآخرين في ظل السيطرة التامة أبو نضال . ولقد حدث في عام 1985 ما أثار اضطراب باسل : لقد احتجزت فتح خمسة من رجال أبو نضال في وادي البقاع وقتلتهم . وفي عملية انتقامية ، تم الإغارة على إحدى مكاتب فتح وتم القبض على اثنين من العاملين في هذا المكتب وتم قتلهم في الحال . ولقد ظهر بعد ذلك أن أحد القتيلين لم يكن عضوا بفتح بل طالبا يعمل شقيقه بمكتب فتح أتى لزيارة شقيقه . وحينما علم أن شقيقه غير متواجد بالمكتب جلس ينتظره فتم اختطافه وقتله في نهاية الأمر دون أي ذنب جناه . وكما قال باسل لم يتم حتى سؤال الطالب المسكين عن اسمه قبل قتله .

كما أشار باسل لواقعة أخرى وكان على علم مسبق بها وهي واقعة خاصة بطالب فلسطيني من الضفة الغربية المحتلة والذي كان في طريقه ليدرس بجامعة دمشق . وفي طريقه لدمشق ، مر بالأردن لزيارة عمته فأعطته حقيبة بها طعام لابنها فاروق الذي يعمل مع أبو نضال في سوريا . حضر الطالب لمكتب المنظمة بمعسكر اليرموك للاجئين بدمشق وطلب مقابلة ابن خالته .

قيل له « إنه بلبنان . ولدينا عربة في طريقها لهناك فتستطيع أن تذهب بها » .
وعند وصول الطالب للبنان تم القبض عليه وضُرب ضربا مبرحا بل وأتهم بكونه عميلا أردنيا . ولقد تم سجنه حيث ظل بالسجن لمدة ثمانية عشر شهرا في ظروف مروعة . وحينما تم إطلاق سراحه ، كان تاريخ صلاحية جواز السفر قد انتهى ولم تسمح السلطات الأردنية بتجديده . كما أن ختم إسرائيل الذي يسمح له بدخول الأراضي المحتلة انتهى تاريخه كذلك ومن ثم لم يكن في استطاعته العودة وأصبح لاجئا .

ولقد طُلب من باسل التحدث لهذا الطالب ولقد قال لي : « لقد حاولت أن أبين له أن المعاملة الوحشية الخشنة التي تعرض لها شيء متوقع مع التهديد المتواصل الذي تتعرض له المنظمة . ولإقناعه استخدمت كثير من الكلمات المكررة عن الصهيونية والاستعمار ولكنني اكتشفت أنني لست مقتنعا بما أقول .

ولقد حاولت أن أشتري له بعض الملابس وأوفر له طعاما طيبا . ولكنه أصبح محطما . وفي نهاية الأمر ، وجدت نفسي عاجزا عن الحديث أمام المعاناة التي ألمسها بنفسي » .

ولقد أدت مثل هذه الواقعة وغيرها لانشقاق باسل عن المنظمة .

لجنة العدل :

كان مقر لجنة العدل الثورية بقرية بقاستا بالتلال التي تقع فوق صيدا بجنوب لبنان والتي تبعد عشرين ميلا عن الحدود الإسرائيلية . وكانت هذه اللجنة تختص بالإشراف على سير عمليات الاستجواب ، التعذيب ، وتنفيذ عمليات الإعدام والتي تعد قانونا للمنظمة ، وكان يرأس هذه اللجنة مصطفى إبراهيم صندوقة « الاسم الحركي سليم أحمد » وكان متزوجا من إحدى بنات شقيق أبو نضال ، ومن ثم فهو عضو في عائلة أبو نضال الممتدة . وكما أتذكر فإنني وضعته ضمن قائمة المشبوهين الذين يتعاملون مع الموساد وكذلك د . غسان العلي وعلاء .

ولم يقترف بعض السجناء الذين أدانتهم اللجنة في عام 1990 سوى بعض

الأخطاء ولكنها أدانتهم على الرغم من ذلك . وعادة ما تكون التهمة الخيانة وذلك بسبب هوس التجسس الذي يسيطر عليهم . وعادة ما يعترف المتهمون تحت التعذيب .

وقد يصل بهم الأمر إلى استجداء معذبيهم لقتلهم كوسيلة لإنهاء محنتهم . ويتمتع بعض الضحايا بالقدرة على تحمل التعذيب والسجن والذين يثبت فيما بعد براءتهم من التهم الموجهة إليهم . وعلى الرغم من براءتهم ، يتم عادة إعدامهم حتى لا تتسرب كلمة عن أساليب التعذيب المستخدمة وإن كان قد تسرب الكثير الذي يدل على قتامة الصورة !

وفي استجواب مسجل لعبد الرحمن عِزة ذكر : « كان أبو نضال يدعوني لمكتبه ويبلغني بحزم أنه قد وصلته معلومات أن السيد ميم مثلا موضع شبهات ثم يضع أبو نضال ملفا أمامي ولكنه لا يقرأ شيئا منه ولا يفتحه . وبالطبع لا أجرؤ أنا على ذلك بل اعتمد على ما قاله حيث إنني أثق به » .

وبعد انشقاق عبد الرحمن عِزة عن المنظمة في عام 1989 أصدر بيانا ذكر فيه أنه تعرض للكذب والخداع لمدة سبعة عشر عاما . بل إنه كان يقتل بناء على الملف الموضوع أمامه وعادة ما يكون ملفا وهميا . وبالطبع فإن عِزة حينما أذعن لهذه الأساليب قد وقع بنفسه على أمر قتله . وكما سيتضح بعد ذلك فإن عِزة سيصبح هدفا مستهدفا .

وكانت أساليب التعذيب المستخدمة تتسم بالوحشية المروعة التي تفوق أية أساليب أخرى حتى وإن كانت مستخدمة في مناطق معروفة بعدم احترامها لحقوق الإنسان . ومن ضمن أساليب التعذيب الوحشية المروعة تعليق رجل لمدة ساعات عاريا تماما مع جلده حتى يفقد وعيه ، ثم إعادته إلى حواسه بإلقاء ماء بارد عليه ، ووضع ملح أو شطة على جروحه . أو قد يتم وضع رجل عار في إطار عربة مع جعل رأسه وقدميه في الهواء ثم يتم جلده ، وضع ملح على جروحه ، إفاقته بالماء البارد وتكرار التعذيب كلما غاب عن وعيه . وفي بعض الأحيان ، يتم استخدام

بلاستيك تم إذابته بالنار ويلقى على جلد السجين العاري . وأسلوب آخر من أساليب التعذيب اللاإنسانية هو غلي بعض الزيت في قدح ثم يتم إلقاؤه على العضو الذكري للسجين .

وداخل سجون اللجنة ، كان يتم حبس كل متهم حبسا انفراديا في زنزانة ضيقة للغاية لدرجة أن السجين كان يستطيع فقط أن يمد يديه لأخذ الطعام الذي يُلقى له من فتحة في جدار الزنزانة . أما التبول وعملية الإخراج فكانت تتم بصعوبة بالغة لضيق الزنزانة .

ومثل هذه السجون مألوفة في المنطقة . فلقد أوردت منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية التي تدعى « بتسيلم » تقريرا في 26 يونيو 1990 عمن يتم احتجازهم من الصبية الفلسطينيين في القدس ولقد جاء في التقرير : « لقد شهد كل من قابلناهم من الصبية أنه تعرضوا لضرب مبرح - بالصفع ؛ باللكمات ؛ الركل بالأقدام ؛ شد الشعر ، القذف بقصيب حديدي ... » .

وقرر البعض أنه كان يتم ربطهم لمواسير في الخلاء مع تكبيل أيديهم ويتركون لساعات طويلة في الشمس والمطر وأثناء الليل في أوضاع غريبة ، في حين قرر بعض الصبية أنهم كانوا يوضعون لأيام في زنزانة عزل مظلمة كريهة الرائحة تبلغ مساحتها 1,5 متر مربع وبها تواليت . والبعض وُضع فيما أسموه « الخزانة » وهي زنزانة ضيقة للغاية وطولها متر واحد يقف فيها السجين ولكنه لا يستطيع أن يتحرك . وشهد البعض بأنه تم وضعهم فيما يسمى « القبر » وهي زنزانة منخفضة عن مستوى الأرض تشبه الصندوق ويغطيها باب حديدي ولا يستطيع السجين إلا أن ينحني داخلها . ولا يسمح للسجناء بالذهاب لدورات المياه ولذا فإن الغائط يتكوم تحتهم مما يلطخ الزنزانة ويجعلها ذات رائحة كريهة خاصة وأن الباب الحديدي لا يسمح بتجديد الهواء فتبقى الروائح كريهة كما هي .

وإذا حدث وامتلأت سجون أبو نضال عن آخرها واللجنة في انتظار زعيمها من ليبيا ليقر عقوبة الإعدام يتم في هذه الحالة وضع السجين في قبر حُفر حديثا ثم

يردم بالتراب . وتوضع أنبوبة من الصلب في فمه وتوصل للخارج لتسمح له بالتنفس . ويتم وضع بعض الماء في الأنبوب من وقت لآخر ليبقى على قيد الحياة . وحينما تأتي الكلمة من ليبيا ، يتم إطلاق الرصاص من خلال الأنبوب الذي ينزع بعد ذلك ويُغطى الثقب الناتج عنه بالتراب والرمال .

مذابح داخلية :

مع مرور الوقت ، أصبحت إراقة الدماء عن طريق أبو نضال سيلا متدفقا من الدماء . تم قتل العشرات في السبعينات ، حينما كان مقر المنظمة العراق . تم اختطاف بعض النساء وطلبة الجامعة في سوريا في الثمانينات وتم تهريبهم للبنان وقتلهم في معسكر بدوي للاجئين في شمال البلاد . في حين لم تتمكن المنظمة من نقل 47 سجينا من سجون عيطة بوادي البقاع حينما تم نقل المنظمة من هناك لجنوب لبنان ولذا فلقد تم قتلهم سوية في عام 1987 دون استجوابهم . ولقد أصبح من المشاهد المألوفة في سجون المنظمة الضرب والتعذيب وذلك في 1986-1987 .

وطبقا لشهود العيان فإن المحققين لم يهتموا بمعرفة الحقيقة أو استجواب المحتجزين . كان الحكم يقوم على الاعترافات التي يدلي بها المحتجزون ويتم رميهم بالرصاص – في حالة إدانتهم – ليلا ويدفنون في الغابات .

وعمليات القتل هذه لاتعدو كونها مقدمة للسيل المتدفق من الدماء الذي بدأ في نوفمبر 1987 في كل من لبنان وليبيا واستمر بلا هوادة حتى نهاية عام 1988 حينما اضطر أبو نضال للتوقف عن تلك الممارسات بسبب معارضة زملائه . وفي أقل من عام ، قتل أبو نضال ستمائة من رجاله – طبقا للتقديرات – مما يمثل ثلث أو نصف عدد أعضاء منظمته وأغلبهم شباب في العشرينات من عمرهم وهو يماثل عدد الفلسطينيين الذين قتلتهم إسرائيل في السنوات الثلاث الأولى من الانتفاضة .

وكان يتولى أعمال القتل فريق العمل المكون من أربعة أفراد والذي كان يتولى تنفيذ ممارسات أبو نضال الوحشية بلبنان : مصطفى إبراهيم صندوقة ، لجنة العدل من خلال سجونها ، مراكز الاستجواب ، المعذبون ومن ينفذون الإعدام ؛ عصام

مرقة ، نائب أبو نضال البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاما والمتزوج ابنة شقيق أم نضال ؛ سليمان سامرين ، السكرتير الأول القوي والذي يعرف بدكتور غسان العلي ؛ ومصطفى عوض المعروف بعلاء رئيس المخابرات العنيف الذي لا يعتني بالتفاصيل الخاصة بالمحتجزين .

قام هؤلاء الأربعة بتنفيذ عمليات القتل فيما يزيد عن ثلاثمائة رجل في جنوب لبنان ، 171 منهم في ليلة واحدة في نوفمبر 1987 في ظل التهمة الملفقة أي كون المحتجزين عملاء أردنيين . وطبقاً لأحد المنشقين ، تم استخدام بلدوزر لحفر نفق عميق . ولقد سار المحتجزون معصوبي العين ، مقيدي الأيدي خلفهم ثم تم إطلاق النار عليهم ودفعوا لقبرهم وإن كان بعضهم قد نجا ولا يزال حيا لم يمت بعد .

ولقد هرب حوالي 120 رجلا من جيش الشعب لجأوا لوادي البقاع وطلبوا اللجوء من أبو أحمد فؤاد ، القائد العسكري لقوات جورج حبش . وفي غضب اتهم أبو نضال فؤاد بأنه عميل أردني وأنه متواطئ مع ياسر عرفات والأمريكان .

وهؤلاء الذين لم يستطع أبو نضال تصفيتهم في لبنان قام بنقلهم لليبيا حيث أبادهم هناك . ولقد تم قتل 165 رجلا في المذابح الجماعية التي تمت في معسكر الصحراء وتم دفنهم في مدافن جماعية . وأغلب من تم قتلهم حين ذاك كانوا من الشباب الفلسطيني الذين أرسلوا للبنان بحجة أنهم في طريقهم لتشاد للانضمام للقوات الليبية في صراعها على منطقة أوزو المتنازع عليها .

ولقد كان أبو نضال ضمن الأحزاب اللبنانية والفلسطينية المختلفة التي كانت تصادق القذافي أو تتلقى دعما ماديا منه ومن ثم تمده بالرجال لمساعدة ليبيا في حربها . ولكن أبو نضال كان يعتقد أن هؤلاء الشبان يتآمرون ضده ولهذا لم يخرجوا أحياء من المعسكر الليبي . وطبقا لرواية أحد أصدقاء جورد الذي كان متواجدا بالمعسكر والذي فر بعد ذلك ، فإن أحد الأفراد الذين نفذوا الإعدام انتحر بسبب ما أقدم عليه .

ولقد كان الحاج أبو موسى معلما قديرا في أواخر الخمسينات من عمره وكان

مرافقا لأبو نضال منذ أيام العراق والآن معه في ليبيا . وعلى مر السنين قام أبو موسى بتدريب كثير من المتطوعين . لقد كان جنديا وقاتلا ولكن مكانته بين الجنود أثارت غيرة أبو نضال . وكثيرا ما قال له أبو نضال في الاجتماعات : « هناك خونة كثيرون بين الفلسطينيين وبخاصة الذين يتجاوزن الخمسين من العمر ! » .

أرسل أبو نضال أبو موسى لليبيا وجعله مسئولا عن معسكر التدريب وهناك تم القبض عليه وقُتل بسبب انحرافات جنسية كما قيل . وفي سادية مروعة ، أبلغ زوجة الحاج ، أم موسى أنه قد أرسل زوجها لليبيا للحيلولة دون زواجه من أخرى . وكانت أم موسى سيدة ريفية متقدمة في السن ترتدي الملابس الفلسطينية التقليدية التي تتسم بالتطريز وهي ملابس ريفية شائعة بين جيلها . ثم قبض أبو نضال على أم موسى بعد ذلك والتي كانت بمثابة الأم للكثير من صغار المتطوعين ودفع بها للسجن وقتلت بتهمة الشذوذ الجنسي . كما تم تصفية حسام يوسف ، خليفة الحاج كقائد لمعسكر التدريب .

وكما قال لي أبو داود في أحد المرات : « الشيء الذي لا يمكن تفسيره هو أن أبو نضال اعتاد أن يصدر قرارات القتل في منتصف الليل بعد احتساء زجاجة كاملة من الويسكي » . ولم يكن هناك تفسير كاف لذلك .

وطبقا لعزة الذي عمل عن كثب مع أبو نضال لمدة عشرين عاما فإنه لا جدال أن أبو نضال قد أصبح الآن مجنونا . أما أبو إياد وعاطف أبو بكر فكانا يريان أن أبو نضال كان يعمل لصالح إسرائيل عن طريق إبادة أفضل القوى الفلسطينية المقاتلة بجنوب لبنان . وسواء أكانت دوافع تصرفاته إدمان الخمور ، أم الجنون أم الموساد أم الثلاثة معا فإن أبو نضال أصبح مصدرا لإرهاب منظمته ولم يعد أحد يستطيع إيقافه .

قتل الضباط العسكريين :

وفي لبنان ، كان من أول من قتلوا في نوفمبر 1987 أفضل ضابطين بالمنظمة وهما ياسر الديس « الذي يعرف بأبو مؤمن » وعايش بدران « أبو عمر » وكلاهما بدأ

مع فتح كضابط ، وقد حضرا دورات عسكرية بالهند والاتحاد السوفيتي ثم انضما للمنظمة بعد التمرد على فتح عام 1983 . ولقد تم انتخاب الديس كعضو باللجنة المركزية لأبو نضال أما بدران والذي قاد قوات المنظمة أثناء الحرب بالمعسكرات فقد تم اختياره كنائب لمجلس إدارة جيش الشعب . ولقد أدت وفاتهما لتدمير الكفاءة العسكرية لجيش الشعب .

ولقد كان باسل نائبا لياسر الديس . ولقد قال لي في إحدى لقاءاتنا في صيف 1990 بتونس قال لي ما حدث والعراق يتصبب من وجهه . لقد اختفى كل من الديس وبدران فجأة ودون أية مقدمات وأصبحت المسئولية ملقاة على عاتق باسل . واعتقد باسل في ذلك الوقت أنهم قد أرسلوا على عجل في مهمة بالخارج . وفي أحد الأيام أتى وصفي حنون ، رئيس مجلس إدارة جيش الشعب لباسل لأخذه لاجتماع هام مع عصام مرقة ، نائب أبو نضال ، ود . غسان .

ولقد أصطحب حنون باسل في سيارته وسط التلال فوق صيدا لمبنى يتبع إدارة المخابرات . ومع اقترابهم ، رأى باسل فرقة كبيرة من الحراس خارج المبنى ولقد تعرف على الحراس فهم الحرس الخاص لعصام مرقة ود . غسان .

ولقد حياهم بحرارة وإن كان شعر بارتباكهم عند رؤيته .

وكما قال لي باسل : « حينما دخلت عرفت أنني في مركز استجواب . ووجدت كابلات كهربية للتعذيب وقطعة أسمنتية ليجلس عليها المتهم في مواجهة المحققين . وكان هناك خمسة أفراد يجلسون خلف منضدة محملة بالملفات ، ترامس من القهوة ، أكواب متسخة ، طفايات مليئة بالرماد من السجائر ولقد بدا أنهم لم يغادروا أماكنهم منذ أيام . ولقد كان الجو العام مليئا بالأدخنة ويبدو التوتر على الجميع » .

« قال لي عصام مرقة إنه يريد أن يسألني بعض الأسئلة عن ديس وبدران .

ما هو رأيي فيهما ؟ فأجبت أنهما من الضباط الأكفاء المتمرسين وكان لهما نشاط ملحوظ مع فتح قبل انضمامهما للمنظمة وكان لهما دور بارز في حرب المخيمات » .

« وقال مرقة بطريقة فظة إنهما كانا يتآمران ضد المنظمة وتم اعتقالهما . وإنه يعول

على لمساعدته . وسألني عما إذا كانا قد ذكرا لي شيئا عن مخططهما ! » .

ولقد أجاب باسل غاضبا أنه يعتبر نفسه أحد مؤسسي المنظمة وأنه لا ينوي تدمير ما فعله . هل كانوا يتخيلون أنه سيصمت عند سماع مجرد همس عن وجود فتنة ؟ ولقد تركوه بعد حوالي نصف ساعة من الاستجواب .

ومن ذلك الحين بدأ كثيرون يختفون من الوحدات . وفي بادئ الأمر اعتقد باسل أنهم ينقلون لليبيا أو للقتال في تشاد ولكن مما أثار دهشته اكتشافه أنهم سجناء في صيدا ويتم استجوابهم بتوحش لمعرفة أبعاد المؤامرة الوهمية . كما علم بعد ذلك أنه قد تم إعدام ديس وبدران بوصفهم جواسيس أردنيين وأنه تم إطلاق الرصاص على غيرهم ودفنهم في مقبرة جماعية بالقرب من بكاستة .

ولقد ترك بدران أرملة وتسعة أطفال في قرية دومار على أطراف دمشق .

المزيد من الضحايا :

أثناء مقابلاتي مع أعضاء سابقين بالمنظمة الذين تبعتهم لتونس ، مالطة ، قبرص ومارسيليا ، علمت عن طريقهم بحالات متعددة من الوفاة العنيفة المفاجئة .

● إبراهيم العبد كان كادرا كفؤا بالإدارة المالية ورئيسا للشركة التجارية التابعة للمنظمة ومقر الشركة زيورخ ؛ تم القبض على العبد في عام 1987 واتهم بأنه جاسوس للموساد والمخابرات الأمريكية وأُعدم .

وفي ذلك الوقت ، كان أبو نضال يعيد ترتيب حسابات بنكه السويسري ليصبح تحت السيطرة التامة لأسرته . ومن المحتمل أن يكون العبد قد علم عن هذه الحسابات شيئا كما فعل كادر آخر في الإدارة المالية والذي قتل في نفس الوقت ويُدعى موسى رشيد والذي كان يدير شركة ماليه بالكويت تابعة للمنظمة . ولقد تم استدعاؤه لليبيا حيث أعدم رميا بالرصاص كجاسوس أردني .

● محمد خير « الاسم الحركيْ نور محارب » وكان عضوا بالإدارة السياسية وبخاصة لجنة العلاقات السياسية وكان ضحية أخرى من ضحايا جنون العظمة المسيطر

على أبو نضال . قبل انضمامه للمنظمة في أواخر السبعينات ، قضى عاما أو اثنين يدرس بتركيا ، وأدى هذا لإقتناع أبو نضال أنه تم تجنيده من قِبل المخابرات التركية . ومن هنا اعتقد أن الأتراك قدموه للموساد والتي شجعته بدورها على عرض خدماته على المخابرات السورية والأردنية . ومن ثم اتهم نور محارب بكونه عميلا لأربع أجهزة مخابرات .

وفي عام 1987 ، التقى محارب بفاطمة سقاف وتزوجها . ولقد كانت مدرسة سورية من عائلة شيعية تعمل بمدرسة ابتدائية بدمشق . وبعد أربعة أشهر من زواجهما ، تم القبض عليهما وأعدما في عام 1988 . ولم يرحم فاطمة من هذا القدر كونها عروسا جديدة لا تعلم شيئا عن نشاط زوجها أو المنظمة . وحينما بدأ أبواها في الاستفسار عما حدث لها قيل لهما إنها أرسلت في مهمة بالخارج مع زوجها . وحتى الآن يتملكهما الشك حيث إنهما لا يعلمان يقينا مصير ابنتهما .

وكان لنور محارب عما يدعى مصطفى عمران ، كاتب وشاعر فلسطيني من غزة ، حاصل على ماجستير في الأدب العربي من جامعة القاهرة . وكان صديقا لأبي موسى ، الثوري بمنظمة فتح ؛ ولكنه انضم لمنظمة أبو نضال وبسبب مهارته في الكتابة عين بلجنة المطبوعات الخاصة بالإدارة السياسية . وأثناء عمله التقى بابن أخيه ، نور محارب ، والذي لم يره منذ عشرين عاما .

وحينما قبض على نور قبض على عمه الذي تعرض للتعذيب الوحشي حتى اعترف أنه كان رئيسا لشبكة تابعة للموساد مهمتها إقناع العرب بإمكانية إقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل وترسيخ هذا الاعتقاد في أذهانهم .

ولقد كانا « نور محارب ومصطفى عمران » يحتلان وظائف مرموقة بلجنة العلاقات السياسية ولجنة المطبوعات . وكان الجميع يؤمنون أنهما ثوريان . ولكن من ليلة لأخرى أصبحا متهمان بالتجسس والخيانة ومن ثم فقد تم القضاء عليهما . وبالطبع لم يتم تقديم أية أدلة ضدهما . وصارا عدما لا يجرؤ أحد على ذكر كلمة في صالحهما . ويعلم زملاؤهما عما حدث لهما عن طريق مجلة المنظمة أو المذكرة الداخلية .

● مجاهد البيري « الاسم الحركي زهير خالد » ضحية أخرى . ولقد كان أحد النجوم الإرهابية الساطعة في سماء إدارة المخابرات ، كادر بارز في العمليات التي تتم بالخارج . ولقد أمضى عامين في سجن بإسبانيا لسفره بجواز سفر مغربي مزور . ولقد اشترك مع غيره في قصف قهوة بالكويت في عام 1985 .

وفي أحد أيام 1986 ، سألت مخابرات الطيران السورية رجلها في المنظمة عبد الكريم البنا « ابن شقيق أبو نضال » عما إذا كان يعرف العضو مجاهد البيري إذ إنهم يرغبون في استجوابه ومقابلته . كانت المنظمة لاتزال في سوريا . ولقد اضطرب أبو نضال حينما سمع بذلك . ولقد اعتقد أن السوريين يريدون تسليم مجاهد للكويت – بسبب قصف القهوة – والحصول على مقابل مادي مغر . ولهذا لم يوافق على استجواب البيري .

والحقيقة أنه في يوليو 1979 ، بنيس على الريفيرا الفرنسية كان البيري أحد أفراد القوة التي أغتالت ، بتحريض من العراق ، زهير محسن رئيس الحزب الفلسطيني ، الصاعقة ، بسوريا . وحينما طالبت سوريا باستجواب البيري شك أبو نضال في معرفتهم بدوره وأن سوريا كانت تعتزم الانتقام . وأصدر أبو نضال تعليماته للبيري بتجهيز عربة بها قنبلة « إحدى تخصصاته » ووضعها في منطقة الأمن الإسرائيلية بجنوب لبنان ولكن انفجرت القنبلة قبل موعدها – سواء مصادفة أو عمدا – وقتل البيري .

ثم بعث أبو نضال برسالة للسوريين : هل يريدون أن يقتل رئيس جبهة التحرير العربية ، الحزب الفلسطيني بالعراق ؟ وكما أوضح أحد الأعضاء السابقين للمنظمة أن أبو نضال كان يريد أن يقول « انظروا ! لقد قتلت زهير محسن بناء على طلب العراق وأنا على استعداد أن أقتل رجلهم بناء على طلبكم » .

ولكن السوريين رفضوا العرض .

أسباب التطهير :

كيف يمكن تفسير المذبحة التي تمت في عامي 1987-1988 ؟ وإذا كان أبو إياد

وغيره على حق فإن التحريض على ذلك جاء من الموساد . ولكن يمكن أن نجد تفسيرا من داخل منظمة أبو نضال كوسيلة لحل هذا اللغز . فلقد كان أبو نضال كما رأينا يشعر أن الأمور بدأت تفلت من قبضته وأنه لم يعد مسيطرا على المنظمة . وقد يكون هذا هو التفسير ولكن وجود تفسير ما لا يدحض التفسير الآخر .

لقد عمل أبو نضال ، أبو نزار ، عبد الرحمن عزة سويا لسنوات طويلة وأسسوا المنظمة سويا . ولكن مع عام 1981 ، ذهب أبو نضال لبولندا وأمضى السنوات القليلة التالية في أوروبا متنقلا بين وارسو وفيينا ، زيورخ وبرلين ، متاجرا في السلاح ، مؤسسا لشركات مالية ، مكتنزا لرءوس الأموال ، بعيدا عن الشرق الأوسط .

وكان يحاول أن يدير المنظمة من بعيد من خلال مذكراته الأسبوعية القاطعة ، عن طريق تعنيف مساعديه ، انتقادهم ، ومحاولة ضربهم بعضهم بعضا ، ولكن غيابه وأساليبه الديكتاتورية كانت مثار ضيق زملائه الذين كانوا يتحملون العبء اليومي .

ولقد تطورت المنظمة سريعا خلال السنوات الأولى من الثمانينات حينما كان مقرها سوريا بل امتد نشاطها وتوغلت أكثر في لبنان .

ولقد أسعد هذا التوسع في لبنان من يتولون إدارة المنظمة ولكنه في الوقت ذاته أثار حفيظة أبو نضال . لقد كان أبو نضال يعتقد أن الأعداد المتطوعة الجديدة تعد جسما غريبا على المنظمة غير قابل للهضم من شأنها هدم المنظمة بل إنها قد تمثل تهديدا حقيقيا لشخصه .

وتوالى النجاح والفشل على تاريخ هؤلاء المتطوعين حيث انتقلوا من قائد لآخر بحثا عن الأمن والاتجاه السياسي المحدد كما أنهم كانوا يفتقرون للخبرة السياسية وأقرب ما يكونون للتمرد والغلظة . بل إنه لم يتم تلقينهم المبادئ العشر للمنظمة . كما كانوا يفتقدون الشعور بالانتماء لمنظمة أبو نضال على العكس من الكوادر القديمة .

وليتمكن أبو نضال من الحكم على هذه التطورات بنفسه سافر سرا لسوريا لمدة

أسبوع في أكتوبر 1984 ثم لمدة أسبوعين في يناير 1985 حيث عقد اجتماعات مطولة مع قياداته . ثم ذهب لسوريا مرة أخرى في 22 أكتوبر 1985 ومكث بها عاما وخمسة أشهر بصفة غير منتظمة حتى غادرها في نهاية الأمر لليبيا في 28 مارس 1987 .

ولقد تصاعدت الخلافات الداخلية ووصلت لذروتها أثناء هذه الفترة مما حدا بأبو نضال أن يقتص من رفاقه بطريقة وحشية ليستعيد سطوته كاملة . وتم ذلك باتباع الخطوات التالية :

● قام في عام 1985 باستبدال أبو نزار وعبد الرحمن عَزة وحل محلهم أفراد من أسرته للتوقيع على حسابات المنظمة في سويسرا وغيرها من الدول .

● قام في أغسطس 1986 بعزل أبو نزار من منصبه كنائب له ليحل محله عصام مرقة الذي ينتمي للمنظمة كما ينتمي العبيد لأسيادهم وكما رأينا فإن أبو نزار أصبح يتولى منصبا أقل أهمية في إدارة المنظمة .

● العمل على طرد المنظمة من سوريا في يونيو 1987 من خلال بعض العمليات الإرهابية في روما ، وفيينا ، وكراتشي ، وإستانبول دون الحصول على موافقة من السوريين على ذلك .

● توزيع نشاط المنظمة بين لبنان وليبيا كوسيلة للسيطرة عليها .

● إقصاء عبد الرحمن عِزة من منصبه كرئيس لإدارة المخابرات في عام 1987 ونقله لكادر أقل ليحل محله مصطفى عوض « علاء » في لبنان وعلى الفرا « د . كمال » في ليبيا .

● وأخيرا وصلت الأمور لذروتها حينما أمر أبو نضال ببدء مذابح واسعة لقتل ضباط جيش الشعب وجنوده وذلك في نوفمبر 1987 .

ولقد وقع رفاق أبو نضال ضحايا لاستراتيجيته حيث لم يتمتعوا بالقدرة على الوقوف على مغزى تلك التحركات فيما عدا القلة منهم .

هل كانت هناك حقا مؤامرة ضد أبو نضال للإطاحة به في خريف 1987 كما ادعى ؟ الشيء المؤكد أن المقاومة تضاعفت منذ 1985 وتعالت الأصوات الرافضة لأسلوب أبو نضال . ولقد تعالت الأصوات الرافضة لمحاولة أبو نضال لتحويل المسار والعودة لسابق عهده وتعالت هذه الأصوات من جانب رجاله الذين أداروا شئون المنظمة أثناء غيابه ببولندا ، هؤلاء الذين أسسوا المنظمة في سوريا ثم نقلوا نشاطها للبنان ، وسعوا في نشاطها بل وقاتلوا في حرب المخيمات من خلال منطلق قومي ؛ هؤلاء تعالت أصواتهم بالرفض لما يفعله أبو نضال .

و لم يستسغ هؤلاء أن يدفعوا خارج سوريا ، كما لو يوافقوا على توزيع نشاطهم بين ليبيا ولبنان حيث إن هذا يضعف موقفهم . كما شعروا أن الوقت قد حان للابتعاد عن الإرهاب كلية بل ينبغي أن تكون لهم كلمة مسموعة في تحديد سياسة المنظمة .

ولقد شعروا بالرغبة في الانضمام للقوات التي تقاتل إسرائيل مع ملاحظة أنه مع عمليات القمع للفلسطينين في الأراضي المحتلة فإن إسرائيل تحتل جزءا كبيرا بجنوب لبنان وعادة ما كانت تُغير على الشمال من تلك المنطقة هم في ذلك يحذون حذو قوات حبش أو قوات جبريل أو قوات المقاومة اللبنانية المتعددة .

ولقد ألقى أبو نضال باللوم على العناصر الجديدة التي انضمت للمنظمة بعد انشقاقها عن فتح في عام 1985 ويأتي على رأس هؤلاء عاطف أبو بكر الذي تزعم التيار القومي الجديد . ولقد كان أبو بكر مميزا عن غيره لما يتمتع به من نظرات صارمة قاطعة ووجه شاحب شحوب الموت ووجد أبو نضال في أبو بكر خصما يجب التصدي له . ولقد شعر أبو بكر ورفاقه بضرورة الاشتراك في جدال حقيقي من خلال المكتب السياسي واللجنة المركزية . ولقد كانت وجهة نظرهم الخاصة بمستقبل المنظمة تختلف تماما عن وجهة نظر أبو نضال .

ولقد ركز الخلاف الذي تصاعد ببطء بين 1985-1987 ركز على السلطة ، المال ، العمليات التي تقوم بها المنظمة ، الاتجاه الأيدولوجي ، علاقة المنظمة بغيرها من الجماعات وكذلك صنع القرار . لم يكن هذا التحدي ظاهرا ولكنه كان كافيا

لإدخال الرعب في نفس أبو نضال حيث خشي أن يستخدم رفاقه قواتهم في الإطاحة به وربما بمساعدة سوريا وذلك للسيطرة على المنظمة . ولقد عاش كل من أبو نزار وعبد الرحمن عِزة في سوريا وعملا هناك كما كانت تربطهما علاقة وثيقة باللواء محمد الخولي من مخابرات القوات الجوية . ولقد كان هذا السبب كافيا من وجهة نظر أبو نضال ليوجه ضربته الأولى . ولذلك فقد صمم كما تقول بالعامية « أن يتغدى بهم قبل أن يتعشوا به » أي أن يظفر بهم قبل أن يظفروا به .

وربما كان هذا هو السبب وراء تعيين بعض الرجال الذين يثق فيهم في مناصب هامة هؤلاء الذين شاركوه الرأي في ضرورة وجود جماعات سرية تطبق قوانينها الوحشية وبمساعدتهم نجح أبو نضال في التخلص من الضباط والرجال الذين كانوا سيمدون خصومه بالقوة اللازمة للتصدي لأبو نضال ومواصلة التحدي .

سقوط أبو نزار :

لقد زادت المذابح الجماعية التي أمر بها أبو نضال في لبنان وليبيا من حدة التوترات . ولقد كان أبو نضال قادرا على الحكم بالموت على شخص ما كما كان يمتلك القوة التي تمكنه من تنفيذ الحكم . ولقد صمم عاطف أبو بكر على فضح أبو نضال والكشف عن تلك الممارسات البشعة التي تقشعر لها الأبدان .

وبدأ أبو بكر يوجه مذكرات لأعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية في شهري مايو ويونيو من عام 1988 مطالبا بلجنة تحقيقات للتحقيق في هذه المذابح مما يعد تحديا سافرا لأبو نضال . ولم يكتفِ أبو بكر بكتابة مذكرات ولكنه حاول أن يتغلب على أبو نزار ، أحد الأعضاء المؤسسين للمنظمة ، النائب السابق لأبو نضال والذي كان لايزال يتمتع بقوة وشعبية تمكنه من تغيير اتجاه الحركة .

ولقد أجاب أبو نضال على ذلك عن طريق فخ محكم . حينما انتقلوا لسوريا في عام 1987 ، انتقلت عائلة أبو نزار – زوجته وأطفاله – للجزائر حيث عُين أبو نزار هناك ولكنهم كانوا يشعرون بوحدة مفزعة حيث إنه كان كثير الأسفار في مهمات خاصة بالمنظمة . ولذلك فقد فكرت الأسرة في الانتقال لقبرص أو حتى تشيكوسلوفاكيا .

ولهذا اقترح أبو نضال على أبو نزار ببراعة تامة أن تتجه أسرته لدمشق حيث سعدوا بالإقامة هناك لسنوات عديدة ولقد قبل أبو نزار الاقتراح عن طيب خاطر ونجح في الحصول على جوازات سفر ليبية لأسرته وأرسلهم لسوريا مع نهاية أغسطس 1988 . ثم اتهم أبو نضال أبو نزار بأنه عميل سوري . حيث إن أسرته انتقلت لسوريا بعد طرد المنظمة من هناك مما يدل على أنه كان على صلة بالمخابرات السورية التي وافقت على عودة أسرته لسوريا .

ولقد وقع كل من أبو نزار وعاطف أبو بكر في خطأ آخر ولكنه في هذه الحالة خطأ قاتل . فلم يكتفيا بالتحدث سويا لفترات — مما يعد انتهاكا لقواعد المنظمة . بل إن عاطف رتب مقابلة سرية لأبو نزار مع أبو إياد ، رئيس مخابرات منظمة التحرير الفلسطينية وتمت المقابلة فى الجزائر العاصمة فى أوائل شهر أكتوبر من عام 1988 .

ولقد ذكر لي أبو إياد هذة المقابلة التى تمت بينه وبين أبو نزار وذكر لى هذا فى تونس فى عام 1990 . وقال لي إنه كان لقاء طويلا ، عاصفا فى بعض الأحيان ولكنه كان يتسم بالصراحة وبدا أبو نزار خلال أول ساعتين كالمتحدث الرسمي لأبو نضال . ولقد فسر أبو إياد ذلك بأنه شيء طبيعي لرجل رافق أبو نضال لمدة خمس عشرة سنة وكان شريكا له في الإرهاب وكافة الجرائم .

« ثم فجأة اختلف حديثه في صحوة مفاجئة لضميره . وبدأ يقص عليه بعض الحكايات التي يصعب تصديقها . كيف كان أبو نضال يهينهم ويعمل على إذلالهم . كيف أنه كان يُملي عليهم ما يجب أن ترتديه زوجاتهم . كيف كان يتدخل في كل شيء .

ولقد كان الأمر أسوأ من الحياة في المجتمع الصيني . وأضاف قائلا إن أبو نضال أصبح سيكوباتيا وإنه يعاني من اضطراب عقلي ! » .

« ماذا يستطيع أن يفعل الآن ؟ أين المفر ؟ هل يمكن أن يضمن سلامته ؟ هل ينشق عن المنظمة ويأخذ معه أكبر عدد ممكن من الرجال ؟ ولقد أجبته قائلا إن

هذا هو ما ينتظره أبو نضال . فكل ديكتاتور في التاريخ يرغب دائما في التخلص من رجاله الأقوياء ثم يذرف دموع التماسيح عليهم ! » .

« لقد قلت له أن يقاتل . يجب أن يسعى لتدمير أبو نضال وإنهاء سطوته . حتى وإن اقتضى هذا سجنه . ولم أشأ أن أقول له اقتله ولكن كلانا كان يعلم أن بقاء أبو نضال حيا يمثل خطرا ينبغي التصدي له » .

ولقد علم أبو نضال بمقابلة أبو نزار لأبو إياد ربما عن طريق مراقبة المكالمات التليفونية ويعد هذا دليلا على خيانة تعاقب بالموت .

وبعد الاجتماع بأسابيع قليلة وصباح يوم الثامن عشر من أكتوبر 1988 ، قتل أبو نضال رفيقه القديم أبو نزار في أطراف طرابلس في بيت كبير في حي شق الجمعة وهو إحدى ثلاث فيلات وضعها القذافي تحت تصرف أبو نضال .

ولقد كانت حجرة النوم الرئيسية في حجم شقة كاملة ملحقا بها حمام خاص ومطبخ .

وكانت هناك حجرة أخرى كان أبو نزار ينام بها في بعض الأحيان وفي هذه الحجرة طبقا لبعض المصادر الداخلية تم تعذيب أبو نزار وقتله .

أما عبد الرحمن عزة فلقد كان في مهمة بالسودان وطبقا لاستجوابه المسجل فلقد عاد لليبيا مساء السابع عشر من أكتوبر وكما قال :

> **« ولقد كان من عادتي عند العودة من أية مهمة بالخارج أن اتجه مباشرة لأبو نضال لإعطائه تقريرا عن مهمتي وذلك قبل توجهي لمنزلي وخاصة إذا كان الموضوع حاسا أو شائكا وأريد أن أطلعه عليه » .**
>
> **« وفي هذه المرة حدث شيء غريب . لقد اتجهت لمكتبي وقبل أن التقط أنفاسي رفعت سماعة التليفون لاتصل بأبو نضال معتقدا أنه سيرغب في رؤيتي في الحال . لقد كان مكتبي يبعد بضع دقائق عن مكتبه بالسيارة » .**

« مرحبا ! لقد عدنا » قلت له .

أجاب : « مرحبا بكم » ولكنه قالها بصوت ميت هادئ .

« سنتقابل مساء الغد » .

ولهذا فقد اتجه عِزة لمنزله حيث قالت له زوجته إن أبو نزار حاول مرارا الاتصال به . ولقد أدهش هذا عزة لأنه لم يكن مسموحا لأعضاء المنظمة الاتصال ببعضهم بعضا وحينما كانا يلتقيان في ليبيا فإن هذا كان يتم في هدوء تام .

ولقد حاول كل من عبد الرحمن عِزة وعاطف أبو بكر إعادة ترتيب أحداث 17-18 أكتوبر . أخذ أبو نضال كل من أبو نزار وعاطف أبو بكر بعد ظهر يوم السابع عشر من أكتوبر لزيارة القذافي بمنزله . ثم انطلقا بعد ذلك لبيت أحمد جبريل ، رئيس بلب PELP – القيادة العامة ، وذلك بقرية بالقرب من طرابلس .

وبعد الانتهاء من هذه الزيارات الاجتماعية ، أوصل أبو نضال أبو نزار للفندق فقد كان يقيم في فندق أثناء زيارته لليبيا عند عودته من الجزائر ؛ ثم أوصل عاطف لمنزله . ولقد اتفقوا جميعا أن أمجد عطا ، نائب الأمين العام ، سيمر على أبو نزار في الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي لأخذه لاجتماع ما ، أما عاطف فسوف يمر عليه أمجد فيما بعد حوالي الساعة العاشرة صباحا .

ولكن لم يمر أحد على عاطف أبو بكر لأخذه للاجتماع . فاتصل عاطف بأبو نضال والذي أجاب قائلا إنه مشغول وطلب تأجيل الاجتماع لليوم التالي .

ولقد كان عاطف يتوقع أن يتصل به أبو نزار أو يمر عليه في هذا اليوم – الثامن عشر من أكتوبر – ولكنه لم يسمع منه طوال اليوم . وحينما ذهب عاطف في اليوم التالي للاجتماع بأبو نضال لم يكن أبو نزار حاضرا . وحينما سأل عنه قال أبو نضال إنه عاد للجزائر .

واتصل عاطف في الظهيرة بمنزل أبو نزار في الجزائر وعلم أنه لم يصل هناك . ولقد سأل أبو نضال عن ذلك فقال له إن أبو نزار في طريقه للبنان .

وكما قال لي عاطف في تونس في عام 18990 « لقد شعرت أن هناك شيئا غريبا » . ومما زاد من قلقي أن متعلقات أبو نزار كانت لاتزال بحجرته بالفندق . وكان يقيم بالطابق الثامن بفندق باب البحر . وظلت متعلقاته هناك حتى جمعها عاطف حمودة من الإدارة المالية في 25 أكتوبر أي ثمانية أيام بعد اختفائه .

« وبعد عدة أيام وصل تلغراف من لبنان بوصول أبو نزار هناك . وأرسل أبو نضال نسخة لي بذلك وكان هذا في حد ذاته أمرا غير مألوف حيث لم يكن من عادته إرسال تلغرافات لي . ولقد زادت قناعتي بأن هناك ما يسوء » .

ولقد كان عليه أن يتجه لعدن في ذلك الوقت ولقد عاد عاطف لليبيا بعد ذلك بشهرين في أوائل عام 1989 . وحتى في ذلك الوقت لم يكن أبو نزار قد ظهر بعد . وكان أبو نضال يتهرب من إجابة أية أسئلة عنه وإن بدأ يوجه اتهامات خطيرة ضد نائبه السابق ومنها أن أبو نزار اختلس من أموال المنظمة ليشتري بها بيتا له ولأسرته وأن هناك 40,000 دولارا أمريكيا عجزا في الحسابات .

ولقد كان يأمل أصدقاء أبو نزار بأن يكون محتجزا في أحد سجون أبو نضال حيث إنه لم ترد حتى ذلك الوقت أية أنباء عن مقتله . وفي أبريل 1989 ، واجه عاطف أبو بكر أبو نضال . فلقد مر ستة أشهر على اختفاء أبو نزار ، وأراد أن يعلم إذا كانت هناك وسيلة لإنقاذه .

ولقد تم هذا الاجتماع ليلا في حي الأندلس بطرابلس في أحد المنازل الآمنة التي كان أبو نضال يستخدمها أحيانا . أما الحرس الخاص لأبو نضال فكانوا يقيمون في فيلا مقابلة لهذا المنزل وكان أربعة من حرسه المسلحين يتنقلون ما بين المطبخ والردهة وذلك أثناء حديثهما في الصالة الواسعة الفاخرة الأثاث . ولقد كانوا يدخلون الحجرة من حين لآخر لمعرفة ما إذا كان أبو نضال يحتاج لهم أم لا .

ولقد قال لي عاطف : « لقد كنت بمفردي وشعرت أن هناك فخا ينصب لي . لا سبيل للخروج . حتى وإن فرض أنني سأخرج سالما للشارع فلن أبعد عن هذا .

« ولقد سألت أبو نضال عن مبرراته لاعتقال وربما إعدام أحد الأعضاء القدامى بالمنظمة دون الحصول على موافقة القيادة . فلقد اختفى أحد أعضاء القيادة ولا يعلم رفاقه أهو حي أم ميت ؟!

« ولقد سألته : أتتهم نائبك بأنه عميل ؟ كيف ستفسر هذا للمنظمة ؟ إذا كان أبو نزار خائنا فكذلك ابنتي ذات التسعة أعوام ! » .

ولقد قال لي عاطف إنه حاول أن يتكلم بالطريقة الهادئة التي توقعها منه أبو نضال . ولقد بدا أبو نضال عصبيا ، فلقد نهض من مكانه أكثر من مرة ثم جلس مرة أخرى . ولقد اعتقد عاطف أنه يخطط قتله . وبدأ أبو نضال في الزعم أن أبو نزار عميل سوري . وصاح عاطف « ولكنه كان نائبك ! ولقد كان مسئولا عن كل شيء في غيابك ، الأسلحة ، المنشآت ، الكوادر . لماذا يخونك الآن ؟ كيف يصبح فجأة عميلا سوريا في الجزائر ؟ إنه شيء غير منطقي » .

وفي نهاية الأمر ، سأله أبو نضال صراحة إذا كان يعتقد أن أبو نزار وعبد الرحمن عزة يتآمران ضده . وأجابه عاطف قائلا إنه لا يشك في براءتهم كما لايشك في براءة ابنته مثلا . رمقه أبو نضال بنظرة غاضبة جعلته يشعر أنه سيتم قتله في الحال .

وكما قال لي عاطف : « ولقد سمح لي في نهاية الأمر بالعودة لمنزلي عند منتصف الليل . ولقد وافقت على مقابلته في اليوم التالي كمحاولة لتهدئته . ولكنني خرجت من عنده وكلي ثقة أنه قد قتل أبو نزار » .

ولقد علم عاطف أبو بكر بعد ذلك بفترة محدودة في مايو 1989 أن أم نزار بعثت بخطاب طويل للمنظمة بشأن زوجها . ولقد طلب عاطف أن يطلع على محتويات هذا الخطاب . ولهذا حضر أبو نضال وأعضاء آخرون من اللجنة المركزية لمنزله واتفقوا على أن يقرأ أمجد عطا الخطاب بصوت مسموع للحاضرين .

ولقد وصف عاطف المشهد قائلا : « كان أبو نضال يجلس في مواجهتي ليراقب تعبيرات وجهي أثناء قراءة الخطاب . كما ترى فهذا ليس أسلوب أم نزار أو لغتها ولكنه لابد أنه كُتب بواسطة المخابرات ! » .

« في واقع الأمر لقد كان الخطاب جريئا وفي صميم الموضوع ولقد كتبته أم نزار بخط يدها . ولقد وصفت كيف أنها أثناء بحثها عن زوجها ذهبت لدكتور غسان وعصام مرقة في صيدا وأنهما أساء معاملتها وعمدا لإذلالها » .

ولقد قال لي عاطف : « لقد انزعجت من ذلك وتدافعت الدموع لتغرق وجهي . ولقد أمر أبو نضال أمجد عطا بالتوقف عن القراءة وسألني : ما الخطب ؟ وكانت إجابتي : لا شيء . وطلبت منهم مواصلة القراءة . ولكني لم أعد استمع لما يقرءون . فلقد كنت أفكر : هل هذه هي اللحظة المناسبة أم من الأفضل أن انتظر لبعض الوقت ؟ ولذلك فقد قررت أن هذه هي اللحظة المناسبة . « حينما فرغ عطا من القراءة سألني أبو نضال عن رأيي . فتكلمت بوضوح وبساطة :

« إن ما تتعرض له أم نزار هو ما ينتظر زوجاتنا ! وهنا يجب أن نفترق . فأنتم حفنة من المجرمين ! » .

« وحينما فرغت من كلامي حاول أبو نضال أن يسيطر على الموقف .

وقال لي إنه سيتصل بي حينما أهدأ ولكن نظراته كانت قاتلة منذرة بالشر » .

* * *

الفصـــل الرابـــع عشـــر

مبارزة حتى الموت



مبارزة حتى الموت

في أبريل 1987 ، التقى كل من أبو إياد وأبو نضال وجهًا لوجه وهما اللذان حاولا لعشرات السنين قتل بعضهما بعضا . وكلاهما متمرس في أعمال المخابرات فالأول رئيس مخابرات منظمة التحرير الفلسطينية ، أما الثاني فهو يدير منظمته الكبيرة ذات التمويل الضخم وكلاهما لديه أصول سرية في دول كثيرة ولديه شبكة من القناصة . ولقد خاضا الكثير من المعارك وإن كانا لم يحققا أي فوز حاسم . لقد كانا في يوم ما أصدقاء ولكن صداقتهما تحولت إلى كراهية مما يعطي مثالا على المنازعات المدمرة التي لازمت حركة المقاومة الفلسطينية منذ نشأتها .

ولم ينجح أبو إياد في الوصول لأبو نضال بسبب ما تمتع به من حماية في كثير من الدول العربية وهي دول توجد مصالح مشتركة بينها وبين منظمة التحرير الفلسطينية ومن ثم فلم تكن المنظمة لتقدم على المخاطرة بذلك .

ولم يكن أبو إياد كذلك بالهدف السهل فلقد كان محبوبا في الحركة الفلسطينية مما أثمر مشاعر انتماء تجاهه . كما كان يتمتع بحماية محكمة . ولهذا فقد كان يصعب على أبو نضال أن يجد من ينجح في اغتياله . ومن ثم فلقد حرص كلاهما على حياد الطرف الآخر عن طريق علاقات دبلوماسية مع الدول العربية والأوروبية وعن طريق الاستغلال والتسلل وهي أدوات تقليدية لعمل المخابرات .

ولقد كان إرهاب أبو نضال يمثل مشكلة هائلة لأبو إياد . لقد كانت ممارسات أبو نضال مدمرة للقضية الفلسطينية مما دفع بأبو إياد لتكثيف الوقت والجهد من أجل الحيلولة دون تلك الممارسات . ولقد ذكر لي أن منظمة التحرير الفلسطينية نجحت في إجهاض حوالي 120 محاولة من حوالي مائتي عملية قام بها أبو نضال وذلك منذ عام 1980 . وكما قال لي :

« أشعر أننا دفعنا الكثير من الرعب بعيدا عن العالم ولا أريد أن أذكر هذه الأشياء حتى لا يظن البعض أننا نقوم بدور الشرطي في أوروبا ! » .

وعلى أية حالة فلقد فرضت أحداث لبنان في 1985-1986 هدنة بين الخصمين . وكما رأينا فإن رجال أبو نضال ساندوا فتح ضد أمل ، الميليشيا الشيعية التي تدعمها سوريا ، وذلك أثناء حرب المخيمات . ولقد أدى هذا لتضميد الجراح فمن غير المعقول أن يساند الفلسطينيون فتح ويسعى قادتهم لقتل بعضهم بعضا .

حوار في الجزائر :

ولقد اجتمع الطرفان في الجزائر بمناسبة الجلسة الثامنة عشرة للمجلس القومي الفلسطيني وهو « البرلمان الفلسطيني في المنفى » في الفترة من 20-26 أبريل 1987 والذي عقد في مركز المؤتمرات « رايسنز دي بين » والذي يبعد خمس عشرة كيلو مترا عن غرب الجزائر . وعقدت هذه الجلسة تحت شعار « جلسة الوحدة » وساعد على ذلك الجو السائد بين الأحزاب الفلسطينية المختلفة . ولقد كان عرفات يتعرض لضغوط أقل وبالتالي أكثر مرونة . ولقد كانت جبهة الإنقاذ القومية - الفلسطينية التي أسسها خصومه الذين تساندهم سوريا - على حافة الانهيار .

اختلف أبو نضال مع السوريين وانشق عنهم . أصدقاؤه الجدد ليبيا وعلى نطاق أضيق الجزائر - الدولة المستضيفة للمؤتمر - كانتا تحاولان من خلف الكواليس إصلاح العلاقات بين الأحزاب والمنظمات الفلسطينية المختلفة .

هل يمكن إصلاح ما أحدثه الانشقاق التاريخي في فتح ؟ هل يمكن أن ينهي كل من أبو نضال وفتح الحرب الدائرة بينهما منذ عام 1974 ؟ لقد عمل الوسطاء بجد . ولكن كلا الطرفان كان يخشى ما يخفيه الآخر : لقد كانت الشكوك تساور أبو نضال من أن يحاول أبو إياد العمل من أجل تصدع منظمته ؛ أما أبو إياد فكان على يقين تام من أن أبو نضال - بتشجيع من إسرائيل - يسعى جاهدا للتسلل داخل منظمة التحرير الفلسطينية وتدميرها بوصفها منظمة إرهابية .

وكان من المقرر في طرابلس قبل جلسة المجلس القومي الفلسطيني أن يلتقي كل

من عرفات وأبو إياد بأبو نضال ولكن في اللحظة الأخيرة أعرب أبو نضال عن عدم رغبته في لقاء أبو إياد . وقيل إنه غضب من مقال نشر في جريدة Le Nouvel Observateur الفرنسية الأسبوعية ونقل فيه على لسان أبو إياد « كما أوضح أبو إياد بعد ذلك أن هناك سوء فهم في النقل عنه » أنه قال إن والدة أبو نضال كانت خادمة عند العلوي . ومن ثم فقد ذهب عرفات للاجتماع بمفرده وعاد الساعة الثانية صباحا للفيلا التي يتقاسمها مع أبو إياد .

وكما قال لي أبو إياد : « طرق على الباب وبدا مضطربا . وقال لي أود لو لم أكن قد ذهبت » . لقد طلب أبو نضال تعيين ممثلين له بكل من اللجنة التنفيذية والمجلس القومي الفلسطيني . أعلى جهتين بمنظمة التحرير الفلسطينية ولكن عرفات اعترض على ذلك فما كان من أبو نضال إلا أن بدأ في إهانته والصياح بصوت عالٍ بطريقة غير مقبولة لعرفات .

ولقد اقتضى الأمر وساطة كل من الخال آيات ، رئيس المخابرات الجزائرية في ذلك الوقت ، والأخضر الإبراهيمي ، أحد كبار الدبلوماسيين بالجزائر والآن وزير خارجيتها ، اقتضى الأمر وساطتهما لعقد اجتماع بين أبو إياد وأبو نضال في فيلا بالقرب من مركز المؤتمرات . واقترح الجزائريون أن يتم اللقاء في وجود الحرس الجزائري وذلك لتفادي أية مصادمات بين رجالهما .

ويكمل أبو إياد القصة قائلا :

« دخلت ورأيته لأول مرة منذ أربعة عشر عاما . لقد بدا شاحبًا ، مريضا عليلا وقد ربى شاربا . ولقد تصافحنا على الرغم من توترنا . لقد كنا بمفردنا . لقد كان متواضعا ومهذبا للغاية . ولم نستطع أن نحدد كيف نناقش الموضوعات المؤلمة التي أتينا من أجلها » .

لقد قال أبو إياد إنه أراد أن يسأل أبو نضال عن أمور كثيرة تتعلق بهجومهم على بعضهما بعضا ، والأسباب وراء قيامه ببعض العمليات ، وآماله للمستقبل وسوء تصرفه مع عرفات .

أجاب أبو نضال أن ما أزعجه وجود حارس ضخم الجثة مع عرفات أتى به عرفات حين حضر المقابلة . ووجود الحارس جعل أبو نضال يضطرب ولكن عرفات لم يصرفه . وبالطبع فالشكوى الرئيسية أن عرفات رفض ضمه لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ولقد ناقشا سويا ولمدة طويلة محاولات الاغتيال التي دبرها كل منهما ضد الآخر . صاح أبو نضال : « لقد علمتني كيف أقتل ! » « لقد قتلت صديقي أحمد عبد الغفور . إنني أحذو حذوك » .

أخذ أبو إياد يعدد أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية الذين قتلوا غدرا — حمامي ؛ ياسين ، قلق ، خضر ، سرطاوي . واعترف أبو نضال بقتل حمامي بسبب اتصالاته السرية مع إسرائيل . ولهذا فقد استحق القتل ليصبح عبرة لغيره . تساءل أبو إياد « ماذا عن الآخرين ؟ » وحينها استفزه بقوله إنه إداة طيعة في أيدي إسرائيل التي تجند بعض العملاء في منظمته أقر أبو نضال ذلك في هدوء تام . نعم هناك بعض العملاء الإسرائيليين في منظمته وفي بعض الأحيان يمدونه بمعلومات وأنه يعمل على تصفيتهم واحدا تلو الآخر .

ولقد قال لي أبو إياد إن حديثه كان مليئا بالتفاخر الأجوف . فلقد زعم أنه قبض على أربعمائة عميل للمخابرات الأردنية وقال إنه سيقتلهم جميعا في يوم واحد .

ولقد أبلغ الجزائريين أنه سيقتل ما لا يقل عن خمسة آلاف أوروبي إن تعرضت الوفود الخاصة باجتماع المجلس القومي الفلسطيني بالجزائر لأي أذى . وقال إن هناك رجالا ينتظرون أوامره فيما لا يقل عن ثلاثين دولة ومن بينهم عملاء له في البيت الأبيض وكذلك في البلاط الملكي السعودي . ولقد قال إنه في حاجة ماسة لثروته التي تقدر بمئات الملايين من الدولارات وذلك لشراء هؤلاء العملاء . وعرض مشاركة فتح في هذه الأصول إذا اختارت فتح التعاون .

ولكن سرعان ما تخلى أبو نضال عن الاستئساد ليفتح المجال أمام الانحطاط والركاكة . وقال في ثقة « أنت الشخص الوحيد الذي يفهمني » . ثم فتح أزرار

قميصه ليكشف عن آثار العملية الجراحية التي أجريت له في القلب . قال لي : « إنني مريض فقد تمر شهور قبل أن أتمكن من مغادرة منزلي . وقد أموت هذا العام . ولكن قبل وفاتي أريد أن أصبح شيئا . أريد أن أعلم العالم أنني هجرت الممارسات السرية لأدخل عالم السياسة » .

وقال لي إنه يعتبر أن منظمته تأتي في المرتبة الثانية بعد فتح في الحركة الفلسطينية . ولهذا يجب أن تمثل في كل الهيئات الفلسطينية شأنها في ذلك شأن المنظمات والأحزاب الأخرى . « ينبغي أن تساعدني لتحقيق هذا تماما ولهذا أخذت القلم والورقة وكتبت ما يلي :

1 – وقف كل الحملات الدعائية المضادة فيما بيننا .

2 – التعاون في سائر الأمور المتعلقة بالأراضي المحتلة .

3 – حظر كامل لكل العمليات الإرهابية – ضد العرب ، الغرب والإسرائيليين » .

وقال أبو نضال إنه لابد من استشارة أعضاء منظمته قبل الموافقة . وحددا موعدا ليلتقيا مرة أخرى . وأثناء اللقاء الثاني الذي تم في فيلا ساحلية تحت حراسة من المخابرات الجزائرية كان أبو نضال غاضبا تماما .

وتساءل في تذمر : « أي نوع من أنواع الاتفاق هذا ؟ تريد أن أتوقف عن القتل وكل العمليات . تريد مني أن أصمت وألا أتدخل في أي شيء . إذا وافقت على هذه الشروط ماذا يتبقى لي ؟!

« أنتم منظمة تعمل في النور ونحن منظمة سرية فلماذا لا نعمل سويا ونكمل بعضنا بعضا ؟! » .

أجاب أبو إياد : « حسنا ولكن شريطة أن تصدر الأوامر من خلالنا »،بدا أن أبو نضال يفكر مليا في الاقتراح ولهذا فقد طلب إجراء جلسة مباحثات أخيرة يشترك فيها كبار أعضاء منظمته . ولكن أدرك أبو إياد أنه قد أضاع وقته في هذا اللقاء وذلك

بمجرد اجتماعهما سويا . فلقد انتهز أبو نضال فرصة تواجد رجاله وتحول لشخص استفزازي ، عدواني ، ساخر .

وخاطب أبو نضال الحاضرين قائلا : « دعوني أقص عليكم قصة صغيرة عن أبو إياد . حينما هاجمت إسرائيل مخيم فتح في الأردن عام 1986 في معركة الكرامة فزع الناس وتدافعوا يبحثون عن أبو إياد وكلهم قلق من أن يكون قد قتل ولكنني طمئنتهم قائلا إنه في بيتي يرتعد خوفا ! » .

لم يستطع أبو إياد أن يصدق أذنيه وصاح قائلا : « ياللك من كاذب ! لم يستطع أحد أن يجدك أنت ليس أنا ؟! » .

ولقد كانت هذه هي المرة الأخيرة التي يريان فيها بعضهما بعضا .

انسلاخ عاطف أبو بكر عن المنظمة :

لم تخرج مفاوضات الجزائر في أبريل 1987 عن كونها جولة أخرى في المبارزة بين أبو نضال وأبو إياد . وخرج أبو إياد من هذه المفاوضات باعتقاد راسخ أن الموساد يحرك أبو نضال ولهذا فلقد قرر أبو إياد التسلل داخل منظمة أبو نضال والعمل على انهيارها .

ولقد كان يعلم علم اليقين أن أية اضطرابات داخلية بالمنظمة ستؤدي لاضطراب أبو نضال وتدفعه لمحاولة حماية نفسه مما يلهيه عن العمليات الخارجية .

واعتقد بعض الفلسطينيين فيما بعد أن أبو إياد قد دس عاطف أبو بكر ، أحد مؤيدي فتح القدامى ، دسه على أبو نضال كعميل محرض في أوائل 1985 وذلك لإحداث نوع من الانفجار الداخلي في صفوف منظمته . ولقد كان هذا هو اعتقاد أبو نضال حينما انسلخ أبو بكر عنه . ولكنني تحدثت طويلا مع كل من أبو إياد وعاطف أبو بكر ومن خلال حديثي معهما أشك في هذه النظرية . فأبو بكر رجل ذو مبادئ ، ثوري مميز لا يمكن أن يبيع نفسه وينفذ هذه الخطة .

ولقد قام أبو نضال ببعض العمليات الإرهابية في أواخر عام 1987 ، وهي الفترة

التي دمر فيها قواته بلبنان وربما يكون تخوفه من أن يكون أبو إياد يثير رجاله ضده قد حدا به للقتل . ولقد وصلت هذه المذابح الداخلية لذروتها في أكتوبر 1988 بقتل أبو نزار وهو الوقت الذي بدأ فيه أبو نضال يستأنف نشاطه الإرهابي من خلال ممارساته بقبرص ، والسودان واليونان .

وبحلول عام 1989 ، ولت مرحلة التصالح بين الأحزاب والمنظمات الفلسطينية المختلفة وبين منظمة أبو نضال ووصل التصارع بينهما لأخطر مراحله وعاد أبو نضال للعمل في سرية كما كان الحال من قبل . وبحلول مايو من هذا العام ، فاض الكيل بعاطف أبو بكر . ودفعته ممارسات أبو نضال الإرهابية ، مثل قتل أبو نزار والمذابح التي أودت بحياة المئات ، وما ألحقه من ضرر بالقضية الفلسطينية كل ذلك قد دفع أبو بكر للتمرد .

لم يعد هناك سبيل لإخفاء أنباء المذابح الجماعية وحينما علم الرجال بليبيا بما حدث في جنوب لبنان ، وحينما علمت المجموعة اللبنانية بالتعذيب والممارسات الوحشية في ليبيا ، تدافع أعضاء منظمة أبو نضال في محاولة لإنقاذ حياتهم . طالب عشرات المقاتلين باللجوء لمنظمات فلسطينية أخرى بلبنان ؛ في حين فرَّ غيرهم لسوريا . فرت بعض الكوادر للأردن ؛ البعض لمنطقة الخليج ، والبعض الآخر لكندا . وفي ليبيا وكان أعضاء المنظمة يرتعدون خوفا من قبضة أبو نضال الحديدية إلا أن بعضهم قد نجح في الفرار لتونس . أما من لم يستطع الفرار فقد بقي كما هو ولكن بعد أن أصبحت حالته المعنوية في الحضيض .

ومكث أبو بكر بطرابلس لبعض الوقت ولكن بعد سماعه لخطاب أم نزار وبعد نعته لأبو نضال ورجاله بأنهم حفنة من المجرمين كان قراره بالانسلاخ عن المنظمة . وأصبح مقتنعا كأبو إياد أن أبو نضال أداة منفذة للسياسة الإسرائيلية .

لقد وضع أبو بكر مزيدا من الأقفال على بابه ، جند بعض أصدقائه من منظمة أحمد جبريل لحراسته وحذر أبو نضال من أن يحاول قتله . وأشاع الخبر أنه يفكر في الذهاب لموسكو ، عدن أو بودابست وعلم أن أبو نضال يفضل رحيله لبودابست حتى يتمكن من قتله هناك .

وكان أبو بكر قلقا على زوجته وابنته ذات التسعة سنوات . لقد كان يخشى أن يقوم بلطجية أبو نضال باختطاف أسرته بعد اختطافه وأخذ مفاتيح المنزل منه . وكلما غادر منزله أخفى المفاتيح تحت حجر في حديقة عبر الشارع . وفي إحدى المرات رأته زوجته وهو يخفي المفاتيح . ثم أحضرت المفاتيح وطالبته بتفسير لهذا عند عودته في المساء .

قالت له : « أشعر أنك في خطر ومن الأفضل أن تقول لي » . وكان سؤالها الأول عن أبو نزار . أرادت أن تعرف ماحدث له . حينما أبلغها عاطف أن أبو نضال قد قتله منذ أكتوبر الماضي قالت له إن هذا يتفق مع ظنونها وخاصة بعدما سمعته يتحدث لأم نزار بدمشق عبر الهاتف .

ثم أخبرها عاطف بالمحاولات السرية ، القتل ، والتعذيب ، والأطفال الذين يختفون ويقوم أقاربهم بتربيتهم . ولقد صُدمت بما سمعت على الرغم من أنها كانت على دراية لحد ما بطبيعة عمل زوجها . ولقد تأثر بصرها بما سمعت من تفاصيل مروعة ، ومن خوفها على طفلتها ولقد فقدت البصر تقريبا .

وكما قال طبيب العيون إن إنسان العين « النيني » قد اتسع بطريقة غير مألوفة .

ونجح عاطف أبو بكر في الفرار جوا للجزائر في 28 أغسطس 1989 ثم رتب لتلحق به زوجته وابنته فورا بل واستخرج جوازي سفر دبلوماسيين لهما أحدهما جزائري والثاني يمني . ولقد اتصل بزوجته هاتفيا مخاطبا إياها بالتشيكية اللغة التي تعلمها هو وزوجته ببراغ حينما كان ممثلا لمنظمة التحرير هناك وطلب منها أن تأخذ طائرة اليوم التالي المتجهة للجزائر مستخدمة جواز سفرها الجزائري . ولسلامتها ، فعليها أن ترتب ليرافقها جيرانهم الليبيون وكذلك الممثل المحلي لأحمد جبريل عليه أيضا أن يرافقها للمطار .

ولكن حدث ما لم يكن متوقعا . فلقد استبقاها موظفو المطار لمدة خمس ساعات أثناء فحص أوراقها - ربما بتوجيه من أبو نضال - حتى أقلعت الطائرة بدونها . لقد تيقنت أنها ضحية فخ قد نصب لها . وبتحدٍ ، مزقت تذاكر الطيران أمام رجل أبو نضال بالمطار . وقالت له :

« بلغ أبو نضال ، إن كان يسعى لقتال فعليه أن يقاتل إسرائيل بدلا من امرأة ! » .

« ولم تجرؤ على العودة للمنزل ولهذا فقد طلبت من ممثل أحمد جبريل أن يأخذها وابنتها ليبيتا عنده .

وفي نفس الوقت ، قرر عاطف أبو بكر ألا يقابل الطائرة القادمة من ليبيا خوفا من محاولة أبو نضال قتله هناك . ولذلك فقد أرسل من ينوب عنه وقد أبلغه أن زوجته ليست على الطائرة فاتصل عاطف بممثل أحمد جبريل بليبيا الذي أخبره أن زوجته وابنته عنده فاطمأن قلبه .

ولقد حدثها بالتشيكية قائلا :

« اتبعي تعليماتي بدقة . سوف اتصل برجال أبو نضال وأسألهم عن المشكلة التي أثيرت بالمطار . وسأبدو طبيعيا وسأبلغهم أنك تنوين الرحيل يوم الأحد وأطلب منهم أن يقوموا بالترتيبات اللازمة .

« في نفس الوقت ، يجب أن تتركي ليبيا اليوم عن طريق البر لتونس . سافري بجواز السفر اليمني واطلبي من جيراننا الليبيين أن يذهبوا معك » .

وهكذا غادرت زوجة أبو بكر ليبيا برا مستقلة سيارة مع ابنتها وأصدقائهم الليبيين ووصلوا آمنين لتونس بعد اثنتى عشرة ساعة . وبوصولها تونس عاد إليها بصرها . وطار أبو بكر من الجزائر حيث تم لم الشمل في تونس .

قيادة الطوارئ :

كان أبو بكر عضوا بارزا في الدوائر الفلسطينية ولهذا جاء انشقاقه عن المنظمة ضربة قاتلة لأبو نضال . وفي محاولة منه لدرء الضرر ، أرسل أبو نضال وفدا للجزائر في أكتوبر 1989 ليعرض على أبو بكر تأشيرة سويسرية له ولأسرته ، مع تحمل كافة النفقات وعلاوة نصف مليون دولار نقدا إذا وافق على إنهاء النزاع بينهما . وكان على رأس الوفد شوقي محمد يوسف « الاسم الحركي منير أحمد » عضو المكتب

السياسي وكان ضمن الوفد عبد الرحمن عزة رئيس المخابرات المعزول . ولكن أبو بكر رفض العرض – وبدلا من ذلك التقى بعزة سرا وبموافقة من المخابرات الجزائرية وحاول إقناعه بالانسلاخ عن المنظمة وهو ما فعله عزة في أواخر أكتوبر 1989 حيث لحق بأبو بكر في الجزائر .

وفي 27 أكتوبر ، أصدر عبد الرحمن عزة بيانا طويلا يستنكر فيه « الإعدام الأعمى » لأعضاء المنظمة وبخاصة اغتيال أبو نزار . وطالب بأن تعرض الحقائق أمام محكمة دولية .

وفي الأول من نوفمبر 1989 ، أصدر كل من عبد الرحمن عزة وعاطف أبو بكر بيانا مشتركا كان في واقع الأمر بمثابة إعلان للحرب – حرب مازالت رحاها تدور حتى الآن . ثم أعلنا قيام قيادة طوارئ تهدف للسيطرة على المنظمة والاقتناص من المجرم أبو نضال . وكما أعلنا « لقد حارب شهداؤنا حروبا خاطئة . فلم يكن هناك ما يبرر العمليات الإرهابية التي تمت في روما ، وفيينا ، والسودان ، وأثينا ، وباريس وكراتشي بل إن ضررها فاق نفعها . كان لازما على شهدائنا أن يحاربوا في فلسطين ولكن أبو نضال تخلى عن الصراع العادل الحقيقي . لن نقبل أية حلول وسط مع جزار ملوث اليدين بدماء أشقائه » .

ولقد نص جدول أعمالهما على ما يلي : لا للمذابح الداخلية ؛ لا للغة الدم ؛ لا للعمليات الخارجية العابثة ؛ نعم لمنظمة التحرير الفلسطينية ؛ الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين ؛ نعم للتأييد الكامل للانتفاضة .

عاد أبو بكر ، الشاعر ، المفكر ، الراديكالي الحاد اللسان ، عاد وهو مطمئن البال لفتح بعد أن تملكه الاشمئزاز من أساليب أبو نضال . عاد لفتح المنظمة التي انتمى إليها طوال حياته . أما عبد الرحمن عزة فقد كان رجلا عمليا وليس من رجال النظريات . ولهذا فقد تباطأ في إعلان تخليه عن الأساليب الإرهابية تماما حيث إنه ظل لمدة عشرين عاما معاونا لأبو نضال ، والمخطط للكثير من العمليات التي تمت . ولقد كان عزة يعرف الكثير : الشخصيات الحقيقية للكوادر ؛ مخابئ الأسلحة

السرية ؛ وحسابات البنوك ؛ ومحتويات الخطابات التي تبادلها أبو نضال مع بعض الحكومات الأجنبية والمخابرات .

وعلى النقيض من أبو بكر فلم يكن يميل إلى فتح فلم يستطع كإنسان رافض للأساليب القديمة أن يتخلى عن فكرة مسيطرة مؤداها أن فتح منظمة خائنة .

والشيء الوحيد الذي لم يعرفه عبد الرحمن عزة هو العلاقة بين أبو نضال والموساد ، إن وجدت . ولم يكن من المقربين لدكتور غسان أو خليفته علاء وكان من الممكن أن يفقد وظيفته حيث بدأت أسئلته الغريبة تكثر . وعلى أية حال فلقد كان هو الخاسر فيما يتعلق بالصراع من أجل القوة الداخلية . وبعد قتل أبو نزار ، بدأ عزة يفكر في سلامته . فلقد قتل أبو نضال ذراعه الأيمن . فلم لا يتجه لذراعه الأيسر ؟ ولهذا فقد فر للجزائر خوفا من انتقام أبو نضال .

وكما فعل مع أبو بكر ، فلقد أرسل أبو نضال أكثر من مبعوث لحث عزة على العودة لليبيا للتشاور . وكان من ضمن هؤلاء مقاتل مصري بارز ، اللواء سعد الدين الشاذلي الذي كان رئيس أركان الجش المصري أثناء حكم الرئيس السادات في حرب أكتوبر 1973 ولكنه اختلف معه وطلب اللجوء في الجزائر . وكان عزة شديد الفطنة إلى حد كبير ولهذا فقد رفض كل هذا . وقال للواء : « فليرسلوا أبو نزار كمبعوث لي . هم يزعمون أنه مازال حيا . إذا كان هذا صحيحا ليصافحني . وإذا تأكدت أنه بخير سأعود ! » ولقد كان يعلم بالطبع أن أبو نزار قد دفن منذ فترة تحت فيلا أبو نضال بليبيا .

وفي نهار الخامس والعشرين من أبريل 1990 ، هاجم ثلاثة رجال مقنعون عزة الذي كان يقف بمفرده خارج فيلته بأطراف الجزائر وحاولوا دفعه داخل سيارة مع تقييده . ولكن عزة قاوم فهاجموه بيلطجة ، أطلقوا عليه الرصاص مرتين وفروا معتقدين أنه قد مات . ولكنه لم يمت وإن كان قد أصيب إصابات بالغة . ولقد نجح الجراحون بمستشفى الجزائر العسكري في إنقاذ بصره ولكنهم استأصلوا إحدى كليتيه . ولقد تعرف على مهاجميه : حمدان أبو عصبة ، الممثل الرئيسي لأبو نضال

بالجزائر ومساعده ، هشام محمد صقر ؛ أما الثالث فيعتقد أنه أحد عمال اللاسلكي عند أبو نضال .

وبمجرد أن نشر كل من أبو بكر وعبد الرحمن عزة بيانهما المشترك بشأن قيادة الطوارئ تدفقت عليهما رسائل تأييد من أعضاء ساخطين بلبنان ، وسوريا ، والجزائر . وكان باسل « واسمه الحقيقي زياد سهمود » أحد أوائل المتطوعين .

وكان باسل قائدا لجيش الشعب في وادي البقاع ولكنه سئم من المذابح الجماعية لرجاله . ولقد أتى بكوادر أخرى معه وهؤلاء رجال استطاعوا في آخر لحظة أن ينجوا بأنفسهم من عمليات التطهير والتصفية . ولقد رأوا بأنفسهم رفاقهم وهم يذبحون وكانوا قد يئسوا من تجنب نفس المصير .

وبدأت قيادة الطوارئ في محاربة أبو نضال في مخيم اللاجئين بجنوب لبنان وساعدهم على ذلك مساعدة فتح وتوفيرها الأسلحة والمال وكذلك حماية أبو إياد . وفي منتصف يونيو 1990 بدأت سلسلة متتالية من الاغتيالات في الراشدية ، وهو مخيم بالقرب من طير به ما لا يقل عن خمسة عشر ألف لاجئ فلسطيني وانتهى الأمر بمعركة تم تبادل إطلاق الرصاص بها وهزم فيها رجال أبو نضال . وتتابعت الأحداث وتشابكت القوات مرة أخرى في سبتمبر بالقرب من صيدا ، عند عين الحلوة أكبر مخيمات لبنان والتي تستوعب 150,000 لاجئ .

وقتل في هذه المعركة التي استمرت ثلاثة أيام ثمانون جنديا ، وأصيب 250 آخرين حيث تم اجتياح ثكنات أبو نضال المحصنة .

وإن كان أبو نضال مازال يحتفظ بعدد من الحصون وبخاصة تلك التي في القرى الجبلية بيقاستا وكاركة بالقرب من صيدا حيث توجد أكثر لجانه حساسية في أرض تقع تحت سيطرة وليد جمبلاط ، زعيم الدروز . فإن مركز الكمبيوتر الخاص به وبعض من كبار كوادره تعيش في صيدا نفسها تحت حماية رجل صيدا القوي ، القائد الناصري مصطفى سعد . وبالطبع فإن أبو نضال يدفع آلاف الدولارات شهريا لمضيفيه .

وفي صيف 1991 ومع بدء طبع هذا الكتاب ، كان كلا الطرفين مازال مستمرا في المناوشات الدائرة في وحول مخيمات لبنان ولكن في نفس الوقت فقد فاز أبو نضال بأهم جولة في حياته وهي قتل خصمه القديم ، أبو إياد في تونس في 14 يناير 1991 .

من الذي أمر بالقتل ؟

مما لاشك فيه أن أبو نضال وراء قتل أبو إياد مستخدما حمزة أبو زايد كأداة منفذة . ولقد اتفق الكثيرون ممن قابلتهم على ذلك . وهم يعتمدون في المقام الأول على اعتراف حمزة نفسه : لقد اعترف للمحققين أنه أمر بقتل أبو إياد من خلال أحد أعضاء منظمة أبو نضال . بالإضافة لذلك فإن الألفاظ التي استخدمها في وصف ضحيته ـ خائن ، مخرب الثورة الفلسطينية ، عدو من الداخل ـ هي بعينها الكلمات التي طالما استخدمها أبو نضال في إدانته لفتح على مر السنين . وفي لحظة إطلاق النار على أبو إياد ، صاح حمزة قائلا : « ليساعدك عاطف أبو بكر الآن » ـ وهي إشارة واضحة أن أبو نضال أراد الانتقام من الرجل الذي اعتقد أن أبو إياد قد دسه ليدمر منظمته . وأثناء حصار الفيلا ، طالب حمزة باستدعاء أبو بكر ليحضر ، ربما ليقتله .

وكثيرا ما قال لي أبو إياد ووجهه تعلوه ابتسامة استياء أن أبو نضال يكرهه ليس فقط بسبب المحاولات المتبادلة لقتل بعضهما بعضا ؛ وليس لأن أبو إياد أبعده عن منظمة التحرير الفلسطينية ، وليس لأنه كان وراء العدد من الخلافات والمنازعات داخل المنظمة ولكن لأن أبو نضال لم يكن ليقر أنه مدين لأبو إياد لما بذله له من مساعدة وحماية في السنوات الأولى . ولهذا فإن قتل أبو إياد تسوية نهائية لكل الأمور السابقة .

لقد كان لدى أبو نضال الكثير من الأسباب تدفعه لقتل أبو إياد ، ولكن ضباط المخابرات العرب والأجانب الذين تحدثت معهم يشككون في وجود « يد خفية » وراء القتل ـ ومن ضمن المشتبه فيهم ليبيا ، والعراق وإسرائيل .

وكما ذكرت مصادر منظمة التحرير الفلسطينية فإن أبو إياد لم يكن على وفاق مع القذافي لعدة سنوات . ويرجع هذا لأسباب شخصية من كره شخصي وكذلك لأن القذافي كان يعلم أن أبو إياد على علاقة طيبة بعبد المنعم الهوني ، الرئيس الأسبق للمخابرات الليبية الذي فر للقاهرة والذين كان القذافي يشتبه في أنه يتآمر ضده للإطاحة به . كما أن جهود أبو إياد لحيلولة دون استقرار منظمة أبو نضال أثارت غضب القذافي لأن المنظمة كانت تتمتع بحمايته بل كان يعتبر المنظمة ضمن جهاز مخابراته .

وطبقا لهذه المصادر فإن القائد الليبي كان سيسمح لأبو نضال بقتل أبو إياد إذا طلب ذلك وإن كانوا لايعتقدون أنه بادر بتقديم مثل هذا الاقتراح . فالقذافي كان يخشى انتقام منظمة التحرير الفلسطينية أو استثارة المجتمع الفلسطيني ككل ، وكما لم يغفر الشيعة للقذافي اختفاء إمامهم اللبناني موسى الصدر في عام 1978 بليبيا فإن الفلسطينيين لن يغفروا له موت علامة بارزة كأبو إياد . وربما لم يتدخل القذافي لمنع القتل ولكن مهما كانت دوافعه فإنها لن تدفعه للأمر بقتل أبو إياد .

وذكرت بعض الصحف أن صدام حسين وليس القذافي وراء عملية القتل . ويقوم الجدل على أساس أن أبو إياد – على النقيض من عرفات – لم يكن سعيدا بتحالف منظمة التحرير مع بغداد ولهذا كان لابد من إبادة أبو إياد حتى يستمر هذا التحالف . كما كثرت الادعاءات أن أبو نضال ترك ليبيا للعراق قبل نشوب حرب الخليج عام 1991 ليعود بانتمائه لراعيه الأول .

صحيح أن عرفات كان أكثر تأييدا للعراق أثناء الأزمة من أبو إياد . ولكنهما لم يختلفا حول موقف منظمة التحرير الأساسي : انسحاب العراق من الكويت ، وفي نفس الوقت رفض التدخل الأمريكي وتجنب الحرب ؛ محاولة تسوية الموقف من خلال إطار عربي ؛ والمطالبة بالربط بين الكويت وفلسطين كأساس للحل السلمي – أي المساواة بين الاحتلال العراقي للكويت والاحتلال الإسرائيلي للأراضي المحتلة .

وكانت هذه هي الصيغة التي اقترحها صدام حسين للموافقة على التفاوض لتسوية

الأزمة . لقد طالب صدام أيضا بالربط بين كلا الاحتلالين .

لقد كان في حاجة للدعم الفلسطيني أو أي دعم آخر . ولإضفاء بعد عربي على النزاع ، وقد نصب صدام نفسه منذ الأيام الأولى للأزمة بطلا في نظر الفلسطينيين . ولهذا فليس من المعقول أن يختار صدام تلك اللحظات الحرجة والحرب على الأبواب لقتل أقرب رفاق عرفات لنفسه .

ولم أحصل على أي تأكيد لشائعة أن أبو نضال انتقل لبغداد . وطبقا لمصادري فإن أبو نضال أمضى الحرب بليبيا وخوفا من أية عمليات انتقامية وُضع أبو نضال تحت رقابة دقيقة محكمة . وطبقا لمصادر المخابرات الغربية ، فإن القذافي لم يكن يسمح لأبو نضال باستخدام محطة الراديو أثناء النزاع خوفا من اتهام ليبيا بحماية الإرهاب الدولي . ولم تنسب لأبو نضال أية عمليات إرهابية في العالم بأسره أثناء أزمة الخليج خلال عامي 1990-1991 فيما عدا قتل أبو إياد . وإذا كان لصدام سلطان على أبو نضال كما يزعم البعض فمن المؤكد أن صدام كان سيستعين به ضد أعداء العراق الكثيرين .

ولم يبق من مؤسسي فتح الأربع سوى عرفات . فلقد تم اغتيال محمد يوسف النجار بواسطة فرقة اغتيال إسرائيلية في بيروت في عام 1973 ؛ خليل الوزير « أبو جهاد » قُتل عن طريق الكوماندوز الإسرائيلي في تونس عام 1988 . ولا يستبعد أن يكون قتل أبو إياد وزميله أبو الهول من ضمن هذا المخطط .

ولقد تم قتل أبو إياد في يناير 1991 عشية هجوم قوات التحالف على العراق . ومنذ غزو الكويت في أغسطس 1990 ، تحث إسرائيل على استخدام القوة ضد صدام حسين . وكانت إسرائيل تدفع سائر الأطراف للحرب وذلك من خلال تصريحات عامة ؛ اتصالاتها مع الولايات المتحدة وغيرها من الحكومات ؛ من خلال التقارير والتعليقات التي تظهر في وسائل الإعلام . ولقد كانت إسرائيل تقف بالمرصاد في مواجهة أية تنازلات قد تقدم لصدام أو حتى التفاوض معه . وفي نفس الوقت ، ضمنت وفاء بوش بالتعهدات التي أخذها على نفسه : عدم قبول أمريكا لأي ربط بين احتلال العراق للكويت واحتلال إسرائيل للضفة الغربية ، غزة ، القدس

الشرقية ، مرتفعات الجولان وجنوب لبنان ؛ مع التزام أمريكا بتدمير كافة الأسلحة النووية ، والكيمياوية ، والبيولوجية بالعراق وإلا التزمت إسرائيل نفسها بتنفيذ هذا .

وفي عام 1967 حينما أخطأ جمال عبد الناصر فأغلق مضيق باب المندب انتهزت إسرائيل الفرصة وقضت عليه . وفي عام 1990 وقع صدام حسين في الخطأ وصممت إسرائيل على انتهاز الأمر لصالحها . وأثناء الثماني سنوات من الحرب العراقية – الإيرانية ، طوّرت العراق من القذائف الباليستية ، والأسلحة الكيماوية وغير ذلك من الأسلحة مما يشكل تحديا لوضع إسرائيل وتميزها العسكري وهو ما أثار إسرائيل ونبهها لخطورة الأمر . وهذا ما دفع إسرائيل للحث على الحرب ضد العراق بسبب غزوها للكويت . فقد كانت إسرائيل تعلم أن تدمير العراق كقوة عسكرية سيغير جذريا من بيئة إسرائيل الاستراتيجية كما حدث أثناء هزيمة 1967 ، وفي هذه الحالة إذا وفقت القوات المتحالفة في مهمتها فلن تتكلف إسرائيل شيئا . بل ستستعيد إسرائيل احتكارها لأسلحة الدمار الشامل . ولن تستطيع أية دولة أن تصمد أمام التحدي .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فكان لها أسباب خاصة بها للحرب ومن بينها إنهاء الأعراض المزمنة المصاحبة لتجربة فيتنام ؛ والحفاظ على الوضع الراهن في شبه الجزيرة العربية الذي كان صدام يهدد بزعزعته ؛ ثم التحكم في الموارد البترولية بالشرق الأوسط ؛ والتأكيد على سيادة أمريكا في « النظام العالمي الجديد » بعد انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي . وفي نفس الوقت ، حثت إسرائيل أمريكا على التدخل بل وأثرت في قرار أمريكا بالحرب .

وبالطبع فإن خصوم العراق من العرب – السعودية ، وسوريا ، ومصر وغيرها من الدول – كانوا يبغون كسر شوكة صدام ، وإبعاده عن الكويت وعودته لحدوده مرة أخرى . وكان يسعدهم لو تم الإطاحة بصدام حسين . أما الكويت فكانت تريد التخلص من خطر العراق لا غير . وحتى الأسد ، عدو العراق اللدود ، كان يعلم أن تدمير العراق سيضعف من العالم العربي بأسره وحتى اللحظة الأخيرة كان يرجو صدام أن ينسحب لتجنب الحرب . ولكن إسرائيل كانت تريد تدمير العراق .

وبالإضافة إلى وضع حد للتحدي العسكري العراقي فلقد كانت إسرائيل ترغب في حسم القضية الفلسطينية بطريقتها بعد انتهاء أزمة الخليج .

كانت إسرائيل تعلم أنه بعد الحرب ، سوف تتجه الإدارة الأمريكية بحسم لمحاولة تسوية النزاع العربي - الإسرائيلي وفي هذه الحالة ستصر إسرائيل على ألا يكون لمنظمة التحرير الفلسطينية أي دور في ذلك .

ولكن منظمة التحرير الفلسطينية أصبحت تمثل تهديدا سافرا لخطط إسرائيل في الفترة السابقة لعاصفة الصحراء . ففي بغداد ، كان عرفات يحاول جاهدا إبعاد صدام عن الحرب بعد أن أدرك خطورة الموقف في اللحظة الأخيرة بعد مشاركته له طول الوقت . فإذا نجح في إقناعه بالإنسحاب من الكويت أو حتى الادعاء فقط بإنه ينوي ذلك ، سيصعب على الائتلاف في هذه الحالة مهاجمة العراق . بالإضافة لذلك إذا نسب لعرفات الفضل في إنهاء هذه الأزمة فإن وضع المنظمة المميز في تلك الأحوال سيضمن لها مكانا على مائدة المباحثات العربية - الإسرائيلية . ولهذا فلقد أصبحت المنظمة تمثل مشكلة لإسرائيل .

في 14 يناير 1991 ، حينما أوشك إنذار الأمم المتحدة على النفاذ والعالم كله في حالة ترقب ، أقدم عميل أبو نضال حمزة أبو زايد على قتل أبو إياد وأبو الهول ، رؤساء المخابرات والأمن بمنظمة التحرير الفلسطينية .

وأدى هذا إلى تخلي عرفات عن متابعة جهوده الدبلوماسية ببغداد والعودة لتونس للحداد على رفيقيه اللذين تم اغتيالهما . ولقد أصاب هذا الحركة الفلسطينية بحالة من الفوضى . بل ومُنيت منظمة التحرير الفلسطينية بهزيمة أخرى مع اندلاع عاصفة الصحراء على العراق .

إذن ما هي دوافع أبو نضال ؟ لقد أصبح شغله الشاغل الآن إما أسلوب المافيا في الابتزاز وحماية تجارتها غير المشروعة وإما القيام بأعمال إرهابية تستهدف الفلسطينيين وهذا بالطبع في صالح إسرائيل .

وكنت مازلت أشك في وجود صلة بالموساد ولكن إذا كان هناك اتصال بالموساد

فإن أبو نضال طرف فيه . كيف يقدم فلسطيني يدعي الوطنية على الإضرار بالمصالح الفلسطينية ضررا يتمشى مع المصالح الإسرائيلية ؟! إذا كان أبو إياد محقا في ادعائه أن أبو نضال عميلا إسرائيليا فإن الدليل على هذا ستظهره الظروف وسيبقى كذلك حتى تقرر إسرائيل أن تقص القصة من جانبها إذا ما قررت ذلك .

وحتى تحين هذه اللحظة فهناك بعض الشكوك المثارة حول صحة نظرية أبو إياد منها مثلا العمليات الإرهابية التي يقوم بها أبو نضال ضد أهداف إسرائيلية يهودية والتي لا تستطيع إسرائيل أن تتغاضى عنها من أجل تغطية نشاط أبو نضال الحقيقي أمام العرب . ومن المحتمل إذا كانت شكوك أبو إياد في محلها أن تكون هناك بعض العناصر في منظمة أبو نضال قامت بهذه العمليات دون أن تعلم بعلاقته بالموساد أو عناصر لا يحكم السيطرة عليها . ومما زاد من الشكوك وزاد الأمر غموضا أن إسرائيل لم تُقدم ولو مرة على معاقبة أبو نضال كما تفعل مع غيره من الجماعات الفلسطينية .

وفي محاولة لحل هذا اللغز ، تذكرت ما نقلته لي كثير من مصادري عن أبو نضال فهو شخص يهتم اهتماما بالغا بسلامته الشخصية . فهو يتعامل مع العراق ، وسوريا ، وليبيا في مقابل توفير الحماية له . كل ما يشتاق إليه هو الحماية . لا يستطيع أن يحيا بدونها . وفي ظل النشاط الإرهابي السري فإن هناك دولة تستطيع أن توفر له الحماية أكثر من غيرها : إسرائيل باعتبارها أكبر قوة في الشرق الأوسط ، والدولة الوحيدة التي تستطيع طائراتها ، ورجال الصاعقة بها ، وفرق الهجوم وعملاء المخابرات الوصول لأي مكان في العالم بغض النظر عن الحدود الدولية . ولإسرائيل سجل هائل في ملاحقة أعدائها وإبادتهم . وتستطيع إسرائيل بسهولة أن تنهي حياة أبو نضال إذا أرادت ذلك . ولكنها لم تفعل . لماذا ؟ هل تستطيع أن تستفيد منه أكثر ؟ كل ما يحتاج له أبو نضال هو الحصانة . وإسرائيل في حاجة لخدماته . وهذا يؤكد مصداقية أبو إياد .

* * *

الخاتمة



بعد مقتل أبو إياد في يناير 1991 ، حاولت أن أقتفي أثر جورد في مخبأه بالبحر المتوسط حيث التقيت به في الصيف الماضي . ولكنه اختفى . قيل إنه يخشى أن يأمر أبو نضال بقتله ولهذا يختبئ . والبعض قال إنه عاد لإسبانيا للبارات وصالات الديسكو ببرشلونة . لقد كان متعدد الموارد ولهذا سوف يحيا بطريقة ما وربما التقيت به يوما .

ولكن لم يكن جورد الوحيد الذي يختبئ . فلقد دفع قتل أبو إياد الكثيرين غيره لانتهاج المسلك نفسه . ففي تونس ، مقر منظمة التحرير الفلسطينية بعد طردها من بيروت في عام 1982 بدا الأمر كما لو كان أحدهم قد عبث بكومة من النمل فبعثرها في اتجاهات عدة . فمنظمة التحرير الفلسطينية لم تستطع بعد أن تلتقط أنفاسها بعد قتل إسرائيل لقائدها العسكري أبو جهاد في تونس عام 1988 . ومما زاد الطين بلة مقتل أبو إياد .

وبقتل أبو إياد ، برهن أبو نضال على قدرته على النفاذ لأعلى المستويات بمنظمة التحرير الفلسطينية نافذا خلال أجهزة المخابرات والأمن الخاصة بها . لم يعد أحد يأمن على نفسه . وبدت منظمة عرفات متراخية ، تتسم بالفوضى . لم يعد أحد يثق بالآخر بل ووصلت حالة المنظمة المعنوية للحضيض .

أما عن عاطف أبو بكر ورفاقه في قيادة الطوارئ فكان لهم نصيب من المصائب . فلقد اقسموا على إبعاد أبو نضال عن المنظمة . ولكن بفقد أبو إياد ، شُتتوا وأصبحوا يخشون القتل . اختفى بعضهم والبعض الآخر مثل أبو بكر الذي أصبح مفلسا جمع ما يستطيع وترك تونس بحثا عن مكان آخر آمن . ومن الصعوبة أن يحدد هؤلاء عدد المرات التي اضطروا فيها لحزم أمتعتهم .

وزاد من تفاقم الموقف لمنظمة التحرير وقيادة الطوارئ هزيمة صدام حسين الذي

سانده عرفات . بل وجد عرفات نفسه – في محاولته للحصول على اعتراف العا لم به – مُدانا لموقفه هذا – من قبل السعودية ، ومصر ، والكويت وحلفائهم في الحرب والذين توقفوا عن إرسال نقود لمنظمة التحرير الفلسطينية . ولقد سئم الكثيرون من الفلسطينيين عرفات وإن لم يستطيعوا أن يجهروا بذلك . بل إن هيكل المقاومة الفلسطينية خارج الأراضي المحتلة بدأ في الانهيار . ذهبت سنوات من الجهود الدبلوماسية أدراج الرياح . ومع صيف 1991 ، بدت المنظمة ضعيفة ومنعزلة أكثر من أي وقت مضى .

وبالطبع فإن محنة عرفات كانت غبطة لأبو نضال وهو أمر لم يكن ليفهمه الذين يشاهدون الموقف عن بعد .

وقد ظنت الصحافة الغربية أثناء أزمة الخليج 1990-1991 أن أبو نضال سيضع شبكته الإرهابية تحت تصرف صدام حسين ، راعيه الأول . ولكن لم يكن هذا بصحيح فلقد كان أبو نضال حاد الذكاء ومن ثم لا يُقدم على مناصرة مهزوم كما أنه لم يكن سيختار الجانب نفسه الذي اختارته منظمة التحرير . ولقد استغل النزاع للتودد لبعض أعضاء الائتلاف المناهض لصدام .

وأبو نضال قاتل محترف من المحتمل أن يكون قد باع خدماته للعرب والإسرائيليين على حد سواء . ولقد كان يدرك تماما بعبقريته أن الدول ترتكب الجرائم باسم المصالح القومية . ويمكن أن ينتعش مجرم مثل أبو نضال من خلال أعماله القذرة . ولم يكن ليحيا إذا شعر من يستخدمونه أنه أصبح غير ذي جدوى . وهم مسئولون عن نشاطه . العراق زكت نشاطه في البداية ، ثم أخذته سوريا ثم ورثته ليبيا سواء استغلته إسرائيل أم لم تستفد منه . وهو سؤال يحتاج لإجابة – وإن كانت قد استفادت من هجومه على المنظمة – منظمة التحرير الفلسطينية المعتدلة – ولم تحاول إيقافه رغم هجومه على بعض الأهداف اليهودية والإسرائيلية .

ولقد قدم أبو نضال خدماته للكثيرين كل حسب مصلحته . لقد أصبح ملك العالم السري ، عالم العصابات ، في الشرق الأوسط وهذا بسبب درايته بالسياسات الإقليمية ، وافتقاره لأية ضوابط أخلاقية ، بالإضافة إلى موهبته في النجاة بحياته دائما .

وطوال حياته كان الخيط الواضح هو كراهيته لياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ، كراهية يشاركه فيها كل من قدم له يد العون .

وهذا هو مفتاح نجاحه . لقد حاولت إسرائيل لسنوات أن تقضي على منظمة التحرير الفلسطينية . ورعاة أبو نضال من العرب وجدوا أن المنظمة أصبحت مصدرا للتهديد ولهذا كان من رأيهم إضعافها لإحباط أي طموح لعرفات يتعلق باتباع سياسة مستقلة . ولسنوات نجح أبو نضال في الإضرار بالحركة القومية الفلسطينية مما أفاد الجانبين ، العربي والإسرائيلي .

لقد كان القادة العرب يساندون القضية الفلسطينية علانية ولكنهم تقريبا بلا استثناء لا يثقون في منظمة التحرير والتي كثيرا ما كانت تتحدى سلطتهم في بلادهم ، تدفع إسرائيل للانتقام بل وتخاطر بدفعهم للحرب . وعلى منظمة التحرير أن تتحمل نصيبها من اللوم في هذه الكراهية . لقد سمحت المنظمة لنفسها في ظل قيادة عرفات بالتدخل في الخلافات العربية وفي كثير من الأحيان اصطدمت بمصالح الدول في الأردن ، ولبنان ، وسوريا ومؤخرا الكويت ؛ بل وتتسم إدارتها بالفساد وعدم الكفاءة . لقد تعلقت كثيرا بشعارات جوفاء عن الحرب وبَعُدَ بها عن تحديد أهداف سياسية حقيقية فلم تستطع أن تعرض قضيتها على الغرب . كانت تلك المنظمة تفتقر للتنظيم لا تزيد عن كونها مجموعة من الأصوات المتصارعة التي تسعى لمصالح شخصية وجمع أكبر قدر من المال .

وعلى أية حال ، فيرجع الفضل لعرفات في التوصل لتسوية عن طريق التفاوض مع إسرائيل منذ 1974 ، وهو ما أثار قلق بعض الرافضين العرب والإسرائيليين بل وأدى لمقتل الكثير من ممثلي المنظمة سواء تم ذلك على أيدي العرب أم الإسرائيليين وآخر هؤلاء أبو إياد وأعتقد أن القتل قد تم لصالح إسرائيل . والحقيقة أن منظمة التحرير ظلت لسنوات هي الضحية الأساسية للإرهاب رغم أنها لم تقم بأية أعمال جدية تخدم القضية الفلسطينية .

واليوم على الرغم من انكسار المنظمة بسبب ضربات العرب وإسرائيل إلا أنها لاتزال في زعم البعض هي البطل المحقق لأحلام الفلسطينيين في وجود أرض لهم وذلك لعدم وجود بديل لهذه المنظمة . وحتما سيترك عرفات الحلبة ، وقد تقير الانتفاضة وتستهلك وتموت ولكن القومية الفلسطينية ستبقى وربما ستصبح أكثر عنفا طالما وجد خُمس مليون. مواطن فلسطيني . وإذا ظهر أبو نضال آخر فلن ينقلب بسهولة على شعبه .

وحتى يتم النظر في شكاوى الفلسطينيين المشروعة فإن النزاع العربي ، الإسرائيلي لن يحسم . ولن يعم السلام . وخيانة بعض القادة العرب للفلسطينيين بدعمهم لأعمال الإرهاب الهوجاء يقلل من قيمة القومية العربية في الوقت الذي يعاني فيه الفلسطينيون على أيدي الإسرائيليين ما يعانون وهو ما يمثل نقطة سوداء في سجل إسرائيل القومي .

ولقد تعاملت الدول العربية بغلظة مع الفلسطينيين انطلاقا من ضعفهم وفسادهم فهم ربما لا يستطيعون الدفاع عنهم أمام إسرائيل وما تتسم به من قوة . وأحد الأسباب التي تدفع القادة العرب لكراهية منظمة التحرير هو أن وجودها يذكرهم دائما أبدا بضعفهم بالإضافة إلى تذبذب قيادتها إزاء المواقف المصرية . أما إسرائيل فتتعامل بغلظة مع الفلسطينيين من منطلق القوة حيث لا يوجد من يستطيع أن يقف أمامها في المنطقة . فلا توجد قوة عربية تماثلها قوة ؛ ولا توجد أية ضغوط دولية تجعل إسرائيل تتخلى عن ممارساتها الوحشية التي حددتها منظمة العفو الدولية وغيرها وما يصيب الفلسطينيين كنتيجة لذلك .

ولقد ظهر كثير من هذه المشاكل ـ الاحتلال الإسرائيلي ، ومقاومة حرب العصابات ، والمعاناة والرعب ـ ظهرت هذه المشاكل بعد انتصار إسرائيل عام 1967 على سوريا ، ومصر والأردن حينما استولت على أراض كثيرة وظهرت كقوة لا تضاهيها أية دولة أخرى في المنطقة بأسرها . ولقد كان إسحاق داتشر ، وهو مؤرخ للثورة الروسية ، من أوائل من لاحظوا أن استعمار مليون أو أكثر من العرب سيضر إسرائيل ولن يفيدها . ولقد أشار قائلا بالألمانية « إنك يمكن أن تحفر قبرك بيديك بانتصارك ! » .

وبعد بضعة أيام من حرب الستة الأيام ، ذكر داتشر ، اليهودي والمؤرخ المناهض لستالين ، في حديث له « 23 يونيو 1967 لجريدة New Left Review » : « يتملكني الشعور بالنفور والاشمئزاز حينما أشاهد التليفزيون هذه الأيام وما يعرضه من مشاهد من إسرائيل : عرض لوحشية المنتصر ، والتشدق المبالغ فيه بالوطنية ، والاحتفالات الهائلة بالانتصار المجيد وكل هذا يتناقض مع معاناة العرب وانعزالهم ، ويتعارض مع جموع اللاجئين الأردنيين وجثث الجنود المصريين الذين ماتوا عطشا . لقد استرجعت منظر الأحبار في العصور الوسطى وهم يقفزون فرحا حول حائط المبكي وشعرت بأشباح تلك العقليات المتحجرة تدفعنا للوراء وهم كثيرون كما شعرت كيف استفحل التيار الرجعي في إسرائيل . ثم شاهدت المقابلات الكثيرة التي تمت مع الجنرال ديان ، البطل المنقذ ، والذي تحدث بعقلية سياسية تناسب رائدا متفاخرا بأحلام الضم ومتحدثا بغلظة عن مصير العرب في الدول المهزومة « لماذا أهتم بالعرب هكذا ؟ بالنسبة لي سواء مكثوا أم رحلوا فإن الأمر لا يعنيني في شيء » .

هل كان رأي داتشر سيختلف في وجود شامير ، رابين ، آرنز ، شارون ، جيئولا كوهين والآخرين الذين يلجئون لممارسات وحشية من ضرب مبرح يؤدي لكسر العظام ، والتعذيب في معسكرات الاعتقال وعند فرض حظر التجول بلا رحمة ؛ ماذا سيقول عن فرق الموت التي تقتل عشرات من الأطفال . ولقد قرأت منذ يومين

عن فتاة فلسطينية تبلغ من العمر تسعة عشر عاما أجبرت على الولادة وهي مكبلة بالقيود ومقيدة بسرير المستشفى ؟!

لماذا يلجأ اليهود لهذه الممارسات وهم الذين ذاقوا مرارة المعاناة من قبل ؟ لم يكن أبو نضال ليظهر إذا سعت إسرائيل لإقامة حوار مع منظمة التحرير عام 1974 حينما أرسل عرفات مبعوثيه لهنري كيسنجر معربا عن استعداده للتفاوض(*) .

أما الكاتب الإسرائيلي آموس أوز فيري أن مسا من الجنون قد أصاب الإسرائيليين والفلسطينيين على حد سواء وذلك لحماية أنفسهم ولهذا ينبغي أن نفصل بينهم حتى يستعيدوا قواهم العقلية .

وهذا الكتاب يصف حالة من حالات الاضطراب في القوى العقلية . ولقد ألفت هذا الكتاب لأظهر كيف أن الجنون الملطخ بالدماء قد يتجاوز كل الحدود . فالفلسطينيون والإسرائيليون يقتلون بعضهم بعضا تصارعا على قطعة أرض صغيرة – الضفة الغربية – التي استولت عليها إسرائيل عام 1967 . وتتوقف أحلام الفلسطينيين في استعادة احترامهم لأنفسهم على هذه القطعة : أي شيء غير تقرير المصير يعني مزيدا من التشتت أو العبودية . ولهذا فهم يقتلون للحصول على ما يريدون . ولكن كثيرا من الإسرائيليين يزعمون أن الضفة جزء لا يتجزأ من أرضهم ولذا فهم يقتلون ولكن لا يتخلون عنها . وبدون سلام ، يصبح الأمر مفزعا في ظل الممارسات الوحشية الضارية .

ولقد أصبحت أؤمن إيمانا راسخا أن أمن إسرائيل لن يتحقق عن طريق سحق القومية الفلسطينية بل عن طريق محاولة التصالح معها . إن إقامة دولة فلسطينية على الحدود لن يهدد إسرائيل بل على العكس سيدعم موقف إسرائيل حيث سيسهل انضمامها لعائلة الشرق الأوسط .

وتعمد إسرائيل للتعبير عن وضعها دائما من خلال إطار وجودي كما لو كانت

(*) كان ياسر عرفات يحاول الصلح مع إسرائيل قبل السادات ! ... عجبي !! « أحمد رائف » .

معرضة للفناء . ولكن إسرائيل ليست بمعرضة لهذا الخطر . وآخر مرة صادفت هذا الخطر كان في الهدنة القصيرة عام 1948 كما صرح عازرا وايزمان ، بطل حرب إسرائيلي وقائد القوات الجوية سابقا . والجدل اليوم ليس حول وجود إسرائيل . لقد حسم هذا الموضوع منذ أربعين عاما . ولكن الأهم هو شروط وطبيعة السلام الذي يجب أن تحققه مع العرب . وهو سلام تهفو له نفس كشخصي شُغل بدراسة هذه المنطقة لمدة ثلاثين عاما .

وعلى الرغم من أن العرب يرغبون في السلام إلا أن هناك شيئين لا أعتقد أنهما سيقبلان وإذا أصرت إسرائيل عليهما سيؤدي هذا لمزيد من العنف بل والحروب . الأمر الذي هو الظلم المتصل للشعب الفلسطيني . إذا أرادت إسرائيل السلام فيجب أن تفسح الطريق لدولة فلسطينية حيث تصبح فلسطين شريكا وليست خصما داخل الحدود الفلسطينية .

أما الأمر الثاني الذي لن تتقبله المنطقة فهو استمرار السيادة الإسرائيلية . قد يتقبل العرب إسرائيل كعنصر أساسي في نظام الشرق الأوسط ، منافسا لمصر ، وسوريا ، والمملكة العربية السعودية وغيرها من الدول ، متفاعلا معها ولكن لن يتقبل العرب شبح القوة الإسرائيلية التي قد تهجم في أي وقت وذلك خشية من هجوم هذه القوة العسكرية المتفوقة . ويدفعهم ضعفهم وشعورهم بالمهانة لوضع إسرائيل بصفة دائمة موضع اختبار . قد لا يمتلك العرب في الوقت الحالي القدرة على الرد بأساليب رادعة ولكنهم لن يعدموا السبل وبالطبع سيفرز هذا مزيدا من العنف .

وعلى أية حال ، فإن السلام المستقر الممتد يمكن أن يسود في حالة وجود سبل رادعة لدى الطرفين لتحقيق توازن في القوى بينهما وفي نهاية الأمر حفظا لجيرة طيبة بينهما . ولا يمكن لإسرائيل أن تتمتع بالأمن على حساب جيرانها – وهي الصيغة التي تؤمن بها كل من إسرائيل وأمريكا على مر السنين .

وعلى القراء أن يصلوا لتكوين رأي محدد عن أبو نضال مع الأخذ في الاعتبار أن أبو إياد وأنصاره بفتح كان لديهم المبررات الكافية لمناهضة أبو نضال وإسرائيل ،

أكبر وأخطر عدوين . وإذا – على الرغم من جرائمه – وصف بأنه مواطن مخلص لفلسطين فإن هذا ليثبت كيف أن النزاع قد تردى ليصبح مجرد عصابات تشتاق لوطن . وإذا صدق أبو إياد في قوله إنه أداة منفذة إسرائيلية لكان هذا دليلا على الفقر الأخلاقي والسياسي الذي تردت له إسرائيل ومعاونوها من العرب .

لا يمكن تقدير ثمن ملكية إسرائيل للضفة الغربية . فلقد دفع الفلسطينيون الثمن من موت ، وحياة ممزقة . ولكن إسرائيل أيضا قد دفعت الثمن فلقد جردت مجتمعها من إنسانيته وكذلك جيشها .

لقد دفعت الثمن عند صنع سياستها تلك التي تفتقر لأية أخلاقيات ؛ دفعت الثمن في فقدها لسمعتها كدولة وفي فساد دبلوماسيتها حيث إنها تستغل الرأي العالمي وتراوغ لتجنب المفاوضات التي قد تنتهي بعودة الأرض لأصحابها .

حينما اتهم النقاد السوفييت المتشددون إدوارد شيفرنادزة ، وزير خارجية جورباتشوف ، بأنه أدى إلى ضياع أوروبا الشرقية وسمح بالوحدة الألمانية أجاب بعد تفكير : « لقد كان هذا هو الثمن الذي يجب أن ندفعه لإقامة دولة متحضرة » .
وهي إجابة ينبغي على إسرائيل أن تفكر فيها مليا عند تحديد مصير الأراضي المحتلة التي تعاني وتئن تحت حكمها .

* * *

ملحـــق



مساعدو أبو نضال المقربون

كانت قائمة أعضاء منظمة أبو نضال بمؤسساتها الثلاث الرئيسية ؛ المكتب السياسي ، واللجنة المركزية والمجلس الثوري ، في عامي 1990-1991 على النحو التالي :

المكتب السياسي

– صبري البنا « أبو نضال » : رئيس المنظمة وكان يعرف بلقبه العربي أمين السر .

– عصام مرقة « سليم أحمد » : نائب رئيس المنظمة منذ 1987 ، حينما تولى بعد مصطفى مراد « أبو نزار » . ولكن في عام 1991 ، فقد مرقة وظيفته وتولى بعده منصور حمدان مع احتفاظه بعضويته في المكتب السياسي .

– منصور حمدان : والذي عين كنائب لرئيس المنظمة في عام 1991 ، وكان فيما مضى مدير الإدارة السياسية والمتحدث الرسمي للمنظمة .

– نسليمان سامرين « د . غسان العلي » : السكرتير الأول للجنة المركزية ورئيس الأمانة العامة .

– محمد وصفي حنون « وصفي حنون » : قائد جيش الشعب .

– عصام عوض « زكريا إبراهيم » .

– عبد الله حسن « أبو نبيل » : رئيس لجنة العدالة الثورية .

– شوقي محمد يوسف « منير أحمد » .

- إبراهيم التميمي « طارق محمد » ، عضو لجنة العدالة الثورية .
- علي زيدان « هيثم » عضو بإدارة المخابرات .
- عدنان الفارسي « سامي أبو الهيثم » .
- ماجد العكاوي ، مساعد قائد جيش الشعب في شمال لبنان .
- عبد الكريم محمد « عوني جبر » بعض الأحيان ممثل للهيئة في السودان ، وعدن وليبيا .
- خليل خضير صلاحات « مؤمن أدهم » .
- هشام حرب ، رجل هام في العمليات الخارجية .
- سامي أبو علي « مازن الخليلي » بإدارة جيش الشعب .
- محمد حبيب « سليم عبد الرحمن » .
- محمد أحمد أبو عسال « أبو مروان » .
- ماهر الروسان « وليد » شقيق نواف الروسان « عثمان » والذي يقضي عقوبة بسجون بريطانيا لمحاولته اغتيال السفير آرجوف .
- سامي الشايب « عصام » .
- وليد عِزة .
- سامي أبو علي .

العناصر المنشقة عن اللجنة المركزية

- الحاج أبو موسى ، كبير المعلمين العسكريين ، قتل في ليبيا في أواخر عام 1987 .
- مصطفى مراد « أبو نزار » مساعد أبو نضال وقتل بليبيا في 17 أكتوبر 1988 .
- عبد الرحمن عزة والذي انشق في أكتوبر 1989 ونجا من محاولة لاغتياله بالجزائر .

اللجنة المركزية

تتألف اللجنة المركزية من أعضاء المكتب السياسي بالإضافة إلى :

- ثابت عبد الكريم محمود « زيدان » نائب مدير إدارة المنظمة .
- علي الفرا « د . كمال » رئيس المخابرات بمقر المنظمة بليبيا .
- عاطف حمودة « أبو سهام » ، مدير الإدارة المالية .
- علي البطمة « سمير درويش » .
- إسماعيل عبد اللطيف يوسف « حمدي أبو يوسف » .
- عدنان خليفة « أبو حازم » .
- رزق سيد عبد المجيد « وليد خالد » ، المتحدث الرسمي للمنظمة ببيروت والذي برز أثناء موضوع « سيلكو » .
- نبيل محمد عبد الله سليم « ساري عبد الله » .
- محمد الطاهر « فؤاد أبو الطاهر » .
- مصطفى إبراهيم صندوقة « حسين بن علي » ، الرئيس الفعلي للجنة العدالة الثورية .
- حسن عزيز عبد الخالق « عواد » ، رئيس لجنة العضوية .
- عزة جاردات « سليمان » العضو المسئول عن إدارة المخابرات .
- عبد الكريم البنا « حسام مصطفى » .
- غنام صالح .

المجلس الثوري

يتألف المجلس الثوري من أعضاء المكتب السياسي ، اللجنة المركزية بالإضافة إلى :

- حمدي أبو عصبة « عزمي حسين » ، ممثل المنظمة بليبيا من 1985 – 1987 ثم نقل للجزائر عام 1989 .

- محمد أبو جابر .

- مجاهد البيري « زاهر خالد » والذي قتل حينما انفجرت فيه عربة متفجرات بصيدا .

- سامح محمد خضير « زهير الرابع » أحد العناصر البارزة بإدارة المخابرات وقتل في أثينا في سيارة كانت بها قنبلة في عام 1988 .

- عبد الفتاح غزال « كفاح خالد » قتل من خلال قنبلة موضوعة في سيارة .

- عمر حمادي « وحيد حسنين » والذي قتل بمخيم الراشدية بلبنان عام 1990 .

- فريد حجاب « قايد أبو عريشة » قتل في سيارة زرعت بها قنبلة في يونيو 1990 .



– ياسر السدي « أبو مؤمن » أحد قادة جيش الشعب البارزين وقتل في نوفمبر 1987 .

– عايش بدران « أبو عمر » أحد قادة جيش الشعب البارزين وقتل في أواخر عام 1987 .

– عاطف أبو بكر « أبو فرح » والذي انشق في نوفمبر 1989 وشكل قيادة الطوارئ .

– خالد الماضي بالإدارة المالية والذي أنزل لكادر أقل .

– فيصل الكفري « كمال منصور » . منشق .

– فؤاد السوفارني « عمر حمدان » وانشق وذهب للأردن في عام 1987 .

العناصر المنشقة عن المجلس الثوري

– وجيه مصطفى « أبو مصطفى » .

– بهيج يونس ويقضي عقوبة بسجن بالنمسا .

– عثمان الروش ، مسجون بإنجلترا لمحاولته اغتيال السفير أرجوف .

– محمد داوه مُترهة « يونس عمران » تونس ، وانضم لقيادة الطوارئ .

– زايد ساهمود « باسل » قائد جيش الشعب وانضم لقيادة الطوارئ .

– نبيل توفيق موسى حمادة « أبو عطوان » أحد العناصر البارزة بإدارة المخابرات انشق ورحل لسوريا ثم للأردن .

– أحمد أبو مطر ، مدير دار نشر الصبرة والذي انشق عن المنظمة بعد نقلها من سوريا .

– عبد الصمد عبد الحفيظ ، نائب رئيس المجلس الثوري الأسبق .

– موسى الحسيني « وكان يعرف في بعض الأحيان بموسى الحضري أو أبو مازن » .